بنجامين كارتر هِتْ

موت الديموقراطية

صعود هتلر إلى السلطة وسقوط جمهورية فايمار

ترجمة: عدي جوني



موت الديموقراطية

صعود هتلر إلى السلطة

وسقوط جمهورية فايمار

موت الديموقراطية

صعود هتلر إلى السلطة وسقوط جمهورية فايمار

تأليف: بنجامين كارتر هِتّ

ترجمة: عدي جوني

الطبعة الأولى: 2019

ISBN: 978-9933-9277-9-0

جميع الحقوق محفوظة ©copyright

تصميم الغلاف: كندة يوسف

العنوان الأصلي للكتاب:

THE DEATH OF DEMOCRACY:

Hitler's Rise to Power and the Downfall of the Weimar Republic

By: Benjamin Carter Hett

Cobyright© 2018 by Benjamin Carter Hett

Published by arrangement with Henry Holt and Company, New York



اللاذقية، سوريا، هاتف: 2400126/7 (41)963+

البريد الالكتروني: info@darfawasel.com

يمكنكم زيارتنا عبر موقعنا الالكتروني

www.darfawasel.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله، على أي نحو أو بأيّ طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة الناشر على هذا كتابة ومقدما.

بنجامين كارتر هِتّ

موت الديموقراطية

صعود هتلر إلى السلطة وسقوط جمهورية فايمار

ترجمة: عدي جوني

إلى كل من يناضل من أجل الحرية

وحقوق الإنسان والديموقراطية والسلام والتسامح.

فَيُجِيبُ الْمَلِكُ وَيَقُولُ لَهُمْ: الْحَقَّ أقولُ لَكُم: بِمَا أَنَّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ، فَبِي فَعَلْتُمْ.

متّى: الإصحاح 25: 40

المحتوى



مسرد الشخصيات

الأمير ماكس فون بادن (Prince Max von Baden) (1867ـ1929): أمير دوقية بادن الكبرى ومستشار ألمانيا في تشرين الأول/أكتوبر، تشرين الثاني /نوفمبر عام 1918.

ماكس باور (Max Bauer) (1869ـ1929): عقيد ركن في سلاح المدفعية قبل الحرب العالمية الأولى وأثناءها. عمل مستشاراً للشؤون السياسية والاقتصادية للجنرال إيريك لودندورف. هو أول من ابتدع رواية "الطعن في الظهر" مطلع العام 1919.

هربرت فون بوزِه (Herbert von Bose) (1893ـ1934): ضابط استخبارات وناشط من التيار اليميني المحافظ. عمل سكرتيراً إعلامياً لنائب المستشار الألماني بابن خلال عامي 1934ـ1933.

أوتو براون (Otto Braun) (1872ـ1955): سياسي من الحزب الديمقراطي الاشتراكي الاجتماعي. تقلّد منصب رئيس وزراء مقاطعة بروسيا عدة مرات من عام 1920 إلى 1932، وحتى مطلع عام 1933 لكن بصلاحيات مقيدة.

أرستيد بريان (Aristide Briand) (1862ـ1932): سياسي فرنسي، تولى منصب رئيس الوزراء أكثر من مرة، ومنصب وزير الخارجية من عام 1925 إلى 1932. عمل خلالها مع نظيره الألماني غوستاف شتريزيمان لتحقيق السلام والمصالحة بين بلديهما.

هاينريش برونـنغ (Heinrich Brüning) (1885_1970): أحد زعماء حزب الوسط الكاثوليكي، وواحد من أهم رجالات الدولة. تولى منصب مستشار ألمانيا من آذار/مارس عام 1930 إلى أيار/ مايو 1932.

رودولف دايلز (Rudolf Diels) (1900_1957): موظف حكومي بروسي جُنِّدَ لمصلحة شعبة الشرطة في وزارة الداخلية بحكومة مقاطعة بروسيا عام 1931، لإعداد تقارير حول العنف الشيوعي. بدَّلَ تحالفاته عام 1932 وانضم أولاً إلى بابن، ومن ثم إلى النازيين. عُيِّنَ قائداً للشرطة السرية البروسية التي تحولت عام 1933 إلى ما يعرف باسم "الغستابو" الشرطة السرية النازية، قبل أن يُطرد منها في ربيع عام 1934.

فريدريك إيبرت (Friedrich Ebert) (1871_1925): زعيم الحزب الديموقراطي الاجتماعي في ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى. ترأس الحكومة في أعقاب ثورة 1918 "ثورة تشرين الثاني/ نوفمبر"، وتولى منصب الرئيس من عام 1919 وحتى 1925.

أندريه فرنسوا- بونسيه (André François_Poncet) (1887_1978): السفير الفرنسي في ألمانيا ما بين عامي 1931 و1938.

فيلهلم فريك (Wilhelm Frick) (1877_1946): أحد أوائل الناشطين النازيين، ووزير الداخلية في حكومة هتلر عامي 1933 و1934.

جوزيف غوبلز (Joseph Goebbels) (1896_1945): ترأس فرع الحزب النازي في برلين من عام 1925 إلى 1945. مدير الدعاية والإعلام في الحزب النازي منذ العام 1930، ووزير التوعية الشعبية والدعاية منذ عام 1933. كان يمتلك موهبة فريدة في مجال الدعاية، وهو من أكثر المقربين إلى هتلر ذكاءً. يقال إن هتلر وجد فيه الشخص الوحيد الذي يحفز إلى الحديث.

هيرمان غورينغ (Hermann Goring) (1893_1946): أحد أوائل المناصرين لهتلر وأفراد دائرته الضيقة. كان رئيساً للبرلمان عام 1932،

ووزيـراً بـلا حقيبـة في حكومـة هتلـر، ووزيـراً للداخليـة في حكومـة مقاطعـة بروسـيا عـام 1933.

فيلهلـم غرونـر (Wilhelm Groener) (1893ـ1946): ضابـط ركـن في الجيـش الألمانـي خـلال الحـرب العالميـة الأولى، ومـن الداعمـين لكـورت فـون شلايشـر. تسلم منصب رئيس إدارة الإمداد والتموين للقوات المسلحة خلفاً للجنـرال إيريـك لودنـدورف. تـولى وزارة الدفـاع بـين عامـي 1928 و1932، ووزارة الداخليـة عامـي 1931 و1932.

فرانتـس غورتنـر (Franz Gürtner) (1881ـ1941): سياسـي مـن مقاطعـة بافاريا مـن حـزب الشـعب الوطـني. كان وزيـراً للعـدل في حكومتي بابن وشلايشـر مـن عـام 1932 إلى 1933، ومـن ثـم في حكومـة هتلـر حتـى عـام 1941.

كـورت فـون هامرشـتاين-إيكورد (Kurt von Hammerstein_Equord) (1878ـ1943): كان قائـداً في الجيـش خـلال الفـترة بـين عامـي 1930 و1934، ومناهضـا للنازيـة. طُـرد في نهايـة المطـاف مـن مناصبـه القياديـة.

كونـراد هايـدن (Konrad Heiden) (1901ـ1966): صحافـي مـن الحـزب الديموقراطـي الاجتماعـي، فـرَّ إلى فرنسـا، وبعدهـا إلى الولايـات المتحـدة بعـد عـام 1933، وكتـب أول سـيرة ذاتيـة مهمـة لهتلـر.

وولـف هاينريـش كونـت هيلـدورف (Wolf_Heinrich Count von Hell-dorff) (1896ـ1944): سـليل أسـرة أرسـتقراطية مـن مقاطعـة ساكسـونيا، وقائـد ميليشـيا الحـزب النـازي "قـوات العاصفـة" في برلـين عـام 1931. كان قائـداً للشـرطة في بوتسـدام مـن عـام 1933 إلى 1935، وفي برلـين مـن عـام 1935 إلى 1944. انضـم إلى المعارضـة عـام 1938، وأُعْدِمَ بعد فشـل ما عُـرِفَ باسـم "مؤامـرة فالكيري" لاغتيـال هتلـر.

هاينريـش هيملـر (Heinrich Himmler) (1900ـ1945): قائـد قـوات كتائـب الحمايـة "SS" الـتي أُنشـئت عـام 1929 كوحـدة صغيرة ضمـن قـوات

العاصفة لحماية هتلر، ثم تحولت إلى مصاف قوات النخبة في الجيش النازي، وضمت جميع وحدات الشرطة والأجهزة الأمنية، وبعض وحدات من القوات المسلحة، وبعض المؤسسات الاقتصادية المهمة.

أوسكار فون هيندنبورغ (Oskar von Hindenburg) (1883_1960): ضابط في الجيش وابن المارشال بول فون هيندنبورغ. كان رفيق السلاح لكورت فون شلايشر وصديقاً له، وأكثر المستشارين تأثيراً على والده الذي تولى منصب الرئيس الألماني خلال السنوات الأخيرة لجمهورية فايمار. ونظراً لمحدودية ذكاءه وتعليمه، كان يُعرف بين المطلعين على أسرار الدولة بـ "الابن الذي لم يتوقعه الدستور".

باول فون هيندنبورغ (Paul von Hindenburg) (1847_1934): ضابط في الجيش القيصري الألماني، تقاعد عام 1911، لكنه أعيد إلى الخدمة مع اندلاع الحرب العالمية الأولى. يُنسب إليه الفضل في تحقيق النصر في معركة تانينبيرغ عام 1914 التي أنقذت بروسيا الشرقية من الغزو الروسي. كان قائداً عاماً للجيش من عام 1916 إلى 1919. انتُخبَ رئيساً للرايخ الألماني مرتين الأولى عام 1925، والثانية عام 1932. وهو من عَيَّن هتلر مستشاراً لألمانيا في كانون الثاني/ يناير 1933.

أدولف هتلر (Adolf Hitler) (1889_1945): زعيم حزب العمال القومي الاشتراكي (الحزب النازي) من عام 1920 إلى 1945. قاد محاولة انقلاب البيرة الفاشلة في ميونيخ عام 1923. له كتاب بعنوان **كفاحي**، وتولى منصب مستشار ألمانيا و"القائد الفوهرر" من عام 1934 إلى 1945.

ألفريد هوغنبيرغ (Alfred Hugenberg) (1865_1951): صناعي، ومالك للعديد من المؤسسات الإعلامية، وزعيم الجناح اليميني في حزب الشعب القومي. تسلم منصباً وزارياً في حكومة هتلر لفترة قصيرة عام 1933.

إدغار يوليوس يونغ (Edgar Julius Jung) (1894_1934): مثقف وناشط

سياسي من الجناح اليميني المحافظ، يُعرف بانتقاداته للديموقراطية. وكان كاتب خطابات فرانتس فون بابن عامي 1933 و1934، وناشطاً في الأنشطة المعارضة لهتلر داخل مكتب بابن الذي كان يشغل منصب نائب المستشار.

إيريك لودندورف (Erich Ludendorff) (1865–1937): رئيس إدارة الإمداد والتموين في الجيش الألماني من عام 1916 إلى 1918، وأحد مهندسي دعاية "الطعن في الظهر"، وأهم منظري "الحرب الشاملة" وما تعنيه "للدولة الاستبدادية".

كارل ماير (Karl Mayr) (1883–1945): ضابط ركن، والقائد المباشر لهتلر عام 1919. هو من أمر هتلر بالانخراط في صفوف الحزب النازي للتجسس عليه.

أوتو مايسنر (Otto Meissner) (1880–1953): وزير دولة في مكتب الرئيس، في عهد كل من فريدريك إيبرت، وبول فون هيندنبورغ، وهتلر.

هيرمان مولر (Hermann Müller) (1876–1931): سياسي من الحزب الديموقراطي الاجتماعي، ومستشار ألمانيا عام 1920، وبين عامي 1928 و1930، عندما تزعّم "الائتلاف الكبير" الذي شكل آخر الحكومات البرلمانية في جمهورية فايمار.

أويغن أوت (Eugen Ott) (1889–1977): ضابط ركن في وزارة الدفاع في عهد شلايشر. أعَدَّ أواخر عام 1932 تقريراً تحدث فيه عن احتمال هزيمة الجيش أمام انتفاضة مشتركة للشيوعيين والنازيين بالتعاون مع غزو خارجي.

فرانتس فون بابن (Franz von Papen) (1879–1969): ضابط في الجيش الألماني قبل الحرب العالمية الأولى وإبانها، وسياسي من الحزب الوسط. مستشار ألمانيا عام 1932، ونائب المستشار في عهد هتلر عامي 1933 و1934. خدم سفيراً لبلاده في النمسا وتركيا إلى العام 1945.

إرنست روم (Ernst Rohm) (1887-1934): ضابط في الجيش وأحد أصدقاء هتلر ومن أوائل مناصريه. قائد قوات العاصفة من عام 1930 وإلى 1934.

ألفريد روزنبيرغ (Alfred Rosenberg) (1893-1946): مهاجر ألماني من أستونيا. من أوائل الناشطين في الحزب النازي، وكان يُعرف باسم "فيلسوف النازيين". مؤلف كتاب **أسطورة القرن العشرين**، ورئيس تحرير صحيفة **الراصد الشعبي** الناطقة بلسان الحزب النازي.

كورت فون شلايشر (Kurt von Schleicher) (1882-1934): ضابط في الجيش، ورئيس مكتب ارتباط الجيش مع الحكومة منذ عام 1928، ومن المستشارين النافذين لدى الرئيس باول فون هيندنبورغ. وزير الدفاع ومستشار ألمانيا من كانون الأول/ ديسمبر 1932 وإلى كانون الثاني/ يناير 1933.

كارل شميت (Carl Schmitt) (1888-1985): فقيه قانوني، ومُنظّر سياسي من الجناح اليميني. عمل مستشاراً لشلايشر وبابن، وكان يُعرف بلقب "فقيه التاج" للرايخ الثالث.

كارل سيفيرينغ (Carl Severing) (1875-1952): سياسي من الحزب الديموقراطي الاجتماعي. وزير داخلية في حكومة مقاطعة بروسيا خلال عامي 1920 و1926، ووزير داخلية في حكومة الرايخ من عام 1928 إلى 1930.

غريغور شتراسر (Gregor Strasser) (1892-1934): أحد ناشطي ومؤسسي الحزب النازي، واستراتيجي سياسي انشقّ عن هتلر في كانون الأول/ ديسمبر عام 1932.

غوستاف شتريزيمان (Gustav Stresemann) (1878-1929): زعيم حزب الشعب القومي، ومستشار ألمانيا عام 1923، كان واحداً من أعظم

رجـالات الدولـة في جمهوريـة فايمـار. وزيـر الخارجيـة مـن عـام 1923 إلى 1929. عمل مع نظيره الفرنسـي أريسـتيد بريان على إعادة ألمانيا إلى أوروبا والمجتمـع الـدولي.

فريتـس غونتـر فـون تشيرشـكي (Fritz Günther von Tschirschky) (1900_1980): سـليل أسـرة ارسـتقراطية مـن مقاطعـة سـيليزيا. كان معاونـاً ومستشـاراً لبابـن للشـؤون الاسـتخباراتية عامـي 1933 و1934، ومـن العناصـر الأساسـية المعارضـة لهتلـر داخـل مكتـب بابـن.

أهم الأحزاب السياسية في جمهورية فايمار

مرتبة حسب انتمائها السياسي من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين:

حزب ألمانيا الشيوعي:

كان عموماً حزب العاطلين من العمل، والعمال غير المهرة والفقراء، ويتمتع بشعبية كبيرة في المدن الكبرى، مثل برلين وهامبورغ، ويخضع لسلطة الشيوعية الدولية لنظام جوزيف ستالين في الاتحاد السوفياتي. كرَّسَ نفسه لقلب النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي.

حزب ألمانيا الديموقراطي الاجتماعي المستقل:

جناح انفصل عن الحزب الديموقراطي الاجتماعي في أثناء الحرب العالمية الأولى، احتجاجاً على تأييد وتمويل المجهود الحربي. تركزت قاعدته الشعبية في صفوف العمال الراديكاليين، والمثقفين اليساريين. عاد معظم أعضائه بعد العام 1922 إمّا إلى الحزب الأم، وإمّا إلى الحزب الشيوعي، فتحول إلى حزب هامشي على الساحة السياسية.

حزب ألمانيا الديموقراطي الاجتماعي:

تأسس عام 1875 وهو أقدم حزب ناشط في ألمانيا. وصل إلى السلطة من خلال ثورة 1918، وكان أكثر الأحزاب التزاماً بالجمهورية الديموقراطية، على الرغم من أنه بعد العام 1920، لم يشارك كثيراً في

الحكم. تتركز قاعدته الشعبية في أوساط العمال المهرة المنضوين في إطار النقابات العمالية. وفي الفترة ما بين 1912 و1932 كان أكثر الأحزاب السياسية في ألمانيا من حيث عدد أعضائه وعدد نوابه في البرلمان.

الحزب الديموقراطي الألماني:

نشأ على يد ليبرالي ما قبل الحرب العالمية الأولى. كان ملتزماً بالديموقراطية والحريات العامة، كان يمثل المثقفين والمهنيين المستقلين، وصغار رجال الأعمال. حقق نجاحاً كبيراً في أول انتخابات أُجريت في فايمار عام 1919، لكنه سرعان ما خسر التأييد الشعبي بعد ذلك. انتقل عام 1930 إلى اليمين، وبدّل اسمه إلى "حزب الدولة"، ليتحول إلى حزب هامشي حيث حقق 1٪ فقط من الأصوات في أخر انتخابات له.

حزب الوسط:

يمثل أغلبية الألمان الكاثوليك، وينتمي فكرياً إلى الاعتدال السياسي، ويُعتبر حزباً أساسياً في جمهورية فايمار. شارك في كل التشكيلات الحكومية حتى عام 1932، وقدم معظم من شغلوا منصب المستشار. كان حزباً ملتزماً الديموقراطية. انتقل إلى اليمين السياسي في السنوات الأخيرة من حياة جمهورية فايمار.

حزب الشعب البافاري:

الحزب الشقيق لحزب الوسط، ويمثل الألمان الكاثوليك في مقاطعة بافاريا التي كانت تسعى تاريخياً لاستقلال ذاتي أكبر في إطار ألمانيا. وعلى هذا الأساس كان حزب الشعب البافاري مهتماً بالفيدرالية، ومحافظاً بشكل أكبر من حزب الوسط. ساند بول فون هيندنبورغ في الانتخابات الرئاسية عام 1925 ضد مرشح حزب الوسط فيلهلِم ماركس.

حزب الشعب الألماني:

حزب ليبرالي يميني يتمتع بقاعدة شعبية عريضة، وتحديداً في أوساط

كبار رجال الأعمال، ويحتل أهمية كبيرة في المشهد السياسي، بفضل زعيمه غوستاف شتريزيمان الذي كان يُعد واحداً من رجال الدولة الروّاد في جمهورية فايمار، تولى منصب مستشار ألمانيا عام 1923 ووزير الخارجية من عام 1923 إلى 1929.

حزب الشعب القومي الألماني:

تأسس عام 1918 من اندماج مجموعة من التيار المحافظ ما قبل الحرب العالمية الأولى، والمحافظين الأحرار، وعدد من الأحزاب المعادية للسامية، فكان حزباً يمينياً يمثل الإقطاعيين الارستقراطيين، وضباطاً في الجيش، وموظفين كباراً في المؤسسات الحكومية وبعض قطاعات رجال الأعمال. عانى الحزب في العشرينيات انقساماً حول قبول الجمهورية، لكن وبعد تسلم ألفريد هوغنبيرغ قيادة الحزب عام 1928، تحول إلى صفوف المعارضة.

حزب عمال ألمانيا القومي الاشتراكي (النازي):

نشأ من حزب عمال ألمانيا الذي شُكل عام 1919، وكان حزباً هامشياً حتى أواخر العشرينيات، عندما بدأ يكسب أول الأمر تأييداً كبيراً في المناطق الريفية ذات الغالبية البروتستانتية. عندما تسلم أدولف هتلر زعامة الحزب عام 1920، أضاف عبارة "القومي الاشتراكي" على اسم الحزب. ومن يوليو/ تموز 1932، أصبح أكبر الأحزاب السياسية في ألمانيا، والحزب الشرعي الوحيد، اعتباراً من يوليو/ تموز 1933 وإلى نهاية الحرب العالمية الثانية.



مقدمة المترجم

لا شك أن كتباً كثيرة تناولت ظاهرة النازية ومآلاتها الكارثية، ليس على ألمانيا وحسب، بل على العالم أجمع. واتسعت دائرة البحث في هذه الظاهرة، تحليلاً وتمحيصاً، لتبلغ في حجمها واتساعها حداً أضحت معه ظاهرة النازية تاريخاً يفيض على زمنه كما تفيض كأس أُترعت بالماء، دون أن يعني ذلك أن كل ما كُتب ونُشر يقف على سوية واحدة، قياساً على المعيار العلمي الموضوعي. غير أن هذا الكتاب، ومن بين عدة أشياء أخرى، يختلف بميزتين على الأقل، واحدة على مستوى الشكل، وأخرى على مستوى المضمون.

على مستوى الشكل أولاً، تجنب د. هتّ -الأكاديمي المتخصص في التاريخ السياسي الألماني- الصرامة الأكاديمية المعهودة في لغتها الاصطلاحية التي عادة ما تستعصي على القارئ غير المتخصص، مقترباً من اللغة الوسطى التي تستخدمها وسائل الإعلام، دون أن يسيء إلى أهمية المادة العلمية. وينسحب الأمر على السرد التاريخي الذي اعتمد على أسلوب الحكاية، من خلال مشهد درامي يتصدر كل فصل من فصول الكتاب، مستعيناً بالأرشيف الصحفي الذي واكب تلك المرحلة، إضافةً إلى مذكرات العديد من الشخصيات الألمانية والأوروبية، وذكريات ومراسلات أفراد عاديين عايشوا تلك الأحداث إما مشاركةً في صنعها وإمّا مراقبةً لها، وإمّا تأثراً بها. هذه المشهدية الدرامية لبعض الأحداث المهمة -كحريق البرلمان الألماني

على سبيل المثال- تقدم للقارئ سرداً مُتخيلاً عن الحدث بصفته واقعةً في إطارها الزمني ترتبط سببياً بما قبل وما بعد، لتشكل في مجموعها الظاهرة التاريخية التي ليست، في نهاية المطاف، سوى مجموعة تفاصيلٍ (عادة ما تكمن فيها شياطين التفسير) تتجمع في إطار التدفق الزمني، كما تتجمع قطرات نبع في خضم نهر كبير. ومن هذه المشهدية الدرامية، يعود الكاتب إلى ما وراء الكواليس ليشرح الحدث، وليخوض في الخلفية التي يستند عليها المشهد برمته. يشبه الأمر إلى حد ما إعادة تمثيل التاريخ، ومحاولة تحليل بعض النقاط الغامضة لاستكمال وضوح المشهد، دون أن يعني ذلك صحة هذا التحليل قطعياً بصفته التفسير الأصح والأوحد، لكنه يقدم نموذجاً جيداً بأسلوب روائي (بالمعنى الأدبي الدقيق لهذه الكلمة) يربط بين الزمن الفردي الخاص، لشخصية ما أو عدة شخصيات، وبين الزمن العام بمفهومه التاريخي التقليدي، ليشكل بذلك صورةً بانوراميةً متكاملةً سُجِّلت تفاصيلُها بعين السمكة أفقياً من جهة، وبعين النسر عمودياً من جهة أخرى. وهنا يبرز الدور المهم للوثيقة الأرشيفية في تدعيم المعلومة بشاهد من العصر أولاً، كما هو الحال مع الحملات الإعلانية لانتخابات عام 1930 التي تكشف العقلية السياسية السائدة في حينه، وأسلوب التعاطي مع الآخر في الضفة الأخرى. ويبرز دورها، ثانياً، في ما تقدمه هذه المروحة الواسعة من النماذج التأريخية من منظر عام شامل للواقع الاجتماعي والسياسي لجمهورية فايمار. يضاف إلى ذلك، الصور التي تمنح القارئ المادة البصرية الموثقة للحدث، مثل صورة الجنود عند بوابة براندنبيرغ، في برلين، في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1918.

أما على مستوى المضمون، فيكاد الكتاب يعارض العبارة الهرقليطية الشهيرة: "لا يمكن أن تسبح في النهر ذاته مرتين"، لينحو صوب ترسيخ مقولة أن التاريخ في الواقع يكرر نفسه، ولكن بأشكال وأوجه مختلفة. فالديموقراطيات الكبرى في التاريخ الإنساني، وضمن ظروفها التاريخية والجغرافية، لم تشكل ضمانةً بعدم نشوء الديكتاتوريات، بل على العكس

تماماً نجد أن أنظمة ديموقراطية متعددة أسهمت في إنتاج أبشع الأنظمة الديكتاتورية، مثل نظام هتلر النازي الذي وجد نفسه في السلطة، بفضل النظام الانتخابي القائم على تعدد الأحزاب وحرية التصويت والنظام البرلماني الدستوري. ويشير الكاتب بوضوح، في كثير من فقرات الكتاب إلى الكيفية التي ساهمت بها المصالح الفردية الخاصة والطباع الشخصية في صنع نظام سياسي كان وراء الحرب العالمية الثانية وما خلفته من ويلات على البشرية بأسرها. وليس ذلك وحسب، بل تكاد سطور الكتاب تصرخ بأعلى صوتها إن الإنسان لم يتعلم من دروس جمهورية فايمار، وراح يكررها في أماكن أخرى تفتخر بأنها مثال للديموقراطية، لا يتسع المكان لذكرها هنا الآن. لكن نظرة سريعة على ما يجري في عالمنا المعاصر كافية لإيصال الرسالة إلى من أراد حقاً أن يفهمها.

من يقرأ تفاصيل هذا الكتاب، لن يساوره أدنى شك بأن النازيين وصلوا إلى السلطة بطريقة شرعية وقانونية حتى باعتراف خصومهم، بغض النظر عن الخوض في أخلاقية التكتيكات الانتخابي، لذلك فإن من أهم الأسئلة التي يطرحها د. هِت في كتابه من وراء السطور: هل يمكن للديموقراطية والشرعية الدستورية أن تستولد أبشع أنواع الأنظمة الاستبدادية وأكثرها توحشاً؟ فمن انتخب هتلر غير الشعب الألماني؟ مَن غيرُ الشعب الألماني صدّق بنعم على الاستفتاء على الدستور الذي سخَّرَهُ هتلر للتحكم بالسلطة وتمكين النفوذ، وصولاً إلى حرب مدمرة خلفت ملايين القتلى والمهجرين؟ إذن، هل فشلت الديموقراطية لأنها كأي نظام سياسي تحمل في تناقضاتها بذور موتها؟

بكل بساطة، ما يقدمه د. هِت في هذا الكتاب ليس درساً عن التاريخ، بل هو درسٌ من التاريخ يمكن تعميمه نموذجاً، الآن ومستقبلاً، يضع الإنسان أمام المثل العربي المعروف: "يداك أوكتا وفوك نفخ". فما أشبه اليوم بالأمس، باستثناء زيادة حدة الجنون البشري واستفحال غروره وتضخم

ذاته! ألا ترى عزيزي القارئ كيف أن المناخ العام لعالمنا، الذي يقترب من نهاية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، لا يختلف كثيراً عما كانت عليه ثلاثينيات القرن الماضي: توترٌ في العلاقات الدولية، وتنافسٌ محموم للسيطرة على موارد الطاقة والثروات، عولمةُ حركة رأس المال باسم الديموقراطية والليبرالية أحياناً، ولو عن طريق القوة، تسطيح ثقافي وأخلاقي عبر آلة إعلام ودعاية تسوِّقُ الجنس، والتطرف الديني، والتمرد على كل شيء، كلها صواعق تفجير تنتظر هتلراً جديداً يفكك صمام أمانها، لتنطلق ماكينة القتل التي تضاعفت قوتها التدميرية مئات المرات عما كانت عليه إبان الحرب العالمية الثانية. والإنسانية هي من يدفع مجدداً ثمن جنون عظمة مرضي، أو خبث سياسي مدفوع بمصالح ذاتية، مروراً بغباء وتهاون فرد ما لم يسمح لعينيه أن تكتشفا الحقيقة، ليسارع بعدها إلى الندب والنواح، ولكن بعد فوات الأوان. ويكفي أن أقتبس من خاتمة الكتاب ما يخدم هذا المعنى، حيث يقول د. هتْ: **"لكن براءتهم خذلتهم، وكانوا مخطئين على نحو كارثي بشأن مستقبلهم. نحن من أتينا بعدهم، لدينا أفضلية واحدة تميزنا عنهم: لدينا مثالهم الواضح أمام أعيننا".**

أما في ما يتعلق بالترجمة، فقد حرصت أشد الحرص على أن أنقل روح أسلوب الكاتب ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، بما في ذلك بعض العبارات العامية الدارجة في اللهجة الأميركية التي تخلو العربية من معادل ثقافي لها، الأمر الذي ساقني اضطراراً لتبني تقنية الترجمة الوظيفية التي يعيب عليها المشتغلون في هذا المجال نقيصة البعد عن الروح الثقافية للنص الأصلي، وقتل اللمسة الأسلوبية للمؤلف على يد التبسيط المباشر. أما ما اعتمدته من تقنية وظيفية في ترجمة مواضع أخرى من الكتاب، غير ما ذكرته آنفاً، فقد كان خياراً أسلوبياً محضاً توخيت منه اللمسة الجمالية في اللغة المستهدفة دون المس بالمعنى، وأرجو أن أكون قد وُفقت في ذلك.

عدي جوني

مقدمة

عند الساعة التاسعة وبضعة دقائق من مساء شتوي قارس في برلين، بدأت البوادر الأولى لحدث ما. إذْ وبينما كان هانز فلوتر، وهو طالب يدرس علم اللاهوت، عائداً من دراسته المسائية في المكتبة العامة في أونتر دين ليندن، سمع وهو يعبر الساحة العامة أمام مبنى الرايخستاغ (البرلمان) الضخم صوت تحطم زجاج إحدى النوافذ. سارع فلوتر إلى إبلاغ الشرطي كارل بوفيرت الذي كان يقوم بنوبة الحراسة أمام المبنى. وبعد أن أدى واجبه المدني، واصل طالب اللاهوت مسيره عائداً إلى منزله. عندئذ اقترب فيرنر ثيلر منضد الحروف في جريدة الراصد الشعبي النازية من الشرطي بوفيرت الذي كان ينظر عبر زجاج نافذة في الطابق الأول. وهناك اعتقد الاثنان أنهما شاهدا أحداً يحمل مشعلاً. أطلق بوفيرت النار من مسدسه، ولكن دون جدوى.

ثم انهالت الأنباء المقلقة. شابٌ يرتدي حذاءً عسكرياً ومعطفاً أسود اللون يصل إلى قسم الشرطة في بوابة براندنبيرغ تمام الساعة التاسعة والربع ويبلغ عن حريق في مبنى الرايخستاغ. حرص رجال الشرطة على تدوين فحوى البلاغ وتوقيته، لكن الإرباك الذي أحدثه النبأ جعلهم ينسون تدوين اسم صاحب البلاغ الذي لا تزال هويته مجهولة حتى اليوم. وخلال دقائق معدوداتٍ كان وميض ألسنة اللهب يُشاهد بوضوح عبر القبة الزجاجية التي كانت تظلل القاعة العمومية للبرلمان. وعند الساعة التاسعة وسبع وعشرين دقيقة، انفجرت القاعة، ووجد رجال الإطفاء والشرطة أنفسهم يواجهون ناراً مدمرة في قلب الرايخستاغ.

قبل ذلك بدقيقتين، ألقت الشرطة القبض على شاب غريب يتسلل في ممر قرب القاعة المحترقة. وأظهرت الأوراق التي كانت بحوزته أنه يدعى مارينوس فان دير لوبيه، عامل بناء من مدينة لايدن الهولندية ويبلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً. واعترف الشاب، بكل سرور، أنه هو من أضرم النيران. لكن أحداً لم يصدق حينذاك أنه قام بذلك بمفرده.

اندفع رجال الإطفاء إلى العمل وراحوا يضخون المياه من نهر سبري القريب ومن مطافئ الحريق الموزعة حول المبنى ليحاصروا النيران في القاعة بخراطيمهم من كل الجهات حتى نجحوا في السيطرة على الحريق خلال خمسة وسبعين دقيقة.

وبينما كانت النيران تنتشر، وصل قادة ألمانيا إلى الرايخستاغ. كان هيرمان غورينغ، وزير الداخلية النازي في حكومة مقاطعة بروسيا أول الواصلين. ولم تمض سوى بضعة دقائق حتى وصلت سيارة مرسيدس ليموزين سوداء اللون وعلى متنها المستشار الجديد أدولف هتلر ورئيس دعايته جوزيف غوبلز. كذلك كان هناك الارستقراطي المهذب فرانتس فون بابن نائب المستشار، متأنقاً كعادته، حاضراً برزانته المعهودة. أما بالنسبة لرودولف دايلز، رئيس الشرطة الوسيم البالغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً، فقد كان في مقهى كرانزلر الفخم في أونتر دين ليندن، في موعد ليس له علاقة بالشرطة كما ذكر لاحقاً. وكما ورد على لسانه، وصل دايلز إلى المكان ليسمع تقريعاً شديد اللهجة من المستشار الجديد. وبدا واضحاً أن هتلر كان قد عرف مسبقاً من أضرم الحريق. فمن شرفة تطل على القاعة المحترقة ووجهه يعكس وهج ألسنة اللهب، أزبد المستشار وأرغى متوعداً "لا رحمةَ بعد الآن، كل شيوعي، أينما وُجد، ستُطلقُ النار عليه. يجب شنق النواب الشيوعيين هذه الليلة".

سرعان ما أصدر غورينغ بياناً رسمياً يعكس فيه رغبات هتلر. وبعد أن قدَّم وصفاً للدمار الكبير الذي لحق بمبنى البرلمان، وصف غورينغ الحريق

بأنه "من أكثر الأفعال البلشفية الإرهابية وحشيةً حتى الآن" وإشارةً لانتفاضة دمويةً وحرب أهلية".

بيد أن تفسيراً مختلفاً كلياً بدأ ينتشر بسرعة إلى جانب الرواية الرسمية. إذْ لم يكن قد حل منتصف الليل بعد عندما أبرق مراسل نمساوي في برلين يدعى فيللي فريشاور إلى جريدته فيينير ألغماينه قائلاً: "هناك شك ما بأن يكون الحريق الذي يلتهم الرايخستاغ من تدبير مأجوري حكومة هتلر". وحسب اعتقاد فريشاور، شق "المأجورون" طريقهم على الأرجح إلى الرايخستاغ عبر نفق يربط المبنى بمقر الإقامة الرسمي لرئيس الرايخستاغ الذي لم يكن يومها سوى هيرمان غورينغ نفسه.

كما هي العادة، ينقل الصحفيون أخبار الجرائم، وتقوم الحكومات بحملات الاعتقال. لكن وبينما كان رجال الإطفاء يصارعون النيران، انطلقت حملتا اعتقالات منفصلتان. إذْ بدأت شرطة برلين استناداً إلى لوائح معدة مسبقاً باعتقال شيوعيين وأنصار سلام ورجال دين ومحامين وفنانين وكتاباً، وكل شخص يُعتقد بأنه معاد للحزب النازي. كانت الشرطة تُحضِر المعتقلين إلى مقراتها في منطقة ألكساندر بلاتس وتحرر الضبوط بحقهم بطريقة رسمية وقانونية.

وبالتزامن، راحت قوات العاصفة التابعة للحزب النازي في برلين تنفذ حملة اعتقالات استناداً إلى لوائح اسمية خاصة بها، لكن دون تسجيل أسماء المعتقلين رسمياً. واقتيد المعتقلون إلى أقبية مهجورة ومستودعات، بل حتى إلى أبراج مياه حيث تعرضوا للضرب والتعذيب بطرق شتى، وقُتل العديد منهم في بعض الحالات. ولم يمض وقت طويل حتى تعرف سكان برلين على الاسم الجديد لهذه الأماكن "معسكرات الاعتقال الوحشية".

حدث ذلك يوم الاثنين الموافق للسابع والعشرين من شباط/ فبراير عام 1933 الذي يمكن وصفه بالليلة الأخيرة في حياة جمهورية فايمار والديموقراطية الألمانية.

عندما وقعت حادثة حريق الرايخستاغ، كان قد مضى أربعة أسابيع فقط على تنصيب هتلر مستشاراً للرايخ الألماني بطريقة شرعية ودستورية، بعد أن فاز حزبه في الانتخابات التي جرت مرتين في العام الذي سبق، بأكبر عدد من مقاعد البرلمان (الرايخستاغ). وفي نهاية كانون الثاني/ يناير، استدعى الرئيس الألماني، البالغ من العمر 85 عاما، المارشال الموقر بول فون هيندنبورغ، طبقاً للدستور-ولكن على مضض- هتلر لتولي منصب المستشار وتشكيل الحكومة.

وطبقاً للاتفاق بين الرجلين، احتفظ هيندنبورغ لنفسه بتسمية وزيري الدفاع والخارجية. وكان جزءاً من الاتفاق أيضاً أن يكون فرانتس فون بابن -الذي سبق أن تولى منصب المستشار لفترة قصيرة عام 1932- نائباً لهتلر. لقد كان بابن من المحسوبين على هيندنبورغ، على الرغم من كونه كاثوليكياً، وهو الأمر الذي لم يكن مصدر ارتياح للمارشال اللوثري المتشدد.

وتولت حكومة هتلر الجديدة السلطة في الثلاثين من كانون الثاني/ يناير عام 1933، مثل الإدارات التي سبقتها في جمهورية فايمار الديموقراطية، وإن كانت أكثر ميلاً إلى اليمين حتى من "حكومة البارونات" التي ترأسها بابن في العام السابق. لكن هذه الحكومة كانت لا تزال تمثل ائتلافاً تولى فيها الحقائب الرئيسية ممثلون عن مؤسسة اليمين السياسي من حزب الشعب القومي وقُدامى منظمة "الخوذة الفولاذية" المحافظة، إلى جانب مجموعة صغيرة من غير المتحزبين من المؤسسة ذاتها. وإضافةً إلى هتلر، تولى النازيون منصبين وزاريين أولهما للناشط النازي المخضرم فيلهلم فريك الذي أصبح وزيراً للداخلية. وتولى الساعد الأيمن لهتلر، هيرمان غورينغ منصب وزير بلا حقيبة. غير إن قلة قليلة من الناس تنبهت حينذاك إلى تفصيل في غاية الأهمية، ألا وهو تسلم غورينغ منصب وزير الداخلية في حكومة مقاطعة بروسيا التي كانت تشكل، من حيث المساحة وعدد السكان،

ثلاثة أخماس ألمانيا. يضاف إلى ذلك وجود خمسين ألف عنصر في شرطة المقاطعة، أي ما يعادل نصف تعداد الجيش الألماني.

بالنسبة إلى غالبية المراقبين المخضرمين، بدا الموقف السياسي لحكومة هتلر في الثلاثين من كانون الثاني/ يناير ضعيفاً. وفي الواقع، شُكلت هذه الحكومة لتكون ضعيفة. فعلى شاكلة المستشارين الثلاثة الذين سبقوه، وُضع هتلر في هذا المنصب من قبل دائرة صغيرة من الرجال النافذين الذين يستمع هيندنبورغ إلى آرائهم. كانوا يسعون لتوظيف مواهب هتلر الغوغائية والتأييد الجماهيري له لتمرير مخططاتهم، لأنهم أدركوا بأنهم وأهدافهم لا يحظون بأي فرصة للفوز بأكثر من تأييد انتخابي هزيل، ما لم يوجد شخص مثل هتلر في الواجهة. لقد ظنوا أنهم وضعوا هتلر تحت سيطرتهم، ولمَ لا؟ فهؤلاء الأشخاص من طينة نائب المستشار فرانتس فون بابن والرئيس فون هيندنبورغ، أرستقراطيون نشأوا على الزعامة، وضباطٌ في الجيش تمرسوا في السلطة والقيادة. أما هتلر فكان ذلك الابن المغمور لموظف نمساوي صغير في الجمارك لم يتلق تعليماً رسمياً، حتى إنه كان يرتكب أخطاء قواعدية في لغته الأم. وعلى مدى السنوات الأربع لخدمته في الجبهة الغربية، لم يتجاوز هتلر رتبة عريف -لأنه كما ورد على لسان أحد الضباط لاحقاً- لم يكن يمتلك الصفات القيادية التي تؤهله للترقية إلى رتبة رقيب. لذا، ونظراً إلى طبقته ورتبته والاستعلاء الألماني الشمالي، كان هيندنبورغ يطلق على هتلر باحتقار لقب "العريف البوهيمي". بالتأكيد كان هتلر قادراً على تحريك أعمال الشغب بين صفوف الطبقات الدنيا في المسيرات، أو حتى في صالات البيرة، لكنه لم يكن سيداً، ولم يكن بمقدوره على الأرجح أن يحكم.

كانت هذه النظرة محط إجماع واسع لدي الطيف السياسي الألماني حتى إن بابن، وبكل ثقة، كتب عن هتلر قائلاً: "لقد وظفناه، وخلال أشهر قليلة سندفعه بعيداً إلى الزاوية، حيث يبدأ بالصراخ والعويل". كذلك أيضاً وبعد

عدة سنوات، كتب السياسي القومي المستقل غوتفرايد تريفرانوس أن كل من كان يعرفهم توقعوا "أن يُنْهِكَ هتلر نفسه في صراع مع هيندنبورغ والجيش والدستور". فريدريك شتامبفر، رئيس تحرير جريدة **فورفارتس** التابعة للحزب الديموقراطي الاجتماعي، سأل ذات مرة مراسلاً أجنبياً إذا كان جاداً في اعتقاده بأن "الغوريلا الجامحة قادرة على الحكم؟" مضيفاً أن حكومة هتلر لن تستمر أكثر من ثلاثة أسابيع. أما النجار وصانع الأثاث الشاب ذو الميول اليسارية ماكس فورست فكان يرى أن حكومة هتلر "لن تكون أسوأ من حكومة بابن". الجدير بالذكر أن فورست كان شريك السكن للمحامي الراديكالي هانز ليتن الذي استجوب هتلر على منصة الشهود في أحد محاكم برلين قبل عامين.

الجميع كان يعرف النبرة النارية المفرطة في خطابات هتلر التي امتلأت -كما هو الحال في كتاب مذكراته **كفاحي**- بالتهديد والوعيد ضد "اليهود" و"الماركسيين". أما في ما يخص الرجال الذين ساهموا في إنشاء ديموقراطية ألمانيا الجديدة بعد توقيع هدنة 1918، فليسوا سوى "مجرمي نوفمبر" الذين خانوا عبر اتفاقية السلام الأمة الألمانية وجيشها البطل. وليس ذلك وحسب، بل كان واضحاً في حديثه عن الحاجة لشن حرب لتأمين "فضاء حي" شرقاً. وخلال السنوات الأخيرة التي سبقت وصوله للحكم زادت حركته من أعمال العنف الوحشية ضد خصومها، حتى إنه شخصياً هَدَّدَ بالمزيد عند تسلمه السلطة بقوله "ستتدحرج رؤوس على الرمال". جرى ذلك عندما كان يشهد تحت القَسَم في محكمة عُقدت عام 1930 للنظر في قضية أعمال شغب تورط فيها ثلاثة ضباط في الجيش كانوا أيضاً ناشطين في الحزب النازي.

على أي حال، عادة ما تجعل السلطة في الحياة السياسية القادة الراديكاليين يتصرفون بعقلانية. أليس كذلك؟ ففي عام 1933، وبعد خمسة عشرة عاماً من المسؤولية السياسية، كان الديموقراطيون الاجتماعيون في

ألمانيا مجرد ظل باهت لنسختهم الثورية التي عُرفوا بها قبل عام 1914. فقد تراجع حجم التأييد الشعبي بشكل كبير من 39٪ من أصوات الناخبين في انتخابات 1919 إلى 20٪ فقط في انتخابات 1932. حينذاك ظن الرئيس هيندنبورغ والدائرة اللصيقة به أن جلب النازيين إلى السلطة سيودي بهم إلى نفس المصير تماماً الذي لاقاه الحزب الديموقراطي الاجتماعي. وكان هذا الرأي سائداً لدى العديد من الألمان مطلع العام 1933. لذلك فوجئ أحد المراقبين المطلعين على بواطن الأمور يومها بالنبرة المعتدلة للخطاب الأول الذي ألقاه هتلر متسائلاً "إن كان هتلر المستشار بات يفكر بطريقة تختلف عن هتلر صائد الأصوات؟".

غير أن الأسابيع الأولى لتولي هتلر منصب المستشار أثارت مشاعر القلق على نحو يفوق ما بدر من حكومة بابن. فقد تزايدت أعمال العنف، وعلى وجه التحديد من جانب قوات العاصفة التي جندت الحكومة عدداً كبيراً من أفرادها في صفوف الشرطة. كذلك أُغلقت صحف المعارضة، ومُنعت النشاطات السياسية، وبدا واضحاً بشكل متزايد أنه بات من الصعب لأي جماعة سياسية القيام بأي حملة لها. وبعد ذلك جاء حريق الرايخستاغ كنقطة تحول غيرت مسار الأحداث كلياً.

عقدت حكومة هتلر اجتماعها عند الساعة الحادية عشرة صباحاً بعد الحريق. قدم فيه وزير الداخلية فريك نصاً يحمل عنوان "مرسوم رئيس الرايخ فون هيندنبورغ لحماية الشعب والدولة" الذي عُرف دائماً في ما بعد بشكل غير رسمي بـ" مرسوم حريق الرايخستاغ".

لقد عبر هذا المرسوم عن نظرية هتلر التي اعتبرت الحريق بداية انتفاضة شيوعية، وأن الدولة تحتاج لصلاحيات الطوارئ للدفاع عن نفسها. وعلى هذا الأساس عَلقّ المرسوم الحريات العامة الواردة في الدستور الألماني، وشرعّ عقوبة السجن دون محاكمة لأي شخص يعتبره النظام تهديداً سياسياً. كما ألغى حرية التعبير والتجمع والنقابات، وسرية

البريد والاتصالات البرقية، والحصانة من عمليات الدهم والتفتيش دون مذكرات قضائية. كذلك منح المرسوم حكومة الرايخ سلطة تغيير أي إدارة فيدرالية في حال "عدم اتخاذها الإجراءات اللازمة لإعادة الأمن والنظام". وأقرت الحكومة نص المرسوم الذي وقعه هيندنبورغ في وقت لاحق من ذلك اليوم ليصبح قانوناً نافذاً.

وكما ورد على لسان العالم القانوني المرموق إرنست فرانكيل، كان المرسوم "الميثاق الدستوري" لرايخ هتلر، والأساس القانوني لجميع الاعتقالات وحملات الترحيل، ومعسكرات الاعتقال والشرطة السرية (الغستابو) السيئة الصيت. كما فسح المرسوم بشكل فعال، المجال أمام النازيين لإلغاء النظام الفيدرالي وتوسيع حكمهم على جميع مقاطعات الاتحاد. لذلك كان حريق الرايخستاغ عام 1933، بالنسبة إلى غالبية الألمان الذين عاصروه، نقطة تحول في غاية الأهمية.

ولعل أصدق ما يعبر عن ذلك تلك الكلمات التي اختتم بها المراسل البرليني المحنك فالتر كيالوهين كتاباً وضعه بعد الحرب يرثي فيه مدينته قائلاً: "في البدء كان حريق الرايخستاغ، لتمتد النيران بعده إلى الكتب والكنيس ومن ثم إلى ألمانيا كلها وانكلترا وفرنسا وروسيا ...".

كيف حدث ذلك؟

هذا واحد من الأسئلة الكبرى في تاريخ البشرية بأكمله. فنحن نعلم جيداً العواقب التي تمخضت عن صعود هتلر إلى منصب المستشارية: حربٌ مدمرة لم يعرف لها العالم مثيلاً من قبل مصحوبةً بحملة قتل جماعية كاسحة، غير مسبوقة، لم يجد الفقيه القانوني رافاييل ليمكين سبيلاً لتوصيفها سوى عبر نحت مصطلح جديد "الإبادة الجماعية".

إن الإجابة عن سؤال كيف أمكن أن يحدث ذلك يتحدد بقوة خاصة مؤلمة، استناداً إلى الخلفية التي نشأ منها هتلر والنازية: ألمانيا في ظل جمهورية فايمار. هنا، بالتأكيد، كانت إلى حد ما، قمة الحضارة

الإنسانية. فقد أسس دستور 1919 لجمهورية فايمار ديموقراطية حديثة متطورة، مع نظام انتخابي نسبي مُعد بعناية فائقة، وحماية للحريات والحقوق الفردية، بما في ذلك وبشكل صريح، المساواة بين الرجل والمرأة. كذلك ناضل الناشطون السياسيون والاجتماعيون بنجاح ملحوظ من أجل مزيد من الحقوق. فقد كانت ألمانيا مركزاً لأبرز حركة مدافعة عن حقوق المثليين في العالم، وموطناً لحركة نسوية ناشطة، كانت تسعى، بعد الفوز بحق التصويت للمرأة، نحو المناداة بحق الإجهاض. وحققت الحملات المناهضة لعقوبة الإعدام نجاحاً كبيراً، إلى حد لم تُطبق معه فعلياً تلك العقوبة في ألمانيا . ومع بداية الجمهورية، نال العمال حق العمل ثماني ساعات يومياً بأجر كامل. كما راح اليهود يفدون إلى ألمانيا ، قادمين من روسيا وبولندا بسبب تسامحها وانفتاحها .

لم تكن الريادة العالمية لألمانيا تقتصر على السياسة والحراك الاجتماعي. فها هو بابلو بيكاسو يخبر صديقاً له قبل العام 1918 أنه لو كان لديه ابنٌ يهوى الرسم لأرسله إلى ميونيخ، وليس إلى باريس ليتعلم الفن. وفي ذلك الحين، كان فنانو ألمانيا من المدرسة التعبيرية والواقعية الجديدة، مثل إرنست لودفيغ كيرشنر وإيميل نولده وجورج كروتز وأوتو ديكس، يقدمون واحداً من أروع النماذج الفنية وأكثرها إشكاليةً لذلك العصر. وينسحب الأمر نفسه على كلية الهندسة التي خرّجت عدداً من المهندسين المعماريين والمصممين الذين لا تزال أفكارهم مؤثرة في هذا المجال حتى يومنا هذا. وإذا كنت مهتماً بالموسيقا ، لم يكن لأي بلد أن يضاهي أوركسترات ألمانيا وفرقها وعازفيها المنفردين. وفي هذا المجال أيضاً كانت ألمانيا تصنع المستقبل، سواء عبر الأعمال الكلاسيكية الصعبة لريتشارد شتراوس وباول هيندر ميث، أو الأعمال الحداثية الهجينة لبرتولد بريخت وكورت فايل. أما في قطاع السينما ، فكان يحق لبرلين أن تُلقب بهوليوود الثانية مع مخرجين من أمثال فريتس لانغ وجورج فيلهلم بابست أو فريدريك مورناو الذي كان

يعمل بمستوى فني أرقى من نظيره الأميركي. كذلك كانت ألمانيا قادرة على أن تضاهي أي بلد آخر في مجال الأدب، بوجود كتاب من أمثال ألفريد دوبلن وفرانتس كافكا -الذي أقام في ألمانيا نهاية حياته- والأخوين توماس وهاينريش مان.

وفي مجال العلوم والبحث العلمي، كانت ألمانيا تتمتع بسمعة لا نظير لها. ففي العشرينيات، كانت ثلث المجلات والدوريات العلمية في مجال الفيزياء تُكتب في ألمانيا. وبالطبع لا يمكن أن ننسى ألبرت أنشتاين الذي كان أستاذاً في جامعة برلين، في حين كان زميله العالم الكيميائي الحائز على جائزة نوبل فريتس هابر مديراً لمعهد القيصر فيلهلم للكيمياء الفيزيائية والكيمياء الكهربائية في ضاحية داهليم. ولعل تفوق ألمانيا في ميادين العلوم وتميز جامعاتها يفسران السبب الذي جعل منها زعيمة العالم في العديد من الصناعات، مثل المواد الكيميائية والصيدلانية، وجعلها تنافس بقوة صناعة السيارات الأميركية، نوعاً على الأقل إن لم يكن كماً. وإذا كانت ألمانيا طالما تفاخرت بكونها "أرض الشعراء والمفكرين"، فإنها في العشرينيات تفوقت حتى على نفسها على هذا الصعيد. لكن، وعلى الرغم من ذلك، ومن هذه الديموقراطية المتنورة الخلاقة المتطورة في حداثتها، ظهر أبشع الأنظمة السياسية في تاريخ البشرية. لقد دمر رايخ هتلر إبداع فايمار بالكامل وإلى الأبد. لذا ليس مستغرباً أن العديد من الألمان ما زالوا يتحسرون على ما خسروه، كما يقول الناشر الألماني وولف جوبست سايدلر عام 2000: "لم يعد الألمان القلقون يخيفون أوروبا، ولا يُبهرون أحدا". وما زلنا نقف محتارين أمام السؤال كيف أمكن لكل ذلك أن يحدث؟ لأن تلك البربرية التي خرجت من حضارة راقية تُربك أعمق معتقداتنا وأحاسيسنا.

تنفرد ألمانيا في عهد هتلر من بين جميع الأنظمة السياسية في التاريخ البشري، بميزة واحدة على الأقل، تتمثل في إجماع المؤرخين الجادين كافةً على أنها كانت كارثة لا نجاة منها. ولا يوجد نظام آخر، حتى في

الاتحاد السوفياتي إبان عهد ستالين، يستحق هذا التميز. لكن كما كان ذلك محط إجماع، فهو يبقى موقع خلاف، لأن ألمانيا الهتلرية هي أشبه باختبار رورشاخ[1]، إذْ نُسقط عليها ما نعتقد بأنه أسوأ الصفات السياسية التي يراها كلٌّ حسب موقعه، إذْ لا أحد يرى الشيء نفسه بالطريقة ذاتها. هذا النوع من الإسقاطات يؤثر في تفسيراتنا للكيفية التي جاء معها نظام هتلر إلى الوجود، وهذا بدوره يعني أن المؤرخين لطالما قدموا روايات متناقضة عن سقوط جمهورية فايمار.

تُرى أكانت مشكلة ألمانيا عام 1933 أنها لم تكن ديموقراطية بشكل كاف أم أنها كانت مفرطة في ديموقراطيتها؟ هل ظهرت النازية بسبب غياب الرقابة عن السلطة الممنوحة للنخبة السياسية، أم أن الجماهير الألمانية كانت عاجزة عن القيام بوظيفتها كمواطنين مسؤولين؟ أكان النازيون أسرى الماضي، أم كانوا على العكس تماماً حداثيين وعلى نحو خطير؟ أكانت النازية مشكلة ألمانية حصراً أم مجرد مظهر لأزمة أكبر؟ أهي قضية تاريخية صنعها بضعة "رجال عظماء" أم أنها تتصل بعوامل بنيوية عميقة فعلت فعلها في وصول هتلر إلى السلطة؟ أكان المسيحيون، وتحديداً الإنجيليين، المجموعة الأهم في دعم وتأييد النازية، أم أن هتلر وصل إلى السلطة رغماً عن القيم الألمانية المسيحية التقليدية اللوثرية والكالفينية[2] والكاثوليكية؟ أكان صعود هتلر أمراً محتوماً وصفه المؤرخ

---

1 اختبار رورشاخ هو اختبار سيكولوجي للشخصية والذكاء، وضعه الطبيب النفسي السويسري هيرمان رورشاخ. يقوم هذا الاختبار على سلسلة من بقع الحبر تمثل أنماطاً تجريدية نموذجية يطلب إلى الفرد تحليلها أو تفسيرها. (م)

2 الكالفينيّة (اللاهوت المصلح) مذهب مسيحي بروتستانتي أسسه المصلح الفرنسي جون كالفن الذي وضع بين عامي 1536 و1559 مؤلَّفه (مبادئ الإيمان المسيحي) الذي يعتبره الكثيرون من أهم ما كتب في الحركة البروتستانتية. ويعتقد أن كالفن سار على خطى بولص الرسول والقديس أوغسطين في التأكيد على سمو الله وسيادته على كل شيء، وتتقاطع أفكاره مع أفكار مارتن لوثر في أن الخلاص يحصل عن طريق الإيمان فقط وليس بالأعمال. ولكن كالفن كان يعتقد بالاختيار المسبق، أي أن الإنسان بعد أن يخطئ لا يستطيع أن يمتلك الإرادة الحرة للتوبة، أما كل الذين سينالون الخلاص، فأن الله كان قد سبق واختارهم قبل إنشاء العالم. (م)

البريطاني الكبير أ. ج. ب. تايلور يوماً بأنه كان مفاجئاً كنهر يتدفق في بحر، أم كان ذلك مصادفةً وغير متوقع، كما لو أنه لم يحدث؟

لقد سعى منذ العام 1933 مؤرخون، وفلاسفة، ومحامون، وعلماء نفس، وسياسيون، وفنانون، وكتاب، وموسيقيون، وكوميديون، وكثرٌ آخرون لتفسير ظاهرة هتلر حتى تكدست إجاباتهم كَمّاً هائلاً ساهم في غالبيته في إلقاء الضوء على المشكلة. إذن ما فائدة العودة إلى القضية ذاتها مجدداً؟ وهل مازال هناك ما يقال فيها بعد كل ما قيل؟

هناك أكثر من جواب عن هذا السؤال.

أولاً، تعمل المعرفة التاريخية كتراكم بطيء للترسبات، أي هناك دائماً طبقة جديدة تُضاف إلى سابقتها. ويصح هذا تحديداً على التاريخ الألماني في القرن العشرين. فقد بقي الكثير من المعلومات المهمة حبيس أرشيف مغلق لفترة طويلة في خزائن ما كان يعرف سابقاً بألمانيا الشرقية والاتحاد السوفياتي. لذلك فإن نهاية الحرب الباردة فتحت المجال أمام تطورات كبرى في معرفتنا عن الحقبة النازية، ولما يزل المؤرخون يجدون مصادر معلومات جديدة يعكفون على دراستها وتحليلها.

ومن أهم النتائج التي كشفت عنها هذه العملية أن كثيراً مما كنا نعتقد أننا نعرفه عن ألمانيا النازية لم يكن سوى من مخلفات الدعاية النازية نفسها، أو من مخلفات السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية. ففي أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، كان آلاف من اللاعبين المهمين في رايخ هتلر بحاجة ماسة لإعادة سرد رواياتهم، أملاً بالنجاة من محاكم جرائم الحرب، وإجراءات "اجتثاث النازية". وما يدل على ذلك أن العديد من الباحثين المميزين تبنوا الفكرة القائلة إن هتلر كان "لا أحد"، "رجلاً بلا ملامح" لم يكن حياً إلا عندما يخطب في الجماهير. وهذا تحديداً ليس سوى انعكاس لا شعوري للدعاية النازية التي دأبت على ترسيخ فكرة أن هتلر ضحى بحياته الشخصية ليكرس نفسه لخدمة شعبه.

كما لا تُستثنى تغيرات الأجيال من هذه السرديات، لأننا وفي كل حقبة زمنية، نرى الماضي بطريقة مختلفة، تبعاً لنظرتنا إلى أنفسنا، وتبعاً لتجاربنا. وينطبق هذا على حقبة زمنية ما تقف عند أشياء في الماضي، لا تلحظها حقبة أخرى، الأمر الذي يستوجب إعادة كتابة التاريخ باستمرار.

فعلى سبيل المثال وفي فترة التسعينيات، استمتعنا بوهج نهاية الحرب الباردة، وما بدا لنا انتصاراً كاسحاً للديموقراطية والرأسمالية الليبرالية. أما اليوم، فقد تغير العالم، إذْ بتنا أكثر قلقاً حيال "العولمة" وما تقدمه من دوافع للشعبوية اليمينية.

فقد باتت النتائج التي أزهرتها الوردة الثورية ما بين عامي 1989 و1991، والاضطرابات التي أفرزها نظام ما بعد الحرب الباردة أكثر وضوحاً، إذْ تنتابنا مشاعر القلق من أزمة لاجئين عالمية ندرك تماماً ما قد تسببه من مشكلات سياسية لا تُعد ولا تُحصى، كما بدأنا نشهد نوعاً جديداً من الإرهاب يحتل موقعاً مركزياً في كثير من بقاع العالم. وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن عصرنا هذا -وبطرق مختلفة- يشبه إلى حد كبير ثلاثينيات القرن الماضي أكثر مما يشبه تسعينياته.

إذن حان الوقت لسرد حكاية سقوط جمهورية فايمار وصعود هتلر بطريقة جديدة. وانطلاقاً من هذا المسعى، سيضع هذا الكتاب الشؤون الألمانية في سياقها الدولي، ويتفحص تأثيراتها على المستوى العالمي. فالنازيون، شأنهم شأن حركات شمولية ولكن شعبوية، كانوا رداً على الانتصار الساحق للرأسمالية الليبرالية الكونية في نهاية الحرب العظمى. لقد ربط نظام ما بعد الحرب الباردة الأنغلو- أميركي مبادئ التقشف المالي (ممثلاً بتسديد الديون والتعويضات، والعودة إلى معيار احتياطي الذهب) مع استقرار الديموقراطية نفسها. وبهذا دفع المنطق السياسي مناهضي التقشف ليصبحوا خصوماً للديموقراطية الليبرالية أيضاً. لقد تعامل النازيون مع مصاعب أخرى في العالم الذي كانوا يعيشون فيه،

وأغلبها يُعزى إلى فترة الحرب. ومن هذه المصاعب: كيف يجب المواءمة بين الحدود القومية والهوية الإثنية؟ وكيف يتعين على الدول أن تتعامل مع حقوق الأقليات؟ وما الذي يجب فعله مع اللاجئين والمهاجرين الآخرين؟

إذا كان النازيون رد فعل ضد العولمة ونتائجها، فإنهم كانوا أيضاً نتاج توجهاتٍ أوروبية وعالمية. فقد تأثروا، وبشكل واعٍ، بروسيا وإيطاليا وتركيا والإمبراطورية البريطانية والولايات المتحدة. حتّى العنف والإرهاب الذي مارسته قوات العاصفة كان مرتبطاً بتأثيرات أوسع.

ومن ناحية أخرى، من غير الممكن الحديث عن النازية دون العودة إلى الحرب العالمية الأولى حيث خدم العديد من القادة والناشطين النازيين في خنادق القتال، واعتادوا العنف، وكانوا عاجزين على التأقلم والاستقرار في الحياة المدنية. لكن هذا لا يعني أن تجربة الحرب والقتال كانت العامل الأكثر تأثيراً في المجال السياسي لجمهورية فايمار، بل إن ذلك يعود إلى الطريقة التي يتذكر بها الألمان بداية الحرب ونهايتها: آب/ أغسطس 1914 وتشرين الثاني/ نوفمبر 1918. صيف مشمس مقابل خريف قاتم، وحدةٌ منتشية مقابل انقسام مرير، أحلام النصر مقابل واقع هزيمة كارثية. هذه المفاهيم هي التي تغلغلت داخل كل شيء حدث في فايمار ورسمت بشكل أساسي الطريقة التي اعتمدها الألمان في تعاطيهم الحياة السياسية. لذلك ليس من المبالغة القول أن الإجابة عن جميع الأسئلة حول جمهورية فايمار موجودة في مكان ما في الحرب العالمية الأولى.

صحيحٌ أن الوضع الدولي، وميراث الحرب يساعدان على تفسير السبب وراء التأييد الشعبي الواسع للنازيين، لكن حجم هذا التأييد الواسع -ما يقارب 33٪ من أصوات الناخبين قبل عام 1933- لم يكن وحده كافياً لإيصال هتلر إلى السلطة. لهذا السبب، كان يتعين على هتلر أن ينتصر على مؤسسة المحافظين وعلى رأسهم الرئيس هيندنبورغ ومستشاريه والجيش الذين كانوا يمسكون بمفاتيح السلطة. وكان بمقدور هؤلاء أن يعرقلوا مسار

هتلر لكنهم وبدلاً من ذلك، اختاروا أن يستغلوه لمصلحتهم، مع العلم أن التحالف النازي مع المحافظين كان هشاً على الدوام.

هنا تبرز أهمية الشخصيات الفردية في حكاية فايمار. فقد أصبحت السياسة الألمانية بعد العام 1930 معطلة تماماً، حيث كان مستحيلاً على أي حزب تحقيق أغلبية مستقرة في البرلمان لتمرير التشريعات ودعم الحكومة. وفي منتصف العام 1932 حقق الشيوعيون والنازيون -وهما حزبان يسعيان لتقويض النظام الديموقراطي- أغلبية برلمانية، لكنهما كانا يقفان عند قطبين متعارضين تماما في الطيف السياسي، يستحيل معهما أي تعاون بين الطرفين. من جانبه، تجاوز الرئيس فون هيندنبورغ ومن عَيَّنَهم في منصب المستشارية البرلمان، استناداً إلى بند صلاحيات الطوارئ الوارد في دستور فايمار، ليحكموا البلاد عبر أوامر تنفيذية. وهذا بدوره أدى إلى وضع سلطة استثنائية في يد حفنة من الزعماء، كان لأهدافهم الفردية ونزواتهم الخاصة الأهمية الكبرى.

كان الرئيس فون هيندنبورغ المولود عام 1847 رجلاً من عصر مختلف: ارستقراطي بروسي، ومن أكثر جنود ألمانيا تقديراً واحتراماً، لوثري مخلص، يحمل في نفسه شكاً عميقاً تجاه الكاثوليك وكرهاً كبيراً للديموقراطيين الاجتماعيين. وقد منحه الدستور سلطة تعيين وعزل المستشارين. ومنذ انتخابه للرئاسة عام 1925، ما انفكّ يبحث عن الوسائل الكفيلة بدفع الجمهورية نحو اليمين السياسي، محافظاً في الوقت ذاته على سمعته كبطل ألمانيا وموحدها. ومن بين المستشارين المقربين إلى هيندنبورغ وأكثرهم نفوذاً وتأثيراً، كان هناك عسكري آخر وهو الجنرال كورت فون شلايشر الذي كان يترأس "مكتب الجيش الوزاري"، وهو من الناحية العملية بمثابة جماعة الضغط السياسية الرئيسة لمصلحة المؤسسة العسكرية. لم يكن أحدٌ أبداً على معرفة أكيدة بشلايشر. فقد كان شخصاً ساخراً يدبر المكائد، ودائماً يُحضر لشيء ما، علماً بأن هذا "الشيء" غالباً ما كان أمراً غامضاً. وفي

الواقع، كان شلايشر، مثل هيندنبورغ، يسعى لإنشاء نظام عسكري مستبد من داخل ديموقراطية فايمار. علاوة على ذلك، وخلال السنوات الحرجة من عام 1929 مروراً بـ 1932، كان شلايشر هو من يعين ويعزل المستشارين والحكومات، كما لعب دوراً مهماً في انهيار الجمهورية السريع.

وكان النقيض الكامل لشلايشر يتجسد بالرجل الذي شغل منصب المستشارية لأطول فترة متواصلة: المسؤول النقابي الكاثوليكي ورجل الاقتصاد هاينريش برونتغ. فبينما كان شلايشر ماكراً، وقحاً غامضاً، كان برونتغ رزيناً، جاداً، عقلانياً هادئاً، صارع من أجل السيطرة على جنون العالم الذي اضطر لمواجهته. لكن قدر برونتغ هو من قاده ليكون مستشاراً خلال أسوأ سنوات الركود الاقتصادي الكبير بين عامي 1930 و1932. لكن الخروج من الركود الاقتصادي لم يكن هدفاً يسعى برونتغ لتحقيقه، وإنما استعادة ألمانيا لسيادتها الكاملة، أي الخروج من وطأة التعويضات التي فرضتها معاهدة فرساي عام 1919. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، كان برونتغ مصمماً على جعل الأزمة الاقتصادية أكثر سوءاً.

وخَلَفَ برونتغ في منصب المستشار فرانتس فون بابن وهو ضابط سابق في الجيش وأرستقراطي لم تتعد سيرته الذاتية في الحياة العامة أكثر من ملكية صحيفة ومقعد في برلمان مقاطعة بروسيا.

وكان بابن قد خدم في سلاح الفرسان. وربما كان امتطاء جواد مهارته المميزة، ولذلك كان يُلقب بـ "الفارس الجنتلمان". كان بابن شخصاً أنيقاً، ومتحدثاً ساحراً، يجيد الفرنسية بطلاقة، وطالما سعى لعلاقات أفضل بين فرنسا وألمانيا، بيد أن هذا كله ما كان ليدفع حتى أقرب مؤيديه للادعاء بأنه كان يمتلك جاذبية برونتغ. على أي حال، وبعد بضعة أشهر من وجوده في منصبه، بدأ بابن يستمتع بامتيازات السلطة. وفي النهاية، كان لغضبه من فقدانه السلطة وكبريائه المجروح دور في كتابة الفصل الأخير في انهيار ديموقراطية فايمار.

وبالطبع كان هناك أدولف هتلر، المرشح ليكون أكثر الشخصيات أهميةً في القرن العشرين من الناحية التاريخية، ويساء فهمه كثيراً. عندما دخل عالم السياسة عام 1919، كان يبدو شخصاً يفتقر إلى الخبرة والمواهب. وعلى مدى السنوات الأربع عشرة التالية، كان على الدوام محط سخرية واستهزاء حتى إن الناس كانوا يشبهونه بنادل في مطعم في محطة قطار، أو حلاق. هناك عوامل بنيوية في الاقتصاد والشؤون الدولية ساهمت كثيراً في جعل النازية أمراً ممكناً، لكن لماذا وقع الاختيار على هذا الرجل دون الجميع ليتبوأ سلطة غير مسبوقة؟ لا شك في أن هتلر أضاف إلى اللعبة مواهب جديدة. فقد كان يمتلك مقدرة فريدة على أسْرِ حشد من الناس بصوته. وما لم يكن جلياً لمعاصريه حدسه المدهش وقدرته على قراءة ما يشعر به الناس وما يريدون سماعه، فضلاً عن مقدرته على التنبؤ بما سيفعلونه لاحقاً. كان ممثلاً بارعاً، قادراً على ضبط تصرفاته على النحو الذي يناسب اللحظة والجمهور. وشأنه شأن العديد ممن كانوا ضمن دائرته الداخلية، كان سياسياً استراتيجياً ذكياً، استطاع استكشاف المسالك التي توصل النازيين إلى السلطة، وعلى نفس الدرجة من الأهمية، تلك التي تحرمهم منها، ليخطط على هذا الأساس.

لكن حتى هذه المواهب لا يمكن أن تفسر تماماً نجاح هتلر. إن المفتاح لفهم السبب الذي دفع العديد من الألمان لتأييده يكمن في رفض النازيين للعالم الواقعي المنطقي. حتى إن هتلر نفسه -كما جاء في كلمات كاتب سيرة حياته خواكيم فيست - "كان دائماً يفكر بما لا يمكن التفكير فيه" وأن "عنصر الرفض المرير للخضوع للواقع كان ثابتاً في تصريحاته". وتمثلت تلك الوقائع التي واجهها الألمان بعد العام 1918 -وكانت كلها تقريباً غير مقبولة- بخسارة حرب كلفت الأمة مليونين من أبنائها، وثورة مرفوضة شعبياً على نطاق واسع، واتفاقية سلام ظالمة، وفوضى اقتصادية مصحوبة بتغيرات اجتماعية وتكنولوجية هائلة. وأمام هذا الواقع، انسحب الملايين

من الألمان إلى نظريات المؤامرة، وأولها أن "طعنة في الظهر" وليس هزيمة عسكرية صريحة هي التي أنهت الحرب، وإلى هاجس وجود مجموعات متآمرة من الشيوعيين والرأسماليين واليهود والماسونيين. وكان هتلر أفضل سياسيي عصره في منح الصوت لهذا الهروب من الواقع.

تُرجم هذا العداء للواقع إلى احتقار للسياسة، أو إلى رغبة في سياسة لا سياسية نوعاً ما، وهو أمر مستحيل. أما بالنسبة إلى ما تنطوي عليه تعاملات الديموقراطية من عقد الصفقات اللازمة، وتبادل الخدمات، والتسويات، فقلما كانت ملهمة، وبالتأكيد لم تَشذّ جمهورية فايمار عن هذه القاعدة. وبالتالي انغمس عدد كبير من الأحزاب السياسية -وكل واحد منها يمثل مصالح اجتماعية محددة- في تنافس محموم على السلطة ومكاسبها، وفي عقد الصفقات متى استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. لكنهم، وفي أغلب الأحيان، لم ينجحوا في ذلك، الأمر الذي أدى إلى تغيير الحكومات، حتى بلغ العدد إحدى وعشرين حكومةً خلال أربعة عشر عاماً. وكما هو معلوم، تقتضي الديموقراطية، كي تعمل، أن تعترف جميع الأحزاب السياسية بوجود الحد الأدنى من أرضية مشتركة، وأن التنازلات ممكنة، بل ضرورية. على كل حال، وبحلول الثلاثينيات، لم يتبق سوى القليل من هذه الروح، مع زيادة حدة الانقسام في المجتمع الألماني. وهكذا بدا المدافعون عن الجمهورية كمدافعين عن نظام فاسد، في حين نُظر إلى خصوم الديموقراطية -وهم يروجون لسياسة مضادة تقوم على الوحدة والنهضة- على أنهم ينطلقون من أرضية أرقى أخلاقياً. لذلك أحس هتلر بالبهجة عندما وصفه المُنظر العنصري البريطاني هوستون ستيوارت تشامبرلين بـ "عدو السياسي". في حين كانت الكلمة الرمز النازية لجمهورية فايمار هي النظام، وكانت بمثابة خطوة من احتقار "النظام" إلى الاعتقاد بأن القائد المعجزة هو من يستطيع انتشال الأمة من مصيرها المحتوم. هذه هي تحديداً الجاذبية التي تحلى بها هتلر من البداية وإلى النهاية، ليس بالنسبة للجميع بالتأكيد، في ظل

الانقسامات داخل المجتمع الألماني، لكن رسالة هتلر أقنعت العدد الذي كان يحتاجه من أفراد الشعب.

في الحقيقة، لم يفعل النازيون شيئاً غير متوقع على مدى السنوات التي تلت عام 1933، خلال مسيرتهم في الصعود إلى السلطة. فقد كان المراقبون المتمرسون يعلمون بما سيحدث لاحقاً من "استبداد، وإلغاء البرلمان، وسحق الحريات الفكرية، وتضخم، وإرهاب، وحرب أهلية" كما جاء في سلسة مقالات للروائي فريدريك فرانتس فون أونروه نشرها عام 1931 في جريدة **فرانكفورت ألغماينه**، ولاقت استحساناً كبيراً. كذلك أضاف السياسي الليبرالي، صاحب النظرة الثاقبة تيودور هويس الذي لم يَفُتْهُ شيء من جنون النازيين، قائلاً: "ينطلق هتلر من الإدراك بضرورة حرب جديدة". لكن أونروه أخطأ في شيء واحد، عندما توقع أن يُواجَهَ استيلاء هتلر على السلطة بملايين من خصومه، لأن سلبية الواقع في جمهورية فايمار كانت قد تضخمت بشكل مأساوي إلى حد كبير جداً.



1
أغسطس ونوفمبر

يُمضي الأمير ماكس فون بادن معظم وقته ينتظر بفارغ الصبر أنباء من القيصر فيلهلِم الثاني.

الأمير ماكس رجل أنيق الهندام، ويبدو كشخص ينظر إلى كل عدسة كاميرا بتعبير بائسٍ كمن رأى الكثير في حياته ولم يعجبه سوى القليل، وتنتابه الأوهام حيال أصدقائه رجالاً ونساءً. لكنه يتمتع بسمعة غير عادية كأمير ليبرالي ولهذا السبب اختير مستشاراً للرايخ الألماني وهو في سن الواحدة والخمسين. بعد ذلك سيدون الأمير تجربته كاشفاً عن غضبه من كل شخص تقريباً كان عليه أن يتعامل معه: القيصر، والجنرالات، والاشتراكيين، معتدلين ومتطرفين.

تكمن مشكلة الأمير ماكس في أن القيصر -وهو إمبراطور ألمانيا بالوراثة الذي حكمت عائلته البلاد من برلين منذ القرن الخامس عشر- غير قادر على حسم رأيه بشأن التنحي عن العرش، في حين كانت ألمانيا تسقط في قبضة ثورة، وكل دقيقة تمر لها حسابها. عاود الاتصال بمقر قيادة الجيش في مدينة سبا البلجيكية التي ذهب إليها القيصر، لكن اتصالاته لم تلق رداً. يحاول الأمير، قدر المستطاع، إنقاذ ما يمكن إنقاذه من النظام القديم، لأنه كان يعلم أن الثورة تنتصر ولا يمكن "هزيمتها"، ولكن "ربما يمكن إيقافها" واحتواؤها بتسمية فريدريك إيبرت، زعيم الديموقراطيين الاجتماعيين المعتدلين،

مستشـاراً بقـرار ملـكي. ويغـرق الأمـير في التفكـير مـدركاً بـأن إيـبرت سـيصبح مستشـاراً بطريقـة أو بأخـرى، إن لم يكـن بقـرار ملـكي فعـن طريـق الثـورة في الشـوارع. ثـم يسترسـل محدثـاً نفسـه: "إذا قُـدمَ لي إيـبرت كمنبر للشـعب مـن قبـل الغوغـاء، عندئـذ سـيكون لدينـا جمهوريـة". ويسـتطرد الأمـير في أفكاره بأنـه لا يـزال هنـاك احتـمال لمصـير أسـوأ، إذا مـا اختـار الرعـاع الاشـتر اكي المسـتقل الأكـثر تطرفـاً كارل ليبكنيخـت مستشـاراً بـدلاً مـن إيـبرت، ويتابـع محدثـاً نفسـه: "وسـيكون لدينـا عندئـذ بلشـفية". ولكـن إذا اختـار القيـصر، في آخـر قـرار لـه، إيـبرت، حينـذاك سـيبقى أمـل ضئيـل للمَلـَكية. ربمـا عنـد ذلـك سـننجح في تحويـل الطاقـة الثوريـة إلى القنـوات القانونيـة للحملـة الانتخابيـة".

لكـن الأمـير ماكـس لا يعلـم مـاذا يجـري في مقـر القيـصر. في مدينـة سـبا، كان المارشـال بـاول فـون هيندنبـورغ، القائـد الأعـلى للقـوات الألمانيـة، يـدرك أمريـن اثنـين بشـكل واضـح: يجـب عـلى القيـصر أن يتنحـى عـن العـرش، وأن يتجنـب هيندنبـورغ اللـوم عـلى دفعـه لاتخـاذ ذلـك القـرار. أمـا القيـصر، فكانـت تـراوده فكـرة العـودة بجيشـه إلى ألمانيـا لسـحق الثـوار، في حـين كان هيندنبـورغ يـرى ذلـك مقدمـة لانـدلاع حـرب أهليـة مدمـرة، لا يرغـب في تحمـل مسـؤوليتها. لكـن هيندنبـورغ نفسـه ملـكي ويـدرك أن الملكيـين سـيلقون باللائمـة عليـه، لأنـه لم يقـف إلى جانـب ملكـه. وكـما هـو معـروف فـإن هيندنبـورغ، هـو بطـل معركـة تانينبـيرغ، واحـدة مـن الانتصـارات القليلـة التـي حققتهـا ألمانيـا في هـذه الحـرب التـي خسرتهـا، ولا يمكـن أن يَـدعَ شـيئاً يلطـخ سـمعته.

وللخـروج مـن هـذا المـأزق، يـترك المارشـال المهمـة لمـن يليـه في القيـادة، الجـنرال فيلهلِـم غرونـر رئيـس إدارة الإمـداد والتمويـن في الجيـش. يبلـغ الجـنرال غرونـر القيـصر أن الجيـش سـيعود إلى ألمانيـا بقيـادة ضباطـه مسـالماً، "وليـس تحـت لـواء جلالتـه، لأن الجيـش لم يعـد يسـاند القيـصر". في هـذه الأثنـاء، شرع المارشـال هيندنبـورغ يرتـب بهـدوء هـروب القيـصر إلى هولنـدا التـي كانـت عـلى الحيـاد، لتأمـين سـلامته. ومـن المفارقـة أن هـذه الأحـداث أرسـت نموذجـاً، إذْ وبعـد مـرور

أكثر من عقد من الزمن على تلك الحادثة، سيواجه هيندنبورغ احتمال اندلاع حرب أهلية، وسيحاول إبعاد الجيش عن الصراع الداخلي، ساعياً في الوقت ذاته للحفاظ على سمعته، وسيواصل تحميل مرؤوسيه مسؤولية المهام البغيضة.

ينفذ صبر الأمير ماكس، في غياب أي قرار من مدينة سبا، ويقرر أن يتولى الأمور بنفسه، ويعلن (تنحية) القيصر عن العرش. يستدعي الأمير إيبرت ويسأله إن كان مستعداً ليحكم طبقاً "للدستور الملكي". إيبرت ديموقراطي اجتماعي محافظ على نحو استثنائي، وكان يفضل الحفاظ على الملكية، لكن الأحداث كانت قد ذهبت بعيداً جداً. ويرد إيبرت على سؤال الأمير: "لو سألتني البارحة لأعطيتك موافقة غير مشروطة. أما اليوم فيجب أن أستشير زملائي أولاً". فيسأله الأمير مستفسراً عن إمكانية دراسة فكرة الوصاية على العرش، وتعيين شخص ما ليحفظ العرش لملك المستقبل. فيبادره إيبرت مجيباً: "فات الأوان". وبينما كان قلم ماكس المنهك يسجل كل شيء، تُرَدِّدُ مجموعة من أعضاء الحزب الديموقراطي الاجتماعي ـكانت تحضر الاجتماعـ بصوت· واحد "فات الأوان، فات الأوان".

في هذه الأثناء، يقف زميل إيبرت فيليب شيدرمان على شرفة في الرايخستاغ، ويصيح: لتحيا الجمهورية"، ليُفسرَ الأمرُ إعلاناً بأن ألمانيا أصبحت جمهورية، علماً بأن شيدرمان سيشرح في ما بعد أن ما قصده كان "تعبيراً عن إيمانه" بالفكرة.

وفي القصر الملكي، على بعد نصف ميل تقريباً من الرايخستاغ، يعلن الراديكالي كارل ليبكنيخت ألمانيا "جمهورية اشتراكية". في هذه الأثناء، كان القيصر قد تنحى بصفته إمبراطوراً لألمانيا.

وفي وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، يعقد الأمير ماكس اجتماعه الأخير مع إيبرت، ويطالبه بالبقاء "لتصريف شؤون البلاد"، أي يجعله وصياً بتسمية أخرى. غير أن الأمير سرعان ما يرد عليه بقسوة: "أنا أعلم أنك

على وشك التوصل لاتفاق مع المستقلين (أي المستقلين الراديكاليين في الحزب الديموقراطي الاجتماعي) وأنا لا أستطيع العمل مع المستقلين". وبينما يغادر المكان، يلتفت الأمير إلى إيبرت ويخاطبه قائلاً: "سيد إيبرت، أترك الإمبراطورية الألمانية وديعةً في رعايتك". ويرد عليه إيبرت بوقار: "لقد فقدت اثنين من أبنائي من أجل هذه الإمبراطورية".

حدث هذا في التاسع من تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1918.

بعد ذلك بيومين يدخل اتفاق الهدنة الذي تم التفاوض عليه بين سياسيين ألمان وضباط في قوات الحلفاء حيز التنفيذ. لقد انتهت الحرب العالمية الأولى. وتأتي الهزيمة بالنسبة إلى غالبية الألمان مفاجئةً وصادمةً. ومن بينهم جندي جريح يعاني من تشنجات بسبب تعرضه لهجوم بالغاز، يرقد في مستشفى باسووك، وهي بلدة صغيرة تقع في منطقة بوميرانيا على بعد سبعة وخمسين ميلاً شمال شرق برلين.

وبعدها يكتب في مذكراته "ذهب كل شيء سُدىً. عبثاً كانت تلك التضحيات والحرمان... وخسارة مليونين قضوا نحبهم...". هل قاتل جنود ألمانيا فقط "ليسمحوا لثلة من المجرمين البائسين أن يستولوا على الوطن". لم تذرف لهذا الجندي دمعة منذ وفاة أمه، لكنه يترنح عائداً الآن إلى سريره في المستشفى، ليدفن رأسه المشتعل تحت أغطية الفراش والوسادة. إنه العريف أدولف هتلر.

لو تمعنت جيداً لوجدت أن كل شيء تقريباً يتعلق بجمهورية فايمار هو فعلياً نتاج الحرب العالمية الأولى.

كانت حرباً لم يسبق لها مثيل من حيث عدد الضحايا الكبير الذين سقطوا خلال فترة قصيرة نسبياً.

فقد خسرت ألمانيا مليوناً وسبعمئة ألف جندي قتلوا على مدى أربع سنوات، أي ما يفوق عدد القتلى في أي دولة أخرى، باستثناء روسيا.

وجُنِّدَ المدنيون، بمن فيهم النساء، للعمل في المصانع والأعمال لخدمة آلة الحرب على نحو غير مسبوق. كذلك أجبرت ضغوط الحرب الدولة على مطالبة مواطنيها بمزيد من العمل والتضحيات، مما انعكس على حجم التأييد الشعبي. ومن جانبها، أتاحت وسائل الإعلام الجماهيرية الجديدة للدولة احتمالات لا حصر لها "لتسويق" الحرب، وعادة عبر منشورات حماسية ومغلوطة إلى حد كبير، حول معنى الصراع، أو حول طبيعة العدو. لقد تركت دعاية الحرب أثراً عميقاً في نفوس الألمان، كما هو الحال بالنسبة لشعوب الدول الأخرى.

امتدت الحرب من صيف عام 1914 حتى أواخر خريف 1918، لكن اللحظة الحقيقية لاتخاذ القرار جاءت في منتصف الطريق، قرب نهاية عام 1916. تحت هول الصدمة من حجم الخسائر غير المتوقعة كلياً وتنامي الاضطرابات في الداخل، واجهت حكومات الدول المتحاربة القرار نفسه: إما المضي قدماً حتى تحقيق النصر، وإمّا القبول بحالة الجمود والدخول في مفاوضات سلام. وكان السير في الحرب حتى تحقيق النصر يعني المزيد من الديون والخسائر ومضاعفة الجهود لانتزاع المزيد من العمل والتضحيات، مما يعرف اليوم باسم "الجبهة الداخلية". وفي جميع الحالات المهمة، قررت الحكومات مواصلة الحرب حتى تحقيق النصر. ووصل إلى السلطة مزيد من القادة الحازمين في كل مكان. في بريطانيا العظمى، حلّ في كانون الأول/ ديسمبر عام 1916 ديفيد لويد جورج محل المُنهَك إتش. إتش أسكويث في منصب رئيس الوزراء. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1917، وصل الشرس جورج كليمانصو (النمر) إلى رئاسة الوزراء في فرنسا حاملاً معه وعداً بسيطاً ومقتضباً "أنا أصنع حرباً". أما في ألمانيا، فكان الوضع أقل وضوحاً. فقد فرض، في النصف الثاني من عام 1916، قائدا الجيش الألماني: المارشال بول فون هيندنبورغ والجنرال إيريك لودندورف سلطتهما ليس على مسار الحرب وحسب، بل وعلى إدارة الجبهة الداخلية

أيضاً. وعملا على تهميش حكومة القيصر فيلهلم المدنية واستبدال "ديكتاتوريتهما الصامتة" بها، مما أدى إلى نشوء حالة من التناقض تشي بمستقبل ألمانيا. وكما هو معروف، وصل المارشال هيندنبورغ والجنرال لودندورف إلى القيادة العليا تحت ضغط شعبي ضد رغبة القيصر، أي إن ديكتاتوريتهما كانت نوعاً من الشعبوية.

بيد أنه لم يكن بمقدور المزيد من القيادة الجامحة أن تغير حقائق الحرب الشاملة الحديثة التي تطلبت قوة العمل والقتال من كل مواطن. وهذا بدوره منح المواطنين قوة مساومة غير مسبوقة مع الدولة التي أُجبرت على تقديم وعود مبالغ فيها بعالم رائع سيحققه النصر. بريطانيا العظمى، على سبيل المثال، دخلت الحرب وحكومتها تتحدث حصراً عن حرمة حقوق الاتفاقية والدفاع عن "بلجيكا الصغيرة الشجاعة" في مواجهة الغزو الألماني. لكن من الصعب أن تطلب من مئات آلاف الشباب الموت، وأن يبكيهم أحبتهم من أجل حُرمة الاتفاقيات. لذلك وبحلول العام 1918، انضم لويد جورج إلى دعوة الرئيس الأميركي وودرو ويلسون لتأسيس "عصبة الأمم" كتعبير بديل عن عبارة "الحرب التي ستنهي الحرب" التي وضعها كاتب الخيال العلمي والناقد الاجتماعي البريطاني هربرت جورج ويلز. ووعد لويد جورج بإصلاحات اجتماعية واسعة، وبإرغام ألمانيا، مستعملاً كلمات أحد وزرائه، على دفع الثمن بعَصْرها "حتى يُسمَعَ صريرُ النوى". لقد رسخت الحرب الشاملة نوعاً جديداً من القومية أكثر شعبوية ومساواة، وأقل مراعاةً للنخب والرموز التقليدية.

في حين شعرت الحكومة في ألمانيا بأنها مضطرة للوعد بإصلاحات ديموقراطية، وتحديداً لجهة تغيير قواعد التصويت في انتخابات مقاطعة بروسيا التي كانت تميل بشكل كبير لمصالح الأثرياء. ومن هذا المنطلق، خاطبَ غوستاف شتريزمان -وكان نائباً في الرايخستاغ ومن ثم وزيرا للخارجية في جمهورية فايمار، وواحداً من أهم رجالات الدولة في

الجمهورية- خاطبَ زملاءه النواب عام 1917 بالقول إن الحرب غيرت العلاقة بين الشعب والدولة. ومما قاله أيضاً إنه سيتعين على دولة ما بعد الحرب أن تكون أكثر ديموقراطية. حتى إن "قانون الخدمة الوطنية الإضافي" الذي تقدم به هيندنبورغ ولودندورف عام 1916 بدا كأنه تطور ديموقراطي، على الرغم من أنه جَنَّدَ عمالاً إضافيين في الصناعات الحربية. فقد شاركت الأحزاب الديموقراطية في الرايخستاغ في صياغته، وتضمن بنوداً تنص على تمثيل العمال في قرارات الإدارة.

غير أن تطورات الحرب الأخرى أنذرت بمستقبل مشؤوم. الحكومة الألمانية وعدت شعبها بنصر سيحقق نوعاً جديداً من العظمة الإمبراطورية، وأن ألمانيا ستصبح قوة مهيمنة في أوروبا عبر ضم أراضٍ من بلجيكا وفرنسا، بل المزيد من المناطق الغربية للإمبراطورية الروسية. وبالفعل، تحققت هذه الرؤية لفترة زمنية قصيرة عندما انسحبت روسيا من الحرب عام 1918 وسيطر الألمان بشكل مباشر أو غير مباشر على ما يُعرف الآن ببولندا ودول البلطيق وبيلاروسيا وأوكرانيا. وفي عام 1917 تشكل حزب جديد باسم "الوطن"، وطالب بمواصلة الحرب حتى تحقيق النصر الكامل، وسَحْقِ المعتدلين السياسيين في الداخل حتى تصبح ألمانيا القوة المهيمنة في أوروبا، وصولاً إلى "بوابات الهند". وكان من بين أعضاء الحزب ألفريد هوغنبيرغ، الذي عمل مديراً تنفيذياً في شركة لصناعة الفولاذ، قبل أن يصبح واحداً من بارونات الإعلام، وهو الذي سيتزعم، إبان جمهورية فايمار المؤسسة الرئيسة للجناح اليميني، أي حزب الشعب القومي. وكان هناك شخص آخر من ميونيخ، يعمل حداداً وصانع أدوات يدعى أنتون دريكسلير الذي سيؤسس في عام 1919 حزباً جديداً، بغية الحفاظ على رؤية حزب الوطن، ويطلق عليه اسم حزب عمال ألمانيا. في سنة أخرى، سوف يغير هذا الحزب، بعد تجنيد المحارب القديم هتلر في صفوفه، اسمه ليصبح حزب عمال ألمانيا القومي الاشتراكي (النازي).

وكما دفعت الحرب بعض الألمان إلى أقصى اليمين، كذلك دفعت آخرين إلى أقصى اليسار. وكان الحزب الديموقراطي الاجتماعي واحداً من ضحايا خيبات الحرب. فقد كان أكبر حزب في ألمانيا قبل الحرب، وأكبر حزب اشتراكي في العالم، ويضم مليون عضو، وفاز بالحصة الأكبر من مقاعد الرايخستاغ في انتخابات عام 1912. وعلى الرغم من أيديولوجيتهم الملتزمة السلام، كان أعضاء الحزب داعمين للمجهود الحربي، وصَوَّتَ نوابه لمصلحة جميع ضروب الإنفاق الحربي الضرورية. ونتيجة لذلك تراجع، إلى حد ما، عدد أعضاء الحزب، خلال الحرب إلى ربع مليون عام 1917. وفي نفس العام، انشقت مجموعة من الحزب لتعترض على المزيد من الإنفاق العسكري. وبات الجناح الجديد المنشق يُعرف باسم الحزب الديموقراطي الاجتماعي المستقل. ومع نهاية العام 1917، بلغ عدد أعضاء الحزب الجديد مئةً وعشرين ألفاً، أي ما يعادل نصف عدد أعضاء الحزب الأساسي. وشكل المستقلون النواة التي نشأ الحزب الشيوعي منها بعد العام 1918، لتصبح بذلك الحركة العمالية منقسمة على ذاتها بشكل دائم.

بالمقابل بقيت أحزاب الوسط متماسكة. في تموز/ يوليو عام 1917 مررتْ ثلاثةٌ من أكثر الأحزاب ديموقراطية، كانت تسيطر على ثلثي مقاعد الرايخستاغ وهم الديموقراطي الاجتماعي، واليساريون الليبراليون -والوسط الكاثوليكي- مررتْ قراراً لمصلحة مفاوضات سلام، شرط عدم التخلي عن أراضٍ ألمانية أو دفع تعويضات. لم يكن القرار ملزماً لهيندنبورغ ولودندورف، لكنه شكل مصدر قلق لهما، غير أن الأغلبية في الرايخستاغ عبرت، في نهاية المطاف، عن آراء غالبية الألمان. لذلك وفي أعقاب صدور القرار مباشرة، عمد الجنرالات إلى تشكيل حزب الوطن. ودبَّروا أيضاً إزاحة رئيس الحكومة المستشار سيىء الحظ تيوبالت فون بتمان هولفيغ باعتباره ضعيفاً، وغير قادر على ضبط ديمقراطيي الرايخستاغ العنيدين.

وتكمن الأهمية الحقيقية لقرار السلام في أنه حدد بوضوح، كتلة ديموقراطية في السياسة الألمانية. إذْ ستصبح الأحزاب الثلاثة التي ساندت القرار الركائز الأساسية لديموقراطية فايمار بعد العام 1918، حتى باتت تُعرف بـ "ائتلاف فايمار". ومن العام 1917 إلى 1933، سيهيمن على الساحة السياسية الألمانية الصراع بين هذه الكتلة الديموقراطية والكتلة القومية التي تضم المحافظين واليمين الليبرالي الذين وقفوا وراء مواصلة الحرب وبشراسة أكبر.

ومع أواخر صيف 1918، بات الجيش الألماني منهكاً، وبدأت تلوح في الأفق ملامح الهزيمة على الجبهة الغربية. وأدرك هيندنبورغ ولودندورف ذلك جيداً، حتى إن الأخير وصف هجوم الحلفاء على أميانز في الثامن من آب/ أغسطس بـ "اليوم الأسود للجيش الألماني". وفي نهاية أيلول/ سبتمبر، أبلغا القيصر بأن الوقت قد حان للتوصل إلى هدنة مع القوى الغربية. وبدافع الحذر كعادتهما، رفض الجنرالان إجراء المفاوضات بنفسيهما، وتركا المهمة لقادة الديموقراطيين في الرايخستاغ. واتفق وودرو ويلسون مع هذا الطرح، رافضاً التفاوض مع "العسكريين" الألمان. وكما هو معلوم، فإن القادة العسكريين من كلا الطرفين المتحاربين هم الذين يتفاوضون للتوصل إلى هدنة، لكن في هذه الحالة تكفل السياسيون الديموقراطيون الألمان بالمهمة، ليُحَمَّلوا أوزارَها لاحقاً.

وكانت القوات الألمانية في كل موقع لها، في خريف 1918 تقف على أراضٍ أجنبية حيث كانت تحتل معظم الأراضي البلجيكية، والجزء الأكبر من شمالي فرنسا، وتسيطر على مساحات واسعة شرق أوروبا أيضاً. ولم يكن هناك ولو قدماً مربعاً واحداً من الأراضي الألمانية مُحتلاً من أي دولة عدوة. وخلافاً للحرب العالمية الثانية، لم تكن تكنولوجيا القنابل والطائرات قد وصلت بعد إلى مرحلة من التطور تُلْحِقُ من خلاله أضراراً جسيمة بالمدن الألمانية. كذلك كانت الصحافة الألمانية زمن الحرب تخضع لرقابة

شديدة، ولا تنشر سوى أنباء الانتصارات والوعود بتحقيق المزيد. لذلك لم يكن ممكناً إلا لشخص يمتلك مخيلةً استثنائيةً، أو على اطلاعٍ واسعٍ بتفاصيل الأمور، أن يستوعب أن ألمانيا كانت على وشك الهزيمة. والآن، فجأة، يطالب القادة الألمان بهدنة. لهذا السبب وجد أغلبية الألمان الهزيمة أمراً لا يكمن تقبله.

حتى وقبل أن تدخل أي هدنة حيز التنفيذ، كانت ألمانيا تهتز بفعل ثورة بدأت بتمرد من القوات البحرية، قادته مجموعة من البحارة، وجدوا أنه من العبث المضي بتنفيذ أوامر قادتهم للقيام بمهام انتحارية في مواجهة البريطانيين. وفي بلد أنهكته الحرب والجوع، انتشرت الثورة من بلدة إلى أخرى، حتى وصلت إلى وحدات من الجيش مرابطة في فرنسا. وفي غضون أيام قليلة أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر، أُجبرت على التنازل جميع العائلات الملكية القديمة التي كانت لا تزال تحكم مقاطعات ألمانيا الفيدرالية، مثل آل فيتلسباخ في بافاريا، وفيتينز في ساكسونيا، وفي نهاية الأمر القيصر فيلهلم نفسه في برلين. وفي التاسع من تشرين الثاني/ نوفمبر، تولى الديموقراطيون الاجتماعيون، والديموقراطيون الاجتماعيون المستقلون، السلطة في برلين. وهما الحزبان اللذان انفصلا أحدهما عن الآخر قبل عام من هذا التاريخ، لكن الثورة أعادتهما بشكل مؤقت.

ووجد قائد البلاد الجديد فريدريك إيبرت نفسه يرأس ما يدعى "مجلس نواب الشعب"، وهو هيئة مؤلفة من ثلاثة أعضاء من الديموقراطيين الاجتماعيين، ومثلهم من المستقلين كفرع تنفيذي للحكومة. غير أن حجم المشكلات التي واجهت إيبرت كان كبيرا: خسارة حرب، وإعادة ملايين من الجنود إلى الوطن وتسريحهم، وشعب جائع بفعل الحصار البحري البريطاني، يضاف إلى ذلك كله القلق من شروط السلام التي ستفرضها قوات الحلفاء المنتصرة في الحرب.

كان لدى إيبرت والديموقراطيين الاجتماعيين فكرة واضحة عما يريدون

فعله. فقد كانوا يرغبون في أن تتحول ألمانيا إلى ديموقراطية برلمانية على الطراز الغربي. أما في الشرق البعيد، فقد شَكَّلتْ الثورةُ في روسيا مثالاً مخيفاً لما قد يحدث إذا ما اتخذت الأمور مساراً خاطئاً: حربٌ أهلية ومجاعةٌ، وإرهابُ دولة. كان إيبرت يكره الثورة الاجتماعية (بمعناها الروسي الذي لم ينقلب عن القيادة السياسية وحسب، بل قلب أيضاً الملكيات والعلاقات الطبقية)، لأنها "خطيئة" على حد تعبيره. ولهذا كان إيبرت وحزبه يريدان الإسراع بإجراء انتخابات برلمانية لتشكيل جمعية وطنية تعمل على إعداد دستور جديد.

بيدَ أن الثورة الروسية لم تكن مثالاً مخيفاً للجميع، بل اعتبرها البعض مصدر الهام لهم. وفي أواخر العام 1918، كانت لا تزال هناك أنواع مختلفة من الثورات تجري في ألمانيا. فقد شكَّلَ "مجلس عمال وجنود برلين الكبرى" نموذجاً مشابهاً لمجالس السوفييت في روسيا، أعلنت لجنته التنفيذية سلطتها على مجلس نواب الشعب، وسعى أعضاؤها لإجراء تغيير جذري في ألمانيا على الطراز البلشفي الروسي. كما انضم إلى هذه الحركة بعض المستقلين الراديكاليين، ومنهم جماعات يسارية مثل "رابطة سبارتاكوس" بزعامة المثقفين الاشتراكيين كارل ليبكنيخت وروزا لوكسمبورغ.

وفي ظل هذه الظروف، لم يكن مقدراً لائتلاف إيبرت أن يصمد طويلاً، فضلاً عن أن حالة التوتر الأكبر طالت العلاقة بالجيش. وكان إيبرت في اليوم الأول لتسلمه منصبه، قد توصل إلى اتفاق مع الجنرال فيلهلم غرونر الذي خلف لودندورف في رئاسة إدارة الإمداد والتموين، حصل بموجبه إيبرت على دعم الجيش لحكومته، وليس لمجلس عمال وجنود برلين الكبرى. وبالمقابل، وافق إيبرت على عدم المساس بالجيش وتشكيلة ضباطه. لكن، وفي كانون الأول/ ديسمبر، استولت وحدة عسكرية ثورية يسارية تُدعى "فرقة الشعب البحرية" على القصر الملكي في برلين، واحتجزت عدداً من سياسيي الحزب الديموقراطي الاجتماعي رهائن لديها. واعتمد إيبرت

على ذلك الاتفاق، وأعطى الجيش الصلاحية لملاحقة المتمردين. وبسبب الخلاف على هذا القرار، انفصل الديموقراطيون الاجتماعيون المستقلون عن إيبرت، لتتسع بذلك الهوة أكثر بين الجناح الثوري والجناح الدستوري للحركة العمالية.

كذلك كان الجناح الثوري يعيد تنظيم صفوفه. ومع مطلع العام الجديد، اجتمع الجناح اليساري للمستقلين مع عدة مجموعات راديكالية أخرى، ومن بينها رابطة سبارتاكوس، على تشكيل الحزب الشيوعي الألماني اقتداءً بالنسخة الأصلية السوفياتية. وفي الرابع من كانون الثاني/ يناير، أعلن ليبكنيخت انتفاضة ثورية ضد حكومة إيبرت سرعان ما أُطلق عليها اسم ثورة سبارتاكوس[3]. ومرة أخرى يلجأ إيبرت إلى غرونر، وبمساعدة الجيش و"الكتائب الحرة" -وهي فرق شبه عسكرية تضم في غالبيتها جنوداً مسرحين من الجيش، وطلبة مُحْبَطين لعدم مشاركتهم في الحرب العالمية الأولى- سُحقت الثورة، واعتقلت الكتائب الحرة روزا لوكسمبورغ وكارل لايبنكيخت وأعدمتهما. هذه السلسلة من الأحداث، أي الانتفاضة اليسارية والرد الدموي عليها من جانب الكتائب الحرة، تكررت في ربيع عام 1919 في برلين، وفي ميونيخ التي قُتل فيها ما يقارب ستمئة يساري.

وفي التاسع عشر من كانون الثاني/ يناير، انتخب الألمان جمعية وطنية، فاز فيها حزب إيبرت (الديموقراطي الاجتماعي) بـ 39٪ تقريباً من أصوات الناخبين، وهو رقم قياسي لم يتجاوزه أي حزب ألماني -حتى الحزب النازي- في أي انتخابات حرة إلى أن حقق مستشار ألمانيا الغربية كونراد إدناور انتصاره الكاسح للمرة الثالثة في انتخابات عام 1957. أما الحزبان الآخران الملتزمان إنشاء ديموقراطية جديدة، حزب الوسط الكاثوليكي، والحزب الألماني الديموقراطي الليبرالي اليساري، فقد فازا على التوالي

---

3 كان سبارتاكوس عبداً من رقيق الإمبراطورية الرومانية. قاد عام 73 ق.م ثورةً للعبيد انتشرت بسرعة في مختلف أرجاء البلاد. (م)

بـ 19.7 و18.6٪ مـن الأصوات، ممـا يعـني أن أكثـر مـن ثلاثـة أربـاع الشـعب الألمانـي صوتـوا لسياسـة ديموقراطيـة تقدميـة.

وخـلال الفـترة مـا بـين أوائـل شـباط/ فبرايـر وآب/ أغسـطس 1919، وفي جو مـن الاضطـراب المتواصـل، والانتفاضـات السياسـية والجـدل الحـاد حـول بنـود اتفاقيـة السـلام، وضعـت الجمعيـة الوطنيـة دسـتوراً لديموقراطيـة حديثـة. وكان أسـتاذ القانـون البروفسـور هوغـو بـروس المهنـدس الرئيـس لدسـتور فايمـار. وفي لقـاء مـع صحفيـين أميركيـين بعـد عـدة سـنوات، قـال بـروس إنـه شـعر بضغـط لتقليـد الدسـتور الأميركـي، وأضـاف: "راودنـي هـذا الاعتقـاد عندمـا كان ويلسـون في قمـة مسـيرته، لكـن سـقوطه (وكان بـروس يقصـد هزيمـة ويلسـون في الكونغـرس بسـبب اتفاقيـة السـلام) والأزمـة المسـتحكمة بـين الرئيـس والكونغـرس كشـفت عـن عيـوب في نظامكـم ينبغـي علينـا تجنبهـا". لكـن المفارقـة أن بـروس وضـع دسـتوراً لتجنـب أزمـة عـام 1930، فإذا بالدسـتور يصبـح مصـدر أزمـة، غير أن هـذا لا يمنـع القـول إن بـروس كانـت لديـه أسـباب قويـة للاعتقـاد بـأن نظامـه قـادر علـى تجنـب مشـكلة مـن هـذا القبيـل.

وبالفعـل، أخـذ الدسـتور الجديـد بعـض العناصـر مـن الولايـات المتحـدة، مثـل صلاحيـات الرئيـس، والحقـوق الأساسـية للفـرد. كذلـك تضمـن بعـض الأحـكام ذات الصلـة بالحكومـة البرلمانيـة تبعـاً للنمـوذج البريطانـي، مـع العلـم أن البريطانيـين- وهـذه مفارقـة أخـرى- لم يدونـوا هـذه الأحـكام في دسـتور رسمـي. كمـا تضمـن الدسـتور الجديد بعـض العناصـر الـتي تسـتند إلى التاريـخ الألمانـي، وكان بعضهـا الآخـر مسـتحدثاً فعـلاً.

وفي قلب الدسـتور كان يقـع الرايخسـتاغ: برلمـان يُنتخـب مـرة كل أربـع سـنوات مـن قبـل جميـع المواطنـين الذيـن تجـاوزوا سـن العشـرين رجـالاً ونسـاءً. لكـن الأمـر اللافـت والجديـد تمثـل باعتمـاد النظـام النسـبي في الانتخابـات، بمعنـى أن الناخبـين يصوتـون للائحـة مرشـحين لحـزب مـا، وليـس لمرشـح واحـد في الدائـرة الانتخابيـة، كمـا هـو متبـع في انتخابـات مجلـس العمـوم البريطانـي، أو

مجلس النواب الأميركي. وعلى هذا الأساس، يحصل كل حزب على عدد من مقاعد البرلمان تعكس نسبة الأصوات التي حصل عليها في الانتخابات.

وتعتبر الأنظمة الانتخابية القائمة على النسبية أمراً شائعاً في أوروبا، حتى إن ألمانيا تتبع حالياً أحد هذه الأنظمة. وتمتاز هذه الأخيرة بقدرتها على تشكيل برلمان يعكس تماماً خيارات الناخبين. وعلى سبيل المقارنة، يمنح النظام البريطاني أفضلية كبيرة للأحزاب التي تحوز قرابة 40٪ من الأصوات، أو تتمتع بمراكز قوى في المناطق، فيما تُعاقب الأحزاب ذات التأييد الشعبي المتواضع، الموزع بشكل متساوٍ في عموم البلاد. وحتى في انتخابات الكونغرس الأميركي التي تجري عادة بين حزبين فقط، لا تعكس النتائج غالباً الصوت الوطني السائد. ولكن من مساوئ النظام النسبي أنه ينتج برلماناً يضم نواباً من أحزاب مختلفة، بعضها صغير الحجم، الأمر الذي يجعل من تشكيل حكومات مستقرة أمراً صعباً، وهذا، تحديداً، ما عانت منه جمهورية فايمار.

ويكمن السبب في الآثار المترتبة على الفقرتين 52 و54 في الدستور، إذ نصت الفقرة 52 على أن تتألف حكومة الرايخ، أي السلطة التنفيذية، من المستشار وحكومته. في حين نصت الفقرة 54 على وجوب حصول المستشار وحكومته على ثقة البرلمان، وتقديم الاستقالة في حال حجب الثقة. ومن الناحية العملية، كان يتعين على الحكومة الحفاظ على تأييد أغلبية النواب لها، وإلا ستضطر إلى الاستقالة في حال صَوَّتَ أكثر من 50٪ من النواب لمصلحة حجب الثقة عنها. ويعتبر ذلك مبدأ أساسياً للحكومات البرلمانية، وهو ما يبدو مبدأ معقولاً ومنطقياً، بقصد ضمان الرقابة الديموقراطية على السلطة التنفيذية. لكن في حالة جمهورية فايمار، فتح ذلك الباب على أزمة شبه دائمة، وعلى أزمة مستعصية، ومناخ ينذر بحرب أهلية في السنوات الأخيرة من عمر الجمهورية.

وبالطبع كان الرئيس هو الشخصية المهمة الأخرى في الدستور الذي

نص على انتخابه لولاية دستورية مدتها سبع سنوات، في انتخابات عامة يشارك فيها جميع المواطنين بشكل منفصل عن الانتخابات البرلمانية.

ويُعتبر الرئيس رأس الدولة، وقد لَخَّصَ الدستور واجباته العامة بـ "أن يكرس كامل طاقته لرفاهية الشعب الألماني وحمايته من الأذى، والحفاظ على الدستور والقوانين". وكان من صميم مهامه تمثيل البلاد في الساحة الدولية، ومسؤوليته عن تصديق المعاهدات والتحالفات، وأن "تُقدم له أوراق اعتماد السفراء الأجانب". أما على الصعيد الداخلي، فكان من صلاحياته تعيين المستشار (دون أن يغير ذلك من ضرورة أن يحوز الأخير تأييد أغلبية برلمانية). كما يحق للرئيس تعيين وزراء الحكومة، لكن يُفترض به أن يتبع في هذه الحالة مقترحات المستشار.

لكن الفقرة التي نصت على صلاحيات الطوارئ للرئيس كانت القضية الأكثر جدليةً في الدستور.

لذا أضحت الفقرة 48 أهم الفقرات، بل يمكن القول أسوأها صيتاً، في دستور فايمار، فقد نصت هذه الفقرة على أنه يحق للرئيس "اتخاذ الإجراءات الضرورية"، بما في ذلك الاستعانة بالقوات المسلحة، في حال الإخلال بالأمن الأهلي أو تعرضه لخطر جدي". كما أعطت الرئيس صلاحية "إلزام" حكومة أي مقاطعة، ومرة أخرى بمساعدة القوات المسلحة، للقيام بواجباتها الدستورية في حال عجزها عن القيام بذلك. غير أن الدستور قيَّدَ هذه الصلاحية بالإشارة إلى إمكانية إلغاء جميع التدابير التي اتخذها الرئيس، استناداً إلى الفقرة 48، إذا ما صَوَّتَتْ أغلبية برلمانية على ذلك.

على أي حال، كانت هناك مفارقة أخرى بخصوص الدور الذي أسنده الدستور للرئيس. فقد تناولت إحدى النقاشات التي دارت بين أعضاء لجنة صياغة الدستور مسألة ما إذا كان يجب على النظام الجديد أن يعطي الأرجحية لسلطة البرلمان على سلطة الرئيس. في البداية، كان بروس منادياً

بسيادة البرلمان، لكنه عدل عن رأيه لاعتقاده أن رئاسة قوية موحدة ستكون أكثر قدرة على التغلب على الانقسامات الدينية (الكاثوليك والبروتستانت)، والطبقية والمناطقية داخل المجتمع الألماني. يضاف إلى ذلك عامل أكثر أهميةً مفاده أن بروس، مثل بقية أعضاء لجنة صياغة الدستور، كان ليبرالياً وليس اشتراكياً، في حين كانت الأوضاع السائدة عام 1919 تنذر باحتمال فوز الاشتراكيين بأغلبية برلمانية. لذلك خشي بروس من أن هيمنة اشتراكية مستديمة على البرلمان قد تخلق "دولة استبدادية". لذا، فإن رئاسةً قويةً، مسلحةً بصلاحيات الطوارئ تتحكم بالأحزاب عند الضرورة، سَتُشَكِّلُ -كما اعتقد بروس- دفاعاً أساسياً عن الديموقراطية.

في لقائه مع الصحفيين الأميركيين عام 1925، رد بروس بالنفي على سؤال حول اعتقاده باحتمال أن يسيء الرئيس استخدام سلطاته. وأضاف إنه في التفسير النهائي يبقى الرئيس خاضعاً لسلطة البرلمان ذلك أن جميع أوامره، بما فيها تلك المندرجة تحت الفقرة 48، يجب أن يصدقها المستشار أو الوزير اللذان يتعين عليهما منذ البداية الحصول على ثقة الرايخستاغ. لكن لم يخطر في بال بروس، ولا من شاركه إعداد دستور فايمار، أن عدواً للديموقراطية قد يُنتخب للرئاسة ويسعى إلى تقويض النظام، كما لم يتخيل أحدٌ أن أحزاباً معادية للنظام الديموقراطي سَتُشَكِّلُ أغلبيةً في البرلمان. ويعتبر هذا مثالاً جيداً للسبب الذي دفع الفقيه القانوني الشهير الأميركي أوليفر وينديل هولمز الابن للقول أن القوانين بجب أن تُصاغ وعينك على "الرجل الشرير" لا الرجل الصالح.

وعلى أي حال، فإن القوانين المكتوبة قلَّما كانت تعني بحد ذاتها شيئاً، أو يمكن أن تعني عدة أشياء، وفي كلتا الحالتين النتيجة واحدة، طالما أن القوانين لا يمكن أن تُطبِق نفسها بنفسها. فما يهم فعلاً هو الإطار الثقافي والسياسي الذي من خلاله سيطبق البشر غير المعصومين تلك القوانين. لذلك كان على دستور فايمار أن يعمل في ثقافة سياسية تشكلت أساساً قبل الحرب العالمية الأولى.

من غير الممكن طبعاً وصف ألمانيا قبل العام 1914 بالدولة الديموقراطية، كما لا يمكنك أيضاً أن تنزع عنها هذه الصفة كلياً. فقد كانت ألمانيا، استناداً إلى دستور عام 1871، تُحكم بنظام إمبراطوري أو قيصري وراثي. وعلى مدى السنوات الثلاثين الأخيرة من عمر الإمبراطورية، من عام 1888 إلى 1918، كان فيلهلم الثاني هو القيصر. وكما هي الحال بالنسبة للرئيس الأميركي، كان القيصر يعين جميع أعضاء الحكومة وعلى رأسهم المستشار، والوزراء الذين كانوا يديرون الدولة حسب رغبته. غير أنه، وفي الوقت نفسه، كان لألمانيا برلمان (الرايخستاغ) يُنتخب من قبل جميع الرجال ممن أتموا خمسةً وعشرين عاماً في إجراء ديموقراطي، بينما كانت العديد من الدول، ومنها بريطانيا العظمى، لا تزال تحصر حق التصويت بالضرائب أو حيازة الملكيات. ولم يكن ممكناً تمرير أي قانون إلا بموافقة البرلمان الذي ازداد تأثيره بشكل مضطرد في الحكومات على مدى تاريخ الإمبراطورية الألمانية بسنواته السبع والأربعين.

وفي واقع الحال، وخلال السنوات ما بين تأسيس ألمانيا الجديدة عام 1871 واندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914، تحول الزخم السياسي لمصلحة الأحزاب السياسية ذات التوجه الليبرالي أو الديموقراطي. بالمقابل، راحت الأحزاب اليمينية تخسر قاعدتها. فالفئات الاجتماعية التي كانت تمثلها هذه الأحزاب (النُخب الأرستقراطية، وكبار القادة العسكريين، وكبار الموظفين ورجال الأعمال، بل حتى عدد من المجموعات الريفية والزراعية الأقل مرتبة) كانت ترى أن البلاد تتحرك بعيداً عنهم، بينما كانت فئات جديدة تصعد إلى موقع الريادة في المجتمع الألماني. وكان بعض هذه الفئات ينتمي إلى أكثر الطبقات فقراً وضعفاً: عمال المصانع والأقليات مثل اليهود. هذا الوضع دفع التيار السياسي اليميني إلى تبني نبرة أكثر غضباً ويأساً. وعند تأسيس الإمبراطورية عام 1871، كان الولاء للملك والكنيسة السمة الرئيسية للتيار المحافظ، حتى إن جريدة **الصليب** الناطقة بلسان المحافظين كانت تحمل شعار "إلى الأمام مع الله من أجل

الملك والوطن". لكن بحلول العام 1914، أصبح القسم الأكبر من اليمين المتطرف مُحبَطاً، وغاضباً من صعود القوى الليبرالية التي كانت تناهض هذه التقاليد. بل تحوَّل ذلك إلى موقف صريح ضد النظام، وإلى حركة ثورية تقريباً، تصب جام غضبها حتى على القيصر نفسه.

وعلى المنوال نفسه، كان اليمين يخسر حرباً ثقافية حول أشكال جديدة في الفن والأدب، والمسرح الاجتماعي الناقد، والروايات التي تتعامل بشكل صريح مع موضوع الجنس، والرسم التعبيري. وكان مرد ذلك، في جزء منه، إلى القلق من وسائل الإعلام الجديدة كالراديو، والسينما، والصحف الواسعة الانتشار التي تمتلئ صفحاتها بأخبار الرياضة، والجريمة، والفضائح، بدلاً من أخبار السياسة والدبلوماسية. وينسحب الأمر نفسه على الحركات النسوية والمثلية التي كانت تتحدى مباشرة الهوية الذكورية. وفي العام 1906، نجح محتال موهوب يدعى فيلهلم فيوغت يُعرف بلقب "قبطان كوبينك"، تنكر بزي ضابط، في إقناع مجموعة من الجنود السُذَّج بمساعدته في سرقة مقر بلدية في إحدى الضواحي. وساهمت جرأته وتحطيمه لميثاق الانضباط العسكري في جعله بطلاً شعبياً، ونجماً إعلامياً، في حين تساءل العديد من الألمان كيف لهذا المجرم أن ينال التقدير والمديح في أرض باخ وغوته وكانط؟ وفي معرض العودة إلى تلك الحادثة، كتبت إحدى الصحف عام 1908 "إن الشعب سيحتاج إلى كارثة مدمرة داخلية أو خارجية كي يستعيد عافيته الأخلاقية".

وبالفعل، جاءت الكارثة بشكل الحرب العالمية الأولى، لكنها لم تبدل شيئاً في العناصر الأساسية للثقافة السياسية. فقد دخل الألمان مرحلة ما بعد الحرب، وهم معتادون سلفاً على التحشيد السياسي للجماهير بأنماط الولاء السياسي المقولبة بشكل صارم. ووجد اليمين السياسي نفسه أكثر من أي وقت مضى يواجه معركة يائسةً، وعلى الأرجح خاسرةً، ثقافياً وسياسياً.

تأثر الشعب الألماني بشكل بالغ بنهاية الحرب وعواقبها أكثر مما تأثر من مسار الحرب نفسها. وعبَّر المثقف المحافظ إدغار يوليوس يونغ عن ذلك، عندما كتب: "بالنسبة إلي، كانت ساعة ولادة صورة جديدة للعالم هي تلك الفترة المرعبة لانهيار جبهات القتال، وثورة نوفمبر، واحتلال بلدي".

شكلت اتفاقية فرساي، التي وُقعَت في الثامن عشر من حزيران/ يونيو عام 1919، العنصر الرئيسي لنظام ما بعد الحرب بالنسبة إلى الألمان. ونصت الاتفاقية على بنود، اقتُطعت بموجبها مناطقُ حدودية لمصلحة بولندا والدانمارك وبلجيكا وفرنسا، كما حُدد عديد القوات البرية والبحرية الألمانية، فيما حُظر كلياً تشكيل قوات جوية، ومُنع قيام اتحاد بين ألمانيا والنمسا. كذلك أقصت الاتفاقية ألمانيا من المنظمة الدولية الجديدة "عصبة الأمم". لكن ما لفت انتباه الألمان فعلاً هي الفقرة 231 حول "مسؤولية اندلاع الحرب" التي ألقتها الاتفاقية على عاتق ألمانيا منفردةً، والفقرة 232 التي فرضت على ألمانيا دفع تعويضات للدول المنتصرة، دون أن تحدد الاتفاقية مبلغاً لهذه التعويضات. لكن في عصر يُكرِّسُ النمط البيروقراطي، أسند رجال الدولة في باريس هذه المهمة إلى لجنة دأبت، على مدى ثلاثة عشر عاماً، على الاجتماع لإعادة التفاوض بشأن تحديد تعويضات الحرب.

وعلى الجانب الألماني، سيطر اعتقاد متواصل بأن اتفاقية فرساي كانت مجحفة جداً، وأن قسوتها تبرر حالة الغضب والتململ التي ساعدت على صعود النازيين. لكن في الحقيقة، كانت الاتفاقية من أكثر تسويات ما بعد الحرب العالمية الأولى اعتدالاً. ويتفق خبراء في التاريخ الألماني والدبلوماسي عموماً على أن الاتفاقية لم تكن هي السبب وراء جميع المشكلات التي واجهتها أوروبا ما بين الحربين. صحيحٌ أن جميع الألمان كانوا يرون في الاتفاقية ظلماً صارخاً، لكن ذلك لا يجعلها كذلك فعلاً. فالأهم أن الألمان كانوا منقسمين على أنفسهم إزاء كيفية الرد: هل يجب التغلب عليها بالمقاومة، بما فيها المسلحة، أم بالطرق الدبلوماسية الصبورة؟

وعلى القدر نفسه من الأهمية ذات الصلة بمسؤولية الاتفاقية عن تكريس حالة الانقسام بعد الحرب، كان هناك روايتان أخريان حول الحرب أيضاً الأولى هي "رواية 1914" التي تتناول بداية الحرب، ورواية "الطعن في الظهر" التي تتصل بنهاية الحرب والثورة والهزيمة. وارتبطت الروايتان واحدتهما بالأخرى بعلاقة جدلية تمثلت في الوحدة مقابل الانقسام، والوطنية مقابل الخيانة، والنصر مقابل الهزيمة، واليمين مقابل اليسار، وأغسطس مقابل نوفمبر.

وفي هذا السياق كتب الصحفي والمؤرخ الألماني سيباستيان هافنر "إن حقيقة اندلاع الحرب في طقس صيفي مشمس، مقابل انطلاق الثورة في طقس ضبابي بارد في تشرين الثاني/نوفمبر، كان بمثابة نقيصة بحق هذه الأخيرة. وأضاف هافنر - وقد كان تلميذاً في سن الحادية عشرة عند نهاية الحرب- أنه حتى الديمواقراطيين شعروا بثقل هذه المقارنة "ولم يرغبوا في أن يذكرهم أحد بالتاسع من تشرين الثاني/ نوفمبر، ولم يحتفلوا به أبداً، في حين أن النازيين -الذين كان يردون على تشرين الثاني/ نوفمبر 1918، بـ آب/ أغسطس 1914- فلطالما نالوا نصراً سهلاً". وعلى الرغم من أن ثورة تشرين الثاني/ نوفمبر شكلت نهاية للقتل و"عودة الأزواج إلى زوجاتهم، والحياة إلى الرجال"، لم يكن هناك إحساس بالفرح، "بل مجرد مزاج سيء، وقلق، واشتباكات مجنونة، وحالة من الاضطراب، وطقس سيء" على حد تعبير هافنر. لقد خَلَّفت الحرب كارثةً، إلا أن اندلاعها -كما يضيف هافنر- "كان مرتبطاً في ذاكرة كل ألماني تقريباً بعدد من أيام لا تُنسى من البهجة والحماسة الكبيرتين"، بينما لا تستحضر الثورة "سوى ذكريات قاتمة في عقول معظم الألمان".

وكما تشير كلمات هافنر، حددت المقارنة بين آب/ أغسطس وتشرين الثاني/ نوفمبر، وبشكل أساسي، ملامح المناخ السياسي لجمهورية فايمار. مع العلم أن كلتا الروايتين لا تستندان إلى الواقع، حتى إن الرواية الثانية

"الطعن في الظهر" كانت أقل مصداقيةً بكثير من الأولى. لكن، ومن بين العيوب القاتلة في جمهورية فايمار، كان هناك الملايين من مواطنيها يصدقون من أعماقهم أشياء غير صحيحة البتة.

وتبعاً لما كانت تردده رواية عام 1914، جلبت بداية الحرب وحدة مفاجئة ومنتشية إلى صفوف الشعب الألماني تلاشت فيها الانقسامات الحادة والمريرة بين الطبقات الاجتماعية، والأحزاب السياسية، والأديان والمناطق، أمام فورة الحماسة الوطنية. ويستذكر الكاتب المسرحي الألماني كارل تسوكماير -وقد كان فتىً مراهقاً يعيش مع عائلته في هولندا مع قرب اندلاع الحرب- حادثة جرت معه عندما كان على متن القطار في طريق عودته إلى مدينته ماينز، وشاهد ضابطاً شاباً من فرقة الخيالة يودع زوجته. وكتب تسوكماير بعد سنوات عن ذلك المشهد أن مصير ذلك الضابط "كان مصيري أيضاً. لم يعد هناك أي مسافة فاصلة"، وأن هذه المشاعر غمرته "بقوة دينية".

ما قدمه تسوكماير من وصف ليس سوى تعبير نموذجي عن حالة التفاؤل التي كانت سائدة عام 1914، علماً بأنه في الوقت ذاته تحدث عن عدة نساء باكيات لم يتقاسمن مع الآخرين، كما يبدو، ذلك التفاؤل. لقد تركزت هذه المشاعر في الحقيقة بين شبان الطبقة ما فوق الوسطى، مثل تسوكماير. أما القول إن الحماسة لاندلاع الحرب كانت قاسماً مشتركاً بين الألمان فهي خرافة بالمعنى الدقيق للكلمة. بالطبع لم يكن هناك استطلاعات للرأي في العام 1914 لقياس مشاعر الناس وآرائهم، لذلك يستند المؤرخون إلى المظاهرات ومقالات الرأي في الصحافة. وفي ما يتعلق بالمظاهرات، خرج العديد من سكان برلين إلى الشوارع في مظاهرات معارضة للحرب، وأخرى مؤيدة لها. وعلى سبيل المثال، شارك ما يقارب مئة ألف شخص في تجمعات عامة مناهضة للحرب في برلين في 28 تموز/ يوليو. أما في ما يتصل بالافتتاحيات ومقالات الرأي فقد تراوحت بين الأمل باحتواء

الحرب والانتقاد العام لوحشيتها، دون أن يلغي ذلك وجود بضعة صحف أظهرت حماساً لما كان يحدث. ومع تطور الحرب واتساع ظاهرة المستقلين من جهة، وحزب الوطن من جهة أخرى، أصبح الشعب الألماني أكثر انقساماً. وربما كان هذا هو السبب تحديداً وراء بقاء الأمل بزمن تذوب فيه الخلافات ويستعيد الألمان وحدتهم في كفاح مشترك يبقى قائماً كمثال يتوق إليه الجميع، كما لو كان حنيناً إلى الفردوس المفقود. صحيحٌ أن جميع السياسيين من مختلف الانتماءات كانوا يستحضرون ذكرى 1914، لكن ما سيثبت لاحقاً أن النازيين هم من استثمروها لمصالحهم.

كان القادة العسكريون الكبار، هيندنبورغ ولودوندورف ومن يدور في فلكهم من الضباط، هم المسؤولون بشكل رئيسي عن ولادة رواية "الطعن في الظهر". فقد أدرك هؤلاء أن ألمانيا خسرت الحرب عسكرياً، وأن العقلانية تقضي إجراء المفاوضات للخروج من الحرب بأفضل وسيلة. كما كانوا يتمتعون بقدر كاف من الحنكة لتجنيد زعيم حزب الوسط ماتياس إيرتسبيرغر -الراعي الرئيس لقرار السلام في الرايخستاغ عام 1917- للقيام بهذه المهمة التي لا تحظى بتوافق الجميع انطلاقاً من واجبه الوطني. وبالفعل وافق إيرتسبيرغر متأثراً إلى حد البكاء بحملات المناشدة وأجرى المفاوضات، ليُكافأ على ذلك لاحقاً بحملات التشهير وتشويه السمعة من قبل اليمين السياسي، وأخيراً باغتياله في عام 1921.

وفي ربيع عام 1919، كتب عقيدٌ في الجيش يُدعى ماكس بانر منشوراً بعنوان: **"هل كان ممكناً تجنب الحرب، أو تحقيق النصر، أو إيقافها؟"**. تجدر الإشارة إلى أن العقيد بانر كان المستشار الرئيسي للشؤون السياسية والاقتصادية لدى لودندورف. وجاء رده على السؤال الوارد في عنوان المنشور واضحاً: كان بمقدور ألمانيا كسب الحرب في البداية، وأن الاحتمالات القائمة أثناء الحرب كانت جيدة. لكن ألمانيا، وعلى حد تعبيره، "خسرت الحرب حصرياً، بسبب إخفاق الوطن، وعلى وجه التحديد، بسبب الثورة التي حتمت مصير ألمانيا في أشد اللحظات صعوبةً".

وفي تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1919، مَثَل هيندنبورغ ولودندورف سويةً في جلسة أمام لجنة شَكَّلَتَها الجمعية الوطنية للتحقيق بأسباب الهزيمة في الحرب. وكان لافتاً أنهما حضرا الجلسة بالزي المدني، وبررا ذلك علناً بالقول إن الزي العسكري كان سيعبر عن قَدْرٍ كبير من الاحترام للبرلمانيين الذين كانوا سيسمعون شهادتهما. وعندما حاول رئيس اللجنة جورج غوتاين استجواب هيندنبورغ، تجاهله المارشال وقرأ بياناً كان قد أعده لودندورف. حاول غوتاين مقاطعته لكن هيندنبورغ تابع القراءة بكل برود. وقال المارشال: "على الرغم من تفوق العدو عُدةً وعديداً، كان بمقدورنا أن نحسم الصراع لمصلحتنا"، لكن "تضارب المصالح الحزبية أدى إلى زعزعة إرادتنا في القتال"، "وأضحى الانهيار حتمياً"، "ولم تكن الثورة إلا القشة الأخيرة". ثم اختتم بيانه بعبارة ستصبح أكثر مقاطع البيان رسوخاً في الذاكرة: "لقد طُعِنَ الجيش الألماني في ظهره".

تتشارك روايتا 1914 والطعن في الظهر بعدد من النقاط المهمة. فكلتاهما استندتا إلى فكرة أن ما يحسم الحرب هي قوة الإرادة لا العُدة والعدد، كما ذكر هيندنبورغ. كما أن كلتا الخرافتين تدعمان استراتيجية سياسية محافظة ومناوئة للديمقراطية. وفي صلب تفكير الجناح اليميني، كانت الوحدة التي تجلت في آب/ أغسطس عام 1914 الردّ على الانهيار الذي وقع في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1918. تمظهر الشكل النهائي لهذه الفكرة في المفهوم النازي لـ **وحدة الشعب** الذي سوف يعيد، بحسب ادعاء النازيين، إحياء روح 1914.

أما الفكرة التي حَمَّلت الديموقراطيين مسؤولية خسارة الحرب، وأن معاهدة فرساي كانت ثمرة مؤامرة دبرها الديموقراطيون ضد الجيش: "الطعن في الظهر" فقد بدأت أكذوبةً سوقَّها قادة الجيش لتبرير إدارتهم للحرب. وتلقف القوميون هذه الأقاويل لنزع الشرعية عن الديموقراطيين الذين ردوا على ذلك -كما كتب المؤرخ جيفري فيرهيه- "بنبرة الإنكار

التي يتبناها العقلاء عندما يواجهون جنوناً مطبقاً". على أي حال، صدق الملايين من الألمان رواية الطعن في الظهر، دون أن يهتموا إن كانت منطقية أم لا. وربما جرى ذلك لأنها تتفق مع اعتباراتهم الأيديولوجية، أو حتى مع حاجاتهم النفسية. أي إنهم أرادوا أن يصدقوها وحسب.

إن المشكلة الأساسية التي واجهت أول ديموقراطية في ألمانيا هي في غياب الإجماع العام على سبب الهزيمة في الحرب، أو على الطريقة المناسبة للرد على التسوية ما بعد الحرب. بالنسبة إلى أولئك الذين قبلوا نتائج الحرب، اعترفوا أن ألمانيا هُزمت على يد تحالف غني بالموارد والقوى البشرية، والقوة البحرية. فقد شكلت الرأسمالية البريطانية الأميركية وامتدادها الامبريالي عالم ما بعد الحرب، كما أنشأت القوة الأنغلو- أميركية عولمةً قبل أن يستخدم أي شخص هذه الكلمة بوقت طويل. وفي هذا السياق، كان الخلل الحاصل في موازين القوى في العالم مثيراً للانتباه. إذْ تقدم اتفاقية واشنطن البحرية عام 1922 وصفاً مختصراً يوضح ذلك. وفي عالم العشرينيات، كانت الكلفة والتطور التقني هما اللتان جعلتا من السفن الحربية التعبير الأوضح لقوة الدولة. لذا حددت الاتفاقية معدلاً يقارن نسبة بناء السفن الحربية بين الدول العظمى حينذاك، وهي بريطانيا والولايات المتحدة واليابان وفرنسا وإيطاليا على التوالي بـ 10:10:6:3:3. ولم تُدرج أي دولة أخرى في هذا التصنيف.

لذلك وجد الألمان أنفسهم أمام خيارين لا ثالث لهما: إما القبول بالعولمة الأنغلو-أميركية، والعمل على التوافق معها وفي نهاية المطاف تسخيرها لمصلحتهم، وإمّا التمرد عليها ومواجهتها، خلافاً للوقائع وللمنطق. وهذا تحديداً كان الخيار الأساسي الذي بقيت تواجهه السياسة الخارجية لجمهورية فايمار طوال وجودها.

من هذا المنطلق، بدأ فرز المواقف بين الديموقراطيين والقوميين، بين قبولِ أو رفضِ نتائج الحرب، فاتخذ السياسيون الديموقراطيون وجهة

التوافق مع النظام العالمي، في حين كان الرفض والتمرد المسار الذي سلكه اليمين القومي.

ولم يكن هناك شخصية أهم من الجنرال لودندورف لتفصيل عواقب ذلك المناخ السياسي، كما فعل أولاً في شهادته أمام لجنة الجمعية الوطنية، ولاحقاً، بعد بضعة سنوات، في كتاب مميز عن ذكريات الحرب، حمل عنوان **حرب شاملة** تُرجم إلى الإنجليزية تحت عنوان **أمة في حالة حرب**. وما كان أكثر دلالةً ودقةً -وإن بشكل غير مقصود- أن المترجم إلى الإنجليزية نقل مصطلح لودندورف الذي يعني حرفياً "حرب شاملة" على أنه "حرب شمولية". لكن المجتمع الشمولي هو ما كان حاضراً في ذهن لودندورف تحديداً. فإذا كانت ألمانيا قد خسرت الحرب العالمية الأولى بسبب تفكك وانهيار الجبهة الداخلية، فلابد أن تكون المهمة الرئيسية للدولة التحكم بالمجتمع بطريقة فعالة، منعاً لتكرار حالة التفكك والانهيار. أي يجب سحق أي انشقاق بوحشية، وتعبئة الشعب بأكمله، بطريقة أو أخرى، من أجل المجهود الحربي، إما في المصانع وإما في القوات المسلحة. كما يجب الرقابة على الأفكار واستخدام الدعاية الفعالة. وبالطبع لا يمكن إلا لنظام ديكتاتوري أن يقوم بذلك كله، وبالتالي لم تكن الديموقراطية خياراً للقوميين الذين رفضوا القبول بنظام ما بعد الحرب.

وقد أوضح ذلك مستشار لودندورف السابق ماكس باور بقوله "لكي تحكم، عليك أن تسيطر". وفي أوائل العشرينيات، بدأ لودندورف بالعمل وتمرير أفكاره إلى العريف الشاب أدولف هتلر القادم من مستشفى باسووك.

2

"لا تصدقوه، إنه يقول الحقيقة"

المسؤولون قلقون على سلامته.

هناك تحذيرات باحتمال قيام الشيوعيين بمهاجمته. حشود ضخمة من الناس تجمعت أمام مبنى المحكمة الجنائية الضخم في 91 شارع تورم، في منطقة موابيت في برلين. أغلبية المحتشدين هم من قوات العاصفة النازية، لكن لا يمكنك أن تضمن ألا يكون أحد الشيوعيين قد شق طريقه إلى هناك في مكان ما. رجال الشرطة، وهم بالعشرات، يدفعون المتظاهرين النازيين تدريجياً إلى الشوارع الجانبية.

تقع المحكمة عند تقاطع شارعي تروم وراتينوفر منذ العام 1906، ومع ذلك لا يزالون يطلقون عليها اسم المحكمة الجنائية الجديدة. وعند الطرف الآخر من كتلة المباني حيث يلتقي شارعا راتينوفر وألت-موابيت، يقع مبنى المحكمة القديمة التي يعود تاريخها إلى سبعينيات القرن التاسع عشر. وتمتد بينهما زنزانات الحبس الاحتياطي التي تربط المبنيين بممرات سرية. لقد تم إدخاله إلى المحكمة عبر هذه الممرات لتفادي الجماهير المحتشدة في الخارج.

لا يرتدي زياً مميزاً اليوم، بل مجرد بزة مدنية زرقاء اللون، إلا إذا استثنينا دبوس الصليب المعقوف في عروة أحد أزرار سترته، وهو ما يدل على انتمائه السياسي. بحركة سريعة، يحضره الحراس برفقة مساعده فيلهلِم بروكنر إلى قاعة المحكمة 664 في الطابق الثالث.

عدما دخل القاعة، نهض المتهمون النازيون الأربعة على أقدامهم رافعين يدهم اليمنى وصاحوا:

"يحيا هتلر". وبعدها رفضوا أن يجلسوا في مقاعدهم. وسجلت صحيفة دير أنغريف النازية الحدث بافتخار: "منتصبي القامة يتقدون حماساً، أظهروا لقائدهم أنهم لا يخضعون، حتى وهم في سجنهم".

إنه الثامن من أيار/ مايو عام 1931. حضر زعيم حزب العمال القومي الاشتراكي أدولف هتلر إلى المحكمة بمذكرة استدعاء إلى المحكمة الجنائية، للإدلاء بشهادته في محاكمة أربعة من عناصر قوات العاصفة النازية متهمين بمحاولة قتل. إنه يواجه تحدياً صعباً. فقبل أشهر فقط، فتحت قوات العاصفة النار عشوائياً على قاعة للرقص مزدحمة برواد حفلة، كان يقيمها نادٍ لهواة التنزه محسوب على الشيوعيين، فجرحوا ثلاثة شبان يمثلهم في المحكمة الآن المحامي الاشتراكي الراديكالي هانز ليتن البالغ من العمر سبعة وعشرين عاماً. يسعى ليتن إلى استخدام دليل هتلر شخصياً، ليثبت للمحكمة أن العنف النازي ليس مجرد شبانٍ برؤوس حامية انجرفوا بعيداً في تصرفاتهم، وإنما عنف ممنهج، ومدروس بأوامر مباشرة من هتلر.

إن الإجابة على أسئلة ليتن ستدفع هتلر إلى ورطة. فهو، في واقع الأمر، عادة ما يشجع قوات العاصفة على ممارسة العنف. فهذه هي غايتهم. لكن النجاح الانتخابي الذي يتمتع به النازيون، منذ انتخابات أيلول/ سبتمبر عام 1930، يستند إلى استقطاب ناخبي الطبقة الوسطى. ولتحقيق هذا الهدف، أقسم النازيون أَغْلَظَ الأَيْمان بأنهم مخلصون لدستور فايمار وقوانين ألمانيا. لكن ناخبي الطبقة الوسطى -أو هكذا يُفترض- لا يحبون على أي حال الناشطين السياسيين الفَظِّين. ومن ثَمَّ فإن الكثير من العنف النازي سيبعدهم عن انتخابهم. لكن الكثير من الولاء للدستور سيُغضب الثوريين الجامحين في قوات العاصفة الذين يحلمون بانقلاب عنيف على الحكم. وأيا كان الطريق الذي سيختاره هتلر ليقدم برنامج حزبه، فقد يخسر أحد الأجنحة المؤيدة له داخل الحزب، أو يعرض نفسه للمقاضاة بجرم الحنث باليمين أمام المحكمة.

ولم تكن هذه مشكلة هتلر الوحيدة وهو يدخل قاعة المحكمة. فهو يكره المواقف التي لا يستطيع التحكم فيها والسيطرة على مجرياتها، وتُشوه هالة القوة المحيطة به. يضاف إلى ذلك أيضاً قلقه العميق من مستوى تحصيله العلمي. فمن باب المقارنة، كان ليتن ابن عائلة مرموقة، وطالباً متفوقاً في كلية الحقوق. أما في قاعة المحكمة، فهو سيد المجادلات القانونية بلا منازع الذي لا يخشى القضاة، ولا الشهود، ولا المدعين العامين، ولا يكل ولا يمل من مطاردة الأدلة، ويتمتع بذاكرة فوتوغرافية. وفوق هذا كله، كان أحد أبويه يهودياً.

يستمر الاستجواب ثلاث ساعات. هدوء ليتن وأسئلته المتواصلة بلا رحمة ينهكان هتلر. في ذلك اليوم، كما في أيام أخرى، ينجح المصور ليو روزنتال، المتخصص بالتقاط وتهريب صور المحاكمات، في إدخال كاميرته إلى قاعة المحكمة. وتصطاد عيناه الحادتان هتلر في وضعية تكشف الكثير: هتلر، منحنياً إلى الأمام، وكتفاه مشدودان، يعتريه القلق والتوتر، لم يكن لحظتها ذلك (الفوهرر) القائد الجبار.

وتأتي ذروة الحدث مع السجال حول منشور كتبه مسؤول الدعاية في الحزب النازي جوزيف غوبلز، بمثابة دليل مختصر حول الأيديولوجية النازية لمنتسبي الحزب الجدد. يتضمن البيان وعداً بأنه في حال عدم وصول الحزب إلى السلطة عن طريق الانتخابات، "عندئذ، سنقوم بثورة ونطارد البرلمان إلى الجحيم، ونؤسس الدولة على قبضات الألمان وعقولهم". وكان يسعى لمعرفة أنه إذا كان حزب هتلر شرعياً، فكيف يمكن إعداد هذا المنشور من قبل مسؤول الدعاية، ويُنشر من قبل الناشر الرسمي للحزب؟ في الجلسة الصباحية للمحاكمة، يتفادى هتلر هذا السؤال بإنكاره قطعياً أن يكون الحزب قد أقر هذا المنشور. لكن، وعند استراحة الغداء، يعلم ليتن أن المنشور لا يزال يُوزعُ في أثناء اجتماعات غوبلز، ويباعُ في مراكز الكتب النازية. هل يستطيع هتلر أن يفسر ذلك؟ هتلر لا يستطيع. فينفجر بغضب مكبوت يائس قابله ليتن بهدوء وإصرار على سماع الجواب.

في هـذه اللحظـة، يرمـي القـاضي كـورت أونيزورغِـه بطـوق النجـاة إلى هتلـر. أونيزورغِـه، مثـل العديـد مـن قانونيـي فايمـار، ينتمـي إلى حـزب الشـعب الوطنـي الألمـاني؛ المؤسسـة الجامعـة للتيـار المحافـظ. ولا يعـود السـبب إلى أنـه يحـب النازيـين المشاكسـين، لكـن إذا مـا خُيِّر فإنـه يفضلهـم عـلى الاشـتراكيين والشـيوعيين. فينـبري القـاضي أونيزورغِـه إلى وقـف اسـتجواب هتلـر، لانتفـاء العلاقـة بـين السـؤال وموضـوع المحاكمـة، عـلى حـد قولـه. وهنـا أُنقـذَ هتلـر الـذي كان محرجـاً ومهـزوزاً.

كانـت أكـثر التعليقـات ذكاءً عـلى هـذه الحادثـة تحديـداً مـا جـاء في مقـال للكاتـب الصحفـي والمحامـي الليـبرالي رودلـف أولـدن. ففـي اليـوم التـالي للمحاكمـة، نـشرت جريـدة برليـنر تاغيبـلات عمـوداً تحسّر فيـه أن هتلـر "أقسـم وأقسـم مـراراً عـلى شرعيتـه"، "لكـن قلـةً قليلـة مـن صدقتـه"، متسـائلاً إن كان هتلـر فعـلاً يريـد أن يصدقـه أحـد؟ وفي معـرض إجابتـه عـن هـذا السـؤال، يـرى أولـدن أن النـواة الرئيسـية لمؤيـدي النازيـة، وتحديـداً الشـباب في قـوات العاصفـة، لا يريـدون تصديقـه لأنهـم يفضلـون حديـث الثـورة العنيفـة. وهنـاك النازيـون السـابقون المخذولـون الـذي كانـوا يعتقـدون أنهـم انضمـوا إلى حركـة ثوريـة وباتـوا عـلى قناعـة الآن بـأن هتلـر مـوالٍ للدسـتور، فـ "انفضـوا عنـه بخيبـة أمـل كبـيرة".

ويكشـف أولـدن اسـتراتيجية ليـتن الذكيـة. إذا كان بالإمـكان جعـل هتلـر تحـت القَسَـم يـصر عـلى شرعيـة حزبـه، ويرفـض التحريـض عـلى العنـف الـذي دائمـاً مـا يرسـله بالبرقيـات إلى قـوات العاصفـة، فـإن ذلـك سـيكلفه خسـارة بقيـة مؤيديـه. ويلخـص أولـدن الرسـالة التـي يأمـل ليـتن إيصالهـا إلى الشـعب الألمـاني عـلى الشـكل التـالي: "لا تصدقـوه، إنـه يقـول الحقيقـة". إلا أن آمـال وتوقعـات أولـدن مـن زملائـه في الوطـن لم تكـن متفائلـة، إذْ يضيـف قائـلاً: "لكـن النـاس لا يفهمـون ذلـك سريعـاً".

وبالفعـل هـم لا يدركـون ذلـك، وسـيدفع ليـتن لاحقـاً ثمـن مـا جـرى في تلـك المحاكمـة ذلـك اليـوم. فبعـد أقـل مـن سـبع سـنوات، يقـضي ابـن السـابعة والأربعـين المحطـم مـن سـنوات التعذيـب والأشـغال الشـاقة نحبـه في مـكان جديـد، شيء مـا يُدعـى معسـكر الاعتقـال.

في **الواقع كان هتلر يكذب** طوال الوقت، على الرغم من أنه ذكر وبوضوح، ما كان يفعله، وما خطط له. لكن هذا هو التناقض الجوهري لدى أدولف هتلر.

ونرى هذا التناقض جلياً في ذكريات الأشخاص المقربين من هتلر. ومن هؤلاء هانز فرانك الذي سيصبح محامي هتلر، وحاكم بولندا إبان الاحتلال النازي. إذ يقول فرانك إنه عندما سمع هتلر أول مرة وهو يتحدث عام 1920، شعر أن "هناك شخصاً يعني ما كان يقول، ولا يريد أن يقنعك بشيء لا يؤمن به شخصياً بشكل كامل". بالمقابل كتب كونراد هايدن - وهو صحفي من الحزب الديموقراطي الاجتماعي- أن هتلر "في ذروة خطاباته كان يقع ضحية إغراء ذاته، وسواء أكان ما يقول هو الحقيقة الناصعة أو أكبر الأكاذيب، كان في تلك اللحظة يعبر بشكل كامل عن كينونته.... حتى إن هالة من الصدقية كانت تغمر مستمعيه". تجدر الإشارة هنا إلى أن كونراد كان يعمل مراسلاً في برلين وحضر العديد من خطابات هتلر، ويعتبر أول كاتب مهم لسيرة حياة هتلر.

من جهة أخرى، يقول الكونت لوتس شفيرين فون كروسيغ وزير المالية في حكومة هتلر إن هذا الأخير: "لم يكن صادقاً حتى مع ثُقاته الحميمين... وبرأيي، كان كذوباً إلى درجة أنه لم يعد يفرق بين الكذب والصدق".

في كتابه **كفاحي**، يتطرق هتلر إلى افتقاره للصدق بصدق واضح عندما يقول "إن الرسالة السياسية كلما كانت أقل صدقاً، كانت أفضل". ويشرح معنى ذلك بأن السياسيين يخطئون عندما يتفوهون بأكاذيب صغيرة لأنها سرعان ما تُكتشَف، مما يدمر مصداقيتهم. لذلك من الأفضل بكثير استخدام "الكذبة الكبيرة"، لأنها دائماً ما تنطوي في ضخامتها على عنصر محدد من المصداقية. ويتابع قائلاً: "لأن الجماهير العريضة من الناس يمكن إفسادها بسهولة من أعماق قلوبها أكثر من إفسادها بشكل واعٍ أو مقصود". "لأن بساطة عقولها الخام أكثر استعداداً لكي تقع ضحية

الكذبة الكبيرة من نظيرتها الصغيرة، طالما أنهم أنفسهم يكذبون بشأن أمور صغيرة، لكنهم يشعرون بالخجل لو كانت الكذبة كبيرة جداً". فهؤلاء الناس العاديون البسطاء -بحسب رأي هتلر- لن يفكروا أبداً باختلاق "أكاذيب هائلة" ولا يمكنهم أن يتخيلوا الآخرين يفعلون ذلك. الحقائق لا تهم على الإطلاق. "حتى عندما تُقدم لهم الحقائق، فإن هؤلاء الناس العاديين سيشككون ويترددون وسيواصلون الاعتقاد بأن بعض الكذبة على الأقل صادق وصحيح. فبالنسبة إلى معظم الناس الجسورين، دائماً ما يترك الكذب وراءه شيئاً ما معلقاً، وهذه حقيقة يدركها جيداً خبراء الكذب الكبار في هذا العالم".

وهنا تسلك جدلية هتلر منحى غريباً، فبعد تأييده لاستخدام "الأكاذيب الكبيرة" لتحقيق مكاسب سياسية، ألقى باللوم على من تخيل أنهم أعداؤه الرئيسيون لكونهم "الكذابين الحقيقيين": "منذ زمن سحيق، كان اليهود أعظم الخبراء في استخدام الكذب والافتراء". وتابع قائلاً إن "الفيلسوف الكبير آرثر شوبنهاور سبق له أن وصف اليهودي بـ "سيد الكذب الكبير". وفي حال لم تدرك حقيقة بُعد نظر شوبنهاور -والكلام لا يزال لهتلر- أو لم ترغب في تصديقه، فإنك لن تستطيع أبداً أن تساعد الحقيقة كي تسود". لكن هتلر لم يوضح تلك الحقيقة التي يمكن لك أن تساعدها كي تسود بواسطة الأكاذيب.

قد يبدو مفاجئاً أن هذه المقاطع تنطوي على حقيقة أخرى لافتة، مفادها أن هتلر لم يكن يحمل للشعب الألماني سوى الاحتقار. فكما هو معروف للجميع أن هتلر كان قومياً متطرفاً يحلم بأن يجعل من ألمانيا أمة عظيمة مرة أخرى، ويسعى إلى زيادة ثروتها، وتوسيع رقعتها الجغرافية وتأسيس إمبراطورية على تفوق العنصر البشري الألماني. ألم يكن الألمان سادة العرق البشري؟ لكن إذا أمعنت جيداً في كلماته، للاحظت أنه كان -منذ بداية مسيرته السياسية وحتى نهايتها- يرى في الألمان شعباً جاهلاً، وأحمقاً، وضعيفاً.

في كتابه **كفاحي**، يقول هتلر "إن الجماهير جبانة وكسولة"، لذلك لا جدوى من محاولة الوصول إليها بالرسائل المعقدة حول الرسوم ومعدلات الضرائب أو تفاصيل الاتفاقيات الأجنبية. واعتبر أن هذه كانت من أخطاء سياسيي الطبقة الليبرالية الوسطى "البرجوازيين"، عندما حاولوا القيام بذلك عبر إلقاء محاضرات سياسية جافة وعالية المستوى. فالناس العاديون -كما يقول هتلر- لا يستطيعون فهم هذه الأمور، ولن يزعجوا أنفسهم بمحاولة فهمها. لذلك إن أردت الغوص عميقاً في عقول هؤلاء الناس، يجب أن تكون الرسالة بسيطة وعاطفية -وبالفعل كان للكره دوره- لا عقلية مع ضرورة تكرارها باستمرار.

في الواقع، صب هتلر غضبه في مراحل متعددة من مسيرته السياسية على "نوعية" الشعب الألماني. ويحتوي كتابه **كفاحي** على مقطع لافت للانتباه حول التأثير المُفسِد لحالة الفقر في المدينة على عائلة من الطبقة العاملة. وفي كتابه المعروف باسم **الكتاب الثاني** -ويُعتَبَرُ تتمةً لكتاب **كفاحي** لكنه لم يُنشر إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية- يشتكي هتلر من أن الشعب الألماني لا يتمتع بنفس المواصفات العادية للشعب الإنجليزي على سبيل المثال، على الرغم من أن "الإنجليزي... قد لا يصل أبداً إلى الأعماق الخطيرة لشعبنا ولا إلى قممه البارزة". لذلك عندما أخذت الحرب العالمية الثانية تسير عكس ما يشتهيه هتلر، راجت مقولة له كان يجري ترددها أغلب الأحيان ومفادها: "إذا تبين أن الشعب الألماني ضعيف، فهو لن يستحق شيئاً أخر سوى أن يُباد على يد شعب أقوى من دون شفقة من أحد".

هناك مفارقة أخرى حول هتلر تقع في صميم نجاحه السياسي المُحَيِّر، إذْ طالما يشير المؤرخون إليه كشخص معزول تماماً عن الآخرين. فهو لم يحب أحداً سوى أمه، بينما كان كل شخص آخر مجرد أحد ما يستغله. لم يكن له أصدقاء مقربون، وحتى لو كان لديه يوماً، فقد قطع صلته بهم أو

قتلهم. كما لم يكن لديه علاقات عاطفية مع النساء. (إذ لم تكن خليلته إيفا براون سوى شخص آخر قام باستغلاله). وقال العديد من الأشخاص الذين أمضوا معه وقتاً طويلاً إنه كان على الدوام شخصاً منعزلاً ومجهولاً.

بيد أن هذا الرجل امتلك حدساً مميزاً لأفكار وآمال ومخاوف بل ولحاجات الآخرين، أفراداً وجماعات. ووصف إرنست هانفشتينغل -وهو الذي خدم مديراً لمكتب الصحافة الأجنبية لهتلر لفترة طويلة- هذه الميزة باستخدام استعارة تكنولوجية بقوله: "حالما ينضم لرفقته شخص ما مثير للاهتمام، ولم يكن هناك أحد لم يجده كذلك لبعض الوقت، كان بمقدورك تقريباً أن تراه وهو يستنفر آلته الداخلية". عندئذ، كما يستذكر هانفشتينغل، "تنطلق أجهزة الكشف والاستشعار الرنانة لديه بالعمل، ليحصل خلال وقت قصير على صورة واضحة لطول موجة تطلعات ضيفه السرية وعواطفه الخفية"، حتى يكاد يُخَيَّلُ لمحدثه "أن لدى هتلر تعاطفاً وتفهماً عميقين". ويختتم هانفشتينغل كلامه بأن هتلر "امتلك قدرات جبارة على الإقناع لم أرَ مثيلاً لها لدى أي رجل أو امرأة قابلتهما في حياتي".

وكما أوضح هانفشتينغل، لم يكن ذلك مجرد حيلة كان يستخدمها هتلر لخداع الجماهير. فقد أثار انطباعاً محبباً لدى مجموعة من رجال الدولة المحنكين في العالم من أمثال رئيسي وزراء بريطانيا ديفيد لويد جورج ونيفيل تشامبرلين. وقد يرتبط هذا في جزء منه بقدرته على التمثيل التي تُعد واحدة من مواهبه العظيمة إلى جانب الخطابة. كان بمقدور هتلر أن يظهر بشخصية العقلاني المتواضع متى كان ذلك مناسباً له، كما هو الحال بالنسبة لنوبات الغضب ودموعه العاطفية التي كانت مجرد عروض تُستخدم لإحداث تأثير ما. كذلك كانت خدعته عندما كان يصافح مؤيديه وهو ينظر عميقاً لوقت طويل في عيونهم والتي قلما أخفقت في أن تترك وراءها انطباعاً قوياً لا يزول أبداً.

تدرب هتلر دون كلل حتى يحقق ما كان يسعى إليه من تأثير في الأفراد

والجماهير. وفي هذا السياق، كان مصوره هاينريش هوفمان يلتقط له صورة تلو الصورة، وهو يلقي خطاباته كي يعدل حركة اليد وتعابير الوجه. وكتب كونراد هايدن الذي وضع سيرة حياة هتلر استناداً إلى شهاداتٍ من مصادر رفيعة المستوى داخل الحزب النازي، كيف استعد هتلر ذات مرة للقاء زائر مهم بمساعدة أحد مناصريه رودلف هيس. بدايةً، أرسل هتلر هيس للقاء الضيف ليعود إليه لاحقاً، ويقدم له تقريراً كاملاً عنه، ويُجري الاثنان بروفة على اللقاء يلعب بها هيس دور الزائر. وهنا يبلغ هيس هتلر أن الضيف يتوقع منه "هيبة طبيعية"، و"يمكنك أن تتحدث لفترة طويلة. إرادتك قوية لا تهتز". فيسأله هتلر: "أي يمكنه التحدث بصوت حازم دون صراخ؟" "بالتأكيد"، يجيبه هيس. يجرب هتلر هذه الطريقة فيطلب منه هيس أن يتحدث "بهدوء أكبر دون حماس أو أوامر، فأنت لا تريد شيئاً منه... دع الأمور تسير نحو خواتيمها". وفي نهاية المطاف، سُرَّ هتلر من هذه الطريقة. وبعد أن تحدثا لبضع دقائق، توقف هتلر وقال لهيس "أظن بأننا حصلنا الآن على ما نريد".

وعلى الرغم من نشر عدد لا يحصى من السير الذاتية له، يبقى الشك والغموض والجدل مصاحباً لكل شيء تقريباً نود أن نفهمه فعلاً حول هتلر. في **كفاحي** يزعم هتلر أنه تعلم العداء للسامية عندما كان شاباً في فيينا. ويصف الحرب بأنها كانت التجربة الأعظم في حياته، والحرب التي خاضها بشجاعة واقتدار. كما يشير إلى أن الأنباء المدمرة عن الهدنة هي التي دفعته كي يقرر الدخول إلى المعترك السياسي للقصاص من "مجرمي ثورة نوفمبر" الذين خانوا ألمانيا في الحرب، وفرضوا على البلاد حكومة غير شرعية.

هناك الكثير من البحوث الحديثة التي أشبعت درساً وتمحيصاً كل شاردة وواردة تقريباً حول حياة هتلر، لكن يبقى السؤال: كيف يمكن لنا أن نفهم هذا الرجل؟

وُلد أدولف هتلر في مدينة براوناو آم إن النمساوية في العشرين من نيسان/أبريل عام 1889. كان والده ألويس هتلر موظفاً في الجمارك النمساوية -الهنغارية، وشق ألويس الفتى الريفي الفقير، الذي لم يتلق تحصيلاً علمياً عالياً، طريقاً صعباً وطويلاً للصعود على السلم الاجتماعي. أما والدته فهي كلارا بولتسل؛ وهذا كان اسمها قبل الزواج من ألويس الذي يكبرها ثلاثة وعشرين عاماً. وكانت في الواقع ابنة أخته[4] وزوجته الثالثة. وكان أدولف رابع أطفالهما وأول من نجا منهم من الموت في سن الطفولة.

ومنذ البداية يمكننا أن نجد واحدة من تلك النقاط الغامضة ذات التأثير المهم. فوالد هتلر وُلد من علاقة خارج مؤسسة الزواج التقليدية، ولم تكشف الأبحاث مطلقاً ما يدل على هوية والد ألويس الحقيقي. أما والدته فهي ماريا آنا شيكلغروبر التي ظلّ ألويس يحمل كنيتها حتى بلغ من العمر تسعةً وثلاثين عاماً. ومن أكثر المرشحين لأبوة ألويس الحقيقية واحدٌ من الأخوين هيدلر؛ يوهان جورج أو يوهان نيبوموك. يوهان جورج تزوج ماريا بعد ولادة ألويس، لكنه لم يعط اسمه لابن زوجته. لكن وبعد وفاة يوهان جورج، أجرى شقيقه يوهان نيبوموك الترتيبات لإعلان ألويس ابناً شرعياً ليوهان جورج وتغيير كنيته إلى هيدلر التي كانت تُلفَظ "هتلر" كما كان شائعاً في الريف النمساوي في ذلك الحين.

من ناحية أخرى فَنَّدت الأبحاث الحديثة ما تردد في الماضي من مقولات، رغم أن هانز فرانك وآخرين أقروا بصحتها، فيما يخص ما كان يشاع أن والد ألويس الحقيقي كان من عائلة يهودية في مدينة غراتس النمساوية، حيث كانت والدة ألويس تعمل خادمةً في منزلهم. وربما كان هتلر على ما يبدو يخشى أن يكون ذلك صحيحاً، وهو ما تجلى في

4 ذكر المؤلف أن كلارا بولتسل هي ابنة أخت ألويس، في حين أن مصادر أخرى تتحدث عن أن جد كلارا "والد أمها" أو شقيقه كان والد ألويس الحقيقي، مما يجعلها ابنة ابنة أخته (www.findagrave.com/memorial/11645). كما تشير جميع المصادر التاريخية إلى أن ألويس هيدلر وكلارا حصلا على وثيقة إبراء كنسي من شبهة زواج المحارم. (م)

العديد من أفعاله. من المحتمل أن تكون هذه الرواية السبب وراء هوسه بفكرة نقاء الدم، بما في ذلك دمه، وبقوانين نورمبيرغ عام 1935، لمنع النساء "الآريات" من العمل خادمات في منازل اليهود. كما أمر هتلر مراراً الشرطة السرية (الغستابو) بالتحري عن أصل عائلته، دون أن تُفضي تلك التحقيقات إلى نتيجة حاسمة. غير أن ما يثير الاهتمام فعلاً هو المصير الذي لاقته قرية دولرزهايم النمساوية التي وُلد فيها والد هتلر ودُفنت فيها جدته. فبعد أن ضم الألمان النمسا في آذار/ مارس 1938، أمر هتلر بتحويل القرية إلى ميدان تدريبي لرمايات المدفعية. لذلك أُخليت القرية من سكانها وأمطرتها المدفعية الألمانية بقذائفها بما في ذلك مقبرة القرية أيضاً.

وقال هتلر، في وقت لاحق، إن أباه ألويس قَدَّمَ له معروفاً كبيراً بتغيير كنيته. إذْ من الصعب أن يتخيل أحدٌ جماهير حاشدة تردد: "يحيا شيكلغروبر"، اللهم إلا في حالة السخرية كما في فيلم تشارلي شابلن **الديكتاتور العظيم**.

كان لطبيعة عمل ألويس وحالة عدم الاستقرار بشكل عام دورها في تنقل العائلة باستمرار من منطقة إلى أخرى، وصولاً إلى باساو على الجانب الألماني من الحدود، حيث اكتسب هتلر اللكنة البافارية التي لازمته طوال حياته، ومن ثم إلى لينتس في النمسا. وخلافاً لما هو شائع، يبدو أن طفولة هتلر الأولى كانت سعيدة إلى حد ما. أما الحديث عن تسلط والده واستخدامه للعنف أحياناً فلا يجعل من هذا الأخير مختلفاً عن سائر الآباء في تلك الفترة. وفي غالب الأحيان، كان أداء هتلر في المدرسة جيداً. وكما ذكر في كتابه **كفاحي**، كانت نقطة الخلاف الرئيسية مع والده تتركز حول مستقبل هتلر الذي كان يحلم بأن يصبح رساماً، في حين كان والده يريده أن يكون موظفاً حكومياً. وهذه واحدة من القصص التي رواها هتلر عن نفسه ويُرجح عدم صحتها. فلو كان ألويس أراد فعلاً أن يلتحق أدولف بوظيفة حكومية، لأرسله إلى مدرسة ثانوية تعد

طلابها لدخول الجامعة. لكنه، وبدلاً من ذلك، أرسله إلى مدرسة ثانوية فنية. وربما كان هذا حلاً وسطاً مع هتلر، للسماح له بإعداد نفسه للعمل كمعماري.

بالطبع لم تجرِ الحياة مع هتلر على هذا المنوال. فقد توفي والده في كانون الثاني/ يناير 1903، عندما كان هتلر في الثالثة عشرة من عمره. لكن الصدمة الكبرى له جاءت مع وفاة والدته بعد ذلك بخمس سنوات تقريباً. ففي مطلع العام 1907، اكتشف الأطباء إصابتها بسرطان الثدي، وتوفيت في كانون الأول/ ديسمبر. وذكر الطبيب الذي عالجها أن هتلر اعتنى بوالدته بإخلاص منقطع النظير، وأنه لم يرَ أحداً محزوناً كما كان هتلر عندما توفيت والدته.

بعد ذلك انتقل هتلر إلى فيينا بهدف التسجيل في أكاديمية الفنون الجميلة، لكن طلبه قوبل بالرفض مرتين، ليبدأ فترة من سبع سنوات سارت فيها حياته على عكس ما كان يشتهيه. كان لديه بعض المدخرات المالية، ويعتمد على معونة من عمته، لكن المال نفد منه تدريجياً. وكان عليه بعد بضع سنوات أن يكسب عيشه بنفسه برسم البطاقات البريدية ومناظر الشوارع في فيينا، وأقام في سكن للرجال عند الطرف الشمالي للمدينة. وفي العام 1913، انتقل إلى ميونيخ، حيث وجد نفسه في ورطة بسبب تهربه من الخدمة العسكرية في الجيش النمساوي.

بيد أن جميع الروايات التي وصلتنا عن حياته، خلال تلك الفترة، تبقى، وبطرق مختلفة، غير موثوقة. إذْ إن بعضها يستند إلى ذكريات بعض زملائه في سكن الرجال ممن عرض عليهم رسوماته. كما أن هتلر قصد من كتابه **كفاحي** أن يظهر نفسه عبقرياً واعداً، وأن يثبت رسالته السياسية باستخدام نفسه كقدوة يُحتذى بها، جرياً على عادة التقاليد المحترمة لكتاب السير الذاتية من أوغسطين إلى مالكولم إكس. على أي حال يمكننا القول بثقة إنه لولا الحرب العالمية الأولى، لكان هتلر، وعلى الأرجح، قد عاش ومات

رساماً مجهولاً للبطاقات البريدية، وهو يكسب عيشه في فيينا، أو في واحدة من مدن الجنوب الألماني.

لكن الحرب العالمية الأولى وقعت عندما أعلنتها ألمانيا في آب/ أغسطس 1914، ويستذكر هتلر ذلك اليوم بقوله: "جثوت على ركبتي، وشكرت الله من كل قلبي، لأنه أتاح لي العيش في زمن كهذا".

الغريب في الأمر، أن هتلر كان يزدري التنوع الديني والقومي للإمبراطورية الهنغارية النمساوية، ولذلك رفض الخدمة في قواتها المسلحة. لكنه تطوع في آب/أغسطس 1914 في الجيش البافاري. (كانت مقاطعة بافاريا -كما هو الحال في ساكسونيا- تمتلك جيشاً منفصلاً عن الجيش البروسي الألماني). لكن هتلر كان عندئذ لا يزال مواطناً نمساوياً، ويفترض أن ترفض بافاريا طلب تطوعه، إلا أن الفوضى وحالة الارتباك، بسبب اندلاع الحرب ساعدته على المرور فألحق بفوج المشاة الاحتياط السادس عشر الذي يُعرف رسمياً باسم "ليسْت *List*" تيمناً باسم قائده. وفي 29 تشرين الأول/ أكتوبر، شاركت كتيبة هتلر بالأعمال القتالية بالقرب من إيبريس في بلجيكا. وكما كتب هتلر في ما بعد، بعد أربعة أيام من المعارك، لم يبق على قيد الحياة سوى 611 رجلاً من أصل 3600. أما الآخرون فقد قُتلوا، ومن بينهم قائد الفوج العقيد يوليوس ليسْت.

وفي معرض الحديث عن ردة فعله على معمودية النار تلك، كتب هتلر: "حَلَّ الشعور بالهلع محل روح القتال الرومانسية. خَفُتَ الحماس شيئاً فشيئاً، وخنق الخوف من الموت تلك النشوة الطاغية". كما أشار إلى أن جميع الجنود، وهو من بينهم، "واجهوا صراعاً داخلياً بين دافع البقاء ونداء الواجب". وتابع قائلاً: "عندما كان الموت يلاحقنا، تمرد شيء ما غير محدد، محاولاً أن يقنع "الجسد الضعيف" بأنه صوت "العقل"، لكنه في الواقع لم يكن سوى الخوف".

لكن ما كان أقل مفاجأة هو خاتمته لهذه الأزمة الشخصية. يقول هتلر

إنه، وفي نهاية المطاف، "انتهى الصراع الداخلي بانتصار نداء الواجب. مع شتاء 1915-1916، حُسم هذا الصراع في داخلي، وأصبحت الإرادة الحاكم المطلق أخيراً". انتصار الإرادة على الواقع المادي للعالم، أو يمكن القول الرفض العنيد للاعتراف بأن ذلك الواقع سيبقى واحداً من المواضيع الرئيسية في حياة هتلر ومسيرته السياسية. كما كان لافتاً في ما كتبه أنه عامَل "الخوف" و"العقل" كضدين متناقضين.

وفي أثناء خدمته العسكرية، كان هتلر يقوم بوظيفة محددة: "ساعي بريد راجل" ينقل الرسائل من مقر قيادة الفوج إلى قيادات الكتائب التابعة له. وفي أواخر العام 1916، أصيب هتلر بجروح، ومُنح إجازة نقاهة في ألمانيا. وفي أواخر العام 1918، تعرض لهجوم بالغاز، ولذلك وصلته أنباء توقيع الهدنة في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر بينما كان راقداً في مستشفى في باسووك. وخلافاً لذلك، وباستثناء الإجازات القصيرة، بقي هتلر على الجبهة الغربية طوال فترة الحرب. وبعد فترة قصيرة من انخراط وحدته في الحرب، رُقّيَ إلى رتبة عريف، ولم يحصل بعد ذلك على أية ترقية، لكنه نال وسامين للشجاعة: الصليب الحديدي من الدرجة الثانية، ومن ثم الصليب الحديدي من الدرجة الأولى، فهو أعلى تكريم يحصل عليه أي جندي من رتبته.

على أي حال، هناك بعض الجدل حول معنى هذا السجل. فقد شكك مؤخراً المؤرخ توماس فيبر بصحة ادعاءات هتلر حول شجاعة وخطورة وظيفته العسكرية. فسعاة البريد الراجلون كان يتمركزون في مقرات القيادة وليس في الخنادق، مما يعني أن عمله كان أكثر راحة وأماناً من المقاتلين على خط النار. كما أن الضباط كانوا يوزعون الأوسمة على الجنود الذين يعرفونهم وليس بالضرورة على الجنود الشجعان، الأمر الذي يفسر حصول هتلر على ذلك التكريم. لكن، وفي الوقت ذاته، كان عمل ساعي البريد الراجل خطيراً بما فيه الكفاية. فقد كان هتلر مضطراً إلى الوجود في

الخنادق الأمامية، كما كان حتى الجنود في الخلف يخشون القصف المدفعي. لو كنا نتحدث عن أي شخص آخر غير هتلر، لكان أمراً تافهاً أن ننتقد عمله، لأنه كان أقل خطورةً نوعاً ما مقارنة بالجنود المقاتلين. وهنا يصل كاتب السيرة الذاتية فولكر أولريخ إلى استنتاج متوازن: "عندما نوازن بين جميع المصادر، يمكن أن نستخلص أن هتلر لم يكن ذلك الجندي الشجاع، لكنه لم يشغل وظيفة تضمن له البقاء بعيداً عن الأذى".

كذلك يحيط الغموض بالسبب الكامن وراء عدم ترقية هتلر بعد العام 1914. ففي جميع الجيوش التي خاضت الحرب الكبرى، لم يكن ممكناً أن تجد جنوداً كانوا على الجبهة عام 1914 لا يزالون على قيد الحياة، ويخدمون في الخطوط الأولى عام 1918. حتى لو افترضنا عكس ذلك، لتمت ترقيتهم إلى رتبة ضابط صغير على الأقل. بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، قدم فريتس فايدمان معاون العقيد (ليسْت) شهادةً قال فيها إن ضباط الفوج أقروا أن هتلر كان يفتقر إلى المواصفات القيادية اللازمة لترقيته إلى رتبة رقيب. وتعتبر شهادة فايدمان باللغة الألمانية مضحكة جداً، لأنها تتضمن حرفياً أن هتلر كان يفتقر إلى مواصفات "الفوهرر"، وهذا ما أثار الضحك فعلاً في قاعة محكمة نورمبيرغ. لكن ماكس أمان الذي خدم برتبة رقيب في نفس الفوج، وأصبح في ما بعد ناشراً للحزب النازي، قال في شهادته إن هتلر هو من رفض الترقية إلى ضابط صغير. وقد يكون من المحتمل أن هتلر كان يدرك جيداً أن الخسائر في صفوف الضباط كانت أعلى من الرتب الأخرى، ولهذا أراد تجنب موقعٍ أكثر خطورة.

ما يخص روايتنا هنا، بالنسبة إلى خدمة هتلر العسكرية، هناك شيئان مهمان. أولاً، وأيّاً كان مستوى تفانيه وشجاعته، كان هتلر قادراً على تحويل سنواته الأربع في الجبهة إلى نجاح للتطوير الذاتي، إذْ من الصعب جداً أن نتصور أنه كان قادراً على شق طريقه في السياسة الألمانية دون أن

يستحضر موقعه كجندي متواضع في الحرب الكبرى. ثانياً، ادعى هتلر أن الحرب أحدثت لديه صحوة سياسية. ويذكر ذلك بوضوح في كتابه **كفاحي**، ويقدم نفسه كجندي مخلص وشجاع عانى ونزف، مثل سائر رفاقه، على الجبهة أربع سنوات كي يتعرضوا لخيانة "مجرمي نوفمبر" الذين جلبوا الثورة والاستسلام. ويختتم هذا الفصل من مذكراته بإعلان برنامج سياسي يميني متطرف، إذْ من غير الممكن أن تذهب تضحيات الحرب من أجل وضع "مجرمين حقيرين" في السلطة. أما القول بأن كلاً من الاشتراكيين واليهود كانوا هم أولئك "المجرمين"، فقد كان ذلك واضحاً من عبارته "لا يوجد شيء مثل التوصل لتفاهم مع اليهود. لا بد من أن يكون الأمر حاسماً وسريعاً "إمّا - إمّا". وينهي هتلر هذا المقطع بإعلان بسيط: "من ناحيتي، قررت أن أنخرط في العمل السياسي".

لكن هناك حقيقة أكثر تعقيداً تقف وراء التوجه السياسي لهتلر الذي بدأ، في واقع الأمر، مرحلة ما بعد الحرب مؤيداً وليس عدواً للثورة والديموقراطيين الاجتماعيين. ففي ربيع عام 1919، انتخبه رفاقه الجنود مرتين لعضوية مجلس الجنود الذي كان واحداً من مؤسسات الثورة. واستناداً إلى بيانات انتخابية موثوقة، صَوَّتَ ثلاثة أرباع الجنود في وحدة هتلر لمصلحة الديموقراطيين الاجتماعيين في انتخابات كانون الثاني/ يناير 1919. وبعبارة أخرى، ما كان لهؤلاء الجنود أن ينتخبوا هتلر لو كان يتبنى آراء ومواقف مختلفة. وفي ربيع العام 1919 أيضاً، وخلال انتفاضة شيوعية لم تعمر طويلاً، أُنْشِئَتْ "جمهورية سوفياتية" في ميونيخ، انتُخب هتلر من قبل رفاقه الجنود نائباً لممثل الكتيبة. وكان هتلر، خلال الحياة القصيرة للجمهورية السوفياتية، ضابط الارتباط مع إدارة الدعاية في مجلس السوفييت. وهناك أيضاً فيلم وصورة ثابتة، يظهر فيهما هتلر يسير في موكب جنازة الزعيم البافاري المستقل كورت آيزنر، وهو يرتدي عصابة سوداء حداداً، وأخرى حمراء دعماً للحكومة الاشتراكية.

ويبقى السؤال هنا كيف يمكن التوفيق بين هذه المعطيات وبين مسيرة هتلر لاحقاً؟ من المحتمل أن يكون هتلر في البداية قد كيَّف نفسه مع أي حكومة ذات إيديولوجيا جماعية، سواء أكانت من اليمين أم من اليسار، أو ربما يكون على الأرجح مجرد موقف انتهازي. فالعريف هتلر لم يكن يرغب في العودة إلى حياة الفقر والعزلة التي عاشها قبل الحرب، فالجيش بات منزله ورب عمله، حتى لو كان البقاء فيه يعني خدمة حكومة اشتراكية راديكالية.

وينطبق الأمر ذاته، إلى حد كبير، على موقف هتلر من اليهود. في كتابه **كفاحي**، يزعم هتلر أن موقفه المعادي للسامية بدأ معه في فيينا قبل الحرب. وأوضح هذه النقطة بقصة مشاهدته ظاهرة "أجنبية" في مدينة فيينا "بقفطان طويل وجدائل سوداء". وبحسب كلامه، أول ما خطر على باله كان أن يتساءل متعجباً: "هل هذا يهودي أيضاً؟". راقب هتلر الرجل "خلسة وبحرص؛ لكنني كلما أمعنت التحديق في وجهه، عاودني السؤال الأول ولكن بشكل آخر.... هل هذا ألماني؟" وبدأ هتلر-كما يقول- بدافع من هذه التجربة دراسة "المسألة اليهودية"، للوقوف على "التأثيرات" المدمرة لليهود في كل مجالات السياسة، والحياة الاجتماعية، والصحافة، والفنون. ويتابع قائلاً: "وبدأت أكرههم بالتدريج".

يمكن أن نعزو العديد من عبارات الكره النازية التي كان يستخدمها هتلر بحق اليهود بعد عام 1919 إلى كتب ومنشورات وصحف محددة، كان يقرؤها في فيينا قبل العام 1913. هو بالتأكيد تشرب العداء الواضح للسامية في فيينا في ذلك الوقت، لكن لا يوجد أي دليل على أنه كان يحمل هذه الآراء لاحقاً. بالمقابل، هناك دليل كبير يشير إلى صداقاته العديدة مع يهودٍ في فيينا وفي الجيش في أثناء الحرب، فضلاً عن احترامه للثقافة اليهودية بشكل عام. وعلى ما يبدو أن كرهه لليهود بقي كامناً كصورة فوتوغرافية تنتظر التحميض.

قام الجنود الذين أرسلتهم الحكومة التي كان يسيطر عليها الديموقراطيون الاجتماعيون، بسحق مجلس سوفييت ميونيخ بوحشية في أيار/ مايو 1919، وتسلمت السلطة في مقاطعة بافاريا حكومة يمينية. وبدأت لجنةٌ التحقيقَ بدور الجيش في دعم الانتفاضة الشيوعية. في ذلك الحين، كان هتلر يسعى جاهداً للبقاء في الجيش، لكن سجله الأخير بات عقبة أمامه. وبدأ يتعاون مع المحققين بإبلاغهم عن زملائه الجنود الذين ساندوا مجلس السوفييت. وشهد ماكس أمان[5] بعد العام 1945، أنه وقبل تسريحه من الجيش، حقق هتلر معه حول دوره في مجلس السوفييت. على أي حال، لا نعلم إن كان هتلر قد أبلغ لجنة التحقيق طواعيةً، أم استغل المحققون علاقته بالشيوعيين للضغط عليه كي يتحول إلى "شاهد ملك" في القضية. وفي كلتا الحالتين، كان الانتقال إلى الطرف الآخر من الطيف السياسي الطريقة الأنسب لهتلر، كي يغطي على علاقته مع الشيوعيين. لكن، وحتى في أيلول/ سبتمبر 1919، عندما كان يعمل مع لجنة التحقيق، أعد مذكرة داخلية لأحد رؤسائه تضمنت كلمات مثل "الديموقراطية" و"الاشتراكية"، من ضمن المثل العليا التي "تجعل الرجال يكافحون من أجل أشياء أعلى".

يُذكر أن هتلر كان يعمل حينذاك تحت إمرة النقيب كارل ماير في وحدة الجيش للدعاية المضادة للثورة في ميونيخ. وفي أيلول/ سبتمبر 1919، طلب النقيب ماير منه أن يكتب رداً على رسالة حول "خطر" اليهود. وتوضح رسالة هتلر جملة من الأفكار التي ستلازمه فيما بعد. وكتب هتلر في تلك الرسالة أن "اليهودي عَلَقة" تهتم فقط بالمال لا بالأفكار، وأن اليهود هم عرق منفصل، وليسوا جماعة دينية. ومما جاء في الرسالة أيضاً أنه يجب أن يكون هدف ألمانيا "إلغاء حقوق اليهود"، وفي نهاية الأمر "القضاء على جميع اليهود"، لافتاً إلى أنه من غير الممكن "تحقيق الهدفين إلا في ظل حكومة ذات قوة قومية".

---

5 خدم ماكس أمان في فوج المشاة الملكي البافاري السادس عشر برتبة رقيب، أي في نفس الفوج الذي خدم فيه هتلر خلال الحرب العالمية الأولى. (م)

لا يُعد تحول هتلر من الاشتراكية الثورية إلى اليمين المتطرف المعادي للسامية أمراً بالغ الأهمية في فهمه شخصياً وحسب، بل في فهم ما كان يجري في ألمانيا عام 1919. ففي النصف الأول من ذلك العام، كان الألمان يعيشون ما سمّاه اللاهوتي إرنست ترويلتش "أحلام الهدنة"، مع أوهام متفائلة لما ستكون عليه الأوضاع بعد الحرب. في هذه الفترة تحديداً، صوت ثلاثة أرباع الناخبين دعماً للأحزاب الديموقراطية في انتخابات الجمعية الوطنية. لكن، وخلال العام 1919، علم الألمان بشروط اتفاقية فرساي التي رفض الحلفاء التفاوض عليها. بعد ذلك، راح هيندنبورغ ولودندورف يروجان رواية "الطعن في الظهر"، وأخمدت الحكومة بمساعدة الكتائب الحرة انتفاضتي اليسار المتطرف اللتين هزتا برلين وميونيخ. وفجأة أظلمت الدنيا، لكن هذه الظلمة كانت وليدة ما بعد الحرب أكثر مما هي ابنة الحرب نفسها.

غير أن هذه الأحداث لم تدفع الألمان جميعهم سياسياً نحو اليمين، ولم تَعْنِ أن الديموقراطية الألمانية باتت محكومة بالفشل. ما حدث أن حالة من الخيبة والشعور بالخذلان من ديموقراطية ونظام ما بعد الحرب بدأت تنتشر في صفوف الألمان. وما يدل على هذه الحقيقة نتائج انتخابات الرايخستاغ عام 1920 التي تراجع فيها مستوى التأييد الشعبي للديموقراطيين الاجتماعيين بمعدل النصف تقريباً؛ من قرابة 39٪ إلى 21٪. وتحول الكثير من مؤيديهم لمصلحة المستقلين والشيوعيين. في حين خسر الحزب الليبرالي الديموقراطي الألماني ناخبيه لمصلحة حزب الشعب اليميني المتطرف، وللقوميين الألمان الأشد تطرفاً.

على ما يبدو، كانت الحرب بالنسبة للألمان شبيهة بالفترة التي قضاها هتلر في فيينا: سلسلة من الأحداث والتجارب المتقلبة المعاني والدلالات، إلى أن حسمها أمرٌ ما وقع لاحقاً. ففي العام 1919، بدأت الثورة ومعها شروط اتفاقية السلام يُكسِبان الحرب معنىً أكثر سوداوية وتقسيماً.

في هذه الفترة، حدث أمر مهم ومصيري في حياة العريف هتلر أيضاً. ففي إطار عمله مع النقيب ماير، بدأ هتلر يلقي محاضرات لمجموعة من الجنود حول مواضيع مثل "حالات السلام، وإعادة الإعمار"، و"الهجرة"، و"الشعارات الاجتماعية والاقتصادية - السياسية". ويتذكر هتلر تلك المرحلة: "انطلقتُ في أداء المهمة بكل حماسة وشغف. هكذا فجأة مُنِحتُ الفرصة للحديث أمام جمهور كبير، والشيء الذي طالما كنت أشعر به عميقاً، وبات مُؤكداً الآن، هو أنني أستطيع التحدث".

ومن باب المصادفة، اكتشف هتلر شيئاً ما تَفوّقَ فيه فعلاً؛ ألا وهو سوْط الجماهير إلى حالة من الجنون بإظهار ذلك الغضب العارم الذي كان يشعر به. حتى في هذه المرحلة، كانت "محاضراته" مليئة بالغضب، وعلى الأخص ضد اليهود. وعلى الرغم من أنه لم يصل إلينا أي نص من تلك المحاضرات، لكن ما نعلمه عن مواضيعها، من وصفه لها شخصياً أو من وصف الآخرين، يشير إلى أن هتلر بدأ يربط اليهود بخسارة الحرب، والشروط المجحفة التي فرضتها اتفاقية فرساي على ألمانيا. وفي الواقع، طلب قائد هتلر منه أن يخفف من لهجته المعادية للسامية وإلا ستُفهمُ على أنها مجرد تحريض ضد السامية.

كما بدأ النقيب ماير يُظهِرُ احتراماً كبيراً لهذا الرجل، حتى إنه ذات مرة كتب إليه مستخدماً تحية "السيد الموقر هتلر"، وهي طريقة غير مألوفة للتخاطب بين نقيب وعريف في الجيش. كما بدأ يرسله كمُخْبِر إلى اجتماعات الأحزاب الصغيرة التي ظهرت في ميونيخ. وفي أيلول/ سبتمبر 1919، أُرسلَ هتلر في مهمة لمراقبة مجموعة صغيرة تدعى "حزب العمال". ولم تكن المهمة تتطلب منه المشاركة في النقاشات. لكن أحد المتحدثين طالب بانفصال بافاريا عن ألمانيا. وهنا دفعه غضبه من هذا الموقف الخائن إلى نسيان مهمته، ونهض ليصب سيلاً من العبارات اللاذعة على الرجل السيء الحظ والذي بدا - كما قيل- ككلب بودل مبلل بالماء. وقيل

أيضـاً إن زعيـم الحـزب أنطـون دريكسـلر وصـف هتلـر يومهـا بـ "المتحـدث المفـوه، ويمكننـا اسـتغلاله".

وأصبـح هتلـر الـذي كان لا يـزال في الجيـش عضـواً في حـزب العمـال، وبـدأ يتحـدث بشـكل منتظـم في اجتماعـات الحـزب في صـالات البيـرة في أنحـاء ميونيـخ. ازدادت شـهرته، وكذلـك شـهرة الحـزب وعـدد الحضـور في اجتماعاتـه. وفي الرابـع والعشـرين مـن شـباط/ فبرايـر 1920، عقـد الحـزب اجتماعـاً جماهيريـاً في قاعـة الاحتفـالات الكبرى في منطقـة هوبفرهـاوس، وسـط مدينـة ميونيـخ حضـره ألفـا شـخص (خمسـهم ربمـا مـن معارضـي اليسـار السياسـي). واسـتعداداً لهـذه المناسـبة، أعـد هتلـر ودريكسـلر برنامـج الحـزب الرسـمي مـن خمسـة وعشـرين نقطـة. بعـد ذلـك بقليـل وتحـت إلحـاح هتلـر، تغير اسـم الحـزب ليصبـح "حـزب العمـال الاشـتراكي القومـي الألمانـي، وبـات يعـرف بعـد ذلـك باسمـه المختصـر الـذي يتألـف مـن الأحـرف الأولى "نـازي"، كمـا هـو الحـال بالنسـبة للحـزب الديموقراطـي الاجتماعـي الـذي كان أحيانـاً يدعـى "سـوزي".

لم يكـن هتلـر أول المتحدثـين في ذلـك الاجتمـاع، لكنـه كان أكثرهـم تأثيراً. ويعطينـا تقريـر شـرطة ميونيـخ تصـوراً جيـداً حـول مـا كان ينبغـي عليـه قولـه. وممـا جـاء في خطابـه أن النـاس في كل مـكان يعانـون البـؤس والجـوع والفقـر "والجميـع يسـأل إلى متـى سيسـتمر هـذا الحـال، ومـاذا فعـل المسـؤولون بشـأن ذلـك؟ لا شـيء، لأن الحكومـة أجـبن مـن أن تخبر الشـعب الحقيقـة". لقـد دأبت الحكومـة علـى مطالبـة الشـعب للعمـل بجـد، لكنهـم ينسـون أن يقولـوا إن هـذا العمـل لا يحقـق لنـا أي فائـدة، بـل يخـدم أعداءنـا بسـبب "اتفاقيـة السـلام الـتي دائمـاً مـا تخلـق معانـاة جديـدة وكبيـرة". وعـرَّجَ هتلـر علـى موضـوع مفضـل: ماتيـاس إيرتسـبرغر السياسـي الـذي وَقَّـعَ اتفاقيـة الهدنـة، وناشـد بقبـول اتفاقيـة فرسـاي للسـلام. وممـا قالـه هتلـر عـن ذلـك إن المسـؤولين الألمـان كانـوا يُعرفـون باسـتقامتهم، لكـن كيـف تتوقـع الصـدق مـن أي حكومـة تضـم خائنـاً

مثل إيرتسبرغر؟ لقد تَعَمَّدَ هتلر أن يلعب على حقيقة أن إيرتسبيرغر- وهو كاثوليكي- كان يحمل اسماً يبدو يهودياً بالنسبة إلى كثير من الألمان. وبحسب تقرير الشرطة، قوبلت عبارات هتلر بعاصفة من التصفيق الحاد. وأضاف هتلر: "لا يزال أمراً غير مفهوم لنا أن هذا السيد لا يزال خارج السجن حتى الآن"، لتَضُجَ القاعة بموجة من التصفيق.

كما تطرق في خطابه إلى العمال الذين - بحسب قوله- دائماً ما يقال لهم ببساطة أن يهاجروا إلى روسيا، متسائلاً: "أما كان من الأجدى عملياً لو بقي اليهود الشرقيين هناك طالما أنه يوجد الكثير من فرص العمل؟" كان هتلر يستغل في خطابه مسألة هجرة اليهود، مما كان يعرف سابقاً بروسيا القيصرية إلى ألمانيا، والتي كانت من أكثر القضايا جدليةً في حياة الألمان بعد الحرب. ومرة أخرى، قوبلت عباراته بتصفيق حاد. ثم أضاف ساخراً: "يمكنكم أن تتخيلوا ما نوع الأعمال التي يقومون بها إذا ما هاجر أولئك الناس". (تصفيق وصيحات: فلتسقط الصحافة اليهودية! بقُوا هذه البحصة!). ثم يواصل هتلر خطابه: "فجرائم هؤلاء المحتالين المرابين تافهة لا قيمة لها". تتعالى صيحات الحاضرين صارخةً "اضربوهم! علقوهم على المشانق!". كانت قراءة هتلر للنقاط الخمس والعشرين تنال التصفيق، كما تُجابهُ بمقاطعة الخصوم، حتى إن رجال الشرطة توقعوا أن تندلع الاشتباكات بين الطرفين في أي لحظة. واختتم هتلر خطابه: "شعارنا الكفاح فقط، وسنمضي في طريقنا بكل ثبات حتى تحقيق هدفنا".

كان كونراد هايدن واحداً من قلائل أدركوا منذ البداية أهمية هتلر. ولأنه كان آنذاك يعمل صحفياً شاباً في ميونيخ، فقد ثابر على حضور أنشطة هتلر الأولى في صالات البيرة. وعلى الرغم من أن هايدن كان ديموقراطياً اجتماعياً، إلا أن هتلر أدرك أهمية الدعاية وأهمية هايدن حتى ترددت شائعة في تلك الأيام مفادها أن هتلر ما كان ليبدأ خطاباً ما لم يعرف أن هايدن كان بين الحضور. وتمكن هايدن من اكتشاف أحد الأسباب

وراء نجاح هتلر الخطابي: إنه ذلك الصوت المهيب الذي كان ينطلق من رجل عادي. إذْ كتب قائلاً: "بين هذين الكتفين المتصلين ببعضهما البعض، بشكل متواضع، يوجد جهاز صوتي يمكن وصفه مجازاً بأنه خلاصة القوة والثبات والسيطرة والإرادة. حتى في حالة الهدوء، هو رعد هادر. أما في حالة الانفعال فهو أشبه بعويل صفارات الإنذار إشارةً إلى خطر لا يرحم "لكنه مصحوب أيضاً بطبقات أصوات البشر الخفيضة المرنة عند التعبير عن الحميمية، أو الاستياء، أو الاحتقار".

ومع تضخم أناه المتواصل ونزعته لإعلاء ذاته، دأب هتلر، في الحديث عن الأيام الأولى للحزب النازي، على تقديم نفسه كبطل وسياسي عبقري وقائد طبيعي شق طريقه بنفسه. لكنه ما كان ليصل إلى هذا الموقع لولا الظروف التي وجد نفسه فيها: إحساس طاغ بالذل والخوف بين الألمان، وهو أشد المشاعر السياسية خطورة، مقروناً بالبؤس الاقتصادي. فخسارة الحرب، وشروط السلام المُذلة، وحالة العنف والاضطراب التي شهدتها الثورة وما تلاها من أحداث، وعلى وجه الخصوص في بافاريا، كلها خلقت مزاجاً نادراً كان هتلر، وعلى نحو بارع، قادراً على التقاطه. فقد أقنع الآلاف ممن استمعوا إليه بأنه هو حصراً من منحهم درب الخلاص، ليس لأنه كان مقنعاً بشكل منطقي، وإنما بسبب تلك القناعة الراسخة التي قدم بها حلولاً بسيطة لمشكلات شائكة. فقد كان رده على "خيانة" 1918 بطرد "مجرمي نوفمبر": الاشتراكيين واليهود. وأن ألمانيا بحاجة كي تُبنى من جديد لتستعيد عظمتها التي كانت تتمتع بها في الماضي، وعندها تحديداً يمكن تغيير شروط نظام ما بعد الحرب. طالما لعب هتلر على المقارنة ما بين آب/ أغسطس 1914 وتشرين الثاني/ نوفمبر 1918: فالأول رمز ألمانيا القوية الموحدة، والثاني لحظة الهزيمة والخيانة على يد الأعداء الداخليين.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ملامح محددة من شخصية هتلر باتت واضحة في هذه المرحلة المبكرة والتي ستشكل، في ما بعد، نوعية الزعيم والحركة

التي قادها. وكان من أكثر الملامح وضوحاً هو مزيج الاضطراب ومكملاته الطبيعية من عدم تقبل النقد، وسعيه الحثيث للوصول إلى السلطة المنفردة. فقد كان الاضطراب واحداً من ملامح شخصيته منذ أيام الشباب. وعن تلك المرحلة، يتذكر رفيق صباه أوغست كوبيتسيك أن هتلر، بعد رفض طلبه للالتحاق بأكاديمية الفنون الجميلة، "كان ينفجر غاضباً على أتفه الأشياء". ومما قاله أيضاً إن هتلر "لعن البيروقراطية المتحجرة، البالية، للأكاديمية حيث لا يوجد تفهم للمهارة الحقيقية، وتحدث عن عقبات خفية وُضعت بمكر ودهاء من أجل منعه من المضي قدماً وحسب، متوعداً أن يُري أولئك العُجَّز الخَرِفين الحمقى أنه سيواصل طريقه من دونهم". كان كوبيتسيك يدرس الموسيقا في فيينا. عندما أرسل أستاذه له طلاباً لإعطائهم دروساً خصوصية، تضايق هتلر غضباً وحسداً من نجاح صديقه وقال لكوبيتسيك: "الآن يستطيع المرء أن يرى أن هناك مؤامرة كبيرة ضده". ويختتم كيوبتسيك حديثه قائلاً: "بالمجمل، تَوَلَّدَ لدي انطباع أن هتلر بات غير متوازن".

كذلك كان هتلر شديد الحساسية من تحصيله التعليمي والمعرفي المحدود. وفي هذا الإطار يتحدث إرنست هانفشتينغل: "كان هتلر، كسائر الأشخاص الجاهلين، يعاني من عقدة أنه لا يحتاج لتعلم أي شيء". وسبق لكوبيتسيك أن سأل هتلر إن كان ينوي متابعة الدراسة من الكتب دون غيرها. عندها -والكلام لا يزال لكوبيتسيك- "نظر إلي، وصاح بالطبع تحتاج مدرسين، أفهم ذلك، لكنهم بالنسبة إلي أناس سطحيون". وكان هتلر قد عَبَّرَ بشكل روتيني عن احتقاره للمثقفين والخبراء. فقد قال ذات مرة: "إن غالبية من يعتبرون أنفسهم متعلمين ليسوا سوى أغبياء عديمي الأخلاق، وجهلة سطحيين، ومُدَّعين لا يدركون حتى كم هم هواة مبتدئون، وبشكل يثير الضحك". أما خبرته ومعارفه -كما كان يحب أن يفترض- فكانت كافية ووافية لكل الظروف والأحوال. حتى إنه أعلن مرة أن الكتاب الوحيد الذي سيكون ذا قيمة هو الكتاب الذي سيؤلفه بعد أن "يتقاعد". لكن هذا لا

يعني مطلقاً أنه لم يحظَ بتقدير من الخبراء. فقد شعر هتلر بالزهو والفرح عندما ألقى بروفسور في علم النفس بجامعة بون محاضرة على أفكار مستقاة من كتاب **كفاحي**، واعتبر هتلر ذلك "فرحة كبرى".

كان من الممكن ومن المفترض أن يكون العام 1923 كارثياً بالنسبة إلى هتلر، لكنه انتهى بنوع غريب من الانتصار. بدءاً من الاحتلال الفرنسي لوادي الرور، معقل الصناعة الألمانية، لإجبار الألمان على دفع التعويضات مبكراً ذلك العام، شهدت ألمانيا أسوأ سلسلة من الأزمات منذ الحرب. كما اندلعت مجدداً انتفاضات لليسار المتطرف في الرور ووسط ألمانيا، بالتزامن مع وصول حكومتين راديكاليتين إلى السلطة في مقاطعتي ساكسونيا وتورينغن، إلى جانب حركة انفصالية كانت ناشطة في منطقة الراين. ومع تحول التضخم المالي إلى تضخم مفرط، لم يعد هناك نظام نقدي في البلاد. فإذا كان معدل صرف الدولار الأميركي قد وصل إلى 17 ألف مارك في كانون الثاني/ يناير 1923، فقد واصل انحداره ليبلغ 4.6 مليون مارك في آب/ أغسطس، و98.9 مليون مارك في أيلول/ سبتمبر، و2.2 بليون في تشرين الثاني/ نوفمبر ومن ثم 4.2 بليون في كانون الأول/ ديسمبر.

وفي هذا المناخ و"مسيرة موسوليني إلى روما" قبل عام واحد، قرر هتلر أن اللحظة حانت للانقلاب على الحكومة في برلين. وبدأ التحرك في اجتماع حاشد في 8 تشرين الثاني/ نوفمبر في صالة للبيرة في ميونيخ، تُعرف باسم بيرغربراوكيللر. وانضم النازيون إلى عدد من مجموعات يمينية أخرى إلى جانب إيريك لودندورف، أحد كبار القادة العسكريين في الحرب العالمية الأولى. وفي اليوم التالي، فشلت الانتفاضة تماماً، عندما أطلقت الشرطة النار على هتلر وأتباعه الذين سقط عدد منهم بين قتيل أو جريح، واعتُقلَ هتلر في 10 من تشرين الثاني/ نوفمبر. وفي الربيع التالي، مَثل هتلر بالإضافة إلى لودندروف، وإرنست روم أحد قادة المجموعات شبه

العسكرية، وزعماء سياسيين من التيار المحافظ، وضباط، أمام محكمة خاصة في ميونيخ.

وهنا تحولت الهزيمة إلى نصر. فقد كان جلياً تورط هتلر بجريمة الخيانة العظمى وكان من الواجب أن ينال حكماً قاسياً على خلفية أحداث ما بات يعرف باسم "فتنة" أو انقلاب صالة البيرة. وبما أنه لم يكن مواطناً ألمانياً، كان من المفترض أن تأمر المحكمة بترحيله، لكن القضاة أُعْجبوا بشكل واضح بالمتهم الرئيسي في القضية حتى إن أحد القضاة سُمع يقول "يا له من شاب رائع هتلر!"، بعد أول خطاب لهذا الأخير في قاعة المحكمة. فقد أُعطي هتلر -الذي كان يرتدي وسام الصليب الحديدي- المجال كاملاً ليعرض مواهبه الخطابية. كما حظيت المحاكمة بتغطية إعلامية واسعة، جعلت من هتلر شخصية مشهورة على مستوى البلاد. وفي النهاية، أصدرت المحكمة بحقه حكماً رمزياً بالسجن خمس سنوات، فقد كان معلوماً بأنهم سيطلقون سراحه مبكراً. كما رفضت المحكمة ترحيله، تقديراً لخدمته في الجيش الألماني.

وفي الواقع، تبين أن السجن كان بالنسبة لهتلر أشبه بالاستراحة، حيث كانت زنزانته أقرب إلى شقة مريحة، كما كان أنصاره يقومون بزيارته، حاملين الهدايا من الشوكولاتة والمعجنات وما لذ وطاب من المأكولات، لدرجة أنه كسب وزناً إضافياً داخل السجن. وهناك رواية تقول إن هتلر خلال فترة السجن، أهدى كتابه **كفاحي** لمساعده المخلص رودولف هيس. وفي الواقع، وضع هتلر الأفكار العريضة للكتاب بخط اليد، قبل أن يتعذب بطباعة النص على الآلة الكاتبة مستخدماً طريقة النقر إفرادياً على كل مفتاح. لكن هذا لا يلغي حقيقة أن الكتاب كان نتاج الفترة التي أمضاها في السجن.

بيد أن ألمانيا التي وجدها هتلر عند إطلاق سراحه، في كانون الأول/ ديسمبر 1924 أصبحت مكاناً مختلفاً عما كانت عليه قبل عام. فألمانيا

الجديدة - كما سيتضح- باتت بيئة أصعب على حركته من ألمانيا المأزومة أوائل العشرينيات. ويُعزى الجزء الأكبر من هذا التحول إلى رجل كان في جميع الأحوال القطب المضاد لهتلر، وهو غوستاف شتريزيمان الشخصية البارزة في السياسة الألمانية في النصف الثاني من عشرينيات القرن الماضي.

شغَل شتريزيمان منصب مستشار ألمانيا لبضعة أشهر خلال العام 1923، لكنه بقي وزيراً للخارجية من عام 1923 إلى 1929، على مدار تسع حكومات متتالية بما فيها حكومته، وترك أعظم الأثر على جمهورية فايمار. هذا لا يعني أن سجله لم يكن مثيراً للجدل، بل كان محطِ نقاش في تلك الفترة وتردد صداه على مدى سنوات: تُرى أكان ألمانياً صالحاً يسعى إلى السلام والمصالحة مع الخارج، وإلى تحقيق الديموقراطية في الداخل؟ أم كان ذلك الذئب الشرس متخفياً في ثياب الحَملِ الوديع، ومجرد قومي عدواني آخر، يخفي خططه التوسعية بخطاب مسالم؟ وكان هناك شيء من الحقيقة في كلا الرأيين. لكن وبالنسبة إلى شتريزيمان، ونظيره وزير الخارجية الفرنسي أرستيد بريان، كانت مصلحة ألمانيا الوطنية تقتضي السلام والمصالحة مع فرنسا، والاندماج في الاقتصاد العالمي.

لقد تعددت الآراء كثيراً حول شتريزيمان الإنسان. فالصحفي البريطاني كلود كوكبيرن وجده "ممتعاً شريطةَ أن لا تثق به"، فضلاً عن امتلاكه "حسن التصرف الذي يتظاهر فيه بأنه ليس بديناً وحسب، وهو فعلاً كذلك، بل إنه طيب القلب ومشوش، قليلاً مع البيرة، إضافة لما سبق. في الواقع، إنه شخص سريع وحاد كمنشار دائري". أما تيودورهويس -وهو من سياسيي جمهورية فايمار الليبراليين، وأصبح في ما بعد الرئيس الأول لألمانيا الغربية- فقد قال ذات مرة إنه "لا يستطيع تحمل" شتريزيمان. ومن ناحية أخرى، وصفه الروائي الألماني توماس مان بـ "الرجل الخارق" الذي يتمتع "بطاقةٍ من الفهم كانت مصحوبة بحيوية كبيرة هدها المرض". أما

الفيسكونت دي أبيرنون، السفير البريطاني في برلين أوائل العشرينات، فقد قدم رأيا تفصيلياً عندما كتب قائلاً: "كانت قدرة شتريزيمان على إثارة العداء استثنائية، فتفكيره كان أكثر تسرعاً من أن يعطي انطباعاً بالصلابة، فضلاً عن كلامه المجلجل وعباراته البراقة اللذين لا يدلان على بصيرة وتأنٍ". وأضاف إن مواهبه "ألحقت به سمعة لعيوب كان خالياً منها تماماً ألا وهي التهور وافتقاره إلى الثقة".

وُلِدَ شتريزيمان في برلين عام 1878 لأبٍ كان يدير متجراً لتوزيع البيرة، مما جعله من أصل متواضع بمعايير وزراء الخارجية الأوروبيين في تلك الفترة. وعلى الرغم من كونه أصغر الأبناء السبعة، كانت عائلته ميسورة الحال، أرسلته إلى الجامعة حيث درس الاقتصاد السياسي في جامعتي برلين ولايبزيغ، ثم نال شهادة الدكتوراه على أطروحته حول صناعة البيرة المعبأة في برلين. كان طالباً نجيباً ويرغب في العمل في السلك الأكاديمي، لكنه أيضاً كان بحاجة لكسب عيشه، وهو ما دفعه عند التخرج في الجامعة إلى العمل منسقاً لمؤسسات تجارية صناعية في مقاطعة ساكسونيا، ثم دخل الميدان السياسي بصفته قومياً ليبرالياً.

الطريف في الأمر أنه عندما بدأ العمل، رفضت المرأة التي كان ينوي الزواج منها طلبه، بحجة أن مستقبله كان غامضاً. لقد أخطأت بالتأكيد. فنباهة شتريزيمان وطموحه واجتهاده جعلته يرتقي السلم سريعاً في مجالي السياسة والأعمال. وانتُخِبَ نائباً في الرايخستاغ عام 1907 وعمره لا يتجاوز الثامنة والعشرين، ليكون أصغر نائب يُنتخب ذلك العام. وكانت المفاجأة الأكبر أنه هزم في تلك الانتخابات واحداً من نواب الحزب الديموقراطي الاجتماعي، كان يشغل المقعد النيابي عن دائرة في جزء فقير من مقاطعة ساكسونيا.

وخلال مسيرة حياته، كانت مواقفه محط نزاع بين ليبراليته وقوميته. فخلال الحرب كان مدافعاً عن ضم الأراضي، وعن حرب الغواصات

الشاملة، ولكن مع إجراء إصلاحات ديموقراطية. وهذا بحد ذاته كان يعني انقسامه بين أكبر كتلتين في البرلمان: اليمين القومي الذي يريد الانتصار في الحرب بلا إصلاحات ديموقراطية، واليسار الذي كان يريد السلام والديموقراطية. غير أن نهاية الحرب أحدثت تغييراً لديه. إذْ بدأ شتريزيمان يرفض بشدة نظام القيصر وهيئة أركان الجيش، معرباً عن إعجابه فقط بالأمير ماكس فون بادن، والديموقراطيين الاجتماعيين، وفريدريك إيبرت. في تلك الفترة، أخفقت محاولة لإعادة توحيد اليسار الليبرالي والقومي الليبرالي اللذين كانا موجودين ما قبل الحرب، ليجد شتريزيمان نفسه في نهاية المطاف زعيماً لنسخة معدلة من الحزب القومي الألماني القديم، تحت مسمى "حزب الشعب الألماني".

خلال العامين الأولين لجمهورية فايمار، كان شتريزيمان وحزبه جزءاً من المعارضة اليمينية القومية المعارضة لاتفاقية فرساي ودستور الجمهورية. لكن شتريزيمان كان وبشكل واضح ينتقل من قومي متعصب زمن الحرب إلى مدافع عن المصالحة زمن السلم، وسيقود بلاده في عملية طويلة، خلال الفترة القصيرة التي قضاها مستشاراً لألمانيا، وفي أثناء خدمته الطويلة كوزير للخارجية. وحفلت الفترة التي أمضاها في منصبه بمعالم مميزة. ففي العام 1924، انتهى التضخم المالي المفرط، واستعاد الاقتصاد الألماني حالة الاستقرار. وفي العام نفسه أيضاً، أعادت خطة داوس -الخطة التي أعدها المصرفي الأميركي تشارلز داوس- جدولة دفع التعويضات الألمانية، ووُضِعَ البنك المركزي الألماني تحت رقابة وإشراف الحلفاء. بالمقابل، انسحبت فرنسا من منطقة الرور الصناعية. وفي العام 1925 في مدينة لوكارنو السويسرية، اعترفت ألمانيا وفرنسا وبلجيكا وبريطانيا وإيطاليا بالحدود الغربية التي منحها مؤتمر باريس للسلام لألمانيا، كما اتفقت ألمانيا وفرنسا وبلجيكا على عدم شن الحروب فيما بينها. كما تم التوصل لصيغة معقدة لا تقضي، بشكل صريح، بوجوب توقيع ألمانيا اتفاقية مماثلة بشأن حدودها الشرقية مع

بولندا وتشيكوسلوفاكيا . وفتحت اتفاقيتا لوكارنو الطريق أمام انضمام ألمانيا إلى عصبة الأمم عام 1926، حتى إنها مُنحت مقعداً دائماً في مجلس العصبة (الذي يوازي مجلس الأمن الدولي حالياً). وبعد عامين، وبمبادرة من وزير الخارجية الفرنسي أرستيد بريان ونظيره الأميركي فرانك كيللوغ، وقعت ألمانيا وفرنسا والولايات المتحدة وغالبية الدول الكبرى على ميثاق بريان- كيللوغ الذي ينص على رفض استخدام الحرب كأداة في سياسات الدول. وشهد العام 1929 جولة جديدة من المفاوضات حول دفع التعويضات تحت مسمى خطة يونغ التي خفضَّت مرة أخرى مقدار المدفوعات الألمانية السنوية، لكن مع تمديدها حتى الثمانينيات من القرن العشرين. ودشَّن بريان الخطوات الأولى نحو اندماج أوروبي بمجموعة من المقترحات تقدم بها في خطاب ألقاه في عصبة الأمم. كما كانت هناك اتفاقات لإنهاء احتلال الحلفاء لمنطقة الراين، ومفاوضات لإعادة منطقة السار التي كانت تحت الإدارة الفرنسية، إلى السيادة الألمانية. إجمالاً، وخلال هذه الفترة الوجيزة، خرجت ألمانيا من عزلتها، وعادت إلى موقعها كقوة مُحترَمة ومهمة في السياسة الأوروبية والدولية.

لا يمكن القول إن شتريزيمان وحده كان مسؤولاً عن هذه التطورات، بل هناك أيضاً عوامل معقدة سياسية واقتصادية داخلياً وخارجياً لعبت دوراً مهماً في تحقيق ذلك. فقد نالت جهود شتريزيمان تأييد مسؤولين ودبلوماسيين أقوياء إضافةً إلى الكتل البرلمانية للأحزاب الديموقراطية. فقد جاءت اتفاقيتا لوكارنو بدافع من الضغط المالي وليس المثالية. فلولا الاستقرار السياسي الذي وفّرته الاتفاقيتان لأوروبا الغربية، ما كان من الممكن للمصارف الأميركية أن تُقرض ألمانيا وفرنسا الأموال اللازمة.

يضاف إلى ذلك العلاقة بين شتريزيمان وبريان. فوزير الخارجية الفرنسي بريان هو الآخر ينحدر من أصل متواضع، وكان يوماً من المؤيدين لسياسة ضم الأراضي. لكنه مثل شتريزيمان، تأكد له، بعد الحرب، أنه لا

يمكن التوصل إلى تسوية سلمية دائمة في أوروبا بدون مصالحة فرنسية ألمانية. وكان الرجلان يتشاركان حس فكاهة حاداً. ففي إحدى المناسبات، وبينما كان المستشار الألماني هانز لوثر يلقي خطاباً حول حجم المشكلات التي تعانيها بلاده، قاطعه بريان بقوله: "إذا ما واصلت خطابك على هذا النحو، سنبدأ جميعا بالبكاء". فغضب لوثر، لكن عندما قابله بريان بتعبير عن خوفه الشديد المبالغ فيه، انفجر شتريزيمان ضاحكاً. ووصف وزير الخارجية البريطاني أوستن تشامبرلين، بعد ذلك بفترة، كلاً من بريان وشتريزيمان بـ" الفرنسي والألماني العظيمين اللذين سعيا لبناء معبد جديد للسلام من ركام الماضي المبلل بالدم".

وأدرك شتريزيمان قيمة التوافق الشخصي مع بريان، كما أدرك الاثنان معاً التحدي السياسي المشترك لهما المتمثل بجعل المصالحة أمراً مستساغاً لدى اليمين القومي المتشدد في بلديهما. وبعد لقائهما عام 1926، كتب شتريزيمان إلى ابنه: "قال لي بريان خلال محادثاتنا، بلغة طبيعية يتمتع بها الفرنسيون حصراً إن روحينا تكتسيان بياضاً كبياض الثلج على قمة الجبل الأبيض". وخلال ذلك اللقاء، تحدث الرجلان خمس ساعات، وتقاسما أربع زجاجات من النبيذ. وأضاف شتريزيمان في رسالته إلى ابنه قائلاً: "يجب على كلينا أن نتغلب على كتل الجليد" في باريس وبرلين. ولم يكن هذا الجليد بالنسبة إلى بريان سوى منافسه القومي المحافظ ريموند بوينكاريه الذي كان رئيساً للوزراء لفترة طويلة من وجود بريان في وزارة الخارجية. أما بالنسبة إلى شتريزيمان، فلم يكن سوى ألفريد هوغنبيرغ.

لا يختلف هوغنبيرغ عن شتريزيمان في كونه جاء من خلفية متواضعة، ودخل المعترك السياسي بعد أن درس الاقتصاد السياسي، ونال فيه شهادة الدكتوراه، وأصاب نجاحاً في مجال الأعمال التجارية. وعند هذه النقطة تتوقف أوجه التشابه بين الاثنين. ولد هوغنبيرغ في هانوفر عام 1861. كان والده موظفاً حكومياً توفي شاباً تاركاً عائلته في حالة فقر شديد. كَبُرَ

هوغنبيرغ وأصبح عضواً في ميليشيا قومية، ومن المؤمنين بأفكار الداروينية الاجتماعية التي كانت منتشرة على نطاق واسع مطلع القرن العشرين. وكان في العام 1891 واحداً من مؤسسي الرابطة الألمانية، وهي جماعة ضغط قومية لعبت دوراً مؤذياً على الساحة السياسية، وصولاً إلى عهد هتلر. وفي نفس العام نال درجة الدكتوراه على أطروحته حول مساعدة الدولة للمزارعين، والحاجة لتوسع ألمانيا خارج حدودها، وهي الأفكار التي سعى إلى تطبيقها خلال مسيرته السياسية. وبعد فترة من عمله موظفاً في السلك الحكومي، وجد هوغنبيرغ منصباً في مجلس إدارة أحد المصارف، ومن هناك قفز عام 1909 إلى منصب رئيس مجلس إدارة شركة كروب للفولاذ والتسليح. وفي عهده، قفزت أسهم الشركة من 8٪ عام 1908 إلى 14٪ عام 1913.

وفي العام 1916 اشترى هوغنبيرغ شركة أوغست شيرل، وهي واحدة من الإمبراطوريات الإعلامية في ألمانيا. وكان شيرل في ذلك الحين يمتلك مجموعة من الصحف والمجلات أهمها على الإطلاق "برلين لوكال أنتسايغر" التي كانت توزع 250 ألف نسخة يومياً. أما الإمبراطوريتان الإعلاميتان الأخريان موسيه وأولتشتاين فكانتا من ملكية عائلتين يهوديتين، وكانتا تساندان السياسة الليبرالية. يشار إلى أن أوغست شيرل لم يكن يهودياً وكانت صحفه تؤيد التيار المحافظ. وفي العشرينيات، أضاف هوغنبيرغ إلى مملكته خدمة إخبارية جديدة "اتحاد التلغراف"، كما اشترى أستوديو للأفلام السينمائية "الشركة الدولية العامة للأفلام السينمائية: يوفا"، ليصبح بذلك أهم مالك للشركات الإعلامية في ألمانيا. واستخدم هذه المنابر الإعلامية للترويج للسياسات القومية اليمينية المتطرفة المعادية للديموقراطية.

وفي هذا الإطار، أصبح هوغنبيرغ واحداً من الشخصيات القيادية في الحزب القومي أوائل العشرينيات، في وقت بدا القوميون الألمان كأنهم قادرون على الظهور كأكبر حزب يمثل منفرداً التيار اليميني. ولم يكن

هوغنبيرغ معادياً للسامية، ولم يكن أيضاً ممن يحنون إلى النظام الملكي. غير أنه كان خلال العشرينيات من أهم المعارضين الراديكاليين للجمهورية، ولسياسات شتريزيمان لقبول تسويات ما بعد الحرب.

وفي منتصف العشرينيات، كان، حتى القوميون الألمان يتصالحون مع الديموقراطية الجديدة، فقد شاركوا في حكومات المستشارين هانز لوثر عام 1925، وفيلهلم ماركس ما بين عامي 1927 و1928، وقبلوا ثمناً لذلك بسياسات شتريزيمان ذات الصلة باتفاقيتي لوكارنو وعصبة الأمم، باستثناء هوغنبيرغ الذي كان يريد من الحزب أن يواصل منهجاً متشدداً. وفي انتخابات 1928 تراجع مستوى التأييد الشعبي للحزب القومي من 20.5٪ إلى 14.3٪. ومع ضعف موقع المعتدلين، تولى هوغنبيرغ زعامة الحزب، ولم يكن يَهُمُّهُ خسارة الأصوات والأعضاء، بقدر ما كان يخشى أن يتحول الحزب إلى مجرد خليط من أفراد من الطبقة الوسطى لا يجمعهم سوى الخوف من الديموقراطيين الاجتماعيين. وعوضاً عن ذلك، كان هوغنبيرغ يريد "كتلة تجمعها رؤية موحدة، مثل مشبك حديدي، تتصلب فيه العناصر الرخوة المائعة"، تاركاً للقوميين الألمان خيار الموافقة على آرائه أو التنحي جانباً.

من جانبه أدرك غوستاف شتريزيمان أن مصلحة الديموقراطية الجديدة في ألمانيا تقتضي عدم الفصل بين السياستين الداخلية والخارجية، وأن الأهداف التي كان يسعى إليها في الخارج ستساعد على استقرار الديموقراطية في الداخل، بينما ستُعَمِّقُ أي حرب جديدة الانقسامات داخل ألمانيا على نحو أسوأ بحيث تصبح معها السياسة الديموقراطية أمراً مستحيلاً. وقال شتريزيمان عام 1926: "لا يمكن بناء ألمانيا الجديدة واستعادة عافيتها إلا على أساس السلام"، ولا يمكن تحقيق السلام إلا عبر المصالحة مع فرنسا. لذلك كان يريد اندماجاً أوروبياً اقتصادياً أقرب جغرافياً، معتقداً في الوقت ذاته -بالمعنى الكوني- بأنه يجب ألا

يكون هذا الاندماج على حساب العلاقات التجارية والمالية مع بريطانيا والولايات المتحدة.

من ناحية أخرى، فإن ما حققه شتريزيمان من نجاح غير عادي، كان واضحاً حتى لألد خصومه هتلر الذي قال يوما لوزير خارجيته خواكيم فون ريبنتروب إنه "ما كان ليحقق" أكثر مما حققه شتريزيمان. لكن النجاح الذي حققه هذا الأخير لم يكن سهلاً على الإطلاق. فقد كانت تعاملاته مع بريان وأوستن تشامبرلين وغيرهم مسكونة بعدم الثقة، وبالقلق والشكوى من الحرب. وبينما كانت "روح لوكارنو" تنتشر فوق أوروبا في النصف الثاني من العشرينيات، كانت المصاعب تتزايد وتشتد. فمع نهاية عام 1928، شَكَّلَ هوغنبيرغ في موقعه الجديد في الحزب القومي الألماني، وبقوة إمبراطوريته الإعلامية، مصدر القلق الرئيسي لشتريزيمان. وعندما فاز هوغنبيرغ بزعامة الحزب، كتب شتريزيمان إلى صديق له: "البداية قاتمة، لكن النهاية قد تكون حرباً أهلية". وفي تلك الفترة بردت أيضاً حرارة العلاقات بين شتريزيمان وبريان. كذلك طرأ أمر جديد عام 1929. ففي تموز/ يوليو أخبر شتريزيمان صحفياً فرنسياً أن هتلر "الذي بشَّرَ بالتمرد ليس ضد اتفاقيات السلام وحسب، بل ضد السلم الأهلي أيضاً" بات بالنسبة إليه مصدر قلق أكبر من هوغنبيرغ.

وتدهورت صحة شتريزيمان بشكل كبير على مدار عام خلال تلك الفترة، إذْ أُصيب بجلطة دماغية حادة في الثاني من تشرين الأول/ أكتوبر 1929، ثم عاودته في اليوم التالي، ليلقى حتفه عن عمر يناهز الواحد والخمسين عاماً. وكانت خسارته، بالنسبة إلى جميع المراقبين في ألمانيا والعالم، ضربة قاصمة لجمهورية فايمار والسلام الأوروبي. ولم يدرك أحدٌ قيمة هذه الخسارة أكثر من أرستيد بريان الذي قال لدى سماعه نبأ الوفاة: "جهزوا تابوتاً لاثنين".

خلال الفترة التي توفي فيها شتريزيمان، كان هوغنبيرغ مشغولاً بتنظيم حملة لمواجهة خطة يونغ لإعادة هيكلة تعويضات الحرب المفروضة على ألمانيا. وكانت فكرة الحملة تستند إلى جمع ما يكفي من التواقيع، لإجبار الرايخستاغ على إجراء تصويت واستفتاء عام، في محاولة لاستصدار قانون من الرايخستاغ يُجَرِّم أي مسؤول ألماني يشارك في جمع ودفع تعويضات بأي شكل كان بتهمة الخيانة. ونجح هوغنبيرغ بضم هتلر حليفاً له، وهو الذي كان حزبه قد ضاعف من نسبة مؤيديه في انتخابات مقاطعة ساكسونيا المعقل السياسي السابق لشتريزيمان. وفي آخر خطاب له في الثلاثين من أيلول/ سبتمبر أوضح شتريزيمان أن هوغنبيرغ يعرف جيداً أن خطة يونغ ستمر مهما فعل، وأن هدفه الحقيقي كان تشكيل تحالف مع النازيين لمحاربة الجمهورية على جبهة عريضة. وحذر شتريزيمان في خطابه مرة أخرى من مخاطر اندلاع حرب أهلية.

كان عهد شتريزيمان فترة عصيبة بالنسبة إلى هتلر الذي كرَّس جل موهبته في استغلال غضب الناس الذين كانوا يشعرون بأنهم ضحايا الإذلال السياسي والمصاعب الاقتصادية. وكان هتلر بارعاً في ذلك، لأنه كان يشعر بذلك الغضب شخصياً. لكنه، وفي الوقت ذاته، كان سياسي الأزمات، ولا يستطيع التكيف مع الاستقرار. وفي خطاب له في كانون الأول 1925، وفي الفترة التي كانت فيها الجمهورية على طريق المعافاة من كوارث 1923، لم يتحدث هتلر سوى عن استمرار "الانهيار الألماني". بعد سبع سنوات من الحرب، قال هتلر أمام حشد في ميونيخ: "يمكننا القول إننا غُصْنا إلى الأسفل أكثر فأكثر". وفي نيسان/ أبريل 1926، تحدث عن "قطاع صناعي ضعيف مع 12 مليون عاطل من العمل"، لكن، وفي الحقيقة، وعلى مدار العام نفسه، لم يتجاوز عدد العاطلين من العمل أكثر من مليونين. حتى في ذروة التفاؤل "بروحية لوكارنو"، ربط هتلر الشؤون الدولية ببؤس الشعب الألماني معتبراً خطة داوس واتفاقيتي لوكارنو تعبيراً

آخر لإذلال الألمان وإخضاعهم للقوى الكبرى، لذا لم يكن شتريزيمان بالنسبة إليه سوى رجل خائن. لقد أثبت فشل انقلاب صالة البيرة لهتلر أنه لا يمكن له الوصول إلى السلطة عبر مواجهة الجيش والشرطة، بل بمساعدتهم. لأن ذلك يعني مواجهة الجمهورية طبقاً لقوانينها، عبر الدستور والفوز بالانتخابات. ربما كان يفكر سلفاً بطريقة تمكنه من التحايل وإخضاع التيار المحافظ. ولذلك كان العمل مع هوغنبيرغ لمواجهة خطة التعويضات الجديدة خطوة أولى.

لكن هتلر كان بحاجة لأحداث أسوأ مما جرى في خريف 1929، ولحسن حظه كانت هناك قوى تعمل على تحقيق ذلك.

3
أيار الدامي والزاحف الخفي

تستعد الشرطة منذ أسابيع. ستنتشر ما بين 13 ألف و14 ألف شرطي في شوارع العاصمة، بعضهم جيء بهم للتعزيز من مدن أخرى. لاحقاً، وبينما يستعيد أحداث العام، سيتذكر كارل سيفرينغ وزير الداخلية في مقاطعة بروسيا، بحسرة، وأسى أنه "نادراً ما مرَّ يوم في مكان ما في ألمانيا... لم يتعرض فيه خصم سياسي لإطلاق النار أو الضرب أو الطعن. ربما يكون النجار الشاب والناشط اليساري ماكس فورست محقاً عندما يقول: "بدأت المعركة النهائية".

وعلى الرغم من التهديدات وحالة التوتر، بدأ اليوم هادئاً تماماً. تتجمع عند الصباح مجموعات صغيرة في أحياء يقطنها أبناء الطبقة العاملة، ويبدأ مسيرهم نحو مركز العاصمة برلين. تستوقفهم الشرطة قبل أن يذهبوا بعيداً. لكن، ومع مضي النهار، تتصاعد الاشتباكات بين الشرطة والمتظاهرين. في البداية، يستخدم رجال الشرطة الهراوات، قبل أن يلجأوا لإطلاق عيارات نارية تحذيراً.

ماكس فورست وزوجته الشابة مارغو من ضمن المتظاهرين. ماكس في الثالثة والعشرين ومارغو التي لم تتجاوز السادسة عشرة وصغيرة الحجم، دائماً ما يقول عنها ماكس "إنها تبدو بائسة وشديدة النحول"، لكن مظهرها خدَّاع. بعد عدة سنوات، عندما ستخاطر بحياتها لإنقاذ صديق من معسكر الاعتقال، ستثبت مارغو أنها امرأة تتمتع بشجاعة بدنية ومعنوية خارقة، وبقوة وذكاء. لكن هنا والآن، حتى الشرطة لا تتعامل معها برحمة. ويحكي

ماكس كيف تعرض ومارغو للضرب مراراً بهراوات الشرطة. ينجح الاثنان في تجنب الضربات بين الحين والآخر. في إحدى المرات، وبينما كان أحد رجال الشرطة واقفاً خلفهما يرفع هراوته ليضرب بها مارغو، يتمكن ماكس من صد الضربة بذراعه.

الوضع لا يزال يتفاقم. العديد من النقابات تعقد اجتماعات في صالات مغلقة. عندما تنتهي الاجتماعات، يندفع المزيد من الناس إلى الشوارع. وقبل انتصاف النهار، يسقط أول قتيل في سوق هاكيشر. تدعي الشرطة أن متظاهرين هاجموا أحد عناصرها وطرحوه أرضاً. يطلق عدد من رجال الشرطة النار عشوائياً على الحشود، فيُصاب متظاهر بثلاث رصاصات ترديه قتيلاً، ويسقط أربعة آخرون جرحى.

يقع أحد مراكز الاحتجاج بالقرب من شارع كوليستر، في حي فيدينغ المُعدم شمال وسط المدينة. وفي فترة ما بعد العصر، أخلت الشرطة عدة مرات الشوارع من المتظاهرين. غير أن سكان الحي -وهم من أكثر سكان برلين فقراً وتهميشاً- راحوا يطلقون سيل الإهانات على الشرطة، ويقذفونهم بالحجارة والزجاجات الفارغة بحسب بعض الروايات. ويطلب رجال الشرطة، وهم يشهرون مسدساتهم، من الأهالي إغلاق النوافذ والبقاء داخل منازلهم.

لا يستجيب رجلٌ لهذا الأمر بالسرعة الكافية. إنه السبَّاك ماكس غيماينهارت، أحد أعضاء الحزب الديموقراطي الاجتماعي، ومنظمته شبه العسكرية "راية الرايخ". يبدو أنه يريد التحدث إلى رجال الشرطة، والبقاء عند نافذته المفتوحة. يوجه شرطيٌ مسدسه باتجاهه ويطلق النار لتخترق رصاصة جبهة غيماينهارت، ليكون أول قتيل يسقط في فيدينغ، لكنه ليس الأخير.

رد بعض المتظاهرين على عنف الشرطة بإقامة المتاريس في شوارع فيدينغ الضيقة. يستقدم رجال الشرطة المزيد من القوة النارية. رشاشات وبنادق إضافة إلى المسدسات. ثم يستخدمون المصفحات لإزالة المتاريس، ويتخلون عن ذريعة إطلاق النار دفاعاً عن النفس. إنهم يطلقون النار بشكل جنوني

على الحشود مباشرة، وحتى أولئك الواقفين عند النوافذ. وعند قرابة العاشرة مساءً، يصاب رجل بطلقة تخترق الباب الأمامي لمنزله. وبحسب ما ذكرت أرملته في ما بعد، أن زوجها كان في المنزل ولم يشارك في المظاهرات. عندما بدأ إطلاق النار قرر الذهاب إلى بيت والدته القريب، حيث كان ابنه البالغ من العمر سبعة عشر عاماً يمضي نهاره. وقبل أن يفتح الباب ويَهُمَّ بالخروج، أصابته رصاصة في ذراعه ورصاصتان في ظهره. ولم تكن جروحه -كما ذكرت أرملته- خطيرة، إلا أن الأطباء لم يستطيعوا القدوم لإسعافه بسبب إطلاق النار، ولم تكترث الشرطة للأمر. وتضيف الأرملة أن الضحية بقي مستلقياً على الأرض غارقاً بدمه قرابة الساعة، وعندما سنحت الظروف لتقديم المساعدة إليه، كان الأوان قد فات.

ويقع حادث مشابه قرب هيرمان بلاتس في حي نيوكولن، إذْ يخرج فتى في السابعة عشرة من العمر يدعى باول بانديه لشراء السجائر، وفي طريقه يتوقف لتبادل الحديث مع بعض المارة في الشارع. ينتاب القلق والدته التي تنزل من منزلها لإرجاعه. ومن دون سابق إنذار، تبدأ الشرطة بإطلاق النار فتصاب الأم وهي لا تزال عند باب المبنى الذي تسكن فيه. تنقَلُ إلى المستشفى وهناك تلفظ أنفاسها الأخيرة.

إنه الأول من أيار/ مايو 1929؛ عيد العمال الذي تسارع الصحافة إلى تسميته بـ "أيار الدامي". إنه، وبكل المقاييس، طوفان استثنائي من العنف ضد مواطنين مسالمين. لماذا يحدث كل هذا؟ جزء من الجواب على هذا السؤال يكمن في موقف الشرطة من سكان برلين الأكثر فقراً وحرماناً. فالشرطة تكره، بل تخشى أحياء مثل نيوكولن وفيدينغ، وتراهما وكراً للمجرمين والشيوعيين الذين لا تفرق بينهما دائماً. ويسجل مراسل جريدة شيكاغو ديلي نيوز في برلين هذا الموقف، عندما ينقل تعليقاً لافتاً للشرطة على هاتين المنطقتين. يقول: "نود لو نحرق الوكر بأكمله، ونتمنى لو نستطيع أن نتعامل معه بطريقة مختلفة، لكنه لا يُسمح لنا بذلك".

منذ العام 1889، والعمال يحتفلون بهذا اليوم في أنحاء أوروبا، بل في أميركا، حيث تنظم الأحزاب الاشتراكية ونقابات العمال مسيرات ومظاهرات. قبل العام 1918، كان الحزب الديموقراطي الاجتماعي الحارس الوصي على هذا التقليد في ألمانيا. أما في عام 1929، فقد طرأ متغيران جديدان.

أول هذين المتغيرين أن الحزب الديموقراطي الاجتماعي كان في السلطة في مقاطعة بروسيا وعلى مستوى البلاد بأسرها. وهذا الموقع يحتم عليه تحمل مسؤولية أمن وسلامة سكان برلين؛ عاصمة المقاطعة والبلاد في آن معاً. بيد أن العنف السياسي كان يتصاعد، على وجه الخصوص، بين الأحزاب التي تقف على طرفي نقيض داخل الطيف السياسي: النازيون والشيوعيون. وسعياً منها لاحتواء هذا العنف، حظرت سلطات برلين المسيرات السياسية في الأماكن المفتوحة. لكن كثيرين توقعوا أن تستثني الحكومة -وهي من الحزب الديموقراطي الاجتماعي الذي يمثل العمال- الأول من مايو/ أيار من قرار الحظر، غير أن السلطات رأت في قرار كهذا تصرفاً مناقضاً وغير مسؤول.

يقودنا ما سبق إلى المتغير الثاني. قبل العام 1918، كان اليسار السياسي الألماني موحداً في الحزب الديموقراطي الاجتماعي، أما في العام 1929، فقد أصبح الوضع مختلفاً بسبب الانقسام الحاد بين الديموقراطيين الاجتماعيين والشيوعيين، والذي وُلِدَ من الخلاف الذي وقع بين الديموقراطيين الاجتماعيين والمستقلين إبان الحرب. واستفحل هذا الخلاف بسبب العنف الثوري في عامي 1918 و1919، عندما أفلتت حكومة فريريدك إيبرت الحبل على غاربه "للكتائب الحرة"، لمواجهة اليسار الراديكالي مما أدى إلى مقتل روزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنيخت ومئات آخرين. وفي واقع الحال، يمثل الحزبان اللذان يُحسبان على اليسار السياسي فئات مختلفة. فالحزب الديموقراطي الاجتماعي يمثل العمال المنضوين إلى النظام: العمال المهرة، وأصحاب الأجور المرتفعة نسبياً، والمُنَظَّمين في نقابات واتحادات عمالية. في حين يمثل الشيوعيون العمال غير المَهَرة والعاطلين من العمل، وأكثر فئات الشعب فقراً وتهميشاً، ممن يسكنون في أحياء مثل نيوكولن وفيدينغ. وخلافاً للديموقراطيين

الاجتماعيين الإصلاحيين المعتدلين الذين يمسكون بالسلطة، يعلن الشيوعيون التزامهم الواضح ثورةً على الطراز السوفييتي، وهم لا يكرهون أي حزب آخر، ربما حتى النازيين، أكثر مما يكرهون الديموقراطيين الاجتماعيين، ليس لأنهم يعتبرونهم أعداءً وحسب، بل خونةً أيضاً.

لذلك -ولا نزال في أجواء عام 1929- يصر الشيوعيون على مواصلة احتجاجاتهم التقليدية في عيد العمال، وسيكون من الأفضل أيضاً لو يُخْرِجون السلطات الاجتماعية الديموقراطية التي تصر على إبقاء الحظر قائماً على المسيرات. وخلال الفترة ما قبل الحدث المنتظر في الأول من مايو/ أيار، تبدأ الصحافة الموالية لكل طرف بكيل الاتهامات تجاه الخصوم. الشيوعيون من جانبهم يقولون إن الديموقراطيين الاجتماعيين يحاولون إنشاء "ديكتاتورية في بروسيا"، إذْ يرى الشيوعيون متعة في مقارنة الديموقراطيين الاجتماعيين بمسؤولي القيصر الذين كان يتبنون نفس الموقف من الاحتجاجات السياسية. بالمقابل، يرد الديموقراطيون الاجتماعيون باتهام الشيوعيين بأنهم "يحتاجون إلى جثثٍ" من أجل الدعاية.

وبالفعل، هناك ما يكفي من الجثث، إذْ يحصي تقرير الشرطة حول أحداث الأول من مايو/ أيار تسعة قتلى، وثلاثة وستين مصاباً بجروح خطرة في صفوف العمال والناشطين، إضافة إلى جرح خمسة وعشرين شرطياً. ويزداد العنف سوءاً على مدى اليومين التاليين، وبحلول الثالث من أيار/ مايو، يبلغ عدد القتلى برصاص الشرطة ثلاثة وثلاثين، والجرحى ثمانية وتسعين، فيما تجاوز عدد المعتقلين الألف، مقابل سبعة وأربعين جريحاً في صفوف الشرطة بينهم شرطي واحد أصيب بطلق ناري من مسدسه. كل هؤلاء الضحايا في أيار الدامي -على حد تعبير الصحفي كارل فون أوسيتسكي- سقطوا ضحية "معركة الوجاهة بين الشيوعيين والديموقراطيين الاجتماعيين".

شيوعيون ضد نازيين، وشيوعيون ضد ديمقراطيين اجتماعيين، وشرطة ضد عمال؛ جميعهم جزء من الانقسامات التي كانت تمزق المجتمع الألماني عام 1929.

كان مقهى رومانيسك المكان الذي يلتقي فيه فنانو ومثقفو برلين؛ أي عظماؤها، ومن كانوا يحسبون أنفسهم عظماء، حتى اكتسب المكان لقب "مقهى جنون العظمة"، دون أن يعني ذلك معاملة جميع الرواد على سوية واحدة. فقد شَبَّهَ الصحفي ماثيو كوينتس المقهى "بمكان للسباحة ببركة كبيرة للسباحين، وأخرى صغيرة لغير السباحين". وكان البواب هو من يقرر أي قسم من المقهى يجلس فيه الضيوف. البركة الكبيرة للأثرياء، أي للمخرجين السينمائيين والممثلين ومسؤولي الإعلانات، وعلى غير العادة بعض الفنانين الناجحين. وفي البركة الصغيرة يجلس الكتاب، والصحفيون، وبقية الفنانين، والناشطون، السياسيون، وباحثون في الدراسات التلمودية. وكانت هناك تصنيفات أخرى، فالشيوعيون لهم طاولتهم الخاصة، وكان تاجر اللوحات الفنية ألفريد فليختهايم يترأس طاولة أخرى، وهناك طاولة خاصة بدارسي التلمود. أما بالنسبة للمجموعات والزُمر الصغيرة، فلم تكن تختلط كثيراً فيما بينها، باستثناء المراسل الصحفي إيغون أيرفين كيتش الذي كان يتمتع "بقدرة مذهلة على إجراء محادثات مثيرة مع جميع الطاولات في وقت واحد" بالتزامن مع قراءة الصحف، واستراق النظر إلى جميع النساء.

كان مقهى رومانيسك أيضاً مؤسسة متعجرفة، فأي فنان لا يعرفه البواب، بكل بساطة غير موجود. كما كان لا يُسمح سوى لعدد محدد من الرواد، مثل الكاتب المسرحي برتولد بريخت، أن يبقى طوال اليوم دون أن يطلب أكثر من مشروب واحد. فقد كان يُطلب من معظمهم تسديد الحساب والمغادرة. أما المؤرخ إيريك فايتس فيرى المكان على أنه "الرمز المطابق للسياسة والمجتمع في فايمار، حيوي وديموقراطي وملتزم، مُقَسَّمٌ ومُقَسِّمٌ، عاجز عن التحدث خارج دائرته الخاصة".

كانت الانقسامات، التي تزداد مرارة ولا يمكن إصلاحها، حول مواضيع الدين والسياسة، والطبقة الاجتماعية، والمهنة، والتوزع المناطقي، هي العلامات البارزة لجمهورية فايمار. فماركوس فولف الذي ترأس لعدة

سنوات جهاز الاستخبارات في ألمانيا الشرقية الشيوعية، كان طفلاً لأسرة شيوعية ناشطة في العشرينيات من القرن الماضي، ويتذكر جيداً، بعد مضي سنوات عديدة، ذلك الإحساس بأن المعارك السياسية بين اليمين واليسار حينذاك "كانت أشبه بحرب بين عصابات، "وأن النازيين كانوا مختلفين على نحو كبير، حتى عشائرياً، عن عائلتنا."

ولأن جمهورية فايمار فسحت المجال في نهاية المطاف لظهور ديكتاتورية نازية، من الطبيعي أن يتركز الاهتمام على الخلاف بين مؤيدي الديموقراطية والمناوئين لها. وبالنسبة لسياسيي برلين، لم يكن هنالك شك بأن الشرخ القائم بين الطرفين كان الأكثر أهمية. أما بالنسبة للبلاد بأسرها، كانت الصورة أكثر تعقيداً. صحيحٌ أنه لم يكن يوجد وقتذاك استطلاعات للرأي للوقوف بدقة على ما كان يجري في عقول الناخبين في كل جولة انتخابية، لكننا نعرف تماماً عن فئات الشعب المختلفة التي كانت تؤيد العديد من الأحزاب السياسية.

وتعتبر "المذهبية السياسية" واحداً من أهم الصدوع القائمة في السياسة في فايمار، وهو مصطلح يستخدمه المؤرخون، في إشارة إلى أن الناس عادة ما يصوتون تبعاً لتأثير المحيط: جيرانهم، وزملائهم، وكنائسهم، ونواديهم، وصحفهم، ووسائط أخرى. وحالما تتحكم المذهبية السياسية، يصبح الناخبون أكثر مقاومة لتغيير آرائهم ومواقفهم، في حالة شبيهة بالانتماء إلى مذهب ديني أو طائفة كنسية، ومنها اُشْتق المصطلح.

وعرفت ألمانيا في عهد جمهورية فايمار ثلاثة معسكرات "ممذهبة سياسياً": المعسكر الاشتراكي (ويتكون بشكل أساسي من الديموقراطيين الاجتماعيين والشيوعيين) والمعسكر الكاثوليكي (ويضم حزب الوسط وشقيقه البافاري حزب الشعب البافاري) ومعسكر الطبقة الوسطى البروتستانتية (ويتألف من قوميي ألمانيا المحافظين، والحزب الديموقراطي الليبرالي، وحزب الشعب، ومجموعات هامشية متعددة مثل حزب المشاريع الصغيرة).

وتتمثل النقطة الأهم في أنه، وعلى الرغم من حالة عدم الاستقرار، على مستوى القمة في جمهورية فايمار؛ أربعة عشر مستشاراً وإحدى وعشرون حكومةً على مدى أربعة عشر عاماً فقط، بقيت هذه المعسكرات السياسية مستقرة دون تغيير في الفترة ما بين 1919 و1939، حيث كان كل معسكر بمثابة خيمة كبيرة، تضم عناصر ديموقراطية وغير ديموقراطية. أما حركة الناخبين، فكانت بشكل عام تتخذ مساراً ضمن كل معسكر دون أن تعبر الحدود الفاصلة. فالديموقراطيون الاجتماعيون خسروا بعض ناخبيهم لمصلحة المستقلين في فترة مبكرة ثم لمصلحة الشيوعيين لاحقاً، لكن (بعد الذروة الاستثنائية عام 1919) استقر معدل التصويت للاشتراكيين عند هامش متوقع يراوح بين 35 و40٪ من المجموع العام. أما الصوت الكاثوليكي، فقد تحرك ضمن نطاق أضيق، تمثل ببضع نقاط زائد ناقص 15٪. عندما بدأ النازيون يستقطبون عدداً كبيراً من الأصوات، فقد كان مرد ذلك فعلياً إلى أنهم استولوا على الطبقة الوسطى البروتستانتية الذي منحهم التقدم ببضع نقاط على الاشتراكيين، ضمن هامش متوقع يراوح ما بين 30٪ إلى 40٪. حتى إن هتلر أوضح فهمه لهذا العنصر الأساسي عندما أبلغ أحد أتباعه عام 1925: "سيكون لزاماً علينا أن نسد أنوفنا وندخل البرلمان ضد النواب الكاثوليك والماركسيين". مع العلم أن حزبه، وحتى العام 1932، لم يكسب أبداً كثيراً من الناخبين "المنتمين سياسياً إلى التكتل الاشتراكي"، كذلك الأمر بل على نحو أقل من المعسكر الكاثوليكي. حتى في ذروة النجاح الانتخابي للنازيين عامي 1932 و1933، كان الاختراق النازي داخل هذين المعسكرين محدوداً.

مجدداً، يشير استقرار المعسكرات الثلاثة وقوتها إلى الانقسامات الحادة داخل المجتمع الألماني في فايمار، لكن يُضاف إليه أمر آخر. فحقيقة أن الناخبين في فايمار بقوا ضمن معسكراتهم، يعني أن عمليات التكتل والاستقطاب التي وضعتهم في هذه المعسكرات، أساساً، توضح أن أصواتهم

ليست أكثر من أيديولوجية سياسية شكلية، وربما زادت على ذلك. فالكاثوليك كانوا يصوتون لمصلحة حزب الوسط وشقيقه البافاري حزب الشعب، لأنه التصرف المصلحة، والمناسب كاثوليكياً، كما يعتقدون. أما عمال المدن فكانوا يصوتون لمصلحة الديموقراطيين الاجتماعيين انسجاماً مع انتمائهم الطبقي. كذلك نجح النازيون؛ لأن برنامجهم يتناسب مع رؤية عامة تتبناها سلفاً الطبقة الوسطى البروتستانتية.

وفي حقيقة الأمر، ما ضَخَّمَ حدة الانقسامات الفئوية في السياسة الألمانية هو الخلاف بين سكان الريف وسكان المدينة، يضاف إلى ذلك كله الخلاف بين سكان برلين والآخرين جميعهم.

إن تصورنا لألمانيا في عهد جمهورية فايمار يكاد ينحصر في برلين: فن جورج كروتز، وموسيقا كورت فايل وبرتولد بريخت، وعمارة إيريك ماندلسون، وسالي باولز[6] مغنية ملهى كريستوفر إيشروود، ومجتمع كبير ومنفتح لمثليي الجنس، وتجارب جنسية من كل الأنواع. لكن وفي العام 1925 كان أربعة ملايين نسمة فقط من أصل 62.5 مليون ألماني يسكنون في برلين، في حين كان ما يزيد على ثلث السكان يعيشون في التجمعات الريفية التي كانت تُعد قرىً لا يزيد عدد قاطنيها على ألفي نسمة. وكانت حياة هؤلاء تختلف كثيراً عن الحياة المتطورة جداً في برلين.

لقد كانت المدن، في مطلع ومنتصف القرن العشرين، محكومة بفوارق أكثر حدة مما نعرفه اليوم. كذلك كان الأوروبيون -حينذاك والآن- يمتلكون فهماً مغايراً لمفهوم الطبقة الاجتماعية مقارنة بالأميركيين الذين يحددون الطبقة الاجتماعية استناداً إلى مستوى الدخل. أما الأوروبيون فيرونها مسألة أكثر تعقيداً تتصل بالبيئة الاجتماعية، والمظهر، والعلاقة مع الاقتصاد.

---

6 سالي باولز مغنية خيالية في ملهى ليلي، اخترعها الروائي البريطاني - الأميركي كريستوفر إيشروود في روايته الصغيرة التي نُشرت عام 1937، وهي تحمل اسم الشخصية عنواناً لها. وأعيد نشر القصة نفسها في رواية أخرى للكاتب نفسه بعنوان "وداعاً برلين". (م)

على هذا الأساس، يصنف شخص ما على إنه من الطبقة العاملة، لأنه يُحضرُ عمله أو عملها إلى السوق، في حين أن أفراد الطبقة الوسطى هم أولئكَ الذين يملكون عملاً خاصاً، أو يمارسون مهنة مستقلة، مثل الطب أو المحاماة، أياً كان دخله أو دخلها. وفي العشرينيات والثلاثينيات، كان الحد الفاصل بين الطبقة العاملة والطبقة الوسطى واضحاً من خلال الملبس، واللكنة، والقامة، والرائحة، كما كتب الروائي جورج أورويل مرة. هذه البنية الاجتماعية للمدينة هي التي مهدت الطريق لظهور مفهوم السياسة الحديثة، من خلال التمييز الواضح بين أحزاب الطبقة العاملة من جهة، وبين أحزاب الطبقة الوسطى من جهة أخرى.

لكن هذه البنية الاجتماعية كانت غائبة في المناطق الريفية التي كانت تعيش في إطار ما يدعوه المؤرخ شيللي بارانوفسكي "الأسطورة الريفية". وتبعاً لهذه الأسطورة، كانت الزراعة هي العمل الأفضل، وكانت الحياة في الريف هي الحياة الحقيقية، والمُفيدة والتي ترسخ الاستقرار والتعايش والسلم الاجتماعي. واعتمدت الأسطورة الريفية على تراتبيات طبقية يتسيد فيها الإقطاعيون الأرستقراطيون على العمال المزارعين، فيما كان يشكل المهنيون المتعلمون مثل المدرسين، والقساوسة، الطبقة الوسطى. لكن كان من المفترض أن تكون هذه التراتبية أقل حدة في مفهوم المجتمع الصغير الذي يعي فيه كل فرد موقعه وواجباته ومسؤولياته. إن الحفاظ على هذه المعتقدات كان يتطلب بالتأكيد وجود "الآخر". وهنا كانت المدن هي العدو الذي كان يمثل -بالنسبة إلى الريف- "الجمهورية، والكثرة، والمكننة، والطائفية، والأمركة فضلاً عن التجريب في التعليم، والانحلال الأخلاقي، وتحديداً في عدم وضوح الحدود الصحيحة بين الجنسين"، بحسب تعبير بارانوفسكي.

وكان المعتقد الديني يشكل مكوناً كبيراً في الهوية الريفية، فقد كان الارتباط بالكنيسة يحتل موقعاً أقوى مما هو الحال في المدينة. ففي

الشرق البروسي البروتستانتي، عزز قيام دولة بولندا، بعد الحرب العالمية الأولى أهمية الهوية البروتستانتية، لأن بولندا أعلنت نفسها دولة كاثوليكية. وقاد هذا بدوره إلى ميل أكبر لجعل المعنى الجوهري من كونك بروسياً موازياً لكونك بروتستانتياً.

وفي واقع الأمر كان لسكان الريف أسبابهم التي يمكن تفهمها بخصوص عدم رضاهم عن جمهورية فايمار. فقوة ونفوذ الديموقراطيين الاجتماعيين كان يعني لهم أن الطبقات العاملة في المدينة حازت سطوة سياسية تفوق بكثير ما كانت عليه الحال قبل الحرب. كما كان يعني أن الحكومات تعمل جاهدة للمحافظة على أسعار الغذاء منخفضة، إلى جانب أن قطاع التصدير بات يملك نفوذاً يرجح قدرته على تخفيض الرسوم على التعاملات التجارية الخارجية. فكما هو معروف، كان لسكان الريف فرصة أكبر للاستفادة من الرسوم المفروضة على الواردات وارتفاع أسعار المواد الغذائية. فقد أثار الاتفاق التجاري الذي عُقد مع بولندا عام 1929 لاستيراد المواد الغذائية غضباً شديداً في المناطق الريفية، لدرجة لم تتمكن الحكومة من تصديقه. وفي عامي 1928 و1929 تراجعت فجأة أسعار المواد الغذائية، المتدنية أصلاً، بشكل كبير دفع بعض المزارعين إلى الإفلاس وآخرين إلى العجز عن سداد ضرائبهم.

كما كان للحرب العالمية الأولى تأثيرٌ كبيرٌ على المناطق الريفية. فقد كان ضرورياً المحافظة على أعداد كبيرة من عمال المصانع في المدن لإنتاج المدافع والطائرات وسائر مستلزمات الحرب الحديثة. فالجيش الألماني، شأنه شان بقية الجيوش الأوروبية، كان يعتمد على الريف لتأمين موارده البشرية على جبهات القتال، لذلك حصد الموت أعداداً كبيرة من الشبان المزارعين. وهذا ما زاد من نقمة الريف على المدن، وعلى رأسها برلين التي يفترض أنها موطن المثقفين والمتربحين الذين بقوا بمنأى عن الحرب.

من جهة أخرى، لم تكن محاولات التجريب الثقافي والفني في برلين تشكل جاذباً لسكان الريف المحافظين، علماً بأن هذا لم يكن هو الجانب الوحيد الذي يثير امتعاض الريف من المدينة الكبيرة. كانت برلين مركزاً صناعياً ضخماً، ومقراً للعديد من الشركات الكبرى في مجال الصناعات الالكترونية مثل (إيه. إي. جي) و(سيمينس)، إلى جانب مصانع الآلات والنسيج وأشياء أخرى كثيرة. وكما هو الحال في أغلبية البلدان، منذ أن بدأت الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، اعتاد الكثير من الألمان شيطنة المصنع، معربين عن حنينهم للعودة إلى الحياة الزراعية. كذلك كانت برلين مركز ألمانيا المالي، لكن المصارف وأسواق البورصة لم تكن رائجة بين أناس لا يكسبون عيشهم عن طريقها.

كان النسيج الاجتماعي لمدينة برلين متميزاً عن بقية البلاد. فقد كانت تضم أكبر جالية يهودية تبلغ نسبتها 7٪ من سكان المدينة، علماً بأن 1٪ من مجموع سكان ألمانيا كانوا يهوداً". ولأن برلين كانت مركزاً صناعياً ضخماً، كان من الطبيعي أن تكون مُستقراً لعدد كبير من العمال الصناعيين الذين كانوا، على الأرجح، يصوتون إما للحزب الديموقراطي الاجتماعي، وأما للشيوعيين. وكان عادة ما يفوز هذان الحزبان بأغلبية أصوات سكان برلين في جميع الانتخابات تقريباً في جمهورية فايمار، الأمر الذي دفع النازيين والآخرين في اليمين السياسي إلى إطلاق تسمية "برلين الحمراء" على المدينة.

لذلك لم يكن مفاجئاً أن تصبح برلين، بالنسبة إلى كثير من الألمان رمزاً لكل شيء مكروه في جمهورية فايمار. حتى أن اسم المدينة بات يختصر ألمانيا كلها في مقولة: إن كنت معادياً لبرلين، فأنت معادٍ لنظام فايمار. لكن وكما يقول الكاتب البافاري: "برلين ليست ألمانيا، بل على العكس تماماً، هي مدينة فاسدة وملوثة بالقاذورات الغالتشية". وكانت هذه الأخيرة اللقب الذي أطلق على اليهود، ولاسيما أن العديد منهم هاجروا من منطقة

غالتشيا البولندية. ولم يشذ الصحفي المحافظ فيلهلم شتابل عن ذلك، عندما وصف برلين بأنها "بالوعة الجمهورية" كونها تضم" الكثير من السلافيين، إلى جانب يهود أوروبا الشرقية الفاسقين الذين اختلطوا بسكان برلين"، معتبراً أن هذا "الخليط المُحْرِج" هو من رسم شخصية المدينة. وأشدُ ما أثار امتعاض شتابل ما وصفه بـ "التعالي الأخلاقي والقوقأة التي لا تنتهي من السخرية" التي يعتقد أن المهاجرين أحضروها معهم، وكذلك استياؤه من غرور مثقفي برلين الذين كانوا يعتقدون بوجوب "برلنة" الريف. وهنا يُطرح السؤال عن العلاج المناسب لبرلين. وكان الشق الأول من الجواب في التقاليد الثقافية الألمانية لكانط وغوته، أما الشق الثاني فكان في "الحزم الحديدي" للكنيسة اللوثرية. "ففلاحو ألمانيا"-والكلام لشتابل- بدؤوا يتمردون".

لقد حظي استهجان العادات الجنسية وما رافقها من مناخ تجريبي بمساحة واسعة من الانتقادات الكنسية والريفية الموجهة إلى برلين، ولم يكن هذا مجرد تحفظ، بقدر ما كان يعبر عن معنى أعمق. فقد كان الألمان البروتستانت يرون في النظام الأسري الذكوري جوهر وأساس النظام الاجتماعي القائم، والذي لا يجب أن يمارس بموجبه الآباء سلطتهم داخل المنزل وحسب، بل في الحياة السياسية والاقتصادية أيضاً. أي إن جميع التغيرات المختلفة للعلاقات الجنسية أو بنية الأسرة كانت تشكل تهديداً مباشراً للسلطة الاجتماعية والسياسية.

ورد بعض البرلينيين على هذه الانتقادات بشيء من التنازل، بل حتى الاحتقار تجاه مواطنيهم من سكان الريف. ومن هؤلاء الشاعر ومؤلف كتب الأطفال إيريك كيستنر الذي تخيل أن سُياحاً من الريف مبهورين بساحة بوتسدام العالمية المزدحمة في برلين (والتي كانت مكاناً لأول إشارات ضوئية لتنظيم المرور في أوروبا، من بين عدة أشياء أخرى) يقومون بكل "شيء خاطئ" ويبتسمون "بألم" إلى أن "يُدْهَسون". وينضم إليه الصحفي

كورت توخولسكي الذي وصف "غير المتحضرين"، و"الشخصيات الهزلية" في ثياب بالية بالذين يسكنون العوالم الريفية في سيليزيا وشرق بروسيا وبوميرانيا. وناشد البرلينيين التحدث عالياً، والعمل على نقل أضواء برلين إلى تلك المناطق المظلمة، مع العلم أنه كان واقعياً في إمكانية تحقيق ذلك. وكتب قائلاً: "إن مقام ورفعة الصحف الديموقراطية الكبرى، أو الفنانين والاتحادات الليبرالية، لا يمت بأي صلة في الواقع إلى قوتها الفعلية". ويضيف: "إن قوة رد الفعل الموجودة هناك وتعمل بمهارة أكبر، وفوق ذلك كله باحترام أقل، فعلت فعلها بصمت وبدعم من أسواق المال وطبقة التجار".

وفي هذا السياق، كان شتابل محقاً عندما قال إن الفلاحين بدؤوا يتمردون. في عام 1928 ووسط أزمة اقتصادية ضربت الزراعة الألمانية، ظهرت حركة احتجاجية ريفية راديكالية تطلق على نفسها اسم "شعب الأرض"، انطلقت أولاً من منطقة شليسفيغ-هولشتاين الريفية شرقي مقاطعة بروسيا، ثم امتدت إلى المناطق الريفية شمالاً وشرقاً. طالبت الحركة بفرض رسوم جديدة على الواردات من المواد الغذائية، وتوفير قروض ائتمانية ميسرة، وخفض برامج الرفاهية الاجتماعية التي كانت سُتقرر في حينه للمدن. وكانت الحركة تنتمي، من الناحية السياسية، إلى اليمين المتطرف، واستخدمت أساليب إرهابية للتعبير عن مطالبها، عندما فجرت قنابل في مبانٍ حكومية. في عام 1929 -وفي ضربة تحمل معنى رمزياً ضد الجمهورية المكروهة وعاصمتها- فَجَّرَ المتمردون قنبلة في الرايخستاغ. وكشفت الشرطة وجود صلة بين حركة شعب الأرض والحزب النازي الذي كان عندئذ لا يزال غامضاً. لكن، وفي فترة لاحقة، سينجح النازيون في استقطاب مناطق الحركة إلى جانبهم.

لا يمكن تجاهل مواقف المسيحيين الألمان إزاء اليهود، المواقف التي لعبت أيضاً دوراً في الانقسامات السياسية الداخلية.

وعلى مدى العقود التي سبقت الحرب العالمية الأولى، أصبح العداء للسامية العلامة التجارية المميزة لليمين السياسي في ألمانيا. وكان ذلك -بحسب ما كتبه المؤرخ شولاميت فولكوف- بمثابة "ميثاق ثقافي" يجمع حزمة من الأفكار والمعتقدات.

وكانت القومية الألمانية أهم هذه المعتقدات على الإطلاق، ثم يتلوها تقديس القوة وإعلاء قيمة "الرجولة" و"الفحولة"، والنخبوية الاجتماعية، والعرقية، وكره النساء. وكان اليمين القومي معادياً للديموقراطية والليبرالية والاشتراكية. كذلك كان يكره المدن ويفضل الريف، كما كانت قيمه عسكرية لا تجارية، وعادة ما دفعه تقديره وتبجيله لميثاق الشرف العسكري إلى مناهضة المادية والرأسمالية، ومن هناك، في خطوة قصيرة، إلى معاداة السامية التي كانت بالمعنى السياسي حالة شعبوية، إذ كان يعتقد أن معاداة السامية كانت السبب وراء وقوف المزارع ضد تاجر الحبوب، وصاحب المشروع التجاري الصغير ضد صاحب المتجر، إي إنها كانت معادية للنخبوية الرأسمالية، وللحداثة.

وعلى الطرف الثاني من الطيف، كانت ظاهرة **مناهضة** معاداة السامية مرتبطة بشكل وثيق بالتحالف السياسي الديموقراطي أو الاشتراكي، وأنصار السلام، والحركة النسوية. وأكبر مثال على ذلك زعيم الحزب الديموقراطي الاجتماعي قبل الحرب أوغست بيبل الذي وصف معاداة السامية بأنها "اشتراكية الحمقى". وكان هناك كثير من أمثاله، منهم المؤرخ تيودور مومسن الذي قال إن معاداة السامية لا تعني مجرد كره اليهود، بل كره "التعليم والحرية والإنسانية" أيضاً. وفي عام 1910، كتب الفيلسوف تيودور ليسينغ -وكان من أنصار الحركة النسوية- أن اليهود والنساء يتمتعون بتفوق أخلاقي يقوم على الظلم المشترك الواقع عليهما.

بعد العام 1918، ازداد وضوحاً استخدام معاداة السامية كشعار، واتسع الدور الذي لعبه في تحديد اليمين القومي. فحالات الفوران المعادية للسامية في ألمانيا قبل الحرب، طالما كانت مجرد ردود فعل على أزمات داخل مجتمع محلي معين أو قطاع مهني محدد. لكن، وبعد العام 1918، تضاعفت الأزمات واتسع نطاقها على مستوى البلاد بأسرها: الهزيمة، والثورة، والحرب الأهلية، والتضخم المفرط، والبطالة. وبالتوازي ازدادت طرداً ردود الفعل المعادية للسامية. هذا لا يعني بالضرورة أن التركيبة السياسية لجمهورية فايمار شَكَّلَت جانباً إيجابياً ليهود ألمانيا. فظاهرة معادة السامية كانت منتشرة لكن الدولة الألمانية ما قبل الحرب، ذات الطابع الاستبدادي المحدود، كانت تعارض هذه الظاهرة، فضلاً عن السلطة المحدودة للأحزاب السياسية التي جعلت من إمكانية حصول الناشطين المعادين للسامية على نفوذ أكبر أمراً صعباً. غير أن الوضع تبدل كلياً في ظل الديموقراطية الجديدة في فايمار. إذْ بات بإمكان الحزب الشيوعي أحياناً أن يبدو معادياً لليهود مثل أي حزب أخر، لكن، وبشكل عام، بقيت معاداة السامية حكراً على اليمين القومي. ويكفي القول إن ظاهرة معاداة السامية أدت وظيفتها بطريقة تشبه إلى حد ما تؤديه قضية الإجهاض في أميركا اليوم في فرز الجمهوريين والديموقراطيين. مع العلم أن مسألة أن يكون المرء مع اليهود أو ضدهم لم تكن بحد ذاتها، بالنسبة إلى معظم الناس، هي الأهم، بقدر ما كانت رمزيتها النقطة التي كان عليه قبولها، والثمن الذي يجب دفعه للانضمام إلى أحد الطرفين.

وحالما تأسس هذا العرف، بات بمقدور الخطاب المعادي للسامية أن يعمل بفعالية، دون الحاجة لذكر اليهود صراحةً، كما حدث في العديد من خطابات هتلر مع اقترابه من الوصول إلى السلطة. فعندما كان هتلر يتحدث عن "عناكب المال العالمي"، أو يشتكي من "أن المال العالمي بات سيد ألمانيا وحاكمها"، كان مستمعوه يعلمون تماماً من المقصود بكلامه.

بُنيت ديموقراطية فايمار على أسس لا تبشر بالخير: هزيمة حرب كارثية، واتفاقية سلام مكروهة تلاها اضطراب سياسي واقتصادي غير مسبوق. لكن، ورغم كل هذه الوقائع، تابعت الجمهورية حياتها، حتى إنها نمت في عهد شتريزيمان. إن نجاة جمهورية فايمار غير المتوقعة واندماجها في المجتمع الدولي يذكراننا بقوة أن الجمهورية لم تكن محكومة بالفشل منذ البداية، خلافاً لما كانت تصوره رواية أخرى داومت على هذا المنوال.

لقد كان نجاح الجمهورية واستقرارها تحديداً هو من حَشَرَ خصومها في وضعية أكثر مرارة ويأساً وعناداً، ودفع في نهاية المطاف إلى تبني استراتيجيات للتغلب على الديموقراطية التي أثبتت نجاحها. فمن منتصف العشرينيات حتى أواخرها، انطلقت أربع حركات تمرد لتقويض الديموقراطية الألمانية، كل واحدة منها ساهمت بدورها في انهيار هذه الديموقراطية أوائل الثلاثينيات.

وكانت الحركة اليمينية المتطرفة أكثر هذه الحركات وضوحاً. فعلى مدى الجزء الأكبر من فترة العشرينيات كان ألفريد هوغنبيرغ والقوميون الألمان هم من قادوا التمرد، لكنهم بالتأكيد لم يكونوا وحدهم. فقد استغل هتلر فرصته عامي 1923 و1924، وبحلول العام 1929 بدا واضحاً أنه كان يعود مجدداً إلى الساحة. وفي الوقت ذاته كانت احتجاجات حركة "شعب الأرض" تندلع في المناطق الريفية.

من الطرف الأخر للطيف السياسي، جاء الشيوعيون الذين كرسوا جهودهم -كما هو الحال بالنسبة لليمين القومي- لقلب النظام الديموقراطي. ففي العام 1928، أعلن المؤتمر السادس للشيوعية الدولية التي كانت تدار من قبل الاتحاد السوفياتي عقيدته التي تقول إن العالم الرأسمالي دخل "المرحلة الثالثة" من الأزمة والثورة. كانت موسكو خلال تلك الفترة تتوقع أن تلجأ المصالح الرأسمالية الكبرى -من أجل الدفاع عن نفسها ضد العمال الثوريين- إلى الفاشيين للحصول على الدعم المطلوب،

وأن تمد يد العون للديموقراطيين الاجتماعيين؛ الأصدقاء المزيفين للعمال، بينما هم في الحقيقة من مؤيدي الرأسمالية. وكان متوقعاً أن يشجب الشيوعيون خصومهم الديموقراطيين بصفتهم "فاشيين اجتماعيين"، وأن يتعهدوا بالعمل ضدهم، كما عملوا ضد الفاشيين. وبهذه السياسة كفلت الشيوعية الدولية أن يبقى الصدع بين الحزبين اليساريين -وهو الذي بدأ مع الحرب وثورة سبارتاكوس- قائماً في ديموقراطية فايمار.

إلى جانب ذلك كان هناك مجموعتان قويتان في ألمانيا، وهما الشركات الكبرى، والقوات المسلحة، تمتلكان أسباباً مختلفة لتحقيق هدف واحد، ألا وهو إقصاء الديموقراطيين الاجتماعيين من أي مشاركة في السلطة. وكان هذا يعني عملياً إيجاد طريقة لتعطيل الرايخستاغ، أو على الأقل للحد من سلطاته، في وضع القوانين وتشكيل الحكومات. أي، وبعبارة أخرى، كان العسكر ورجال الأعمال يريدون شكلاً من الحكم أكثر شمولية وتسلطاً، لكن يبقى لكل طرف أسبابه ودوافعه الخاصة. فقد كانت قضية زيادة الأجور التي كانت تضعها في أغلب الأحيان لجنة تحكيم مفوّضة حكومياً، السبب المباشر وراء موقف الشركات الكبرى. أما القوات المسلحة فقد كانت غاضبة من رفض الديموقراطيين الاجتماعيين التصويت من أجل زيادة ميزانية الإنفاق العسكري. وخلال فترة لاحقة من عشرينيات القرن الماضي، انتقلت القوات المسلحة والشركات الكبرى إلى مستوى جديد من النشاط السياسي، عبر تشكيل مجموعات مصالح خاصة ضغطت على الأحزاب السياسية المتعاطفة معها، وسعت إلى استراتيجية قانونية لتقويض الديموقراطية.

وتبنت جميع حالات التمرد هذه تصميماً ومستوىً جديداً من النشاط، خلال السنوات الجيدة من عمر الجمهورية، بل كانت تحديداً رداً على تلك السنوات.

وقد ساعدهم على ذلك شيء آخر. إن سائر المجتمعات والديموقراطيات

تعاني من خلافات وانقسامات إما طبقية، وإما دينية، وإما مناطقية، وإما أخرى تتصل بالجنس والأقليات، وهلم جراً. وبالتالي، لا يمكن لأي ديموقراطية أن تؤدي وظيفتها لفترة طويلة، إلا إذا كانت الجماعات المتخالفة راغبةً في نهاية المطاف بتحقيق تسوية مع الطرف الآخر. لكنَّ هناك عاملين مهمين جعلا من هذا العنصر الضروري للحياة الديموقراطية صعب المنال في ألمانيا فايمار. وأول هذين العاملين كان بنيوياً. فضغوط الحرب قسمت ألمانيا على خطوط طول المصالح الاقتصادية الذاتية. وفي إطار النظام السياسي لجمهورية فايمار، كان لكل حزب سياسي جماعة اقتصادية لها دوافعها للضغط وتشريع القوانين التي تخدم مصالحها الخاصة حصراً. أما بالنسبة إلى أفراد من المجموعات الأخرى (عمال، أرباب عمل، مزارعين أو صناعيين) فكانوا مُغَرَّبين تماماً ومجهولين، وفي كل الأحوال يمثلهم حزب محدد. فلم تُظهر الأحزاب السياسية قدراً من الرغبة أو حتى القدرة "لعبور الحدود" وملاقاة الطرف الأخر.

كذلك كان هناك بعد أيديولوجي، فلسفي نوعاً ما لهذه المشكلة. إذْ كان شائعاً بين جميع التكتلات السياسية في جمهورية فايمار، سواء كانت ديموقراطية أم لا، ثقافة التحامل على التسويات والتنازلات. وسَجَّلَ التاريخ في عدة مناسبات خلال فترة العشرينيات قيام النواب القوميين الألمان في الرايخستاغ باتخاذ قرار مؤلم لدعم سياسة تخدم المصلحة الوطنية كانت تتناقض مع أيديولوجيتهم. وكان يمكن لهذه الأصوات أن تقود الحزب للقبول بالجمهورية الديموقراطية. وفي واقع الحال، بدا هذا الأمر وكأنه كان يحدث فعلاً إبان فترة اتفاقيتي لوكارنو. لكن وبدلاً من الاحتفاء بالرؤية البعيدة للقوميين، سخر السياسيون الديموقراطيون مما دعوه حينذاك "انكسار ظهر القوميين"، وشعروا "أنه وفي حال بقي ناخبو القوميين مخلصين لحزبهم بعد كل ما جرى، فلن يحسدهم أي حزب أخر على هؤلاء الناخبين".

من جانبهم أحس المدافعون عن الديموقراطية تحديداً بقلق شديد عندما توفي رئيس الرايخ الديموقراطي الاجتماعي فريدريك إيبرت فجأة عام 1925، ومن نتائج الانتخابات الرئاسية التي فاز بها المارشال بول فون هيندنبورغ الذي كان قبل ست سنوات فقط واحداً من مهندسي رواية "الطعن في الظهر".

وُلِدَ باول فون بينكيندورف أوند فون هيندنبورغ في بوسين في تشرين الأول/ أكتوبر 1847 لعائلة يعود سجلها العسكري إلى القرن الثالث عشر. وبالنسبة لسليل أسرة بروسية، لم يكن أمامه سوى مهنة واحدة. ويقال إنه عندما كان طفلاً، كانت مربيته تضطر لإسكات أي احتجاج أو شكوى منه بالصراخ "صمتاً أيها الجندي الواقف في الرتل!". التحق بالمدرسة العسكرية في سن الحادية عشرة، وتخرج منها ضابطاً برتبة ملازم عام 1866 ليشارك في معركة كونيغراتس الفاصلة ضد الجيش النمساوي والتي ضمنت الهيمنة البروسية على ما سيُعرف لاحقاً بألمانيا الموحدة. وبعد أربع سنوات أبلى بلاءً حسناً في الحرب ضد فرنسا وكوفئ بوسام الصليب الحديدي، كما وقع الاختيار عليه لتمثيل كتيبته في مراسم الاحتفال بتأسيس الإمبراطورية الألمانية في فرساي. بعدها واصل مسيرة ناجحة لكنها ليست مبهرة في الجيش زمن السلم حتى تقاعده عام 1911.

لولا اندلاع الحرب العالمية الأولى، لتوقف الدور التاريخي للجنرال هيندنبورغ عند هذا الحد. ففي 22 آب/أغسطس 1914، انقلبت حياته حرفياً بين عشية وضحاها. فقد تم استدعاؤه للخدمة مجدداً لقيادة لقوات الألمانية لصد الغزو الروسي للمنطقة الشرقية من بروسيا حيث سرعان ما انخرط في غمار الحرب. وكانت النتيجة معركة تانينبيرغ؛ واحدة من الانتصارات القليلة الحاسمة للجيش الألماني التي وضعت حداً للآمال الروسية بالتوغل داخل الأراضي الألمانية.

وكسب هيندنبورغ حظوة كبيرة على نصر كان إلى حد كبير من صنع

مرؤوسيْه الموهوبيْن رئيس أركانه الجنرال إيريك لودندورف والعقيد ماكس هوفمان. وعلّق الأخير على ذلك لاحقاً بقوله إن ما ساهم به هيندنبورغ لتحقيق النصر في تلك المعركة لم يزد كثيرا عن مساهمة ابنة هوفمان الصغيرة. لكن ومنذ معركة تانينبيرغ، تحول هيندنبورغ إلى أيقونة، ومنقذاً لبروسيا وألمانيا، ولم يكن هناك أي شيء قادر على إطفاء وهج تلك الهالة البطولية التي أحاطت به.

كان هيندنبورغ طويل القامة، يثير الإعجاب بوقفته العسكرية المميزة وحيويته حتى آخر حياته، ذا مظهر رصين قرأ فيه غالبية الألمان تعبيراً عن شجن عميق والتزام الواجب. كان يبدو رجلاً واجه مأساةً بكل صلابة وشجاعة وهدوء، وكان على مدى السنوات، من معركة تانينبيرغ وحتى وفاته عام 1934، حاضراً في قلب الأحداث التي مرت بها ألمانيا، الأمر الذي ساهم إلى حد كبير في جعله موضع تقديس. فقد كان هيندنبورغ يجسد التاريخ الألماني، وربما امتلك، لهذا السبب، تلك السطوة، ليضع ثقله الرمزي في عالم السياسة.

تزوج هيندنبورغ من غيرترود فون سبيرلينغ عام 1879، وأنجبا أربعة أطفال لم يبق منهم إلا ثلاثة، وهم: إرمينغارد الذي وُلد عام 1880، وأوسكار 1883، وآن ماري 1891. كان هيندنبورغ رجلا مخلصاً لأسرته وقلما تمتع بحياة اجتماعية خارج نطاقها، حتى أن القلة القليلة من أصدقائه المقربين كانوا قد تُوفوا عندما أصبح رئيساً للبلاد، وكان لوثرياً متعصباً لا يثق كثيراً بالكاثوليك. وبالنسبة إلى شخص في مرتبته وخلفيته الأسرية، لم يكن مفاجئا على الإطلاق إيمانه الشديد بالعرف البروسي: الواجب، والحرص، والشرف، والتضحية، كما لم تكن آراؤه السياسية مفاجئة أيضاً. وكان لارتيابه من الكاثوليك الأثر البالغ في جعله شريكاً صعباً لحزب الوسط، على الرغم من أن كرهه للديموقراطيين الاجتماعيين كان أعمق بكثير، بغض النظر عن علاقاته الطيبة مع بعضهم، ومنهم رئيس حكومة

مقاطعة بروسيا أوتو براون الذي كان يشاركه حب الصيد. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، إذ طالما كان هيندنبورغ يبدو محتاراً، وفي بعض الأحيان مستمتعا، عندما كان الديموقراطيون الاجتماعيون يُظهرون أمامه أنهم يشاركون الشعب الألماني احترامه وتقديره لهيندنبورغ. وفي إحدى المرات مازح هيندنبورغ وفداً من الحزب الديموقراطي الاجتماعي زاره في مقر قيادة الجيش لتهنئته بعيد ميلاده السبعين بالقول إنه أصبح محبوباً لدى "الرفاق" إلى درجة ستضطره لشراء "قبعة حمراء".

وأثبت هيندنبورغ مراراً وتكراراً أنه شخص بارد، متبلد الحس لا يمكن استثارته بسهولة. فعندما كان ضابطاً شاباً يخوض غمار معركة كونيغغريتس، كان، حرفياً، على بعد شعرة من الموت، فقد اخترقت رصاصة خوذته دون أن تمس جمجمته، ورغم ذلك، تابع القيام بواجباته وكأن شيئاً لم يكن. وعن الأحداث التي عايشها إبان الحرب البروسية الفرنسية عندما تكبدت وحدته خسائر مرعبة، كتب هيندنبورغ قائلاً: "أنا نفسي لم أفهم كيف بقيت هادئاً طوال فترة المعارك". وبسبب هدوئه ورباطة جأشه تحديداً، عينته القيادة العليا قائداً للقوات الألمانية على الجبهة الشرقية في الحرب العالمية الأولى، لوقف الغزو الروسي، وموازنة المزاج الانفعالي للجنرال لودندورف الموهوب استراتيجياً.

من جانب آخر، كان هيندنبورغ بعيداً كل البعد عن تجسيد المثال المثقف الذي كان شائعاً بين الألمان. فإذا ما استثنينا قراءته لمسرحية **"فالنشتاين"** للكاتب شيللر التي تحكي قصة قائد عسكري مشهور، سطع نجمه في حرب الثلاثين عاماً، لم يكن لديه وقت للأدب. كان يقرأ التاريخ، والتاريخ العسكري، لما لهما من فائدة لضابط كبير مثله. وأكثر ما كان يثير حنقه تعليم اليونانية واللاتينية في المدارس باعتبارهما مجرد مضيعة لوقت الشباب. أما ذوقه الموسيقي، فلم يتعدَ المارشات العسكرية. وعندما كان يسافر -وهو الأمر الذي قام به كثيراً في أثناء فترة تقاعده

القصيرة بين عامي 1911 و1914- عادة ما كان يهتم بالإمكانات العسكرية لطبيعة الأرض. كان شغوفاً بهواية الصيد التي ظل يمارسها بنشاط حتى السنوات الأخيرة من حياته الطويلة.

بيد أن ذلك لا يعني أن الشخصية النمطية للجنرال البليد السمج كانت تنطبق على هيندنبورغ، كما لم يكن شخصاً عديم الذكاء، سهل الإقناع كما ادعت بعض الروايات، بل كانت آفاقه أوسع بكثير من غالبية أرستقراطيي عصره البروسيين. فقد كان يثابر على حضور المحاضرات التي يلقيها المؤرخ القومي هاينريش فون تريتشكه في جامعة برلين. إلى جانب ذلك كله، كان يسعى إلى تحديث الجيش والاستفادة الكاملة من التكنولوجيا الجديدة. كانت كتاباته موجزة ودقيقة. وفي أثناء توليه منصب الرئاسة، كان يقرأ كل التقارير والوثائق التي تُقدم للتوقيع. وفي معرض تحضيراته للاجتماعات، طالما كان يحتفظ بمفكرة يُدَوِّنُ فيها النقاط الواجب مناقشتها ونتائج الاجتماعات، تمهيداً لإعطاء التعليمات المناسبة، الأمر الذي جعل من إمكانية استغلاله من قبل مستشاريه صعباً للغاية.

وحتى عندما كان قائداً لفرقة في أولدينبيرغ، خلال فترة تسعينيات القرن التاسع عشر، أظهر هيندنبورغ خاصية لازمته طويلاً، ألا وهي إلقاء أكبر قدر من العمل على عاتق مرؤوسيه. وباتت هذه الخاصية جانباً كريهاً في شخصيته بل ونقطةً شديدة الحساسية في شراكته الطويلة مع لودندورف زمن الحرب. وكان متاحاً لكبار الضباط في مقر القيادة العليا للجيش الألماني أن يلاحظوا القدر القليل من العمل الذي كان يؤديه هيندنبورغ، مقارنة بكم العمل الكبير الذي كان لودندورف ملزماً القيام به عوضاً عن رئيسه. وشَهِدَ الأدميرال ورئيس أركان القوى البحرية ماغنوس فون ليفيتسوف -وهو الذي تسلم فيما بعد منصب قائد شرطة برلين في العهد النازي- موقفاً يكشف تلك الحساسية بين الاثنين، وذلك عند زيارته مقر قيادة الجيش خلال الفترة الأخيرة من الحرب. عند العشاء، لم يفعل هيندنبورغ شيئاً أكثر من

إلقاء النوادر المضحكة. وأخيراً، ونهض لودندورف، متذرعاً بضرورة عودته إلى العمل في قسم العمليات. وخشيةَ أن يفقد ماء وجهه أمام زواره الضباط، أضاف هيندنبورغ على مضض "ويجب علي، على الأرجح، أن أذهب أيضاً". لكن لودندورف رَدَّ عليه: "لا داعي لذلك يا سيدي المارشال". عندها بدا هيندنبورغ محرجاً، لكنه عاد وجلس في مكانه مبرراً موقفه بأنه سبق أن تحدث مع الضباط في قسم العمليات.

كان هيندنبورغ مرتاحاً حيال الترتيبات الموضوعة زمن الحرب، تلك التي كان بمقتضاها يخدم اسمياً تحت قيادة الملك والإمبراطور الذي كان يتحمل المسؤولية النهائية مهما حدث. كان يكره واجب اتخاذ القرارات المهمة، وربما غير الشعبية بمفرده. وستبرز هذه الرغبة المستديمة بتجنب المسؤولية خلال فترة توقيع الهدنة عام 1918، وتصبح واحدةً من سمات فترته الرئاسية.

عندما قرر هيندنبورغ خوض غمار الانتخابات الرئاسية، مرشحاً عن اليمين القومي في عام 1925، واجهت الأحزاب الديموقراطية مشكلة عويصة. إذْ كان هيندنبورغ شخصية محترمة بالنسبة إليهم لدرجة لا تُمَكِّنُهم من مواجهتها مباشرة، لذلك فضلت هذه الأحزاب إبراز تقديرها واحترامها له، وفي نفس الوقت كيل عبارات الازدراء على من يقفون خلفه. وعندما حقق هيندنبورغ فوزاً ضئيلاً على منافسه زعيم حزب الوسط فيلهِلم ماركس بواقع 48.3٪ مقابل 45.3٪ في الجولة الثانية، شعر الديموقراطيون بالخطر.

في البداية فاجأ هيندنبورغ جميع منتقديه، بالتزامه التام الدستور وقبوله سياسات وزير الخارجية غوستاف شتريزيمان. وفي انتخابات الرايخستاغ عامي 1924 و1928، تراجعت نسبة التأييد الشعبي لليمين المتطرف. فقد هوت أصوات النازيين بشكل دراماتيكي من 6.5٪ في انتخابات أيار/ مايو 1924 إلى 3٪ في انتخابات كانون الأول/ ديسمبر 1924، ومن ثم إلى 2.6٪ في انتخابات 1928. بالمقابل، ارتفعت نسبة المؤيدين للحزب الديموقراطي

الاجتماعي من 20.5٪ أيار/ مايو 1924 إلى 26٪ كانون الأول/ ديسمبر من نفس العام، وصولاً إلى 30٪ في انتخابات 1928. وبعد انتخابات 1928، كَلَّف هيندنبورغ زعيم الحزب الديموقراطي الاجتماعي هيرمان موللر بتشكيل الحكومة. وجاءت النتيجة على شكل "ائتلاف كبير" من الأحزاب الديموقراطية: من الديموقراطيين الاجتماعيين على يسار شتريزيمان اليميني المعتدل، وحزب الشعب المناصر للشركات، ورجال الأعمال.

ومن باب المفارقة، بدأت ملامح الموت تظهر على ديموقراطية فايمار مع الحصيلة الديموقراطية لهذه الانتخابات.

لقد كان هناك قدر كببر من الاستياء السياسي مخفياً في مجموع أصوات الناخبين، حتى في انتخابات عام 1928. فقد صَوَّتَ ربع الناخبين تماماً لأحزاب هامشية عادةً ما تُحدَّدُ بالأحزاب التي تنال أقل من 5٪ من الأصوات، علماً بأن هؤلاء الناخبين هم من كانوا قد أعلنوا تأييدهم للأحزاب الرئيسية.

وبغض النظر عن كونه حزباً يخدم مصالح نخبة صغيرة من الأثرياء النافذين، حاول القوميون الألمان ابتداع "تيار شعبوي محافظ". وكان اسم الحزب الكامل "حزب الشعب القومي الألماني" هو من أعطى الفكرة. فقد كان نتاج اندماج اثنين من أحزاب ما قبل الحرب، وهما المحافظون الألمان، والمحافظون الأحرار. وقام حزب شتريزمان "القوميون الأحرار" بخطوة مماثلة من خلال تبنيه اسماً جديداً "حزب الشعب الألماني". وكانت الخطة تسير وفق المخطط، عندما حقق القوميون الألمان في انتخابات 1924 19.5٪ من الأصوات و20.5٪ فقط. لكن وفي انتخابات عام 1928، خسر الحزب 6 نقاط مئوية. هذه الانتكاسة كانت السبب وراء صعود ألفريد هوغنبيرغ إلى زعامة الحزب، ودفعه إلى التفكير باتخاذ الحركة النازية الجديدة والنشطة حليفاً كمسار محتمل للوصول إلى السلطة.

كانت الشركات الكبرى كذلك غير متحمسة للتوصل إلى تسويات مع

العمال. وفي أعقاب ثورة 1918، نالت النقابات العمالية اعترافاً كاملاً بكونها الطرف المفاوض، وحُددتْ أوقات العمل بثماني ساعات يومياً، وبأجر كامل، كما وضعت الحكومة نظاماً تحكيمياً للأجور، في خطوة تعتبر من أكثر الانجازات أهميةً وتميزاً في سجل جمهورية فايمار.

غير أن معدل الأجور، خلال عشرينيات القرن الماضي، تزايد بشكل متسارع، في حين لم يطرأ الأمر نفسه على معدل إنتاجية الفرد العامل. (فكما هو معروف في أي اقتصاد معافى، فإن ارتفاعاً ثابتاً في معدل الإنتاج؛ أي ما ينتجه العامل الواحد في فترة محددة، هو ما يغطي زيادة الأجور وأرباح الشركة). وفي العام 1928، ارتفع معدل الأجر الساعي بنسبة 10٪، تماشياً مع التضخم، بينما انخفض معدل الإنتاج بمقدار 4.8٪. وأصر اتحاد الرايخ للصناعة الألمانية عام 1930 على ضرورة "توجيه أشد أنواع النقد حدةً ضد نظام اقتصادي موجه سياسياً يترجَّحُ بين الرأسمالية والاشتراكية"، وهو ما أدى إلى أن تُلام الرأسمالية "بسبب "أخطاء الاشتراكية". وشدد الاتحاد على أنه يتعين على النظام السياسي الألماني أن يدرك "عدم وجود أي منطقة وسطى بين النهج الاقتصادي الرأسمالي ونظيره الاشتراكي". كما طالب بخفض الإنفاق الحكومي ومعدل الأجور، وإلغاء القوانين الحكومية.

وأدرك كبار رجال الأعمال جيداً أنه لا يمكن تحقيق هذا البرنامج إلا عبر إقصاء اليسار السياسي، وعلى وجه الخصوص الحزب الديموقراطي الاجتماعي. وبدؤوا يدعمون مجموعات مثل "رابطة تجديد الرايخ الألماني" التي كانت تهدف إلى نقل النظام السياسي بعيداً عن الديموقراطية باتجاه التسلط والاستبداد. وبهذا فسرت مجموعات الضغط التابعة لحزب الشعب الألماني موقف الحزب المتشدد من شركاء الائتلاف الديموقراطي الاجتماعي عامي 1929 و1930. وكانت هذه بداية الأزمة المستحكمة القاضية في نهاية المطاف على ديموقراطية فايمار.

وبعدئذ جاء دور الجيش.

ولعل أفضل مثال على ذلك هو الجنرال كورت فون شلايشر الذي كان اللاعب الأهم في السنوات الخمس الأخيرة من حياة جمهورية فايمار. وقلَّما وُجدت شخصية تاريخية تحمل كنية تتناسب معها كما هو الحال مع شلايشر. فكلمة شلايشر باللغة الألمانية تعني "يزحف"، وشلايشر تعني "خفي" أو "مُتَسَلِّل".[7] لقد كان كورت فون شلايشر بطلاً في استغلال الآخرين وتدبير المكائد، دائم الزحف والتسلل من باب إلى باب، ليلقي ما يريد في آذان من يهمهم الأمر من أصحاب السلطة.

بيد أن شلايشر كان بعيداً كل البعد عن الشخصية النمطية للجنرال البروسي الجاد والصارم، بل كان متواضعاً ينأى عن الرسميات، حتى إن فينسينتس موللر، أحد مرؤوسيه من الضباط، يتذكر كم كان يحب ذلك الجو "الصريح والمنفتح" في مكتب شلايشر. ولأن حس الدعابة الألمانية غالباً ما يلعب على وتر اللهجات واللكنات المحلية، كان الجنرال متخصصاً في إلقاء النكات المجلجلة، باللكنة القاسية والساخرة لأبناء الطبقة العمالية في برلين، التي كان يجيد التحدث بها. هذه السخرية العدوانية لدى أهالي برلين تُعرف بـ"أنف برلين".[8] وكان زملاء شلايشر يحتارون دوماً إن كان جاداً في كلامه، أم أن الأمر لا يتعدى المزاح البرليني الفج. وذكر موللر أنه أخبر شلايشر بنبأ خطوبته ونيته بالزواج، ففاجأه الأخير بوجه مرتعد من الخوف وسأله: "هل فكرت جدياً بذلك"، قبل أن يؤكد له أن الأمر مجرد دعابة ويقول له "ستتعود على تعليقاتي". وفي مناسبة أخرى، استمع

---

7 أو كما يقال في اللهجة السورية الدارجة: سلاَّل (م).

8 لكنة عامية يُشتهر بها سكان العاصمة برلين، تتميز بالصراحة والدعابة الفجة. يُطلق على هذه اللكنة باللغة الألمانية كلمة "schnauze"، وتُترجم إلى الانجليزية بكلمة "snout"، وتعني "الأنف أو الخطم". الكلمة توحي بمعناها المجازي بالعجرفة أو الأنفة، لكنها تنطوي على حس فكاهة لا يخلو من القسوة والجدية، مما يعطي انطباعاً أن صاحبها جاد في كلامه. فعلى سبيل المثال، هناك نكتة تعبر عن هذا المعنى بالقول إن سائحاً أميركياً في برلين سأل أحد المارة عن الطريق إلى ساحة شهيرة في المدينة، فأجابه الألماني: "تماماً في نفس المكان الذي كانت تقف فيه البارحة". كما أن هذه اللكنة تتضمن استبدال حروف بأخرى، مما يجعل غير العارف بها عاجزاً عن فهم بعض الكلمات رغم بساطتها. (م)

شلايشر إلى أحد مؤيدي هتلر، وهو يكيل المديح لصفاته القيادية ومواهبه السياسية، فرد عليه شلايشر:"صحيح، لكنه للأسف مجنون". ووصلت العبارة حرفياً إلى مسامع هتلر الذي لم يسامح شلايشر عليها أبداً.

كان شلايشر شخصاً استغلالياً، يحسب الأمور بدقة وغير صادق في أغلب الأحيان. وكما يمكن أن يُفسَرَ أسلوبه المراوغ على وجهين، كذلك يمكن أن تؤخذ ثقته بنفسه على أنها نوع من الطيش والنزق. وكما كان هناك العديد من المعجبين به في صفوف زملائه في الجيش، لم يخل الأمر من آخرين كانوا يكرهونه أيضاً. وفي رسالة وجهها إليه وزير الدفاع فيلهلم غرونر يصف ما حدث لصداقتهما، كتب هذا الأخير عام 1932 إلى شلايشر قائلاً: "القطيعة هي أقل شيء يمكن أن يكون". "الغضب والسخط يغليان بداخلي". ومن جانبه، وصف أندريه فرانسوا- بونسيه الذي خدم لفترة طويلة كسفير فرنسي في برلين، الجنرال شلايشر بأنه شخص "يُخشى بدلاً من أن يُحب".

يظهر شلايشر، في كل صورة التُقطت له تقريباً، بوجه تراوح تعابيره مكانها بين ابتسامة ساخرة وتكشيرة. ولعل ما يذكره السفير الفرنسي بونسيه يعطي وصفاً دقيقاً، عندما يقول إن تركيب شلايشر الجسماني يعطيك "انطباعاً غير مريح" برأسه الحليق ووجهه "ليس الشاحب وحسب، بل الباهت"، و"عينين حادتين تلمعان من وجه مكسو بشحم كريه، وشفتين رقيقتين لا يكاد يمكن تمييزهما". عند الحديث، كان "مباشراً وقاسياً، مراوغاً وتهكمياً، وغالباً ظريفاً. أما ذكاؤه فكان نشيطاً وحياً أكثر من كونه جوهرياً وعميقاً".

وُلد شلايشر عام 1882 في براندبورغ، وخدم كضابط في الجيش في أثناء الحرب ليصبح واحداً من المقربين المحسوبين على فيلهلم غرونر الذي تولى عام 1928 منصب وزير الدفاع وعيَّنَ شلايشر رئيساً للمكتب الوزاري، أي نائب غرونر فعلياً، وهو الذي جعل من شلايشر الممثل السياسي للجيش

ورئيس مجموعة ضغط لمصلحته. وكان هذا العمل مناسباً جداً لمظهر شلايشر ومواهبه. فقد كان يتمتع بشبكة علاقات واسعة بين السياسيين من جميع التكتلات. علاوة على أنه كان مسموعاً لدى الرئيس هيندنبورغ ووزير الدولة أوتو مايسنر، ولدى نجل الرئيس أوسكار فون هيندنبورغ الذي كان في نفس عمر شلايشر، بل كانا قد خدما معاً في نفس الوحدة العسكرية. وهذا ما منح شلايشر قدراً كبيراً من النفوذ. وطبقا لمواد الدستور، كان الرئيس هو من يعين المستشارين (رؤساء الحكومات)، وعلى مدى السنوات الخمس الأخيرة من حياة جمهورية فايمار، كان هيندنبورغ يتصرف بهذا الخصوص، وإلى حد كبير بناءً، على نصيحة شلايشر.

ومع هذا النوع من السلطة، كان أمراً مهماً الوقوف على ما كان يفكر فيه شلايشر من الناحية السياسية. ففي مطلع العام 1928، أوضح الجنرال لـ فينسنتس موللر الأهداف التي كان يسعى إلى تحقيقها، والتي طرأ عليها بعض التعديلات في السنوات اللاحقة. كان شلايشر يريد تقوية سلطة الحكومة المركزية مقابل حكومات المقاطعات، وتعزيز السلطة التنفيذية والمؤسسة العسكرية مقابل السلطة التشريعية، كما كان يتطلع إلى استقرار اقتصاد البلاد المأزوم، وعلى الأخص من أجل تحمل كلفة المزيد من الإنفاق العسكري. غير أن شلايشر، وبحسب المعايير البروسية، كان يحمل فكراً تقدمياً. إذ كان يجب على الحكومة -كما قال- أن تقاوم الضغوط من قطاع الأعمال لإلغاء التحديثات الاجتماعية، مثل تحديد أوقات العمل بثمان ساعات، وتأمين الضمان الصحي والاجتماعي، باعتباره "مسألة جوهرية" للسلم الأهلي، وتقوية الدولة. وفي نهاية المطاف، يتعين على ألمانيا أن تحرر نفسها من قيود اتفاقية فرساي. كانت مقاربة شلايشر للسياسة الخارجية ذات طابع ملتوٍ، إذ كان شلايشر يطالب بضرورة أن تجعل ألمانيا دول الحلفاء معتادةً على التفاوض معها على مبدأ التكافؤ والندية، ومن ثم التحرك لرفع الاحتلال الفرنسي عن منطقة الراين، واستعادة السيادة الألمانية، تدريجياً، بالحيلة والخداع لا بالمواجهة والتحدي. وفي لحظة من

الصراحة الكاملة، قال شلايشر للصحافيين عام 1933، إنه لطالما اعتقد بأن توقيع اتفاقية فرساي كان عملاً صائبا، لأنها منحت "ألمانيا استراحةً لعشر سنوات لتستعيد عافيتها" وأنه "عليك إبقاء العدو خارج الحدود، كي تتمكن من إعادة البناء في الداخل تدريجياً".

في البداية كان شلايشر راغباً في العمل مع الديموقراطيين الاجتماعيين، إذا كان ذلك سيساعده على تحقيق مآربه. لكنه وفي منتصف عشرينيات القرن الماضي، أصيب بخيبة أمل كبيرة من اليسار السياسي في ألمانيا. وبَّرر ذلك بقوله إنه كان يظن بأن لدى الديموقراطيين الاجتماعيين "مهمة عظيمة" لبناء ديموقراطية قومية، لافتاً إلى أن النجاح في ذلك كان سيؤدي إلى "تهميش" النازيين. لكن، وبسبب معارضتهم للإنفاق العسكري، فشل الديموقراطيون الاجتماعيون في إدراك مهمتهم. لهذا السبب بدأ شلايشر يبحث عن طريقة لإقصائهم من أية مشاركة في السلطة السياسية.

هذا التبدل في تفكير شلايشر فتح فصلاً مشؤوماً في التاريخ.

في كانون الأول/ ديسمبر 1926، كشفت جريدة **مانشستر غارديان** عن قوات مسلحة سرية تحمل اسم "كتائب الدفاع عن الرايخ السوداء"، كانت ألمانيا تحتفظ بها في انتهاك واضح لاتفاقية فرساي. أثارت هذه الأنباء غضب الديموقراطيين الاجتماعيين الذين سحبوا تأييدهم لحكومة حزب الوسط بزعامة المستشار فيلهلم ماركس. من جانبه، بدأ شلايشر يتخيل ائتلافاً يمينياً يحكم البلاد من دون تأييد الأغلبية البرلمانية، أي وبعبارة أخرى، من دون الحزب الديموقراطي الاجتماعي. وكان لدى شلايشر فكرة للالتفاف على الدستور، كما هو الحال بالنسبة لأوتو مايسنر سكرتير الدولة للرئيس هيندنبورغ وأهم مستشاريه القانونيين. فقد منح الدستور رئيس الرايخ صلاحية حل الرايخستاغ، والدعوة إلى إجراء انتخابات جديدة. وخلال الفترة ما بين حل البرلمان والانتخابات، يمكن للرئيس والحكومة أن يواصلا حكم البلاد دون تدخل البرلمان. ويمكن استخدام هذه الصلاحية

كعصاً غليظة لاستفزاز المعارضة، أو ربما لإبقاء حكومة أقلية يمينية في السلطة لأمد غير محدود.

كما كان لهذه الاستراتيجية زاوية أخرى. إذْ منحت المادة 48 من الدستور رئيس الرايخ صلاحية الحكم بواسطة أمر تنفيذي، في حال "تعرض الأمن والنظام العام للخطر بشكل جدي". وفي مثل هذه الحالة، يخوِّل الدستور، بشكل صريح لا لبس فيه، الرئيس الاستعانة بالجيش، وتعليق سائر الحقوق الفردية الأساسية والحريات.

من جانبه، يمكن للرايخستاغ التصويت لإلغاء هذا الإجراء الذي سيبقى قائماً في حال لم يكن هناك أغلبية برلمانية تعارضه، أو في حال حل البرلمان، استعداداً لإجراء انتخابات جديدة. ومن ثَمَّ لا يمكن سوى لحكومة تحظى بتأييد أقلية برلمانية أن تحكم بمساعدة الرئيس والمادة 48 من الدستور، لتُدعى هذه الحكومة حكومةً رئاسيةً وليست حكومةً برلمانيةً. وعلى هذا النحو كانت المادة 48 من الدستور الديموقراطي لجمهورية فايمار بمثابة الباب الخفي الذي يمكن لألمانيا أن تنزلق من خلاله إلى الديكتاتورية.

أضافت انتخابات العام 1928 إطاراً جديداً إلى ما كان يفكر فيه شلايشر. فأثناء حملتهم الانتخابية، رفع الديموقراطيون الاجتماعيون شعار "وجبات طعام للأطفال، وليس سفينة حربية". وعندما فازوا في الانتخابات، طلب هيندنبورغ من زعيم الحزب هيرمان موللر أن يتولى منصب المستشار، وأدرك شلايشر أن حكومة موللر لن توافق على الميزانية العسكرية التي يسعى إليها، فضلاً عن تشكيكه بكفاءتها على إدارة الاقتصاد. أما القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة إلى شلايشر، فكانت رفض الديموقراطيين الاجتماعيين -وفاءً لوعدهم الانتخابي- التصويت لمصلحة بناء سفينة حربية، معارضين بذلك حتى رغبة المستشار موللر. عندها بدأ شلايشر يفكر بالبدائل.

ومن البدائل التي كان يفضلها شلايشر تفويض هاينريش برونتغ زعيم حزب الوسط المحافظ بتشكيل حكومة جديدة. أي أن برونتغ كان سيترأس "حكومة شخصيات". وكانت هذه الكلمة بالنسبة إلى شلايشر والرئيس هيندنبورغ وسكرتير الدولة مايسنر، الاسم الرمزي لحكومة رئاسية مسلحة بأوامر تنفيذية، استناداً إلى المادة 48 من الدستور. وكان شلايشر يعتقد أنه سيكون بمقدور هذه الحكومة إصلاح الوضع المالي، والإعداد لمراجعة مُرْضِية لدفع التعويضات المترتبة على ألمانيا.

ولأن برونتغ كان محارباً قديماً، ضابطاً ذا سجل جيد في ميادين القتال، اعتقد شلايشر أنه سيكون باستطاعته الفوز بتعاطف هيندنبورغ، على الرغم من أن برونتغ كان كاثوليكياً. كذلك كان برونتغ يحمل شهادة الدكتوراه في الاقتصاد، ويتمتع بسمعة كخبير مالي. يضاف إلى ذلك كله، أنه كان قومياً يقف في الجناح اليميني من حزبه، لكن أفكاره الاجتماعية كانت معتدلة، مما قد يساعده على كسب تأييد الديموقراطيين الاجتماعيين. وإن كان مضطرا للحكم استناداً لأوامر تنفيذية، فلن يكون من الواجب عليه الاعتماد على الجيش وحسب، بل سيكون له أنصار في البلاد أيضاً.

كانت هذه النقطة الأخيرة في غاية الأهمية بالنسبة إلى شلايشر الذي كان لديه مقولة مميزة، غالباً ما يرددها: "لا يمكن أن تحكم بالحراب". وهذا يدل على أنه كان يعرف أنه في مجتمع صناعي حديث لا يمكن حتى لديكتاتورية عسكرية أن تعتمد على القمع إلى الأبد، بل تحتاج لتأييد شعبي. وكان هذا درساً تعلمه العديد من الألمان -حتى من اليمين السياسي- من الحرب العالمية الأولى. فقد عايشوا انهيار معنويات الجبهة الداخلية في آخر عامين من الحرب، وكيف تَحوّلَ ذلك إلى عبء على الجيش الألماني.

كذلك استخلص أدولف هتلر وإيريك لودندورف الدرس ذاته، ولكن

بطريقة وتركيز مختلفين. كان درسا حديثاً؛ درس الحرب الشاملة الذي سيرسم مستقبل ألمانيا، وصولاً إلى نهاية الحرب العالمية الثانية.

هناك اعتقاد شعبي بأن انهيار وول ستريت عام 1929 كان السبب وراء الركود الكبير، وأن الركود هو الذي ساهم ببروز هتلر، وحَكَمَ على الديموقراطية الألمانية بالخراب. لكن وفي حقيقة الأمر، أن الركود، وتضاؤل التأييد لجمهورية فايمار، والنجاح السياسي للنازيين كانت كلها أكثر تعقيداً، وبدأت تفعل فعلها قبل انهيار أسواق المال في الولايات المتحدة. غير أن وتيرة الأحداث التي وقعت عامي 1929 و1928 أظهرت أن ألمانيا كانت، وبشكل قاطع، تبتعد عن مسار الاندماج مع المجتمع الدولي ما بعد الحرب، وهذا كان بدوره يعني الابتعاد عن الديموقراطية. ويمكن تلخيص هذه الأحداث بوفاة شتريزيمان، وصعود هوغنبيرغ، وتزايد نقمة الريف، وإعلان الاشتراكية الدولية بدء المرحلة الثالثة للرأسمالية، والإحباط الذي أصاب رجال الأعمال والجيش من قيود الجمهورية، ومن ثم النجاح الأول الذي حققه النازيون في انتخابات المقاطعات والانتخابات المحلية. وعلى نحو مشابه، فإن ما حدث للاقتصاد الألماني أواخر العشرينات كان عاصفة اقتصادية حقيقية. فقد كان هناك عدة اتجاهات اقتصادية ومالية منفصلة تتطور قبل بداية العام 1929.

وكان هبوط أسعار الغذاء في العالم الذي أجَّجَ احتجاجات شعب الأرض واحداً من تلك الاتجاهات. فقد كانت هناك مناطق واسعة من شرقي ألمانيا، مثل سيليزيا وبوميرانيا وشرق بروسيا وغربها، إلى جانب الشمال والغرب الألماني، وتحديداً شليسفيغ وهولشتاين وساكسونيا السفلى، هي مناطق ريفية كانت تعاني الأمرَّين في منتصف العشرينيات. وكان مزارعو شليسفيغ وهولشتاين الأكثر تضرراً من هذه الاتجاهات، لذلك ليس مصادفةً أن يكون الناخبون في هذه المنطقة من أوائل المواطنين الذين انقلبوا

وبقوة ضد الجمهورية فقد اختار النازيين 80٪ من ناخبي بعض المناطق في شليسفيغ وهولشتاين بحلول العام 1932.

وتلا ذلك الترشيد، أو ما ندعوه اليوم بالمكننة أو الأتمتة، على طريق الاستخدام المتزايد للتكنولوجيا والإدارة الكفوءة للإنتاج. وكما هي العادة، جاءت هذه التحسينات على حساب اليد العاملة. وعلى الرغم من أن المكننة كانت تتركز في قطاعات صناعية محدودة، إلا أن معدل خسارة الوظائف كان قاسياً. ففي قطاع التعدين في منطقة الرور تراجعت نسبة القوة العاملة بنسبة 33٪ بين عامي 1922 و1928. وحدث الأمر نفسه في الصناعات المعدنية والسيارات.

ولهذا السبب، إلى حد ما، بلغ أواسط العام 1928 عدد العاطلين عن العمل في ألمانيا 1.3 مليون شخص، وارتفع الرقم إلى 1.5 مليون بعد عام واحد. ووجدت الحكومة نفسها مضطرةً من أجل دفع كلفة الضمان الاجتماعي ضد البطالة للبحث عن مداخيل إضافية، أو لإجراء اقتطاعات في بنود أخرى من الميزانية. ولم تتوافق حكومة موللر على تحديد الجهة التي ستتحمل هذه التكاليف، ليكبل الخلاف على هذه المسالة الحكومة في عامها الأخير.

لكن علاوة على ذلك كله، كانت مسألة التمويل هي التي قادت ألمانيا إلى أزمتها؛ إذ أن ارتفاع الأسهم في وول ستريت، أو التوقع بارتفاعها عام 1928، وليس انهيارها بعد ذلك بعام، هو ما دفع ألمانيا إلى الركود الاقتصادي. فقد كانت ألمانيا في حينه تعتمد كلياً على القروض الخارجية، وغالبيتها قصيرة الأجل، لدفع تعويضات الحرب والمحافظة على إنفاق المستهلك، غير أن الأرباح الهائلة في نيويورك جذبت إليها رؤوس الأموال من كل أنحاء العالم، وتركت ألمانيا خالية الوفاض.

وهذه هي الحالة التي استقبلت المستشار الجديد عند توليه المنصب.

كان قدر هاينريش برونغ أن تتزامن فترته كمستشار، من ربيع 1930 وحتى مطلع صيف 1932، مع أسوأ مراحل الركود الاقتصادي، حتى إن خصومه أطلقوا عليه لقب "مستشار الجوع". كان برونغ الرجل الزاهد والعنيد والعازب يميل إلى أن يظهر بمظهر البائس الحزين في الصور، ولا يتمتع بأي شيء يشابه من قريب أو بعيد المواطن العادي. وكتبت المؤرخة الدبلوماسية المعروفة تسارا شتاينر عنه قائلة إن برونغ كان "يفتقر إلى تلك النزعة والجاذبية التي كانت البلاد بأمس الحاجة إليها في فترة من التفرقة الحادة والتسييس". واستناداً إلى تجربتها كواحدة من طلاب برونغ، تضيف شتاينر نقطة ذات دلالة كبيرة: "حتى لو أخذنا بعين الاعتبار عصره وأوهام ما بعد الحرب، سيتذكر أولئك الذين حضروا محاضرات برونغ بعد 1945 في هارفارد عجزه عن التفاعل وإثارة مستمعيه".

خدم برونغ في سرية الرشاشات على الجبهة برتبة ملازم، وكانت معظم آراؤه السياسية من نتاج الحرب. كره ثورة 1918 باعتبارها سبباً للهزيمة في الحرب أكثر من كونها نتيجةً لها، كما كره اتفاقية السلام مقتنعاً بأن الخروج من تحت وطأتها هو الواجب الأسمى لكل سياسي ألماني. لكنه، بصفته كاثوليكياً، تعرض لهجوم البروتستانت المتواصل وتشكيكهم بوطنية الكاثوليك وولائهم، وهو ما دفعه إلى السعي جاهداً لأن يكون متشدداً في قوميته أكثر من اليمين البروتستانتي.

وفي هذا الإطار كان دائماً ما يقف على أرضيته الصلبة عندما يتعامل مع رجال الدولة الأجانب الذين كان يحظى في أوساطهم باحترام كبير، ومن هؤلاء السفير الفرنسي فرانسوا- بونسيه الذي كتب عنه قائلاً: إن برونغ "يعطيك الثقة والتعاطف" بـ"تواضعه ونزاهته وكياسته". كما أن هيبته الهادئة جعلت منه "مدافعاً فعالاً عن بلده. ويضيف بونسيه "مع وجود رجل كهذا في الحكم، لا بد لأي شخص أن يعتقد أن فترته الرئاسية تستحق المحاولة لحل المشكلة الألمانية الفرنسية".

لكن مشكلة برونتغ كانت مع شعبه. فقد كان يحمل شهادة الدكتوراه في الاقتصاد السياسي، أي أنه، وبالمصطلح الدارج، كان طالباً في السياسة يهتم بالتفاصيل. أما كمستشار، فقد كان يحاول دائماً استحضار المجادلات المنطقية أمام أُناس ليسوا منطقيين، أو في واقع الأمر لا يهتمون بالحقائق والمنطق. أي إن مشكلة برونتغ أنه كان منطقياً بشكل مفرط في فهم اللامنطق. ففي إحدى المناسبات، قرر القيام بجولة في المناطق الفقيرة والريفية في غالبيتها في شرق ألمانيا، حيث استقبله حشد من 40 ألف شخص في بيسلاو، وقام العديد منهم بقذف موكبه بالحجارة. وبالنسبة إلى برونتغ، لم يكن ذلك إلا تأكيداً على أنه "كلما كانت الوعود والمطالب أكثر عبثيةً وتطرفاً"، مثل تلك التي يطرحها فوضويون من شاكلة النازيين، "كان النجاح أعظم". وعلى الرغم من أنه كان نائباً عن دائرة انتخابية شرقية في البرلمان لست سنوات، لم يجد حرجاً في القول: "لم يكن باستطاعتي حتى الآن أن أتخيل حجم الفارق الكبير بين الشرق والغرب في ما يتعلق بالنضوج السياسي".

وفي مناسبة أخرى، حاول برونتغ التواصل مع ألفريد هوغنبيرغ المعروف بعناده. دام لقاؤهما عدة ساعات، وبرونتغ يشرح بصبر وأناة سياساته. ويتذكر برونتغ ذلك اللقاء بقوله: "منذ البداية، استخدمت كل ما أوتيت من ود وكياسة وحماسة وانفتاح"، حتى إن برونتغ كان كريماً بما فيه الكفاية، ليقول له إن ألمانيا بحاجة لحزب بروتستانتي محافظ قوي (أي حزب هوغنبيرغ) إلى جانب حزب برونتغ الكاثوليكي. وبعد ساعات من ذلك كله، ينظر هوغنبيرغ فجأة إلى ساعته ويقول لمضيفه "بت على قناعة أكثر من أي وقت مضى بأنه يجب، عَليَّ مواجهتك ومواجهة هذا النظام بأكمله".

على أي حال كان برونتغ واحداً من سياسيين قلائل، ممن أنجبتهم جمهورية فايمار، يتمتعون بمكانة حقيقية. وباستثناء هوغنبيرغ وحادثة بيسلاو، كان الكثيرون من الألمان- بمن فيهم خصومه السياسيين- معجبين

به ويحترمونه. ودليلٌ على ذلك أن الديموقراطي الاجتماعي أوتو براون- رئيس حكومة مقاطعة بروسيا حينذاك- عرض في نهاية خريف 1931 الاستقالة من منصبه، إذا كان برونِنغ هو من سيحل محله. حتى إن هتلر نفسه وقع تحت تأثير كفاءة برونِنغ وسلطته العفوية عندما التقى الاثنان عام 1930. يومها أُعْجِبَ هتلر، على حد قول غريغور شتراسر، "كثيراً بمظهر مستشار الرايخ وسلوكه، إلى درجة أن هتلر حَرَّرَ نفسه من الشعور بالنقص أمام برونِنغ بتشكيل عقدة كراهية تجاهه".

في هذه الأثناء كان شلايشر قد بدأ مسبقاً الإعداد لتولي برونِنغ المستشارية في صيف 1929. وكان ينتظر الفرصة لذلك إلى حين يقر الرايخستاغ تشريعاً يصدِّق فيه خطة يونغ لإعادة هيكلة تعويضات الحرب، لاعتقاده أن المستشار موللر هو أفضل شخص لتمرير هذا القانون.

وعلى مائدة عشاءٍ أواخر كانون الأول/ ديسمبر 1929، عرض شلايشر وسكرتير الدولة أوتو مايسنر على برونِنغ خطتهما لتوليه منصب المستشار. وشرحا له فكرتيهما بخصوص الحكم بأوامر تنفيذية استناداً إلى المادة 48 من الدستور، ووعداه بأنه سيكون بمقدوره دائماً الاعتماد دائماً على توقيع الرئيس هيندنبورغ الذي سيعمد إلى حل الرايخستاغ إذا ما رفض هذا الأخير تلك الأوامر. لكن برونِنغ أشار إلى ثغرة في هذه النظرية، ألا وهي تلك الدوامة من حل البرلمان وإجراء انتخابات التي ستشكل انتهاكا للدستور يرتقي إلى مستوى انقلاب. لكن شلايشر عاد وأكد له أنه سبق أن حصل على ردود قانونية بهذا الشأن، لكنه كان قلقاً من عدم تحمس برونِنغ للمخاطرة، وربما بات يتوجب عليه -أي شلايشر نفسه- أن يتولى منصب المستشار.

وفي 12 آذار/ مارس 1930، أقر الرايخستاغ خطة يونغ. ومع زوال هذه العقبة، بلغ الخلاف الهادئ المزمن حول تعويض البطالة بين حزب الشعب والديموقراطيين الاجتماعيين، جناحي ائتلاف موللر الأيديولوجيين، حد

الغليان. وفي حقيقة الأمر، لم تكن هذه المواقف مفاجئة، إذ كان حزب الشعب يريد خفض التعويضات، في الوقت الذي كان الديموقراطيون الاجتماعيون يطالبون بمساهمة أرباب العمل بحصة أكبر. وهنا تدخل الرجل الصالح هاينريش برونغ، وتوصل إلى تسوية، على الرغم من معرفته بأنه سيصبح مستشاراً في حال فشل هذا الحل. أقر البرلمان اقتراح برونغ، لكن مؤتمر الحزب الديموقراطي الاجتماعي صوَّت ضده، ليساهموا بخسارة زعيم الحزب لمنصب المستشار. وبالفعل انهار ائتلاف موللر. وفي 30 آذار/ مارس أقسم برونغ اليمين الدستورية أمام هيندنبورغ، ليكون المستشار الحادي عشر للجمهورية.

كان تقليداً أن يلقي رئيس الحكومة الجديدة "بيان الحكومة" لدى توليه منصبه. وجاء بيان برونغ ليؤكد، وبشكل دقيق، عدم خروجه عن نص شلايشر. فقد أوضح أن حكومته "ليست مقيدة بأي ائتلاف"، ووعد بعدم تجاهل آراء الرايخستاغ في وضع سياسة الحكومة. لكنه نبَّه إلى أن حكومته ستكون "المحاولة الأخيرة للخروج بحل ما مع الرايخستاغ"، إذ لا أحد بإمكانه تحمل المسؤولية عن "تأخير المهام الحيوية"، لأن "هذه اللحظة تتطلب عملاً سريعاً". وكان هذا الكلام تهديداً مبطناً بأن حلاً أشد راديكاليةً، وغير برلماني، قادم على الطريق في حال عدم تجاوب الرايخستاغ.

تقدم برونغ بمشروع قانون لإقرار الميزانية عبر اقتطاعات كبيرة في الإنفاق، وزيادة الضرائب، لكن الرايخستاغ رفض ميزانية برونغ في 16 تموز/ يوليو. عندها أصدر هيندنبورغ أمرين تنفيذيين لما ورد في مشروع القانون، لكن الرايخستاغ، وبعد يومين رفض الأمرين معاً. وطبقاً للخطة المرسومة لتشكيل حكومة رئاسية، أصدر هيندنبورغ أيضاً أمراً بحل البرلمان. وبالفعل "أرسل برونغ البرلمان إلى البيت" كما يقال في نفس اليوم، ومن ثَّمَّ لم يعد هناك برلمان يتدخل في خطط برونغ إلى أن يتم تشكيل برلمان جديد. وهكذا تم إقرار الميزانية بناءً على أمرين تنفيذيين من هيندنبورغ

صدرا في 26 تموز/ يوليو، كما تمت الدعوة لإجراء الانتخابات في 14 أيلول/ سبتمبر.

غير أن انتخابات عام 1930 طرحت سؤالاً لم يعرف له أحد جواباً فضلاً عن النتائج التي قد تترتب عليه: ماذا لو نجح النازيون؟

إن النتائج الهزيلة التي حصدها النازيون في انتخابات أيار/ مايو 1928 لم تعكس الصورة الكاملة لمكانة النازيين لدى الشعب الألماني. فبالنسبة إلى مراقب مُتَبَصّر يمتلك الخيال، كانت مؤشرات نجاح النازيين حاضراً ومستقبلاً ماثلة للعيان. فقد جاء النازيون من العدم ليفوزوا بـ 7.5٪ من أصوات الناخبين في الانتخابات المحلية لمقاطعة أولدنبيرغ عام 1928 (بعد ثلاث سنوات سيتحولون إلى أكبر حزب هناك). وفي مقاطعة تورنجيا عام 1929، فاز النازيون بـ 11.3٪ من الأصوات ودخلوا في الائتلاف الحاكم بشخص أحد قياداتهم فيلهلم فريك كوزير للداخلية. وفي نفس العام، تمكنوا من الحصول على 7٪ في انتخابات بادن. وفي عام 1930، شكلوا ائتلافاً حاكماً مع القوميين في مقاطعة براونشفايغ.

ودل هذا على أن النازيين كانوا يحصدون ثمار التنظيم الصبور للقواعد والأسس تحت إدارة متمكنة لغريغور شتراسر رئيس دائرة التنظيم في الحزب. كما استفادوا من تزايد المصاعب والاستياء في المناطق الريفية، وترجح مواقف الناخبين لدى الطبقة الوسطى في المعسكر البروتستانتي، إلى جانب زيادة حدة الامتعاض من القوميين الألمان الذين كان يُنظرُ إليهم على أنهم طبقيون ونخبويون، ويعيشون في الماضي.

وفي نهاية حزيران/ يونيو 1930، وطبقا لبنود اتفاقية لوكارنو، سحبت فرنسا آخر قواتها من منطقة الراين. واحتفل الألمان بما وصفه المؤرخ هيرمان غرامل "بالشعور المخادع بأن تكون أخيراً حراً من جميع القيود، وقادراً على التحرك بحرية في المجال الدولي". غير أن أحداً في ألمانيا لم يزعج نفسه الامتنان لفرنسا للوفاء ببنود الاتفاق، والانسحاب من الراين

مبكراً. وبدلاً من ذلك، برزت فورة من نزعة قومية عدائية، رافقها اندلاع العنف ضد كل من حُكم عليه "بالتعاون" مع الفرنسيين. كذلك طالب تيودور دويستربيرغ نائب قائد منظمة المحاربين القدماء للجناح اليميني، المعروفة باسم الخوذة الفولاذية، باستعادة بروسيا الغربية وسيليزيا العليا، وهي المناطق التي ضُمت إلى بولندا بعد الحرب، إضافةً إلى منطقة أويبين-ماليدي من بلجيكا والألزاس واللورين من فرنسا. أن يقول ناشط يميني هذا الكلام هو شيء، لكن أن ينتقل هذا النوع من الخطاب إلى حكومة المستشار هو شيء آخر تماماً. إذ كان أمراً غير عادي أن يظهر غوتفرايد تريفرانوس وزير المناطق المحتلة في حكومة برونِنغ في مظاهرة، مرتدياً زيه العسكري البحري القديم، ويتحدث عن "الأشقاء" في منطقة أويبين-ماليدي، والسار؛ الإقليم الألماني السابق تحت الإدارة الفرنسية. ويشير إلى "الجروح التي لم تندمل "في حدود ألمانيا الشرقية التي تتطلب وحدة والتزام الشعب الألماني بأسره".

لذلك كان من المناسب جداً أن يشهد صيف عام 1930 خاتمة حزينة لحقبة التعاون بين غوستاف شتريزيمان وأرستيد بريان. فقد طرح هذا الأخير، في الخريف الذي سبق، قبل وفاة شتريزيمان بوقت قصير، فكرة لما دعاه يومها "اتحاداً أوروبياً"، وذلك في خطابه أمام عصبة الأمم. وكانت تهدف فكرة بريان إلى تشكيل اتحاد للدول الأوروبية يعزز الاندماج السياسي والاقتصادي. وجرياً على عادة السياسيين، كان لبريان عدة دوافع، فقد كان يدرك أنه -أياً كانت الإرادة الطيبة القائمة بينه وبين شتريزيمان كبيرة- لا يمكن لأي منهما أن يبقى لفترة طويلة، كما إن ألمانيا، عاجلاً أم آجلاً، ستزداد حجماً وسكاناً لتشكل مرة أخرى تهديداً لفرنسا. لذلك من الأفضل للأمن الفرنسي نزع أنياب ألمانيا بإدماجها في تجمع أوروبي. وكان ينظر إلى الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، القوتين اللتين لا يمكن مجاراتهما عسكرياً وسياسياً واقتصادياً إلا بأوروبا

موحدة. كما كان لخطته مَسحْة مثالية، فقد كرَّس الجزء الأكبر من حياته المهنية ما بعد الحرب لمنع تكرار أهوال الجبهة الغربية؛ أي إنه كان، مثل شتريزيمان، يسعى إلى أوروبا هادئة مسالمة.

وفي الوقت الذي كان باستطاعة بريان متابعة فكرته، كان شتريزيمان قد رحل، وجاء برونغ الأكثر تشدداً وكانت فرنسا وألمانيا تبتعدان عن روح اتفاقية لوكارنو على خلفية الهستيريا القومية التي أحاطت بالانسحاب الفرنسي من الراين. وعلى الرغم من ذلك، قدمت الحكومة الفرنسية في أيار/ مايو 1930 مذكرة مطولة تتناول فكرة بريان إلى جميع حكومات الدول الأوروبية الأعضاء في عصبة الأمم. ودعت الخطة إلى ميثاق عام يؤكد القيم الأوروبية المشتركة، وتشكيل لجنة سياسية شبيهة بمجلس عصبة الأمم، وأمانة عامة للقيام بالعمل الروتيني. كما يجب على الاتحاد أن يُعنى أولاً بالمسائل السياسية والأمنية أكثر من الشؤون الاقتصادية، لكن الخطة توقعت أن يتبع الاندماجُ الاقتصادي تطويرَ الحالة الأمنية. أما الهدف الطويل الأمد، فكان يتطلع لإنشاء سوق أوروبية مشتركة للبضائع ورأس المال. وأعلنت الخطة "إنها ساعة اتخاذ القرار التي يجب أن تحدد فيها أوروبا مصيرها بيدها، وأكدت أن المهمة العاجلة تتمثل في "أن تتحد أوروبا وتحيا وتزدهر".

وبالفعل كانت هذه هي ساعة اتخاذ القرار. ففي صيف عام 1930، فُتح أمام ألمانيا طريقان: فرنسا وأوروبا بشكل عام. وكان أحد هذين الطريقين يؤدي إلى السلام والاندماج السياسي والاقتصادي بما يشبه إلى حد كبير أوروبا في فترة الخمسينيات. أما الطريق الثاني فكان يؤدي إلى ترسيخ الذات القومية والتنافس، ووضع كل طرف شعار بلدي أولاً. وكان الطريق الثاني ضمن الظروف السائدة عام 1930 يحمل معه مخاطر الحرب.

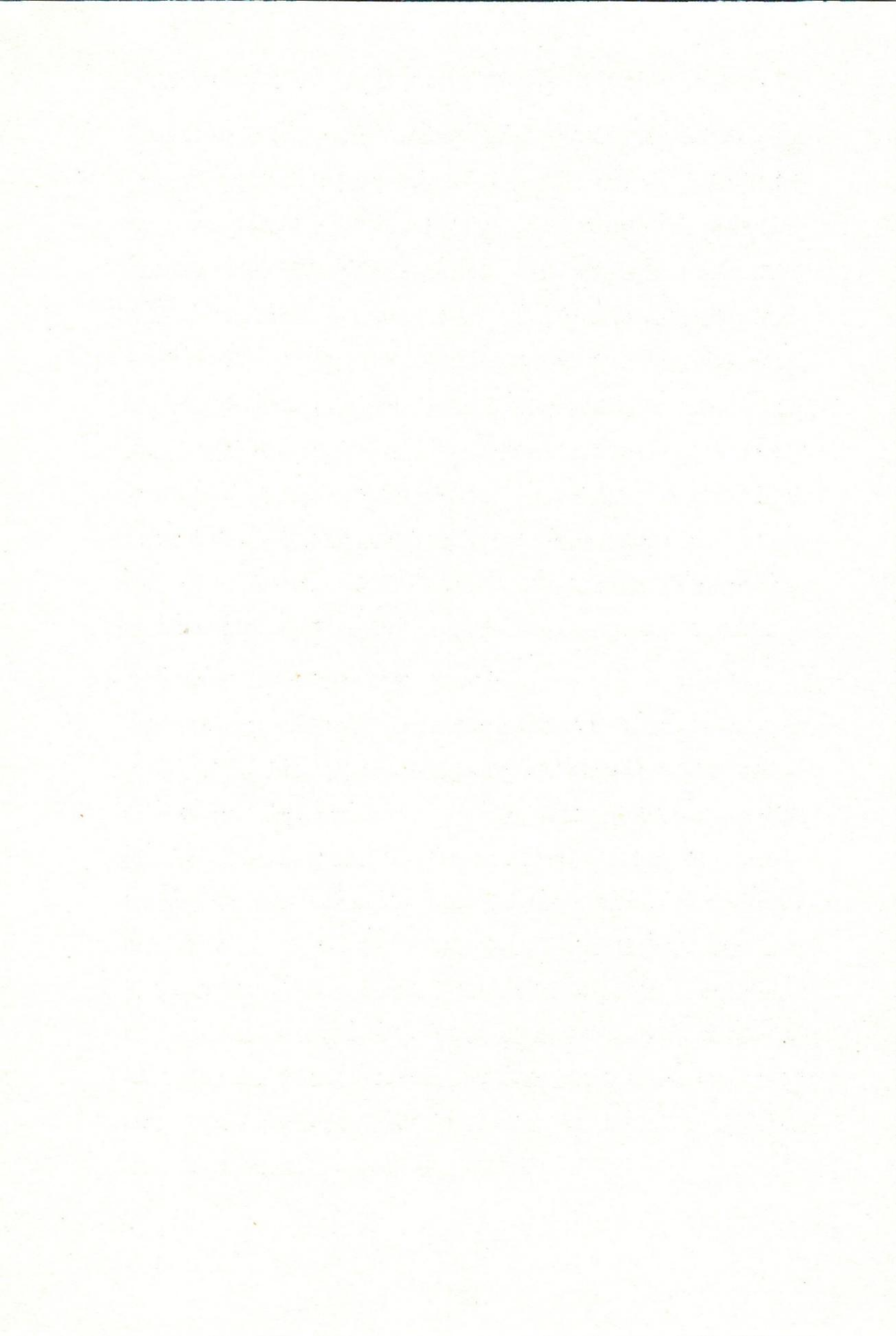
ودون تردد، اختار برونغ ووزير خارجيته يوليوس كورتيوس (وهو من حزب شتريزيمان، لكنه مختلف عنه تماما) الطريق الثاني.

في اجتماع للحكومة عُقد في 8 تموز/ يوليو، قال برونِنغ إن بريان كان يهدف إلى "إبقاء الوضع الأوروبي على حالته الراهنة". وما قصده برونِنغ بكلامه التفوق الفرنسي المؤقت على ألمانيا. وكان هذا أمراً لا يمكن لبرونِنغ قبوله، بسبب استيائه من اتفاقية فرساي، والحدود التي رسمتها، والتعويضات التي فرضتها. ورداً على المقترح الفرنسي، قال برونِنغ إن ألمانيا يجب أن تضع "شروطها المسبقة لنظام أوروبي عادل ودائم. يجب أن يكون لألمانيا فيه فضاء حي وطبيعي". من جانبه، وافق كورتيوس، وأبلغ مجلس الوزراء أن رد الحكومة الألمانية على الفرنسيين سيرتقي إلى مستوى "جنازة من الدرجة الأولى لفكرة بريان". وتسلمت باريس الرد الألماني في 15 تموز/ يوليو. وعلى الرغم من أن معظم الدول الأوروبية ردت بحماسة على فكرة بريان، تلقت ألمانيا تغطية فعالة لموقفها من الحكومة البريطانية التي كانت مثل الألمان غير متحمسة لخطة بريان، لأنها كانت مهتمة أكثر بإمبراطوريتها، وبقضايا عالمية أوسع نطاقاً.

وهكذا سارت أوروبا مترنحةً نحو مستقبل مختلف جداً. ومع تنامي النزعة القومية والنجاحات الأخيرة للنازيين في انتخابات المقاطعات، ظهر من إشارات الإنذار ما يكفي بالنسبة لبرونِنغ كي يؤجل الانتخابات، لكنه سارع إلى إجراء انتخابات في خريف 1930، الأمر الذي جعله محط انتقادات حادة منذ ذلك الحين. حتى إن بعضاً من أخلص مؤيديه، مثل هانز لوثر، وهو مستشار سابق، وكان عام 1930 رئيساً للبنك المركزي، أوضحوا لاحقاً أن برونِنغ لم يكن لديه أية فكرة عما ستفرزه الانتخابات التي جاءت نتائجها "كالصاعقة". بل إن برونِنغ نفسه كتب عام 1944 أنه كان يتوقع أن يحقق النازيون نتائج أفضل، لكن ما كتبه قد يكون محاولة ليبدو أكثر استشرافاً للمستقبل بأثر رجعي مما كان عليه فعلاً في حينه. ومما ورد في مذكراته أيضاً -وقد نُشرت بعد وفاته عام 1970- أنه كان قد توقع أن يستمر الركود الاقتصادي أربع سنوات، وأنه كان يريد تفويضاً باتخاذ إجراءات قاسية.

كذلك هو الأخر، لم يكن شلايشر، المهندس الثاني لاستراتيجية برونغ، يكترث للأمر، فقد كان يرى النازيين مجرد إنذار أكثر من كونهم النظير اليميني للديموقراطيين الاجتماعيين. وبعد بضع سنوات، شرح فكرته لـ فينسنتس موللر قائلاً: "كانت تكتيكاتي تجاه النازيين من حيث المبدأ شبيهة بالتكتيكات التي وضعناها في قيادة الجيش العليا حيال الثورة عامي 1918 و1919". وما كان يعنيه شلايشر بكلامه هو "إدخال الديموقراطيين الاجتماعيين في الحكومة لمحاربة الراديكاليين، وتجنب الاضطرابات من جانبهم". لكن الفارق بين الديموقراطيين الاجتماعيين والنازيين أن الأخيرين كانوا قوميين وعسكريين. وبصفته جندياً، وضع شلايشر عينه على قوات العاصفة النازية. وأوضح ذلك لموللر بقوله: "أعتقد أنه، وتحديداً في قوات العاصفة، هناك العديد من العناصر الجيدة التي ستحظى باهتمام الجيش كقوات احتياط رديفة". بعبارة أخرى، كان النازيون، بالنسبة إلى شلايشر، أمراً مُرَّحباً به ولا يُخشى منه.

ولاحقاً، على مدى العام ونصف العام، سيتمحور الوضع السياسي في ألمانيا حول مساعي شلايشر لتطبيق هذه الاستراتيجية: "إدخال النازيين إلى الحكومة". وكان شلايشر يظن أن هتلر والنازيين هم الجنود المشاة المثاليون في حملته لإعادة بناء ألمانيا على غرار نموذج أكثر تسلطاً، لتشكيل القاعدة الجماهيرية الضرورية التي تحتاجها حتى الدولة الاستبدادية. بيد أن هذه كانت لعبة خطيرة، إذْ لم يكن شلايشر أحمقَ إلى درجة أنه أراد فعلاً أن يعطي النازيين سلطة حقيقية. فقد كانت استراتيجية مبنية على مسارين: إيجاد طريقة ما لاستغلال النازيين، إن أمكن ذلك، مع الاستعداد لمحاربتهم، إن تعذر تحقيق الهدف الأول. لكن، وعلى الأرجح، أنه لم يخطر على بال شلايشر أبداً أنه سيأتي من يهزمه بنفس حيلته، لينقلب السحر على الساحر.



4
مستشار الجوع

هي ليلة مظلمة في أحد الأحياء شمال برلين. بالقرب من تقاطع شارع فيلكِه وطريق شونهولتسر في حي راينيكيندورف الشرقي، الذي تقطنه عائلات من الطبقة العاملة، كانت مصابيح الشوارع قليلة ومتباعدة فيما بينها. هذه هي المنطقة التي يُطلق عليها اسم "الجسور السبعة". أما العبور إلى محطة القطار الشمالية، فكان متعذراً أو يكاد يكون في هذه العتمة. إلى الغرب، يحدد سياج حديدي معالم حدائق فيلسينيك والأكواخ البائسة لأناس يعيشون هناك. غالبيتهم من العاطلين من العمل، ومن أفقر الفقراء الذين "طردتهم المكننة والأنفاس الأخيرة للأزمة من عملهم"، كما جاء على لسان جريدة روته فاني (الراية الحمراء).

يسير رجل يُدعى يوهان بانوشر ومعه شقيقة زوجته في شارع فيلكه، حيث تُسمعُ خُطى أقدامهما في سكون الليل بصوت عالٍ. وفجأة توقفهما مجموعة من ثمانية أو تسعة رجال أمام منزل بانوشر. يرتدي الرجال زياً مدنياً عادياً بسبب الحظر المفروض على ارتداء الزي الرسمي، لكنهم وبدون شك من قوات العاصفة النازية. يحيط الرجال ببانوشر. يصرخ أحدهم: "إنه هو". ويقول آخر: "لقد قبضنا عليه"، فيرد عليه زميله: "إنه أحد الشيوعيين، إنه يسكن هنا، إنه هو". يسأل أحدهم: "هل تحققت من هويته؟" وهنا ينبري هيرمان شور، قائد المجموعة للسؤال: "هل أنت كليمكِه؟ ". عندها

ينـزع أحـد الرجـال معطـف بانـوشر لـيرى إن كان يرتـدي الـسروال المخمـلي المضلـع، كـما كانـوا يتوقعـون. في هـذه اللحظـة، ينـزع النازيـون أحزمتهـم استعداداً لاستخدامها كسلاح، لكـن بانـوشر يتمكـن مـن إثبـات هويتـه لتُمـر هـذه اللحظـة العصيبـة عليـه بسرعـة كـما جاءتـه بسرعـة. يجهـر شـور بصوتـه آمـراً: "هيـا دعونـا نذهـب!".

كان فريتـس كليمكِـه صاحـب الوجـه الناعـم، الـذي يشـبه في ملبسـه ومظهـره يوهـان بانـوشر، قـد تـورط في عـراك مـع بعـض أفـراد قـوات العاصفـة في مكتـب العاطلـين مـن العمـل في راينيكينـدورف قبـل عـشرة أيـام. كـما وقـع صـدام آخـر البارحـة بـين مجموعـة مـن النازيـين وأخـرى مـن الشـيوعيين في شـارع فينـتر القريـب. لكـن هـذه المـرة تـم توجيـه اتهامـاتٍ جنائيـة تنتظـر حكـم القضـاء، لذلـك جـاء النازيـون للانتقـام. إنـه الصبـاح الباكـر مـن السـادس عـشر مـن كانـون الثـاني/ ينايـر 1932.

وعادوا بعد يومين.

في ليلـة الثامـن عـشر مـن كانـون الثـاني/ ينايـر، تجمعـت عـدة وحـدات مـن قـوات العاصفـة مـن شـمال برلـين ربمـا يبلـغ عـدد أفرادهـا الإجـمالي مائتـين للمشـاركة في مناسـبة اجتماعيـة في مطعـم بيرغشـلوس، في منطقـة فايدمانسلوسـت. وقبـل نهايـة الحفـل ينهـض قائدهـم فيرنـر شـولتزِه، ويخاطـب رجالـه بالقـول: "سـنقوم اليـوم بفعـل شيء إضافـي صغـير". يأمـر شـولتزِه رجالـه بالتوجـه مبـاشرة إلى حـي فيلسـينيك قائـلاً: "وإذا مـا التقينـا بشـيوعيين، اقتلوهـم واهربـوا".

فيلسـينيك واحـد مـن 236 مجمعـاً من بيـوت الحدائـق في منطقـة راينيكيندورف. توفـر هـذه الحدائـق في الأوقـات العاديـة لسـاكني المدينـة مكانـاً للاسـترخاء والعمـل عـلى زراعـة الـورود عـصر الآحـاد، لكـن كانـون الثـاني/ ينايـر 1932 ليـس زمنـاً عاديـاً. فقـد تحـول المـكان إلى سـكن للعاطلـين مـن العمـل، الذيـن يرتجفـون بـرداً في الشـتاء داخـل أكـواخ صغـيرة، بعضهـا مصنـوع مـن الخشـب والأخـر مـن الـورق وحسـب.

اللافـت للانتبـاه أن رجـال شـولتز يسـيرون باتجـاه فيلسـينيك برفقـة رجـال الشرطـة، والأغـرب مـن ذلـك أن رجـال الشرطـة يتبخـرون عندمـا يقـترب النازيـون مـن مجمـع الحدائـق. يتخـذ النازيـون تشـكيلاً هجومياً يُعـرف بــ "نسـق الرمـي".

هـذه المـرة، يعـثر النازيـون عـلى مـن يبحثـون عنـه. ويصـف، في مـا بعـد، أحـد شـهود العيـان مـن أفـراد قـوات العاصفـة يُدعـى هاينريـش فيلفـوك كيـف أبرحـت مجموعـة مـن النازيـين فريتـس كليمكِـه ضربـاً بقضبـان معدنيـة حتـى سـقط أرضـاً مغشـياً عليـه. وفجـأة يظهـر رجـل طويـل القامـة يرتـدي نظـارات، ويرفـع ياقـة معطفـه ليغطـي وجهـه. يُبْعـد الآخريـن، يشـهر مسدسـه ويطلـق النـار عـلى ظهـر كليمكِـه الـذي كان فاقـدَ الوعـي، فتختـرق الرصاصـات قلبـه، ويمـوت عـلى الفـور.

لكـن هـذا لا يعنـي أن النازيـين خرجـوا مـن السـاحة دون خسـائر. فأثنـاء احتـدام المعركـة في الشـوارع المظلمـة، بالقـرب مـن مجمـع الحدائـق، أقـدم أحـد مـن رابطـة القتـال الشـيوعية ضـد الفاشـية عـلى طعـن أحـد أفـراد قـوات العاصفـة يدعـى إرنسـت شـفارتس حتـى المـوت. وكان شـفارتس الـذي يعمـل مدرسـاً للرسـم، يبلـغ مـن العمـر 58 عامـاً؛ أي أكـبر سـناً مـن أن يكـون في عـداد قـوات العاصفـة.

شـتاء عـام 1932 هـو قَعْـرُ الحضيـض الـذي وصـل إليـه الركـود الاقتصـادي في ألمانيـا. وهـذا مـا كان يبـدو عليـه الركـود السـياسي.

في **السـاعات القليلـة المتبقيـة** مـن 15 أيلـول/ سـبتمبر 1930، عـاد هتلـر إلى بورغربرويكيلـر في ميونيـخ الـتي حـاول انطلاقـاً منهـا قبـل سـبع سـنوات تقريبـاً، أن يقـوم بانقـلاب على الجمهوريـة. لكـن النازيـين كانـوا يقيمـون حفـلاً انتخابيـاً صاخبـاً، إذْ كانـت نتائـج الانتخابـات تَرِدُهُـم منـذ السـاعة العاشـرة مسـاءً. ومـع حلـول منتصـف الليـل، كانـوا قـد علمـوا بتحقيقهـم نصـراً كبيـراً في الانتخابـات. ووصـل هتلـر إلى مـكان الاحتفـال بعـد منتصـف الليـل ليتحـدث إلى أنصـاره.

انتقى هتلر عباراته بحرص شديد، لا لأنه لم يكن يريد الاحتفال بالنصر، بل لأنه كان يعلم تماماً أن جنوده غير المنضبطين يستلهمون العنف بسهولة فائقة. وفي هذه المناسبة كانت اللاشرعية العنيفة هي ما لا يريده حتماً، بل أكد في خطابه أن الحزب سيصل إلى أهدافه "بطريقة قانونية تماماً"، لكن لأن أحزاباً أخرى ستسعى إلى "تقويض" الوحدة النازية، بات لزاماً على النازيين "أن يقفوا وراء قيادتهم وقفةَ رجل واحد".

كان هناك تحذير صريح في كلماته، لكنه كان واثقاً أيضاً. وقال لأتباعه: "الوقت يعمل لمصلحتنا، وستأتي الساعة التي سنحوز فيها أخيراً السلطة".

حتى النازيين أنفسهم لم يتوقعوا أن يبلوا بلاءً حسناً في الانتخابات. فقد ذكر إرنست هانفشتينغل، الذي كان على وشك أن يتولى منصب رئيس قسم الصحافة الأجنبية في الحزب، أن هتلر أخبره بأنه سيكون راضياً لو حصل الحزب على 40 مقعداً في الرايخستاغ. كذلك قال رودولف هيس إن هتلر توقع الفوز بـ 60 إلى 70 مقعداً. لكن في واقع الأمر، حصد النازيون 107 مقاعد بنسبة 18.3٪ من أصوات الناخبين، مقارنة بـ 12 مقعداً و2.6٪ من الأصوات في انتخابات عام 1928. وعلى مدى ستين عاماً من الانتخابات في ألمانيا، لم يسبق لأي حزب أن سجل ارتفاعاً في شعبيته بهذه السرعة. وكما هو معروف، جاءت المكاسب النازية بشكل كبير على حساب أحزاب الطبقة الوسطى البروتستانتية: القوميين الألمان بزعامة هوغنبيرغ الذين تراجع مستوى تأييد الناخبين لهم إلى النصف حتى بالمقارنة بنتائجهم الهزيلة في انتخابات 1928، ونتائج حزب الشعب سابقاً، بعد وفاة شتريزيمان، والحزب الديموقراطي سابقاً الذي كان يميل نحو اليمين ويشارك في الانتخابات تحت اسم حزب الدولة[9].

9 حزب سياسي لم يعمر طويلاً في ألمانيا إبان جمهورية فايمار. نشأ من اندماج الحزب الديموقراطي الألماني باتحاد شعب الرايخ القومي (الجناح السياسي لأخوية ألمانيا الفتية) في تموز/يوليو 1930. (م)

واستناداً إلى نتائج الانتخابات، كانت حسرة الليبراليين الألمان كبيرة، حتى إن الارستقراطي الليبرالي الكونت هاري كيسلر وصف ما جرى بأنه كان "يوماً أسودَ لألمانيا". وقال أيضاً: "لابد أن يكون الانطباع في الخارج كارثياً، مع انعكاساته المدمرة على السياسة الخارجية والمالية". ورأى كيسلر أن ألمانيا - في ظل برلمان بمقاعده الخمسمئة وسبعة وسبعين، يضم 107 نازيين و49 قومياً بزعامة "هوغنبيرغ"، وأكثر من 70 شيوعياً، أي "ما يقارب 220 نائباً ممن يرفضون بشكل جذري الدولة الألمانية القائمة"- باتت تواجه أزمة لا يمكن التغلب عليها إلا "في تحالف جميع القوى التي توافق، أو على الأقل، تتقبل الجمهورية". على أي حال، وفي الوقت ذاته، يعتقد كيسلر أن "الناخب الألماني لا يُلام" على فوز الأحزاب الأيديولوجية- مثل النازيين والشيوعيين والوسط- وفشل الأحزاب التي تمثل مجرد مصالح اقتصادية. من جانبها، تحدثت كاتبة المذكرات والروائية تيا شتيرنهايم عن أن "معظم أفراد الجالية اليهودية مصابون بالحيرة والاضطراب". فيما كانت مراسلة مجتمع برلين بيلا فروم تفكر ملياً في الهجرة. كذلك تحدث السفير البريطاني هوراس رامبولد عن لقائه مسؤولاً كبيراً في حكومة مقاطعة بروسيا، أَسرَّ له عن اعتقاده بان السوفييت هم من موَّلوا حملة النازيين الانتخابية.

بالنسبة إلى العديد من الليبراليين، وضعت نتائج الانتخابات جدوى تطبيق الديموقراطية على محك السؤال: كيف يمكن للديموقراطية أن تنجح إذا اعتمدت على مثل هؤلاء الناخبين؟ وعلى حد تعبير الجريدة الليبرالية **برلينير تاغبلات**، كان أمراً "وحشياً" أن يؤيد "ستة ملايين وأربعمئة ألف ناخب في هذا البلد المتطور حضارياً، أحط وأوقح أنواع التدجيل وأكثرها خواءً". بالمقابل نعت جريدة حزب الدولة "هزيمة العقل على يد التطرف"، لكن الحزب أعرب عن أمله "بأن الناخبين الألمان سيجدون مخرجاً من هذه الحيرة للعودة إلى الوسط البنَّاء".

عندما افتتح البرلمان الجديد جلساته، سجلت بيلا فروم كيف احتفل

النازيون بتخريب محال تجارية يملكها يهود في برلين. وكتبت في معرض تعليقها على ذلك أن قادة الحزب قدموا تفسيراً ملتبساً بدفاعهم عن العنف النازي، بدعوى أنه جاء رداً على استفزاز الشيوعيين. هذا الدفاع باعتقادها كان "فاضحاً بشكل كاف"، وأضافت "ما أثار قلقي أكثر هو رد الفعل المبالغ في تحفظه من صحف المحافظين الذين كانوا هم أنفسهم من رموا بذلك التلميح الحذر حول "الاستفزاز" إلى الأشرار أصحاب الزي البني (اللون الرمزي للنازيين).

ولم يكن الليبراليون وحدهم في حالة القلق. فقد جلبت نتائج الانتخابات معها أزمة مالية عندما سحب مستثمرون أجانب أموالهم من البنوك الألمانية. فخلال شهر واحد تم سحب 800 مليون رايخ مارك من رؤوس الأموال الأجنبية (أي ما يعادل 190 مليون دولار، بحسب معدلات الصرف عام 1930، و2.8 بليون دولار بحسب معدلات الصرف في الوقت الحاضر). وهذا ما أدى إلى هبوط الأسهم الألمانية في الأسواق الأجنبية هبوطاً حاداً، وخسر بنك الرايخ نصف احتياطه من الذهب مما اضطره إلى رفع معدلات الفائدة إلى 5٪ (مقارنة بـ 2٪ في نيويورك و3٪ في لندن). ولأن الأسعار كانت تنهار، أدى ذلك بدوره إلى رفع الكلفة الفعلية لاقتراض المال إلى 12٪، ويُعتبر هذا تصرفاً كارثياً عندما يكون الاقتصاد في حالة تراجع، فانزلق الاقتصاد الألماني أكثر فأكثر في حالة الركود.

ومن فرنسا، كان أرستيد بريان يتفحص حطام ما حاول هو وشتريزيمان بناءه. وجاءت ردة فعله على نجاح النازيين شبيهة بتلك التي أعقبت تلقيه نبأ وفاة شتريزيمان قبل عام واحد، إذْ وصف نفسه بـ "أول ضحايا النازيين".

وفي هذا السياق العام، يبقى السؤال مطروحاً: ما السبب وراء نجاح النازيين؟ وما الذي كانوا يعرضونه للناخبين؟ وماذا رأى فيهم الناخبون؟

تستند إحدى التحديات التي تتصل بفهم الحركة النازية إلى حقيقة أساسية في علم السياسة. فالنازيون، مثلهم مثل جميع السياسيين، بمن فيهم الفاشيون في الدول الأخرى، تسللوا إلى الفراغ السياسي المتاح لهم، وتطورت برامجهم لتلائم المؤيدين الذين استقطبتهم. أي إن أيديولوجية النازيين وأهدافهم كانت غامضة على الدوام، ومتغيرة باستمرار بشكل متعمد. فقد كان هتلر هو نفسه من أعلن النقاط الخمس والعشرين لبرنامج الحزب النازي في جو احتفالي عام 1920، وشَدَّدَ بشكل واضح على أنها غير قابلة للتبديل، لكنه تجاهلها بعد ذلك، ولم يكن لتلك النقاط أي صلة بما فعله عندما تسلم السلطة.

بيد أن هذا لا يلغي أهمية النقاط الخمس والعشرين في فهم جاذبية النازية في مراحلها الأولى.

وكانت بعض هذه النقاط تستند إلى نموذج قومي معياري، طالب الحزب من خلالها بـ "اتحاد جميع الألمان في إطار ألمانيا الكبرى، "على أساس "حق تقرير المصير القومي". وكان المقصود من ذلك الوحدة مع النمسا ومنطقة سوديتان في تشيكوسلوفاكيا والمناطق الأخرى التي ضُمَت إلى بولندا وفرنسا وبلجيكا. كما دعت تلك النقاط إلى إلغاء معاهدة فرساي واتفاقية سان جيرمان (للسلام بين الحلفاء والنمسا)، إضافة إلى استعادة المستعمرات الألمانية ما وراء البحار التي استولى عليها المنتصرون في الحرب بموجب اتفاقية السلام.

وهناك نقاط أخرى اتخذت اتجاهاً مختلفاً يعبر عن معادة الرأسمالية، ومعاداة النخبوية، ويضع أسس برامج الرفاهية الاجتماعية التي كانت في صلب الأيديولوجية النازية في مرحلتها الأولى. كما سعى الحزب إلى تجريم الاستثمار والتربح من الحرب، ودعا إلى تأميم شركات ومحال تجارية كبرى، وتقاسم الأرباح مع المشاريع التجارية الكبيرة، و"توفير شيخوخة كريمة"، وفرص تعليم أفضل للأطفال الفقراء (مع رقابة الدولة المشددة على

المناهج التعليمية)، و"سن التشريعات ذات الصلة بإلزامية التدريب الرياضي والجمباز"، و"دعم جميع المنظمات المنخرطة في التدريب البدني للشباب".

هذا الاهتمام برفاهية المواطن العادي الفقير، تسلل بسهولة إلى الفكرة الرئيسية الثالثة من البيان وهي التي تمثلت في كره من وصفتهم بأنهم خارج الأمة، إذ طالبت النقطة السابعة بأن "تجعل الدولة من توفير المعيشة لمواطنيها واجباً رئيسياً، وفي حال استحال إطعام الأمة بأكملها، يتعين عندئذ طرد رعايا الدول الأجنبية (غير المواطنين) من ألمانيا". وانطلاقاً من هذا التوصيف جاءت النقطة الثامنة، للتعبير عن كراهية المهاجرين والمطالبة بترحيلهم: "يجب منع الهجرة إلى ألمانيا لغير الألمان، وأن يُجْبَر جميع الأجانب الذين دخلوا ألمانيا بعد الثاني من آب/ أغسطس 1914على مغادرة الرايخ دونما تأخير".

وكانت الهجرة اليهودية بشكل رئيسي موضع اهتمام النازيين وقلقهم. ففي أعقاب الحرب الكبرى، فَرَّ إلى ألمانيا قرابة ثمانين ألف يهودي، معظمهم مما كان يعرف سابقاً بالإمبراطورية الروسية. وقد تراجع تدفق اللاجئين إلى ألمانيا كثيراً بحلول العام 1922، لكن جمهورية فايمار لم تعد قادرة على ضبط حدودها الشرقية التي أصبحت قضية سياسية في غاية الأهمية. كان اليهود الشرقيون-كما كان يُطْلَق عليهم- مختلفين ثقافياً عن أقرانهم الألمان الذين استقروا واندمجوا في المجتمع الألماني من زمن طويل، حتى إن دليل بايديكر لمدينة برلين سجل وجود اليهود الشرقيين بلغة مبطنة شديدة الحساسية. فقد تحسَّرَ الدليل على "اختفاء رونق المحكمة الإمبراطورية"، مشيراً في الوقت ذاته إلى "أن التدفق الكبير للأجانب، وتحديداً من أوروبا الشرقية، بات ملحوظاً". وكان اللاجئون الوقود لظاهرة معاداة السامية التي كانت قد تفاقمت حدتها أصلاً، بسبب مآسي الحرب والثورة.

لذلك لم يكن مفاجئاً أن تهيمن معاداة السامية على البرنامج النازي. فالنقطة الرابعة تفصِّل مقياساً عُنْصرياً لتحديد هوية المواطن: "إن رفيق

الشعب حصراً يمكن أن يكون مواطناً. والشخص الذي يحمل حصراً دماً ألمانياً، بغض النظر عن ديانته، يمكن أن يكون رفيق الشعب". فبالنسبة إلى النازيين، لا علاقة لليهود بالدين وبالتالي لا يمكن لأي شخص يوصف باليهودي أن يغير وضعه، حتى لو اعتنق ديناً آخر. أما فيما يتعلق باليهود الألمان، فلا يمكن لهم أن يُصنَّفوا من مواطني الرايخ مهما مضى على أُسرهم من زمن في ألمانيا، مقدار وكيفية اندماجهم، أو تحولهم إلى الديانة المسيحية، ومهما كانت مشاركتهم في الحرب الكبرى، وخدمتهم في الجيش، ونزيفهم في ميادين القتال. ويتابع البرنامج تفصيل عقابيل هذه المقولة بالإشارة في النقطة الخامسة إلى أنه "يحق لغير المواطنين العيش في ألمانيا كضيوف فقط، ويجب وضعهم في إطار قانون الأجانب". كما ينص البرنامج على حصر الوظائف الحكومية بالمواطنين الذين "يتمتعون بنفس الحقوق والواجبات"، لكن بالطبع لم تدخل هذه المساواة حيز التنفيذ إلا بعد أن أبعد النازيون كل من كانوا يرونه غير مناسب لهم. ومن الناحية العملية، أضاف النازيون، عند تسلمهم السلطة تصنيفات جديدة لأناس لا يتمتعون بنفس الحقوق، ضمت المعارضين السياسيين، والمعوقين عقلياً وبدنياً، ومحترفي الجريمة، وشهود يهوه، والغجر، وأخيراً مثليي الجنس.

لكن ما هو أبرز وأكثر دلالة هي تلك النقطة التي أشبعت تفصيلاً، وكانت أطول عدة مرات من غيرها من النقاط. إنها النقطة الثالثة والعشرون التي جمعت معاداة هتلر للسامية وهوسه بالدعاية والإعلام:

> نطالب بحرب قانونية ضد الأكاذيب السياسية المتعمدة وترويجها عبر الصحافة. ومن أجل تشكيل صحافة ألمانية نطالب:
>
> أ - أن يكون جميع المحررين والمساهمين في الصحف الصادرة باللغة الألمانية رفاقاً للشعب.

ب ـ عدم إصدار صحف غير ألمانية إلا بعد الحصول على إذن من الحكومة، ولا تُطبع باللغة الألمانية.

ت ـ يُحْظَرُ بالقانون تملك غير الألمان أي حصة مالية في أي جريدة ألمانية، أو التأثير فيها بأي طريقة كانت.

نطالب بمعاقبة من ينتهك هذا القانون بإغلاق الصحف المتورطة، والطرد الفوري لغير المواطنين المتورطين.

يجب منع الصحف التي تنتهك المصلحة العامة. كما نطالب بحرب قانونية ضد تلك النزعات والميول في الأدب والفن التي تمارس تأثيراً مدمراً على حياتنا الوطنية، وقمع المناسبات الثقافية التي تنتهك هذا المطلب.

أي لن يكون هناك صحافة حرة في الرايخ الذي يحكمه النازيون. كان واضحاً بشكل كافٍ أن النازيين كانوا سيساوون أي منشق أو مُعارض بنشاط "غير ألماني"، واعتباره انتهاكاً للمصلحة العامة.

غطت هذه النقاط كثيراً من المجالات، بعضُها كان غامضاً وملتوياً. (فالنقطة التاسعة عشرة على سبيل المثال، طالبت بمنع استخدام القانون الروماني،[10] وهي قضية لم تكن حساسة وشائكة بالنسبة إلى معظم الألمان). على أي حال إن تقديم منظمة سياسية للوعود والمطالب يبقى شيئاً. أما استجابة الناخبين شيء آخر، الأمر الذي يقودنا إلى التساؤل: أي النقاط لاقت صدىً عند الناخبين الألمان؟

للإجابة عن هذا السؤال، من المهم أن نتذكر الفئات الاجتماعية التي

---

10 القانون الروماني هو مجموعة القواعد القانونية التي وضعت في مدينة روما الإيطالية، بدءاً من قانون الألواح الاثني عشر، وصولاً إلى مجموعات القوانين التي وضعت في عصر المسيحية في روما وهي التي كانت أساساً لنظام القانون المدني الشائع في معظم دول العالم الآن. (م)

كانت مرشحة للتصويت للنازيين. كان النمط العام بحلول العام 1930 مستقراً. فكما رأينا سابقاً، استحوذ النازيون على ولاء الطبقة الوسطى من الألمان البروتستانت، كما نجحوا بإحداث اختراق محدود في المعسكر الكاثوليكي، وفعلوا الشيء نفسه، ولكن بشكل أكبر نوعاً ما، في المعسكر الاشتراكي، لكنهم ظلوا قليلي التأثير في صفوف البروتستانت (الاشتراكيين). من هذه القراءة يمكن استنتاج أن النازيين كانوا خليطاً من البروتستانت من المناطق الريفية، وتحديداً شمال وشرق البلاد، والطبقة الوسطى البروتستانتية في المدينة. أما الطبقة العاملة والكاثوليك، فلم يخرجوا من معسكرهم التقليدي.

وكان للبروتستانت الألمان أسبابهم اللاهوتية والسياسية التي دفعتهم إلى كره جمهورية فايمار. فقد كانوا يميلون لتبني نظرة تشاؤمية، تقوم على الاعتقاد أن دولة قوية مستبدة هي الوحيدة القادرة على تقويم النفس البشرية الخاطئة. هذه الدولة كانت أداة الله، أي إن العمل على تقويضها والثورة عليها يرتقي إلى مستوى العمل ضد الله. قبل العام 1918، كان الملوك البروسيون يمثلون رأس الاتحاد البروسي. وفي العام 1817 تشكل العمود الفقري للكنيسة البروتستانتية من اندماج الكنيستين اللوثرية والإصلاحية (الكالفينية). ومنذ العام 1517، عندما تصدى القس الألماني مارتن لوثر لغضب الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، كان أمراً طبيعياً أن يتبنى البروتستانت الألمان طابعاً قومياً متشدداً. وفي هذا السياق، قال الكاهن أوتو ديبيليوس- وقد صار أسقفاً في ما بعد- "إن الكنيسة محايدة سياسياً، لكنها تصوت للقوميين الألمان"، متناسياً أن كلمة "لكنها" تعكس تناقضاً بين العبارتين.

يضاف إلى ذلك أن جمهورية فايمار جمعت في حزمة واحدة كل ما لم يستهوِ البروتستانت. فقبل العام 1918، كان البروتستانت يرون في مَلَكية قوية ضامناً للحياة الاجتماعية الأخلاقية، ومؤسسة تترفع عن السياسة. لكن الجمهورية

قذفت بهم إلى دولة ديموقراطية علمانية، تتسلم فيها الأحزاب زمام السلطة، مما كان يعني أن السياسة بفسادها وصفقاتها هي التي باتت تهيمن على حياة الأمة، مع تغييب الثوابت الأخلاقية القديمة. وأسوأ من ذلك، أن الدولة الجديدة كانت نتاج ثورة بدستور أعده الليبراليون، وأصبح فيها الوسط الكاثوليكي حزباً أساسياً لا يُستغنى عنه. ونظراً لوزنه الانتخابي وموقعه الأيديولوجي الوسطي، كان حزب الوسط الكاثوليكي عنصراً أساسياً في أي ائتلاف في فايمار، ومُشاركا في كل الحكومات، على مستوى مقاطعة بروسيا، والمستوى الفيدرالي حتى عام 1932. كما كان هذا النجاح السياسي للكاثوليك موضع حسد واستياء البروتستانت وكان بعضهم، مثل غوستاف شتريزيمان، يسعى لموازنته بتجميع أحزاب ليبرالية ومحافظة في بديل بروتستانتي. وانطلاقاً من موقفهم هذا، كان من المحتم أن ينظر الألمان البروتستانت إلى الطريقة التي انتهت بها الحرب والثورة التي رافقتها على أنها خيانة. وعلى حد تعبير أحد رؤساء الإرساليات البروتستانتية، لم يكتف الديموقراطيون الاجتماعيون "بالقيام بهذه الثورة الغبية وحسب"، بل خانوا وطننا من أجل إيصال حزبهم إلى السلطة".

كانت الجمهورية الجديدة حديثة وعلمانية ومدنية ومادية؛ وكلها صفات لا تتوافق مع البروتستانت. وعلّق على هذا عام 1925 أستاذ بروتستانتي في علم اللاهوت قائلاً: "إن التحالف بين التنوير المادي والديموقراطية عادة ما يشكل المظهر النموذجي لانهيار الشعوب المتحضرة". لكن الجمهورية لم تكن كاثوليكية وحسب، بل كانت يهودية أيضاً. لذلك كان اليمين القومي يضرب على الوتر الحساس، عندما يقول إن المؤلف الرئيس لدستور 1919 أستاذ القانون هوغو بروس كان يهودياً. كما كان هناك قصيدة يجري تداولها في برلين، بعد نهاية الحرب، تقول إن الألمان "باتوا لا شيء سوى مجرد عبيد لليهود". حتى إن أوتو ديبليوس تفاخر ذات مرة بأنه دائماً ما كان يعتبر نفسه معادياً للسامية، موضحاً "أن المرء لا يعجز عن إدراك أن اليهودية لعبت دوراً ريادياً في جميع المظاهر الهدامة للحضارات الحديثة". كما رأينا،

كانت "المسألة اليهودية" الرمز المطلق الذي عبَّر عن مواقف الألمان تجاه القومية والديموقراطية.

وفي مواجهة هذه الجمهورية الدنيئة، وضع البروتستانت استراتيجية مقاومة، تعتمد فكرتها على إنشاء "كنيسة الشعب"، بهدف بناء تجمع بروتستانتي، وحشد البروتستانت لسياسات جماهيرية في القرن العشرين. ومن هذا المبدأ ستكون كنيسة الشعب وسيلة للدفاع عن المسيحية البروتستانتية والقيم الألمانية (التي اعتبرها البروتستانت شيئاً واحداً) في دولة ملحدة. وبالنسبة للعديد من البروتستانت كانت فكرة "كنيسة الشعب" قريبة جداً من فكرة "مجتمع الشعب" المصطلح النازي للوحدة الوطنية التي كانوا ينشدونها.

ويقدم ريتشارد كارفيل -وهو قس من أوزنابروك وصديق لعالم اللاهوت كارل بارت- مثالاً توضيحياً للتفكير البروتستانتي في عهد فايمار. وكان كارفيل معادياً للنازية، وناقداً حاداً لأيديولوجيتها، لكنه لم يكن أيضاً من أنصار الجمهورية، ويدرك تماماً السبب وراء محاولات النازيين استمالة البروتستانت. وبحسب اعتقاده، أن البروتستانت رأوا مع النازيين إمكانية بناء "كنيسة الشعب بالمعنى الحقيقي للكلمة"، ويقول كارفيل إن الله وضع ألماناً بعينهم "بين شعبنا"، وعلى "تراب وطننا الأم". كما أوضح كارفيل في مثاله أن النازيين أعادوا اكتشاف أن الفرد ينتمي إلى مجتمع، في حين أن الجمهورية، من باب المقارنة، كانت تتمحور كلياً حول "عقلانية فردية بعيدة عن الواقع، كان فيها المثقفون الأدبيون معلقين في الهواء". أما في "الحركة" النازية- كما يقول كارفيل- فقد كان يوجد "سخط أساسي" ضد كل "ما هو غير طبيعي، وضد مظاهر محددة بعينها من الانحلال والانحطاط في الثقافة الحديثة".

حتى في ما رفضه كارفيل من النازية- وبشكل رئيسي عنصريتها- نستطيع أن نرى أنه كان يمكن للبروتستانت الألمان أن يعارضوا النازيين.

ليس لأن البروتستانت كانوا يؤمنون بالديموقراطية والتسامح والتعددية، بل لأنهم كانوا يؤمنون بأيديولوجية استبدادية أخرى تتعارض بكل بساطة مع استبدادية النازيين. حتى بعد سنوات، وبينما كان يواجه محكمة الشعب العليا النازية بتهمة الخيانة، وافق مقاتل المقاومة البروتستانتية[11] الكونت هيلموت جيمس فون مولتكه بحماسة القاضي رولاند فرايسلر عندما قال: "كونت فون مولتكه، هناك شيء واحد ووحيد مشترك بين المسيحية والاشتراكية القومية: كلانا يطلب الشخص الكامل". وبعد الحرب، قال بطل المقاومة ضد النازية القس مارتن نيمولر إن المسيح "طالب بنظام استبدادي للعالم". وعَوْداً على بدء، كان كارفيل يعتقد باستحالة هزيمة الليبرالية على يد النازية، لأنهما **تتشاركان** الأيديولوجية نفسها أساساً. وبحسب رأيه، كانت النازية تسعى لأن تستبدل "بكبرياء الفرد" لدى الليبرالية "كبرياء العرْق". ولذا لم تضع كلتا الأيديولوجيتين الله أولاً، وهذا تحديداً الفارق الأهم بينهما من جهة، وبين المسيحية البروتستانتية من جهة أخرى.

بيد أن العديد من البروتستانت- وربما معظمهم في نهاية المطاف- ذهبوا أبعد من كارفيل. ففي اجتماع لمجموعة الإرسالية اللوثرية في الداخل، تقاطر المتحدثون، الواحد تلو الآخر، للتعبير عن حماستهم للنازيين وسط عاصفة من التصفيق الحاد. وفي الاجتماع نفسه خاطب مستشار نازي الحضور بالقول إنه وبينما لا يزال الحزب "يبحث عن موقعه" في قضايا الدين: "في المركز يقف المسيح بشخصه وكلمته وعمله. عليكم أن تتوقفوا عن إمساك العصا من المنتصف. حاربوا البلشفيةّ! فالكنيسة الإنجيلية، جوهراً وتاريخاً، تقف أقرب ما يكون إلى الروح الألمانية".

على أي حال، سيثبت العداء البروتستانتي لديموقراطية فايمار دوره المهم

---

11 المقاومة الألمانية ضد النازية: حركة نظمها أفراد ومجموعات معارضة في داخل ألمانيا ضد النظام القومي الاشتراكي بين عامي 1933 و1945، وبعضهم انخرط في مقاومة نشطة بهدف إزاحة هتلر عن السلطة اغتيالاً وقلب نظام حكمه. (م)

في تحديد مصير الجمهورية. لكن هذا لا يعني أن الكنيسة الكاثوليكية كانت أشد حماسةً للجمهورية. فقد كان هناك الكثيرون من الألمان الكاثوليك من الجناح اليميني القومي المتطرف، ممن يتماشون مع النموذج العام للاستبدادية الكاثوليكية التي كانت سائدة خلال تلك الفترة في أوروبا: على سبيل المثال في إسبانيا وإيطاليا، أو مع حركة "العمل الفرنسي"[12] بزعامة الكاتب والفيلسوف والسياسي شارل موراس، مع الإشارة إلى أنه كان للألمان الكاثوليك موضع سياسي صلب، يتمثل بحزب الوسط الذي كان بدوره ملتزماً الجمهورية، الأمر الذي حَدَّ من تهديد الكاثوليك المعارضين للديموقراطية. أما الطبقات العمالية البروتستانتية، فكانت ترى بيتها السياسي في الحزب الديموقراطي الاجتماعي، أو مع الشيوعيين (لاسيما إذا كانت عاطلة من العمل. وفي هذه الحالة، تكون على الأرجح، قد تخلت عن الكنيسة). أما بروتستانتيو الأرياف والطبقة الوسطى في فايمار، فكانوا على أي حال، مشردين سياسياً ولكنهم يبحثون عن انتماء سياسي. كذلك كانت فكرة التحشيد الشعبي- وهي التي كانت السبب وراء "كنيسة الشعب"- تتطابق تماماً مع أنواع جديدة لمنظمة سياسية كانت ستقود هؤلاء المشردين سياسياً في نهاية الطريق إلى النازيين.

كان الشيء الوحيد الذي غيرته الحرب العالمية الأولى وللأبد، هو ذلك التبجيل والاحترام الذي كان يكنُّه معظم الناس للنخب السياسية التي كانت تُعرف في ألمانيا باسم "الأعيان" أو "الأشراف". وشكل هؤلاء الأعيان في ألمانيا ما قبل الحرب صفوة حذرة من الأرستقراطيين ورجال من الطبقة ما فوق الوسطى. لكن الحرب استدعت قومية شعبوية تؤمن بالمساواة، لاسيما أن هذه النخبة هي التي قادت البلاد إلى الكارثة. لكن في الوقت ذاته، كان هناك من يَحِنُّ إلى عودة الملكية وزمن النخبة السياسية. وبعد نهاية الحرب، سارعت جريدة المحافظين **كرويتستساينغ** إلى أن تستبدل

12 حركة سياسية فرنسية مؤيدة للملكية، معادية للسامية والنظام البرلماني ومضادة للثورات، تأثرت بأفكارها الكاثوليكية القومية. (م)

بشعارها القديم "إلى الأمام مع الله من أجل الملك والوطن" شعاراً "من أجل الشعب الألماني"، والشعب كان في كل مكان في فايمار.

هناك كثير من الأدلة التي تؤكد أن الطبقات الوسطى في جمهورية فايمار كانت تريد سياساتٍ تقوم على المساواة والعدالة، وتتعامل مع المشكلات الاجتماعية دون أن تتخلى عن قوميتها. فقد أوضح أحد الناخبين الألمان الذي تحول إلى المعسكر النازي أن الأحزاب السياسة القديمة كانت تفتقر "للموقف الصحيح تجاه الناس- الرغبة في المساعدة". وهذا يشير إلى أن الحركات السياسية الشعبوية، وبشكل تقريبي، دائماً ما كانت تجمع بين الإصلاح الاجتماعي والقومية.

ربما كان ممكناً للطبقات الوسطى أن تجد ما كانت تبحث عنه عند الديموقراطيين الاجتماعيين، لكن، وفي ألمانيا فايمار، كان هناك خط ثابت يفصل الطبقات الوسطى عن الطبقات العاملة. من المحتمل أن الطبقات الوسطى كانت تريد الإصلاح والرفاهية الاجتماعية، لكن الثورة البلشفية في روسيا كانت بحد ذاتها إنذاراً مرعباً مما يمكن أن تؤدي إليه الاشتراكية، لذا لم يكن هناك أحد من الطبقة الوسطى ليرضى بأن يكون جزءاً من الطبقة العاملة. أي أن شخصاً مثل هذا ما كان لينتخب الديموقراطيين الاجتماعيين ولا الشيوعيين حتماً. وعلى أي حال، شعر معظم أبناء الطبقة الوسطى- كما هو الحال بالنسبة إلى شلايشر- أن الديموقراطيين الاجتماعين كانوا أبعد ما يمكن عن القومية. وهنا أيضاً تتبع ألمانيا النموذج الأوروبي. ففي عموم أوروبا، لم تبرز الفاشية إلا في الديموقراطيات المتطورة، حيث أصاب اليسار الاشتراكي من النجاح ما يكفي لإلقاء الرعب في الطبقات الوسطى. وإلى حد ما، كانت الفاشية ردة فعل دفاعية ضد اليسار من قِبَلِ أكثر الناس خشيةً منها.

أما في ما يخص خطوط الفصل الدينية، فقد كانت مرسومة بدقة متناهية. إذْ كان صعباً على البروتستانتي أن يصوت لمصلحة حزب الوسط

وشقيقه البافاري. فالبيت السياسي للبروتستانت ما كان ليوجد إلا في المعسكر الانتخابي البروتستانتي الذي كان يعني، ولفترة طويلة أوائل العشرينيات، القوميين الألمان الذين تحولوا عام 1924 إلى ثاني أكبر حزب. غير أن القوميين الألمان كانوا طبقيين ومقيدين بالنخب القديمة، ومرتبطين برجال الأعمال بشكل مفرط، جعلهم غير قادرين على الحفاظ على التأييد الشعبي لفترة طويلة. وفي أواخر العشرينيات - كما رأينا - تحولت الدائرة الانتخابية البروتستانتية إلى حركات الاحتجاج الريفية، والأحزاب الاقتصادية الصغيرة المتفرقة مثل حزب المشاريع الصغيرة الذي لم يكن بمقدوره أبداً أن يكسب تأييداً يكفي لإحداث تغيير حقيقي على المستوى الوطني.

لا شك أن النازيين الذين تنحدر معظم قياداتهم من خلفيات متواضعة، نجحوا في إعداد مواضيع لافتة في برنامجهم الاجتماعي وتحديداً من خلال التركيز على مسائل ذات اهتمام خاص. فلائحة النقاط الخمس والعشرين، على سبيل المثال، أولت اهتماماً واضحاً بالفلاحين وأصحاب المحال التجارية الصغيرة. لكن النازيين دائماً ما كانوا يغطون هذه المحاولات لاستمالة الناخبين بالحديث عن "مجتمع الشعب"؛ وهو المفهوم الذي استند على "رواية 1914"، وأصبح خاصيةً سياسيةً لهم. فقد وعد النازيون ببناء ألمانيا التي سيكون فيها مكان للجميع في ظل المساواة والازدهار، للجميع، ما لم يكونوا على الأقل يهوداً، أو ماركسيين غير تائبين.

علاوة على ذلك، فإن القومية النازية هي الخاصية التي تحتاج إلى نظرة أكثر تفحصاً. إذْ لم تكن العولمة كلمة مستخدمة بعد في العشرينيات أو الثلاثينيات، لكن الناس كانوا يعرفون جيداً حقيقتها كواقع قائم.

فقد كان النازيون، أكثر من أي شيء أخر، حركة احتجاج قومية ضد العولمة.

يقدم المقطع التالي الذي كتبه هتلر قراءة صادمة، تبدو كأنها قفزة من الماضي إلى يومنا هذا:

> "لن يكون في مصلحة الشعب الألماني أن تؤسس مجموعة مالية، أو شركة ألمانية، لبناء السفن ما يسمى فرعاً في شانغهاي، لبناء السفن للصين، يوظف عمالاً صينيين، ويستخدم فولاذاً أجنبياً". صحيحٌ أن الشركة الألمانية ستجني أرباحاً من هذا المشروع، لكن الشعب الألماني "سيُحرم عدة مرات من ذلك المبلغ من المال بسبب خسارة المبيعات". وكلما أمعنت هذه المصالح الرأسمالية في تشكيل السياسة والاقتصاد، ازدادت هذه الشركات الأجنبية انتشاراً، وخسر الألمان وظائفهم التي تُرسل إلى الخارج. "قد يوجد اليوم البعض ممن يبتسمون لهذه التطورات المستقبلية"، لكن "وخلال ثلاثين عاماً سيندم الناس على ما ستتركه من عواقب على أوروبا".

كتب هتلر هذه الكلمات عام 1928 في ملحق لم يُنشر لكتابه **كفاحي**. وفي هذه العبارات، قارب هتلر مسألة ذات أهمية مركزية لجمهورية فايمار.

إن التعبئة السياسية التي شهدتها أواخر العشرينات، تحديداً في أوساط المجموعات البروتستانتية التي ستشكل لاحقاً القاعدة الشعبية النازية، كانت تركِّز في غالبيتها على موقف ألمانيا الضعيف في الاقتصاد العالمي والنظام المالي. كان غضباً على الاتفاقيات التجارية التي حرضت على احتجاجات شعب الأرض، إذْ ساهمت تلك الاتفاقيات في خفض الرسوم على واردات الغذاء في فترة كانت أسعار الغذاء تشهد تراجعاً بسبب طرح كميات هائلة من كندا والولايات المتحدة والأرجنتين في الأسواق. غير أن نجاح هتلر في كسب التقدير والاحترام الاجتماعي كان نتيجة لمشاركته هوغنبيرغ في حملته ضد خطة يونغ. فكما هو معروف، طالب هوغنبيرغ

بتبني "قانون الحرية" الذي يُجرِّم كل مسؤول ألماني يشارك في جمع التعويضات وتحصيلها.

كانت ألمانيا فايمار، وبأشكال متعددة، ضحية قوى دولية، لم يكن بمقدور أي ألماني التحكم بها. كانت سطوة بريطانيا والولايات المتحدة، فضلاً عن ثروتيهما، هي التي ابتدعت نظاماً اقتصادياً عالمياً مبنياً على التجارة ومعيار احتياطي الذهب. هذه السطوة مع الثروة مكنتهما من الانتصار في الحرب العالمية الأولى، والاستمرار في رسم العالم الذي كان على ألمانيا أن تتعامل معه. ويصف بيرنهارد فون بيولوف -وزير الدولة للشؤون الخارجية في حكومة هاينريش برونِنغ- ذلك الوضع على الشكل التالي: "يسعى الأنغلو-ساكسون، بالتحالف مع فرنسا، لتنصيب أنفسهم سادة على "شعوب الأرض" الأقل مرتبة، ووضع ألمانيا تحت نير محراثهم".

وغالبا ما ركّز الألمان الساعين لفك الارتباط مع الاقتصاد العالمي، تحديداً، على رمزية معيار الذهب العالمي الذي أطلق عليه الناشط النازي غريغور شتراسر اسم "شيطان الذهب".

وبلغة مبسطة، نَصَّ معيار الذهب على عدم قيام البنك المركزي لأي دولة بإصدار عملته ما لم تكن مدعومة باحتياط كافٍ من الذهب، وعلى أن يكون مستعداً في أي وقت كان لمبادلة الذهب بالنقودٍ مقابل سعر ثابت. وفي كل الدول التي تبنت سياساتها المالية معيار الذهب -وفي الواقع كانت غالبية دول العالم قد طبقت ذلك مع فترة الحرب العالمية الأولى- كانت العلاقة بين الذهب والعملة النقدية مثبتة بالقانون. فعلى سبيل المثال، ومن أجل إصدار عملة تزيد على 15.5 مليون جنيه استرليني، كان يتعين على بنك انكلترا أن يضمن وجود ما يقابل تلك القيمة ذهباً في خزائنه.

في حين كان البنك الاحتياطي الأميركي يتبع نظاماً مختلفاً، يشترط أن تكون 40٪ من العملة مدعومة بما يعادل قيمتها ذهباً جاهزاً للاستخدام في اليد. وفي عام 1924، اتبع بنك الرايخ (البنك المركزي الألماني) النظام

الأميركي. ولأن علاقة العملة بالذهب كانت ثابتة، كانت قيمتها أيضاً ثابتة تجاه العملات الأخرى. وأدى هذا النظام إلى تسهيل حركة التجارة العالمية وجعلها بمنأى عن التقلبات المفاجئة، كما فرض سياسات مالية منضبطة على الحكومات التي لم يعد بمقدورها تغطية ديونها بتعويم عملتها. وفي حال فعلت ذلك، ستُعاقب بهروب احتياطي الذهب من بنوكها نتيجة لبيعها في الأسواق العالمية. وفي الحقيقة كان تطبيق معيار الذهب بمثابة علامة شرف وتقدير للحكومة، ومؤشراً على قبولها قواعد الاستقامة الاقتصادية، وقدرتها على اللعب في الساحات العالمية الكبرى.

وفي واقع الحال، كان الأمر يتعدى ذلك بكثير. فقد كان معيار الذهب وسيلة لفرض الديموقراطية الليبرالية والسلام على العالم: التحقق من محدودية الإنفاق الحكومي في المجال العسكري، وفي مجالات أخرى. وبعبارة أخرى، كان نظام الرأسمالية الليبرالية، في عالم ما بعد الحرب الكبرى المتجسد بمعيار الذهب، وسيلة لضمان عدم ظهور العسكرة العدوانية. وعلى الأغلب كان ذلك وسيلة لتقييد ألمانيا وجعلها بلا حول ولا قوة.

واتضحت وظيفة تقييد ألمانيا أكثر وأكثر مع ارتباط دفعها لتعويضات الحرب بشكل متزايد بتأثيرات العمل بمعيار الذهب. فمع حلول العام 1930، تضخمت شبكة من الترتيبات المالية الدولية حول نظام التعويضات، لتَحُدَّ، على نحو أكبر، من حرية ألمانيا في التصرف. وشملت هذه الترتيبات إنشاء منظمة عالمية جديدة: بنك التسويات الدولية في زيوريخ بسويسرا، إضافة إلى خطتي يونغ وداوس، والترتيبات الأخرى، والقروض ذات الصلة. ومن الواضح أن هذه التعويضات كانت تُقتطع من ميزانية هشة. فطبقاً لخطة داوس 1924، كان مقرراً أن ترتفع نسبة التعويضات التي تدفعها ألمانيا إلى 5٪ من الناتج الإجمالي المحلي في عام 1929. وحرصاً على تسديد التعويضات، والمحافظة على استقرارها المالي، اقترضت ألمانيا مبالغ ضخمة من جهات دولية تصل إلى 600 مليون دولار سنوياً بين عامي 1924 و1928 (ما يعادل

8.8 بليون دولار بحسب أسعار الصرف الحالية) خُصص نصفها لتسديد تعويضات الحرب.

وما جعل ألمانيا غير محَصَّنة أن ما يقارب ثلث هذه الأموال كانت على شكل قروض قصيرة الأجل يمكن وبسهولة طلب سدادها. وهذا ما حصل فعلاً. ومما، حدَّ على نحو أكبر، من قدرة ألمانيا على القيام بعمل ما، أنها لم تكن قادرة على تعديل قانون حاكمية بنك الرايخ (ومنها مثلاً -إلى جانب أشياء أخرى- إلزام ألمانيا تطبيق معيار الذهب) دون موافقة دولية. وفي خطاب ألقاه عام 1930 بلغ هانز لوثر رئيس بنك الرايخ في كلامه حداً وصف به أعباء الدين المترتب على بلاده، وما نتج عنها من اعتمادها على الدول الأجنبية بـ"الاحتلال الخفي". وبغض النظر عن الخطاب القومي الذي هّيمَنَ على نبرته، كان كل ما قاله صحيحاً.

لقد عانى ملايين الألمان من الغضب والإحباط الناجميْن عن عجز بلادهم في عالم لم يصنعوه؛ عالمٌ يعمل ضد مصلحتهم. وكان كل الألمان تقريباً يريدون مخرجاً من هذا "الاحتلال الخفي"، لكن بعض المعالجات كانت أكثر راديكالية من غيرها. ورأى المعتدلون هذه المهمة تتمثل في الضغط الدولي. وكان وزير الدولة للشؤون الخارجية بيرنهارد فون بيولوف يعتقد أن الرد المناسب كان في "تنوير الشعوب المعادية". من جانبه شدد برونغ - في صدىً خافت لشتريزيمان - على أن الطريق لتحقيق "الحرية الوطنية"، في ظل حكومته، "سيكون هو طريق السلام".

وتضمنت المعالجات الأكثر تطرفاً المطالبةَ بالاكتفاء الذاتي، بمعنى أن تعزل البلاد نفسها عن الاقتصاد العالمي، والاعتماد كلياً على الموارد الذاتية؛ فلا صادرات، ولا واردات، ولا استثمارات أجنبية، لكن ألمانيا لم تكن مهيأة لهذا النوع من السياسات. وفنّد رئيس بنك الرايخ هانز لوثر هذه النظرة المتشددة، موضحاً أنه لا يوجد طريقة أخرى غير بيع المنتجات الصناعية في الخارج، لتأمين الغذاء، لأن "ألمانيا غير قادرة على

أن تطعم نفسها من أرضها". وإذا كان هذا صحيحاً، عندئذ - كما قال لوثر- كان ينبغي أن تكون القيادة السياسية والاقتصادية لألمانيا موثوقة "وراء حدودها".

بيد أن هذا الاستنتاج كان يفترض أن الشعب الألماني يتقبل الاقتصاد العالمي كما كان. ماذا لو كان هذا الاستنتاج خاطئاً؟ فسواء كانوا مع الاكتفاء الذاتي أو ضده، كان واضحاً بالنسبة إلى جميع الألمان أن تطبيقه، كسياسة اقتصادية وطنية، يستوجب نمطاً مختلفاً جداً من السياسة.

في مطلع الثلاثينيات، جعل الصحفي اليميني المتطرف فيردناند فرِدْ، وهو الاسم المستعار لفريدريش تسيمرمان، الذي انتهى به المطاف في الحزب النازي وكتائب الحماية، جعل من قضية الاكتفاء الذاتي موضوعه الخاص. وكتب في هذا السياق، أن نجاح الاكتفاء الذاتي يستلزم تأميم الزراعة والصناعة والقطاع المالي، مما سيؤدي إلى نشوء الديكتاتورية. ولأن ألمانيا، في هذه الحالة، ستخسر أسواقها الخارجية، ينبغي عليها أن تستبدل بتلك الأسواق السيطرة على شرق وجنوب أوروبا، وتشكيل "اتحاد من الدول" مُنظَم بإحكام، يعتمد أيضاً على تأمين الموارد الأولية من الاتحاد السوفياتي. من جانبه، اتفق الاقتصادي الليبرالي إيميل ليديرر مع فرِدْ بخصوص العواقب السياسية للاكتفاء الذاتي الذي كان ليديرر يعارضه، وأوضح أن وَضْعَ الاكتفاء الذاتي في صلب برنامج اقتصادي كان يعني ترويجاً لإدامة الحرب.

كانت قضية الاكتفاء الذاتي مسألة مركزية بالنسبة إلى الحزب النازي، كما لاقت فكرة تحرير ألمانيا من الاعتماد على عالم معادٍ قبولاً كبيراً بين الناخبين. وفي هذا السياق، كتب رئيس إدارة الدعاية في الحزب، الماكر جوزيف غوبلز عام 1932 أن أمة لا تستطيع أن تسيطر على "فضاء وموارد وقوى طبيعية ضرورية لحياتها المادية" لا بد "أن تسقط في فخ الاتكال على دول أجنبية، وتخسر حريتها". وبحسب رأيه، أثبتت الحرب العالمية الأولى،

وطبيعة العالم ما بعد الحرب، ذلك بوضوح متسائلاً "هل نبني سوراً حول ألمانيا؟ قبل أن يجيب: "بالتأكيد، سنبني سوراً؛ سوراً واقياً".

من الخطابات السياسية التي لاقت أكبر صدى بين الألمان أوائل الثلاثينيات حول الموضوع نفسه كان خطاب غريغور شتراسر الخصم اللدود لغوبلز داخل الحزب النازي.

كان شتراسر قائداً نازياً، لم ينسجم على ما يبدو مع القالب النازي تماماً، لكنه بالتأكيد كان ضخماً حليق الرأس بصوت عميق مؤثر، ودائماً ما كان مستعداً للاختلاط مع خصومه السياسيين. لكنه، وفي الوقت ذاته، كان يخالط الفنانين والكُتّاب، ويهوى الاسترخاء بقراءة هوميروس وكتاب كلاسيكيين آخرين. كان شتراسر شخصاً حساساً، ودوداً، وكان القائد النازي الوحيد الذي تمتع باحترام شخصي واسع خارج دائرة مؤيدي الحزب. وصفه السفير البريطاني يوماً بـ "أجدر" زعيم نازي، في حين كان المراسل الصحفي الأميركي المتحفظ هوبرت رينفرو نيكربوكر يعتقد بأن شتراسر يمتلك المواصفات ليكون مستشاراً. أما المؤرخ العبوس أوزفالد شبينغلر، فقد قال إن شتراسر، إلى جانب رجل الأعمال هوغو شتينز، كان "أذكى شخص" قابله في حياته. حتى السياسي الديموقراطي الاجتماعي فيلهلم هوغنر وصفه بأنه أكثر القادة النازيين "موثوقية" و"جدارة".

وُلدَ شتراسر عام 1892 لأسرة بافارية من الطبقة الوسطى. كان يرغب في أن يصبح طبيباً، لكن موارد أسرته المالية لم تكن قادرة على تغطية تكاليف فترة تدريبه الطويلة، فتحول إلى دراسة الصيدلة. غير أن اندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914 حرمه من متابعة دراسته. التحق بسلاح المدفعية حيث خدم بامتياز طوال الحرب. وخلافاً لهتلر، لكن، وفي الوقت نفسه، حاله حال الجنود الذين خاضوا الحرب العالمية الأولى، رُقي بسرعة، حتى وصل إلى رتبة ملازم أوائل العام 1916. وعن تلك الفترة، كتب قائد سريته أن شتراسر "امتاز بطاقته وحيويته ونشاطه وتفانيه في

أداء الواجب". وأضاف: "لقد أصبح زميلاً مقرباً استمع طواعية لنصائحه، كما كانت طبيعته المرحة عوناً لنا في اللحظات الصعبة".

لكن شتراسر عاد من الحرب بجروح في جسده لم يشف منها، ويعجز عن الاستقرار في حياة مدنية زمن السلم. انضم إلى الكتائب الحرة، وبعدها التحق بصفوف الحزب النازي عام 1922.

وشكلت المقارنة بين آب/ أغسطس 1914 وتشرين الثاني/ نوفمبر 1918 آراءه السياسية. لقد غيَّرت الحرب كل شيء تماماً، ومن هنا جاء قوله: "أي محاولة لإعادة النظام القديم الهادئ في 31 تموز/ يوليو 1914 سيكون غباء من جهة، وإجراماً من جهة أخرى. وعلى أي حال سيكون بلا جدوى وعودة إلى الوراء". في آب/ أغسطس 1918 اندلعت ثورة جلبت معها - بحسب كلامه - "عالماً جديداً". ومن باب المقارنة، كانت ثورة تشرين الثاني/ نوفمبر 1918 مجرد "تمرد وُلِدَ من الجُبن والحرمان والعجز والخيانة" لم يستطع النازيون سوى كرهه، وكره مناصريه ودولتهم.

في الفترة ما بين عامي 1928 و1932 ترأس شتراسر فرع التنظيم في الحزب النازي، وغالباً ما كان لقدراته الفذة في المجال الإداري الفضل في نجاح الحزب الانتخابي. كذلك كان عضواً في كتلة الحزب النيابية، حيث ساهمت خطاباته -مثل الخطاب الذي ألقاه في 10 أيار/ مايو 1932- بتفسير السبب وراء احترامه، حتى من قبل خصومه السياسيين (مثل فيلهلم هوغنر).

وأصبح ذلك الخطاب، ولا يزال، مشهوراً بفضل سطر تحدث فيه شتراسر عن "التوق لمناهضة الرأسمالية" الذي "بات يسيطر اليوم، شعورياً أو لا شعورياً، على 95٪ من شعبنا". ومن وجهة نظر شتراسر، فإن هذه اللهفة لمعاداة الرأسمالية وصلت حد احتجاج الناس على اقتصاد متقهقر. وأشار إلى أن الجماهير طالبت الدولة "بالانفكاك عن شياطين الذهب، والاقتصاد العالمي، والمادية عند التفكير في إحصائيات الصادرات وخفض معدلات بنك الرايخ".

وجادل شتراسر أن النازيين يريدون إنقاذ الاقتصاد الريفي، ووقف تدفق سكان الريف إلى المدينة، وزيادة الناتج المحلي، "إلى جانب تحقيق منطقة اقتصادية مغلقة". وأوصل شتراسر رسالته مبطنة بتعابير معادية للسامية أقل فجاجةً مقارنة بالمعايير النازية، لكن وعلى الرغم من ذلك لا تخطئها الأذن. وفي نفس الخطاب، قال شتراسر إن زعماء القطاع المالي قلقون من "خطة الاكتفاء الذاتي القادمة" التي كانت تعني أن "القتل السهل على يد التمويل الدولي قد انتهى وولّى". واستخدم شتراسر كلمة "*Rebbach*" باللغة اليديشية[13]، ومعناها "يصنع مقتلةً" في سياق الربح. ولم يكن الأمر يحتاج إلى شك كبير لمعرفة هوية أولئك المولين من "قراءة أسمائهم"، أولئك الذين كان شتراسر يشير إليهم في عبارته.

وبعيداً عن التمويل الدولي، كانت ألمانيا معرضة لقوى خارجية أخرى معادية. فقد كان لألمانيا حدود جديدة طويلة متعرجة مع بولندا، إذ كانت هناك أراض ألمانية قبل الحرب العالمية الأولى (تشمل أجزاءً من سيليزيا وبروسيا الشرقية) أُعطيت إلى بولندا في إطار اتفاقية السلام. هذه الأراضي أحدثت غضباً كبيراً بين الألمان. ومن بينهم غوتفرايد تريفرانوس وزير المناطق المحتلة في حكومة برونغ الذي تحدث قائلاً: "كم نتذكر في أعماق نفوسنا الجروح المفتوحة في تخومنا الشرقية". ولم يكن ذلك مستغرباً، فقد كان أمراً شائعاً في ألمانيا الحديث عن "الحدود النازفة".

لم تكن المسألة محصورة فقط بأن غالبية الألمان كانوا يريدون استعادة المناطق وحسب، بل أن الحدود نفسها تحولت إلى مصدر تهديد. فعلى مدار وجودها، لم تمتلك جمهورية فايمار القدرة البشرية من الشرطة أو الجيش للسيطرة على هذه الحدود بشكل فعال. ومن هنا كانت هذه المسألة، في

---

13 اللغة البيدية أو اليديشية هي لغة يهود أوروبا بحسب ما جاء في الموسوعة العربية العالمية. نمت خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين من لغات عدة، منها الآرامية والألمانية والإيطالية والفرنسية والعبرية. يتحدثها ما يقارب ٣ ملايين شخص حول العالم، أغلبهم يهود شرقيون. (م)

جزء منها، قضية أمن قومي في وقت كان تعداد الجيش الألماني لا يتعدى مئة ألف جندي، وكانت بولندا تشكل مصدر تهديد، مما أثار مخاوف العديد من صناع السياسة الألمان. فعلى سبيل المثال، كتب بيرنهارد فون بيولوف عام 1930 أن "نظام الحدود الحالية مع بولندا يرتقي إلى مستوى تهديد متواصل في غاية الخطورة لبروسيا الشرقية". لكن الأمر كان يتصل أيضاً بالهجرة وضبط تدفق اللاجئين.

أدت نهاية الحرب الكبرى إلى أزمة لاجئين، لم يشهد لها العالم مثيلاً من قبل. فتحديداً في أوروبا الشرقية والإمبراطورية الروسية سابقاً، وفي الشرق الأوسط، اُقْتُلِعَ ما يقارب 9.5 مليون إنسان من منازلهم بسبب العنف أو المجاعة، ووجدوا أنفسهم على الجانب الخطأ من الحدود المرسومة حديثاً وقتذاك. وبسبب موقعها في قلب القارة الأوروبية، باتت ألمانيا مفترق طرق بالنسبة إلى اللاجئين. وما بين عامي 1918 و1922 شق مليون ونصف مليون لاجئ طريقهم إلى ألمانيا. أكثر من نصفهم كانوا ألماناً من الأراضي الألمانية سابقاً في فرنسا وبولندا. كما كان هناك مئات الآلاف من الروس الهاربين من الثورة البلشفية، إضافة إلى ما يقارب 80 ألف يهودي فروا من العنف المعادي للسامية في الشرق الأقصى. هذه الأزمة كانت أحد الأسباب التي دفعت الولايات المتحدة لتشديد الهجرة إليها خلال الفترة الواقعة ما بين 1921 و1924، لتترك هذه المشكلة محشورة في عنق الزجاجة الأوروبية.

لم تكن جمهورية فايمار استثناءً للقاعدة التي تقول إن عدم استقرار الحدود، وتعدد مناطقها، غالباً ما يثيران ردود فعل قومية متطرفة. وكان هناك عدد ملحوظ من القادة النازيين البارزين -ومن بينهم هتلر نفسه- جاؤوا من مناطق حدودية، وتحديداً من سيليزيا ومناطق ضُمت إلى بولندا، أو من الشتات الألماني، من الإمبراطورية النمساوية السابقة، ومنطقة البلطيق.

وكان هناك أيضاً سبب أخر يثير مخاوف الألمان من احتمال التعرض لبلادهم يتمثل في أن واحداً من الأحزاب السياسية الكبرى كان يتلقى أوامره من قوة أجنبية. فقد كانت ألمانيا تضم أكثر الأحزاب الشيوعية نجاحاً خارج الاتحاد السوفياتي. وفوق ذلك كله، كان الشيوعيون حزب العاطلين من العمل الذين تضخمت أعدادهم منذ منتصف العشرينات، أولاً بسبب مكننة العمل وثانياً بسبب الركود الاقتصادي. وفي تلك الأيام، كانت جميع الأحزاب الشيوعية في العالم تتبع بشكل خانع توجيهات موسكو، الأمر الذي كان يعني أن الشيوعيين في كل مكان أصبحوا عملياً أدوات لسياسة ستالين الخارجية. وفي عام 1928، كان ستالين قلقاً من تطور العلاقات الفرنسية الألمانية التي من شأنها أن تعزله، فظنّ أن إضعاف الديموقراطيين الاجتماعيين سيباعد بين فرنسا وألمانيا. وكانت النتيجة أن اللجنة الشيوعية الدولية صنفت الديموقراطيين الاجتماعيين على أنهم "فاشيون اجتماعيون" يجب على الشيوعيين محاربتهم كما حاربوا النازيين. ولأن الحزب الشيوعي كان ضخم العدد (360 ألف عضو مع نهاية العام 1932، مع ارتفاع نسبة التصويت في كل جولة انتخابية)، كان بمقدور أدوات ستالين إحباط كل الجهود الرامية لتشكيل يسار موحَد بإمكانه منع النازيين من الوصول إلى السلطة. وهذا ما فعلوه على أرض الواقع.

على المقلب الأخر، كانت الأيديولوجية النازية رداً على كل جانب من جوانب الضعف في ألمانيا أمام العالم. وقد أفصح النازيون عن بعض هذه الأيديولوجية، وساهم ذلك في شعبيتهم، في حين اكتفوا بالتلميح إلى البعض الأخر، دون أن يشرحوا النتائج الكاملة المترتبة على ما كانوا يخططون للقيام به.

كان النازيون واضحين في ما يتعلق بالانسحاب من الاقتصاد العالمي، ومن الاتفاقيات التجارية، ومن جميع الترتيبات المالية ذات الصلة بتطبيق معيار الذهب. ومنذ إطلاق خطة النقاط الخمس والعشرين، كان الموقف النازي

واضحاً بأن المواطنين غير الألمان -بمن فيهم اللاجئون- لا يمكنهم الاعتماد على بقائهم في ألمانيا بعد تولي النازيين السلطة، أو امتلاك أي حقوق سياسية أو مدنية. وحتى قبل العام 1932، كان النازيون ينشرون سراً قوات تابعة لهم للدفاع عن الحدود الشرقية. كما لم يترك النازيون مجالاً للشك بأنهم سيحظرون الحزب الشيوعي ويعتقلون جميع الناشطين الشيوعيين، أو يفعلون ما هو أسوأ من ذلك.

منذ مطلع العشرينات، تحدث هتلر عن حاجة ألمانيا لتأمين "فضاء حي" في الشرق. وكان العديد من الأشخاص، مثل الصحفي فرديناند فرِدْ، قد أدركوا أنه من الضروري لألمانيا، إذا ما أرادت إنجاح خطة الاكتفاء الذاتي، أن تزيد من مساحة الأراضي التي تسيطر عليها. ووافق هتلر على ذلك بشكل كامل، اعتقاداً منه أن الأمن الألماني مُهدَدٌ من "تقلبات السوق"، وأن الاتفاقيات التجارية لم تقدم ضماناتٍ لتنفيذها فعلياً. وفي هذا السياق، ما قاله هتلر في الحقيقة يعني أن الدول التي اعتمدت على التجارة الخارجية كانت دولاً ضعيفة عسكرياً. وبالفعل، كان يتعين على ألمانيا أن تنقل تجارتها عبر مسارات بحرية تهيمن عليها بريطانيا.

ويضيف هتلر: "إن الحل الوحيد، الذي قد يبدو حالماً بالنسبة إلينا، يكمن يتمثل بالحصول على فضاء حي. وهذا "الفضاء الحي" كان يوجد حصراً في أوروبا، وفي اتجاه واحد: إلى الشرق صوب الاتحاد السوفياتي وتربة أوكرانيا السوداء.

وفي هذا الخطاب الذي ألقاه قبل وصوله إلى السلطة، ترك هتلر عواقب هذه الفكرة غير واضحة المعالم. وعلى عكس فرِدْ، لم يكن هتلر يفكر في إقامة اتحاد فيدرالي من دول شرق ووسط أوروبا تحت الهيمنة الألمانية، بل كان برنامجه موجهاً أساساً لجعل ألمانيا مكتفية ذاتياً من الناحية الاقتصادية من خلال غزو الاتحاد السوفياتي. لذلك كان لابد من حرب كبرى، كما كان لابد للألمان أن يكونوا قد استخلصوا الدروس من الحرب

السابقة. وكان إيريك لودندورف رئيس الأركان السابق للرئيس هيندنبورغ هو من فصَّل وأوضح هذه الدروس في سلسلة من المقالات والكتب بين عامي 1919 و1935. ومن هذه الدروس، إنه سيكون لزاماً على ألمانيا تعبئة واستنفار شعبها بفعالية أكبر من أي وقت مضى لخوض معركة شاملة، وتأمين قدر أكبر من المجهود الحربي والصناعي. وعدم السماح بانهيار المعنويات أو حدوث تمرد من اليسار- وهذه الأخيرة كانت نقطة مركزية بالنسبة إلى هتلر ولودندورف- أو خيانة من يهود الداخل. ولهذا كان استعمال الحكومة للقبضة الفولاذية ضرورياً للقيام بحرب كبرى، كما كان ضرورياً أيضاً تقوية أفراد المجتمع بدنياً؛ فالحرب لا يمكن أن تُخاض على يد معوقين عقلياً، أو بدنياً، أكثر مما تخاض على يد سياسيين منشقين. وسيكون من الواجب تقوية الدعاية الألمانية في الداخل والخارج. وبالفعل، طبَّق هتلر وصفة لودندورف بحذافيرها.

وعلى الرغم من أن النازية كانت ثورة مناهضة للعولمة، فقد كانت أيضاً، للمفارقة، جزءاً من ثورة عالمية إذْ تأثر هتلر والنازيون بما يحيط بهم من مختلف أنحاء العالم.

وكما يُزعم، جاءت أقوى تلك التأثيرات من تركيا. فهناك كان مصطفى كمال، القائد العسكري الذي صنع شهرته بهزيمة الفرنسيين والبريطانيين في معركة غاليبولي، ومن ثم كمال أتاتورك أول رئيس لتركيا التي أعيد تأسيسها من جديد بعد الحرب، والذي كان شخصية معبودة في ألمانيا العشرينيات والثلاثينيات، حتى إن هتلر وصفه يوماً بـ "النجم اللامع". وفي أثناء محاكمة انقلاب البيرة عام 1924، امتدح هتلر أتاتورك، لأنه قام بأعظم ثورة حديثة، فيما كانت ثورة موسوليني ثاني أعظم ثورة بالنسبة إليه. وفي فترة لاحقة من عام 1938، وبتواضع شديد، قال هتلر إن أتاتورك كان معلماً عظيماً، وكان موسوليني تلميذه الأول. أما الثاني فكان هتلر نفسه.

كذلك كان النازيون معجبين بنجاح أتاتورك بإلغاء معاهدة سيفريس التي فرضها الحلفاء على تركيا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى. وما أسماها الأتراك يومها حرب الاستقلال، أدت إلى معاهدة جديدة أفضل، وهي اتفاقية لوزان، وتأسيس الجمهورية التركية الحديثة التي ترأسها أتاتورك. وليس من الصعب أن يلحظ المرء أوجه الشبه التي رآها النازيون مع حالتهم، وتحديداً أن أتاتورك اعتبر الموقعين على اتفاقية سيفريس خونة، وجردهم من حقوق المواطنة.

كذلك عَلِمَ وأيَّدَ النازيون مجزرة الأرمن عام 1915 التي قتلت فيها الحكومة العثمانية بين 750 ألف و1.5 مليون أرمني. كما أيدوا طرد اليونانيين من تركيا، استناداً إلى بنود اتفاقية لوزان. واعتقد النازيون أن هذه الأمثلة من التطهير الإثني كانت خطوات ضرورية على طريق قيام تركيا القوية والناجحة التي أُعجبوا بها.

وجاء تأثير أخر من روسيا في لحظة حاسمة ومبكرة في الفترة ما بين عام 1920 و1923. فقد تعرف هتلر حينذاك على عدد من الروس البيض المهاجرين في ميونيخ وعمل عن قرب مع مجموعة تُدعى أوفباو "إعادة البناء"، وهي مجموعة معادية للسامية تضم بشكل كبير مهاجرين روساً وبضعة نازيين، وتسعى لقلب نظام الحكم في جمهورية فايمار والاتحاد السوفياتي. وكان من بين هؤلاء المهاجرين ألمان من دول البلطيق المستقلة حديثاً في ذلك الحين. أما الآخرون فكانوا روساً ومن بينهم الملازم بيوتر شابيلسكي-بورك الذي أحضر معه **بروتوكولات حكماء صهيون** التي ألهمت في العشرينيات العديد من الناشطين من هتلر إلى هنري فورد. وتواصل هؤلاء المهاجرين مع هتلر عندما كان عداؤه للسامية في طور التكوين، وأقنعوه، على الأرجح، بحجم المؤامرة اليهودية العالمية التي كانوا يتخيلونها، وبأن الاتحاد السوفياتي كان "ديكتاتورية يهودية" ونتاج هذه المؤامرة.

ولم يخُل الأمر من تأثير روسي على الشاب جوزيف غوبلز الذي كتب عام

1923 أنـه كان يَكـنُ "احتراماً عميقـاً" لـ "روسـيا المقدسـة". وكان هـذا يتصـل بقراءتـه لدوستويفيسـكي، كما سـبق لـه أن وصـف نفسـه بـ "الألمانـي الشـيوعي".

وخـلال مسـيرته السياسـية، كان هتلـر معجبـاً جـداً ببينيتـو موسـوليني ونظامـه الفاشـي الـذي أسسـه في إيطاليـا عـام 1922. وبـدأ هتلـر يحاكـي أسـلوب موسـوليني، وعلـى الأخـص الجماعـة الـتي كانـت تحيـط بـه، إذْ راح أتباعـه يتبعـون نفـس التقليـد عندمـا بـدأوا بالاحتفـاء بـه بوصفـه "الفوهـرر"، أي "الزعيـم أو القائـد" في ترجمـة للقـب موسـوليني "دوتشـي". كمـا قلـد النـازيـون قمصـان الفاشـيين الإيطاليـين، والتحيـة بالـذراع اليمنـى المشـدودة. وذكـر غيوسـيبي رينيزيتي -صديـق موسـوليني ووكيلـه في ألمانيـا عـام 1922- أن هتلـر كان "يُقَـدِّسُ" موسـوليني، وكان تواقـاً لمقابلتـه. وقـد يُعـزى هـذا، علـى الأرجـح، لإعجـاب هتلـر بنجـاح الديكتاتـور أكثـر ممـا هـو بسـبب الرابـط الأيديولوجـي بينهمـا.

كانـت هنـاك اتصـالات واسـعة بـين الفاشـيين الإيطاليـين والنازيـين قبـل العـام 1933، وكانـت في معظمهـا تجـري عـبر رينيزيـتي وهـو ضابـط سـابق في الجيـش شـديد الحمـاس، متـزوج مـن ألمانيـة يهوديـة سـرعان مـا تعرفـت إلى جميـع أفـراد المجتمـع السياسـي في برلـين. ولم يكـن مفاجئـاً أن رينيزيـتي كان يفضـل الجنـاح اليمينـي تحديـداً. فقـد أنشـأ علاقـات مـع شـلايشـر وهوغنبـيرغ وغالبيـة القـادة النازيـين بمـن فيهـم هتلـر، وغوبلـز، وغورينـغ. مـن جانبـه، كان موسـوليني يريـد حكومـة مـن اليمـين الموحـد في ألمانيـا، لاعتقـاده أن جهـود حكومـة كهـذه للخـروج مـن اتفاقيـة فرسـاي ستُشـغل فرنسـا بشـكل دائـم يتيـح المجـال أمـام التوسـع الإيطـالي. ووضـع رينيزيـتي تحقيـق هـذا الهـدف في صلـب مهمتـه وعمـل بـلا كلـل وراء الكواليـس لجمـع مختلـف شـرائح اليمـين السياسـي الألمانـي.

وفي نهايـة المطـاف، بـات رينيزيـتي مقتنعـاً بـأن هتلـر وحـده قـادر علـى أن يتزعـم يمينـاً موحـداً، وفي تشـرين الثانـي/ نوفمـبر 1931 أقنـع موسـوليني

بضـرورة أن يمـد الفاشـيون الطليـان يـد العـون لهتلـر للوصـول إلى السـلطة. بعـد ذلـك، تغير دور رينيزيـتي إلى الضغـط، في محاولـة لإقنـاع المجموعـات اليمينيـة الأخـرى، مثـل القوميـين الألمـان والخـوذة الفولاذيـة، شـرط التزامهـم القواعـد والمعايير المطلوبـة. حتـى هتلـر نفسـه رأى في رينيزيـتي صديقـاً، كمـا كتـب غوبلـز لاحقـاً أن رينيزيـتي سـاهم كثيراً في صعـود النازيـين إلى السـلطة، بحيـث "يمكـن اعتبـاره نازيـاً قديمـاً".

كان هتلـر يعتقـد مـن البدايـة بإمكانيـة اعتبـار إيطاليـا حليفـاً لـه في سـعيه لتحقيـق الفضـاء الحـي حتـى إنـه كان مسـتعداً لأن يدفـع ثمنـاً سياسـياً باهظـاً مقابـل الحصـول علـى دعـم موسـوليني. ولم يكـن ذلـك الثمـن غـير منطقـة تايـرول الجنوبيـة الـتي كانـت سـابقاً جـزءاً مـن النمسـا، وتم التنـازل عنهـا لإيطاليـا عـام 1918، علمـاً أن غالبيـة سـكانها كانـوا -ولا يزالـون- يتكلمـون الألمانيـة. وبمـا أن القوميـين الألمـان كانـوا يأملـون يومـاً بإعـادة الوحـدة مـع النمسـا، فـكان هـذا يعـني أنهـم كانـوا يعتـبرون تايـرول الجنوبيـة أرضـاً ألمانيـة أيضـاً. لكـن هتلـر، السـاعي إلى اسـتمالة موسـوليني، كان مسـتعداً لأن يتخلـى عـن هـذه المنطقـة لإيطاليـا، مـع أنـه كان يعلـم أن القوميـين مـن مختلـف الفئـات (وعلـى الأخـص وبطريقـة انتهازيـة الديموقراطيـين الاجتماعيـين) كانـوا سيسـتغلون ذلـك سياسـياً كخيانـة للمصـالح الألمانيـة مـن أجـل قـوة أجنبيـة.

وخـلال الحملـة الانتخابيـة عـام 1928، نشـرت صحـف الديموقراطيـين الاجتماعيـين والقوميـين، علـى حـد سـواء، أخبـاراً حـول تلقـي هتلـر تمويـلاً مـن موسـولييني لدعـم حملتـه الانتخابيـة، مقابـل التنـازل عـن مطالبـة ألمانيـا بسـيادتها علـى تايـرول الجنوبيـة. ورد هتلـر علـى هـذه الأنبـاء برفـع دعـوى قضائيـة بجـرم القـدح والافـتراء، وعـُرضت القضيـة أمـام القضـاء في أيـار/ مايـو 1929 .لكـن القضيـة بقيـت عالقـة أمـام المحكمـة بـين اسـتئناف وتأجيـل حتـى العـام 1932. وللمـرة الثانيـة، يتعاطـف القضـاة مـع هتلـر ويقللـون مـن شـأن الدليـل المقـدم ضـده، ويصـدرون حكمـاً لمصلحتـه. لكـن ذلـك الدليـل

كان خطيراً، ومن الواضح أنه شكّل، بالنسبة إليه، مصدر قلق وغضب. وخلال المحاكمة الأولى، نقلت جريدة برلينية أنه، وعند ظهور الدليل على تآمره مع موسوليني، "لم يعرف هتلر كيف يرد سوى أن يشتكي بغضب عارم من عصابة صحافة يهودية توحدت في ما بينها في مؤامرة دولية". وفي أثناء إعادة المحكمة، أفاد أحد الشهود، ويُدّعى فيرنر آبل، أنه عمل، قبل انقلاب البيرة، كوسيط بين هتلر وضابط في السفارة الإيطالية يدعى الكابتن ميغليوراتي قال آبيل إنه عرض على هتلر المال مقابل تخليه عن المطالبة بتايرول الجنوبية، وإن هتلر وافق على العرض.

غير أن ميغليوراتي نفى لاحقاً عرضه المال على هتلر، كما أن آبل نفسه كان شخصاً مشبوهاً، إذ كان ناشطاً يمينياً متطرفاً انقلب إلى اليسار، فضلاً عن أحكام قضائية صدرت سابقاً بحقه بتهمة سوء الأمانة. وفي عام 1932، أدانت محكمة متعاطفة مع النازيين آبل بجرم الحنث باليمين. لكن هذا لا يلغي أن هتلر كان قد التقى الإيطاليين عام 1923، وأجرى مقابلة مع صحيفة **كوريير دي إيتاليانو** تخلى فيها عن المطالبة بتايرول الجنوبية. ونُشرت هذه المقابلة في 16 تشرين الأول/ أكتوبر 1923، أي بعد يوم واحد من قيام هتلر بعقد صفقة مع ميغليوراتي، كما ادعى آبل.

وتطابَق التأييد للنازيين في ألمانيا مع النماذج التي انتشرت عبر أوروبا في فترة ما بين الحربين. فنجاح الأحزاب الفاشية في كسب التأييد الشعبي، حتى لو لم تصل إلى السلطة، يرسم خارطتين مختلفتين لأوروبا ما بعد الحرب: خارطة الدول المهزومة في الحرب، وخارطة الدول المهددة بثورة شيوعية. فهنغاريا، على سبيل المثال، كانت من بين الخاسرين في الحرب، وشهدت عام 1919 ثورة شيوعية، ونظاماً شيوعياً لم يعمر طويلاً. بعد ذلك وقعت تحت حكم الأدميرال ميكلوس هورثي الديكتاتور العسكري. هورثي نفسه لم يكن فاشياً، لكن حركة الصليب السهم الفاشية نالت تأييداً جماهيرياً واسعاً، وخَلَفَ زعيمُها فارانتس سالوشي الأدميرال هورثي

في الحكم. كانت إيطاليا من المنتصرين في الحرب، لكن الإيطاليين شعروا بأنهم تعرضوا للخديعة والاستغلال على يد الحلفاء في ما يتعلق بمكاسب الحرب، وتحدث الكثيرون منهم عن انتصار بلادهم "المنقوص". كما كانت إيطاليا موطناً لحركة شيوعية قوية. أما ألمانيا، فقد توزعت على كلتا الخارطتين، بهزيمتها في الحرب العالمية الأولى، وبوجود حزب شيوعي قوي، وبحدوث الانتفاضات الشيوعية المتكررة ما بعد الحرب.

لذلك لم تكن النازية رد فعل وحشياً لبلد معين بحد ذاته على العولمة، بقدر ما كانت رد فعل دولي تَشَكَّلَ، وبقوة، من تأثيرات عالمية. ودرج المؤرخون على الاعتقاد بأن النازية كانت تعبيراً عن عيب ألماني فريد من نوعه، يمكن رده إلى مارتن لوثر أو إلى حرب الثلاثين عاماً. إلا أن حركة هتلر كانت رداً على أزمة العشرينيات والثلاثينيات التي طالت بتأثيرها معظم دول العالم. لهذا لم يكن القوميون الاشتراكيون، على الرغم من قوميتهم البارزة، ألماناً خالصين.

بعد انتخابات 1930، حدثت نقطة التحول في مسيرة هاينريش برونغ كمستشار في آذار/ مارس 1931.

كان لدى برونغ أستراتيجية واضحة لمواجهة الركود الاقتصادي. فقد تجاوز الرايخستاغ المعطل، معتمداً على أوامر تنفيذية موقعة من الرئيس هيندنبورغ، وزاد الضرائب، وحدّ من الإنفاق الحكومي على تعويضات البطالة والأجور. هذه السياسة الساعية إلى الحد من التضخم -كما يسميها الاقتصاديون- كانت تُعتبر في ذلك الحين تشدداً اقتصادياً، إذْ كان يُعتقد بأنه لو كان هناك توازن بين الدخل والإنفاق، لتعافى الاقتصاد بمفرده.

غير أن برونغ كان يرى استحالة تعافي الوضع المالي لألمانيا فعلياً، ما لم يتم رفع عبء تعويضات الحرب، وكان يأمل عام 1930 بالضغط على الفرنسيين والبريطانيين للحصول على تنازلات بشأن مدفوعات

التعويضات، بزيادة الفائض التجاري، لظنه أن ذلك سيساعد على رفع معدلات التوظيف في قطاع التصدير. ووصلت ألمانيا، في واقع الحال، إلى فائض تجاري كبير مع فرنسا وبريطانيا بسبب الرسوم المرتفعة التي أدت إلى ركود الواردات وحسب. ولم تعانِ ألمانيا من أعلى معدلات البطالة في أوروبا وحسب، بل من سوء التغذية أيضاً، بسبب الأسعار التي وضعت كلفة اللحوم وإنتاجها بعيداً عن قدرة الأُسر غير الميسورة.

وفي كانون الأول/ديسمبر 1930، التقى برونغ السفير الأميركي فريدريك م.ساكيت، وناشده تدخل الولايات المتحدة في مسألة تعويضات الحرب. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة -كما قال برونغ- لمنع حدوث أزمة سياسية واقتصادية أشد وأطول زمناً. عندما نقل السفير ساكيت رسالة برونغ، تأثر الرئيس الأميركي هربرت هوفر بما يكفي للطلب من مساعد وزير الخارجية جوزيف كوتن السفر إلى أوروبا لبحث المسألة، لكن كوتن وافته المنية في نفس اليوم الذي كان من المفترض فيه أن يغادر الولايات المتحدة.

وبغض النظر عن مؤشرات ضعيفة على تحسن الاقتصاد مطلع العام 1931، بقيت الميزانية الحكومية حبيسة أزمة حادة. فقد وقف العجز خلال الربع الأول من العام عند معدل 430 مليون مارك رايخ (أي ما يوازي 100 مليون دولار أميركي بحسب معدلات صرف العملات عام 1931، أو ما يساوي 1.5 بليون دولار حالياً). وعملت الحكومة على سد العجز بالحصول على قروض قصيرة الأجل، بعد أن أخفقت في تأمين قروض طويلة الأجل. وفي هذا الإطار، أعرب أحد المصارف التي تفاوضت معها الحكومة للاقتراض عن مخاوفه من تعرض جميع الدائنين الباقين لمخاطر كبيرة، في حال أخلَّت ألمانيا بتسديد تعويضات الحرب. كذلك كانت المحنة الاقتصادية تُفاقِم من سوء حالة التوتر السياسي الداخلي. ففي اجتماع للحكومة في آذار/ مارس 1931، حذر وزير الداخلية جوزيف

فيرت من ازدياد العنف السياسي في البلاد، وأنه لا يضمن استتباب الأمن والنظام لفترة طويلة.

من هذه الصورة الكالحة، شَعَّ أمل كبير عندما أعلنت الحكومة الفرنسية في شباط/ فبراير 1931 عن مشاركتها في تقديم قرض كبير لألمانيا. وجاء هذا التحول الدراماتيكي في السياسة، نزولاً عند مناشدة أرستيد بريان الذي لا يكل ولا يمل، ليكون ذلك آخر قسط يؤديه في حملته الساعية إلى تحقيق المصالحة الألمانية الفرنسية.

كان يمكن لجهود بريان أن تكون نقطة تحول في الاقتصاد والفرص السياسية الألمانية، لكن كان هناك مسائل استراتيجية تعمل وراء عرض بريان ورد برونتغ عليه. كان بريان، كالعادة، يبحث عن طريقة لاحتواء الخطر الألماني المحتمل على فرنسا، ولإنشاء أوروبا أقوى اقتصادياً قادرة على منافسة الولايات المتحدة. بالمقابل، أجبرت استراتيجية برونتغ الأوسع على تجنب سياسات من شأنها أن تجعل الركود الاقتصادي أكثر قبولاً، بالنسبة إلى المواطن الألماني العادي.

وكانت مباحثات القرض الفرنسي قد بدأت في تموز/ يوليو السابق مع الانسحاب الفرنسي من منطقة الراين، وزيادة حدة المشاعر القومية في ألمانيا. على أي حال، كانت الخطة الفرنسية واضحة. وبينما كانت المباحثات تمضي قُدماً، قال رئيس الوزراء الفرنسي أندريه تارديو إن القرض الطويل الأجل سيكون مشروطاً بوعود ألمانيا باحترام حدودها الشرقية والحد من التسلح. وفي هذا السياق، طلب الفرنسيون من الألمان الامتناع عن بناء سفينتين حربيتين كانتا تُعرفان في حينه بالسفينة الحربية بي وشقيقتها سي، ثم أُطلق عليهما لاحقاً اسم الأدميرال شير، والأدميرال غراف شبي على التوالي. كذلك طلب الفرنسيون من الحكومة الألمانية استخدام الشدة مع مظاهرات اليمين المتطرف إضافة إلى الالتزام تسديد تعويضات الحرب، كما وردت في خطة يونغ.

ويشير هذا كله، وبشكل مباشر وواضح، إلى مشاكل برونتغ مع القرض الفرنسي. إذ لم يكن هدف المستشار الألماني تخفيض أو تأجيل دفع التعويضات، بل إلغاءها كلياً. فقد منحه الركود الاقتصادي فرصة لطرح مسالة عدم قدرة ألمانيا على الاستمرار في خطة يونغ. وفي حال أجبر الحلفاء ألمانيا على القيام بذلك، فستكون النتيجة فوضى مالية وسياسية، ستترك عواقب خطيرة لا يمكن التنبؤ بها على بلدانهم أيضاً. لهذا السبب كان برونتغ يسابق الزمن: ماذا لو تحسنت الأحوال السيئة وخسر حجته؟؟. كان يرى أن القرض الفرنسي قد يضعه في هذا الموقف طالما أن هناك فرصة حقيقية لنمو الاقتصاد الألماني، وعليه لا بد من تجنب القرض، ولكن كيف؟

كان برونتغ شخصاً في غاية الذكاء وكان حله للمشكلة فعالاً دون أن يؤذيه سياسياً؛ ولاسيما فيما يخص علاقته مع هيندنبورغ وشلايشر. وفي اجتماع لحكومته في 21 آذار/ مارس 1930، أُعلن خططاً لاتحاد جمركي مع النمسا، وهي خطوة تصل إلى حد انتهاك بنود اتفاقيتي فرساي وسان جيرمان اللتين تحظران أي شكل من أشكال الاتحاد بين البلدين. ورأت بريطانيا، وعلى الأخص فرنسا، في هذه الخطوة تجديداً للتوسع الألماني، ليس تجاه النمسا وحسب، بل تجاه الجنوب الشرقي الأوروبي. وفي الحقيقة، لم تكن هذه الفكرة من نتاج برونتغ، وإنما وزارة الخارجية التي كانت تميل أكثر نحو اليمين السياسي في عهد خليفة شتريزيمان يوليوس كورتيوس، ووزير الدولة للشؤون الخارجية بيرنهارد بيولوف. وكان البطل الحقيقي المُعلن لهذه الفكرة هو كورتيوس، في حين وقف برونتغ في الظل.

وتعالت الصرخات في فرنسا، لتلفظ فكرة القرض أنفاسها الأخيرة في نهاية شهر آذار/ مارس. في ذلك الحين، كان بريان في وسط حملته كمرشح للانتخابات الرئاسية، وقضى الاستياء من فكرة الاتحاد الجمركي بين

ألمانيا وفرنسا على فرصته للفوز. وبالفعل، تلقى هزيمة منكرة في 31 أيار/ مايو أمام مرشح اليمين بول دومير.

بالعودة إلى برونغ، كان هذا الأخير أذكى من أن يغفل عن أن الاتحاد الجمركي مع النمسا سيضر العلاقات الألمانية الفرنسية، ويتسبب بانهيار القرض الفرنسي، لكن كان لا مناص من حدوث ذلك للوصول إلى ما يريده. فقد كان صعباً عليه من الناحية السياسية رفض القرض، لكن فكرة الاتحاد الجمركي مع النمسا أكسبته نقاطاً لمصلحته عند القوميين، دون أن تُلّحِق الضرر باستراتيجيته لاستغلال الركود الاقتصادي ذريعةً للخروج من تعويضات الحرب. لذلك أبقى نفسه على مسافة من فكرة الاتحاد الجمركي، كي لا تتأذى علاقته مع الفرنسيين والبريطانيين لدرجة لا يمكن إصلاحها.

هناك شيئان واضحان في هذه المرحلة؛ أولاً أنها أثبتت مجدداً أن جميع الترتيبات المالية في أوروبا ما بين الحربين كانت تتصل في حقيقة الواقع بالأمن، وتحديداً بإبقاء ألمانيا تحت السيطرة. فطالما بقيت ألمانيا مقيدة بالتعويضات ومعيار الذهب، لن يكون بمقدورها تهديد جيرانها. والأمر سيكون مختلفاً لو كانت حرة من كل هذه العقبات. ثانياً، كان برونغ قادراً على لعب دور الفارس في قضية الركود الاقتصادي، طالما أنه كان مستشاراً رئاسياً مسؤولاً أمام الرئيس حصراً. فقد كان من الصعوبة بمكان لرئيس برلماني مسؤول أمام الرايخستاغ أن يرفض مساعدة اقتصادية تنقذ الحياة. وهذا تحديداً ما كان يريده شلايشر ودائرته أن يفعله مستشار رئاسي. مرة أخرى، وكما رأى شتريزيمان بوضوح، حيكت السياستان الداخلية والداخلية لجمهورية فايمار بشكل متلازم لا يمكن الفصل بينهما.

وفي 6 حزيران/ يونيو، ضاعف برونغ من المشكلات الاقتصادية لألمانيا. فقد اضطر لتقديم أمر تنفيذي أخر يدعو لمزيد من التقشف، وحاول أن يجعل الدواء مستساغاً من الناحية السياسية باللجوء إلى لغة

نارية قال فيها إن الشعب الألماني قد وصل "إلى حدود الفاقة والحرمان التي يمكن أن تُفرض عليهم بسبب "إتاوة التعويضات". وتلقى المجتمع الدولي هذه التصريحات على أنها تهديد بالتوقف عن دفع التعويضات من طرف واحد.

وكان هناك أساساً شائعات تدور حول هذه الخطوة، مما أدى إلى حالة عصبية في الأسواق المالية تسببت بدورها بهروب احتياطات الذهب مرة أخرى من ألمانيا. وكان الخوف الكبير من تملص ألمانيا من الديون الدولية الخاصة والتعويضات معاً إثر بيان رسمي نفى ذلك كلياً، إلا أن أحداً لم يكن ليصدق مثل هذا البيان في الثلاثينيات، كما لا يمكن تصديقه اليوم.

وفي نفس اليوم كان برونتغ في بريطانيا للقاء رئيس وزرائها رامزي ماكدونالد ومسؤولين آخرين في تشيكرز؛ المقر الريفي الرسمي لرئيس الحكومة. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يلتقي فيها مستشار ألماني رئيس حكومة بريطاني منذ الحرب. وعلى الرغم من أن البريطانيين كانوا مستائين جداً من اللغة التي يستخدمها برونتغ بشأن مسألة التعويضات، إلا أن هذا الأخير نجح في نهاية الأمر في أن يترك انطباعاً جيداً. وناقش برونتغ ضرورة أن يقوم الحلفاء بإعفاء ألمانيا من تعويضات الحرب، قبل أن ينهار الاقتصاد العالمي، وتقع ألمانيا تحت حكم النازيين، أو الشيوعيين، وعرض على مستمعيه سيلاً من الأرقام التي تُظْهر أن الحكومة الألمانية فعلت ما بوسعها من زيادة ضرائب وخفض الإنفاق. وتعاطف ماكدونالد مع الموقف الألماني، وكذلك حاكم بنك انكلترا مونتاغ نورمان الذي أبلغ ماكدونالد أنه، وبعد أن كان برونتغ واضحاً وصريحاً، لا يمكن لأحد أن يلوم الألمان إذا ما رفضوا من جانبهم الاستمرار بدفع التعويضات.

نجح برونتغ في زيارته إلى تشيكرز بجعل ماكدونالد عامل ضغط نيابة عن ألمانيا، فوجَّه رئيس الوزراء البريطاني رسالة إلى الرئيس الأميركي هوفر، يعرض فيها الحجج التي قدمها المستشار الألماني. وكان الأميركيون

على دراية جيدة بالمخاطر السياسية والاقتصادية. ووعد وزير الخارجية الأميركي هنري ستِمْسِن بأن يعمل ما باستطاعته لإنقاذ "ألمانيا الدكتور برونِنغ" من "ألمانيا الأخرى". كما اعتقد السفير الأميركي ساكيت ونظيره البريطاني السير هوراس رامبولد أنه من الضروري دعم برونِنغ لإبعاد النازيين، ونقلا وجهة النظر هذه إلى بلديهما. وضمن هذا التوجه، كان هناك العديد من المسؤولين في إدارة الرئيس هوفر يدافعون عن هذه الفكرة. وفي 20 حزيران/ يونيو أعلن الرئيس "قرار هوفر" بتعليق دفع التعويضات وسداد الديون عاماً كاملاً. ومن أجل تغطية نفسه داخلياً، طلب من الرئيس هيندنبورغ أن يرسل له برقية، يطلب فيها تعليق التعويضات رسمياً. وبعد عام تم إلغاء نظام دفع التعويضات كلياً. في ذلك الوقت، كان برونِنغ قد غادر منصبه، ولم يتذوق طعم الانتصار الذي شارك في صنعه.

لا شك أن إنهاء العمل بنظام التعويضات كان نجاحاً دبلوماسياً كبيراً لحكومة برونِنغ، لكن مبادرته بخصوص الاتحاد الجمركي مع النمسا، والتهديد بالتوقف عن دفع التعويضات، ساهما في حالة هروب كبيرة من مارك الرايخ، تحولت إلى أزمة مالية عالمية عام 1931. في البداية، أفلس أحد المصارف الكبرى في النمسا. وعندما فرضت الحكومة النمساوية سقفاً محدداً للسحوبات النقدية، انتقل الذعر المالي إلى ألمانيا، حيث انهار مصرف كبير أيضاً. وتواصل نزيف احتياطي الذهب من موجودات بنك الرايخ، على الرغم من الإعلان عن قرار هوفر، وتحديداً لعدة أسابيع، فيما رفض الفرنسيون شروط الرئيس هوفر. بعد ذلك، نقلت القروض التي تستند إلى أصول عديمة القيمة، العدوى المالية إلى بريطانيا، حيث بلغت الأزمة مستوىً حاداً شعرت معه الحكومة البريطانية أنها باتت مضطرة للتخلي عن معيار الذهب.

لقد حَوَّلَت أزمة عام 1931 تراجعاً حاداً في الاقتصاد يمكن السيطرة عليه إلى ركود اقتصادي غير مسبوق، لا يزال محفوراً في ذاكرة التاريخ.

ففي كل بلد من البلدان الكبرى، انهارت المؤشرات الاقتصادية، كما بلغ معدل البطالة في ألمانيا مطلع العام 1932 ما يقارب 6 ملايين أو 40٪ من القوة العاملة المستفيدة من التأمين الاجتماعي. من جهتها، واصلت حكومة برونِنغ اقتطاع مدفوعات التأمين ضد البطالة، وعندما نفدت هذه المخصصات، تُرك العمال لرحمة مساعدات الإغاثة التي تقدمها الهيئات المحلية. وبالمعنى الحرفي للكلمة، كان هناك ملايين من الألمان الجائعين، كما ظهرت مجدداً الأمراض الناتجة عن سوء التغذية التي عرفتها ألمانيا، بسبب الحصار البحري عامي 1917 و1918. كل ذلك خلق وضعاً تسارعت فيه خطوات التطرف السياسي.

لم يكن برونِنغ مضطراً لاتخاذ إجراءاتٍ من شأنها أن تفاقم الركود الاقتصادي عام 1931، فقد كان وحكومته على معرفة تامة بالآراء والخيارات الأخرى، ومن بينها تلك التي دعا فيها جون مانيارد كينيز إلى اللجوء إلى الأشغال الحكومية والائتمان الحكومي لمواجهة الركود. وكان برونِنغ وكينيز قد التقيا وتناقشا حول السياسة الاقتصادية، عندما زار الاقتصادي البريطاني كينيز ألمانيا لإلقاء محاضرة هناك، لكن برونِنغ خرج يومها باعتقاد أن كينيز لم يفهم الواقع الألماني.

والأهم من ذلك، لم تشعر حكومة برونِنغ بأنها كانت حرة سياسياً لتبني أفكار كينيز. يضاف إلى ذلك أن التضخم المفرط في عامي 1922 و1923 ترك ندوباً نفسية على الشعب الألماني. فكان الخوف من احتمال أن تؤدي أي محاولة لتحفيز الاقتصاد إلى تضخم يزيد من حدة النقمة الشعبية، وثمة عوامل أخرى ثقافية لعبت دورها في هذا المجال. فقد كان هناك بعض الوزراء، وحتى برونِنغ نفسه، يرون أن درجة التصنيع والتمدن التي بلغتها ألمانيا كانت مصطنعة لا يمكن إثباتها، ولهذا وجدوا أن الحل الأفضل يتمثل في إرسال العمال الصناعيين من المدينة إلى المناطق الريفية.

على أي حال، كان تبني أفكار كينيز لمواجهة الركود يتطلب توسيع قدرة

الحكومة على التدخل، لكن السؤال المهم كان: من أين يمكن تأمين المال اللازم لتحقيق هذا الهدف؟ فقد كان القانون الألماني والاتفاقيات الدولية يحظران على بنك الرايخ إصدار خط ائتمان أو "طباعة الأموال". في حين كانت الحكومة الألمانية عام 1931 عاجزة تماماً عن الاقتراض. وكانت تقف وراء هذه العوامل الاقتصادية حقائق سياسية. ومن أهم الأسباب وراء عدم قدرة الحكومة على الاستدانة أن حكومة برونن غ قررت أن تضع الخطاب القومي قبل التوسع الاقتصادي. فقد كان بإمكان برونن غ الحصول على القرض الفرنسي، لو وافق على الشروط الفرنسية ذات الصلة ببناء السفينتين الحربيتين، وعدم مواصلة السعي لإنشاء اتحاد جمركي مع النمسا. لكن برونن غ، ولاسترضاء اليمين القومي، وتحديداً هيندنبورغ، لم يقبل بتقديم هذا التنازل. فهو كان يسعى لوقف دفع تعويضات الحرب على حساب معدل بطالة غير مسبوق. أي أن خطابه القومي السيئ التوقيت هو ما حفَّز على ظهور أزمة البنوك الكارثية عام 1931.

الجدير بالذكر أن معيار الذهب كان الرمز المطلق لنظام عالمي رأسمالي ليبرالي مسالم أسقطته أزمة 1931. فتخلي بريطانيا عن الذهب، وما تلا ذلك من تخفيض قيمة الجنيه الإسترليني، أضرا كثيراً بالصادرات الألمانية، فضلاً عن بلوغ البطالة وحالات الإفلاس مستويات عالية. وحرصاً منه على تطمين المخاوف الفرنسية من قرار هوفر تعليق دفع التعويضات، تعهد برونن غ بعدم زيادة الإنفاق العسكري طوال فترة التعليق. لكن كان واضحاً، مرة أخرى، أن التزام النظام العالمي يتعارض مع الأهداف القومية الألمانية. ومن هذا المنطلق بات الاندماج بالنظام العالمي أقل جاذبية، وكذلك أيضاً الاقتصاد القومي، الأمر الذي ألحق ضرراً بالغاً بالديموقراطية الألمانية.

لذا شعر برونن غ شخصياً أن عليه أن يقلل من أهمية الانتصار الذي حققه بالحصول على قرار هوفر، وبقي هدفه الرئيسي إلغاء التعويضات نهائياً. وكان لا بد، من أجل الاحتفال بتعليق دفع التعويضات، من دعوة أحزاب

مثل الديموقراطيين الاجتماعيين لتأييد زيادة الإنفاق لمواجهة الركود. لكن هذه الخطوة لم تعمل لمصلحة استراتيجية برونن‍غ.

لكن، وللمفاجأة، تلقى نجاح برونن‍غ رد فعل بارداً من داعميه الحقيقيين. وسرعان ما شعر برونن‍غ بعد ذلك بتبدل في موقف شلايشر تجاهه، حتى إن هذا الأخير أبلغه كيف كان أوسكار، ابن الرئيس هيندنبورغ، مبتهجاً بنجاح برونن‍غ، لكن شلايشر رد على أوسكار قائلاً: "ليس بهذه السرعة، الأسوأ لا يزال قادماً على الطريق".

وبينما كان برونن‍غ يصارع وضعا مالياً دولياً، كان هناك ركود سياسي في المدن الألمانية. "برلين بحاجة إلى الإثارة كحاجة السمك إلى الماء". جملة صريحة مرت في كتاب حمل عنواناً صريحاً "الصراع على برلين". ويوضح الكتاب أن "هذه المدينة تعيش على الإثارة، وأي دعاية سياسية لا تدرك ذلك، ستخفق في تحقيق غايتها". أما المؤلف فكان النجم الصاعد في الحزب النازي؛ ابن الستة والثلاثين عاماً جوزيف غوبلز الذي كان هتلر قد أرسله عام 1926 إلى العاصمة لترؤس فرع الحزب هناك.

كان الترويج للحزب النازي في برلين عملاً شاقاً، فالمدينة كانت مدينة الطبقة العاملة، ومعقلاً للديموقراطيين الاجتماعيين والشيوعيين. كذلك كانت مستقراً للمهاجرين، ومن بينهم لاجئون فروا من الاضطهاد، منذ أن طرد الملك لويس الرابع عشر الفرنسيين البروتستانت "هيوغونت" أواخر القرن السابع عشر. وترك هؤلاء المهاجرون الفرنسيون بَصْمَتَهم على المدينة بطرق عديدة؛ منها اللهجة المحلية المميزة بكلماتها الكثيرة المستعارة من الفرنسية، وطبق كرات اللحم المعروف باسم "بوليت"، وفي واحد من أعظم كُتّابِ المدينة خلال القرن السابع عشر: الروائي تيودور فونتان. وجاءت على برلين بعد ذلك موجات أخرى من المهاجرين. فقد جلب الملك البروسي فريدريك الثاني "الكبير" مهندسين من هولندا لتجفيف

المستنقعات أعطوا كلمة "أورانج" لمناطق عديدة داخل برلين وفي محيطها؛ ومنها قرية أورانينبورغ على سبيل المثال.

وبدءاً من ثمانينيات القرن التاسع عشر، جاء اليهود إلى برلين هرباً من العنف الدائر في الإمبراطورية الروسية، ووصلت هذه الموجة من الهجرة اليهودية ذروتها بعد العام 1918. وهناك قول شعبي شائع "كل البرلينيين الحقيقيين جاؤوا من سيليزيا". وتبعاً للمعايير الألمانية، يعتبر هذا الخليط الإثني والديني في برلين متعدداً إلى حد كبير. كانت برلين عاصمة ألمانيا الفكرية والثقافية والمالية والإعلامية. لكنها لم تكن موطناً طبيعياً بالنسبة لحزب تنتمي قاعدته الشعبية إلى الريف البروتستانتي.

عندما وصل غوبلز إلى برلين كان أنصار الحزب النازي قليلي العدد، ولم يكن هناك أحد يأخذهم بجدية. واعترف غوبلز أن خطابه الأول لأعضاء الحزب المحليين لم يجذب الانتباه إليه بغض النظر عن "جريدة يهودية درجت على إدانتي في السنوات اللاحقة". هذه الجريدة - والكلام لغوبلز- لم تكتب شيئاً عن ذلك الاجتماع أكثر من قولها "لم يقدم السيد غوبلز سوى عبارات معروفة".

كانت برلين مدينة غير نازية بطبيعتها، في حين لم يكن غوبلز، مثل غريمه غريغور شتراسر، نازياً عادياً. فقد نال شهادة الدكتوراه في الأدب تحت إشراف أستاذ يهودي، قبل أن يخوض غمار العمل السياسي. كان يمتلك ذكاءً وقاداً، وموهبة قلَّ نظيرها بين المتطرفين السياسيين. فقد كان يتمتع بقدرة على الخروج من تعصبه وتَخَيُّلِ كيف تبدو أفكار النازيين لشخص لا يشاركهم نفس الرأي. كذلك الأمر في ما يخص تقديره الحماسي لكتاب وفنانين معارضين للنازية ملأت أسماؤهم مذكراته ومنهم كتاب ألمان يهود مثل ماكسميليان هاردين، أو خصوم سياسيون ليبراليون من أمثال تيودور هويس، ومخرجون سينمائيون مثل فريتس لانغ. هذه المرونة الفكرية جعلت من غوبلز بائعاً مقنعاً.

لكن، في واقع الحال، لم تعجب البيئة الإعلامية النشطة والحية في برلين غوبلز الذي كتب يوماً يصفها "كانت آلات الطباعة تنفث يومياً السم اليهودي في عاصمة الرايخ على شكل صحف بملايين النسخ". إلا أن ذلك لم يمنعه من معرفة كيفية استخدام الإعلام. فقد أدرك بالفطرة أن أي دعاية هي دعاية جيدة. وأنه ليس مهماً أكانت صحافة ليبرالية أم تابعة للجناح اليساري هي من انتقدت بشراسة الحزب النازي، بل "المهم أنهم يتحدثون عنا"، بحسب قوله كما كتب مرات ومرات في مذكراته. لكن غوبلز كان لديه أيضاً أداة أخرى أكثر سوداوية للدعاية للحزب النازي.

كانت جميع الأحزاب السياسية في فايمار تمتلك ميلشياتها الخاصة. وكان لدى النازيين قوات العاصفة التي كان يرمز لها بالاختصار "*SA*" كما كانت تُعرف باسم "القمصان البنية". كذلك كان للشيوعيين رابطة مقاتلي الجبهة الحمراء، قبل حظرها بالقانون عام 1929، لتحل محلها رابطة القتال ضد الفاشية. أما الأحزاب الديموقراطية الثلاثة فكان لديها راية الرايخ الحمراء السوداء الذهبية تيمنا بألوان علم جمهورية فايمار الجديد. (الأسود والأحمر مع الخط الذهبي كان شعار الديموقراطية الألمانية منذ العام 1848، في حين تشاركت الإمبراطورية البسماركية والنازيون والقوميون ألوان القومية الألمانية: الأسود والأبيض والأحمر). وفي وقت لاحق، وبعد أن وجدوا راية الرايخ معتدلة أكثر مما يجب، شكل الديموقراطيون الاجتماعيون مجموعة جديدة تدعى الجبهة الفولاذية في تقليد مشابه للقمصان البنية. أما القوميون الألمان فكان لديهم منظمة محاربيهم القدماء الخوذة الفولاذية التي أصبحت، بدءاً من العام 1930، مفتوحة لمن يرغب بالانضمام إليها باستثناء اليهود، حتى لو كانوا ممن خدموا سابقاً على جبهات القتال.

وكانت جميع هذه القوات تسعى لتحقيق نفس الهدف: السيطرة على الأرض. إذ كان من مهامها الأساسية حماية اجتماعات الأحزاب، ومسيراتها،

وتأمين الناشطين في أثناء القيام بحملاتهم. كذلك أيضاً، ولكن على مستوى أقل من الناحية الرسمية، خوض معارك الشوارع التي جعلت برلين ومدناً ألمانية أخرى، تبدو أقرب إلى شيكاغو آل كابوني مما كانت عليه نظيراتها في مكان أخر في أوروبا.

وكانت أحياء معينة في برلين- نويكولن، فريدرشسهاين، فيدينغ، وأجزاء من شارلوتينبورغ- مركزاً لأكثر أفراد الطبقة العمالية فقراً، ومعاقل للحزب الشيوعي. وبعد وصول غوبلز إلى برلين، اعتمدت الاستراتيجية النازية على نقل المعركة إلى ساحة الشيوعيين. كان النازيون يجدون لأنفسهم حانةً في منطقة تسكنها طبقة عمالية، مع ضمان حد أدنى من الاستهلاك الشهري من البيرة. ولم يكن مطلوباً من صاحب الحانة سوى أن يسمح لمفرزة من قوات العاصفة البقاء في الحانة لاستخدامها كمقر قيادة، لتصبح بذلك "حانة العاصفة". وفي هذه الحالة يستخدم أصحاب القمصان البنية الحانة قاعدة انطلاق لعملياتهم -غالباً في الليل- بحثاً عن شيوعيين ومهاجمتهم. وغالباً ما كانت تنشب بين الطرفين معارك حامية الوطيس، تشارك فيها أحياناً جماعات تابعة لأحزاب أخرى. ومع مطلع الثلاثينيات، وصلت الأوضاع في برلين ومدن ألمانية أخرى إلى حافة حرب أهلية.

وآتت هذه الاستراتيجية ثمارها في عدة نواحٍ دفعة واحدة. فقد تمكن النازيون تدريجياً من السيطرة على الأحياء الأصعب في برلين، وهو ما سهّل عليهم القيام بحملاتهم ووضع الملصقات والقيام بالمسيرات، لكن المكسب الحقيقي كان في التغطية الإعلامية.

من جهته، كان غوبلز يعلم جيداً أن العنف الذي تمارسه قوات العاصفة كان جاذباً للإعلام، وعلى الرغم من أن النازيين كانوا هم من يثيرون غالبية أحداث العنف، إلا أنهم كانوا دائماً ما يقدمون أفعالهم على أنها رد فعل دفاعي. وعزفت آلتهم الدعائية باستمرار على فكرة الشيوعيين العنيفين الساعين للانتقام، وهم يطاردون دوماً أصحاب القمصان البنية. ويمكن

أن نتذكر الهجوم على مجمع الحدائق في فيليسنيك، وجريمة قتل فريتس كليمكه مثالاً على ذلك. وقد حاك النازيون هذه القضية على أنها كمين أعده الشيوعيون للإيقاع بأفراد قوات العاصفة الأبرياء، وصدَّق كثيرون من أبناء الطبقة الوسطى، والصحافة، والشرطة، والقضاة، وفي نهاية المطاف المحكمة الجنائية هذه الرواية.

صحيحٌ أن هذه الدعاية كانت مقياساً لأعلى مستويات العبثية أو اللامعقول، لكنها نجحت. فقد راح الألمان من أفراد الطبقة الوسطى، الملتزمون باحترام القانون، وبشكل متزايد يصلون إلى نتيجة مفادها أن أصحاب القمصان البنية فتية طيبو القلب، رغم مظهرهم القاسي، ووطنيون، وأنهم الوحيدون القادرون على إيقاف الشيوعيين.

ولم يكن العنف هو الشيء الوحيد الذي أحضره النازيون معهم إلى المعترك السياسي الألماني. فحتى نوابهم الذين يُفترض أنهم مُنتخبون قانونياً ودستورياً، سواء في برلمانات المقاطعات أو الرايخستاغ، كانوا يستخدمون العنف بوحشية قوات العاصفة نفسها، فقد كانت الشجارات والمشاحنات أمراً شائعاً لدى النازيين في انتهاك صريح لكل مبادئ اللياقة البرلمانية. ففي جلسة للرايخستاغ عُقدت في أيار/ مايو 1932، قاطع نائب نازي كلمة لزميله الشيوعي قائلاً: "غباؤك لا يُقدر بثمن"، فطلب منه رئيس الجلسة التزام النظام، في حين رد رئيس كتلة النواب الشيوعيين إرنست تورغلر على النائب النازي بالقول: "اخرس". عندها صرخ نائب نازي أخر مخاطباً تورغلر: "ستكون جنرالاً قوقازياً في روسيا".

وليس هذا وحسب، بل حتى لم يتورع النازيون الذين لم يشاركوا في الحرب العالمية الأولى، ومنهم غوبلز، عن انتقاد من شاركوا فيها. حدث ذلك في كلمة لغوبلز في جلسة للرايخستاغ في شباط/ فبراير 1932عندما أثار موجة من الغضب العارم بوصفه الديموقراطيين الاجتماعيين بأنهم "حزب الفارين". ونهض جميع النواب من بقية الأحزاب لإدانته والرد عليه.

ومـن هـؤلاء نائـب حـزب الدولـة إرنسـت ليمـير الـذي لفـت انتبـاه غوبلـز إلى أن: "السـواد الأعظـم مـن زملائـه النـواب النازيـين" لم يشـارك ڤي الحـرب، خلافاً لعدد كبير من النـواب الديموقراطيين الاجتماعيـين. أما أكثر الـردود صراحـة وانتقاداً، فقد جـاء على لسـان كورت شـوماخر؛ النائـب الديموقراطي الاجتماعـي من بروسيا الغربيـة الـذي سينال ڤي السـنوات الأولى بعد الحـرب العالميـة الثانيـة شـهرة واسـعة كزعيـم للحـزب يتمتـع بشـعبية كبـيرة. وممـا قالـه شـوماخر -الـذي شـارك ڤي الحـرب العالميـة الأولى وجُـرح فيهـا- إنـه لا جـدوى مـن تقديـم احتجـاج رسمـي علـى سـلوك غوبلـز قبـل أن يضيـف: "إن كل هـذا الحنـق والغضـب القومـي الاشـتراكي لا يتعـدى كونـه مناشـدة متواصلـة للوضاعـة عنـد البشـر. فـإن أدركنـا شـيئاً عـن القوميـة الاشـتراكية فهـي الحقيقـة بأنهـا نجحـت ڤي تعبئـة الغبـاء البشـري وتجييشـه ". ثم اختتم كلمتـه بـازدراء: "يسـتطيع النازيـون أن يفعلـوا مـا يريـدون، لكنهـم لـن يصلـوا أبداً إلى مسـتوى احتقارنـا لهـم".

وڤي غمـرة تفاقـم الحـرب الأهليـة بـين عامـي 1931 و1932، بـات واضحـاً، وبشـكل متزايـد عـدم قـدرة حكومـة جمهوريـة فايمـار علـى الحفـاظ علـى الاسـتقرار. وكمـا هـو الحـال بالنسـبة لمحـاولات برونـنغ لتحقيـق أهـداف سياسـية قوميـة علـى حسـاب الرفاهيـة الاقتصاديـة، سـاهم عجـز الحكومـة عـن تأمـين السـلم الأهلـي بتـآكل شـرعيتها الديموقراطيـة ڤي نظـر كثيريـن مـن مواطنيهـا. كمـا دفـع تزايـد العنـف المستشـري النـاس للقبـول بعنـف الدولـة الـذي سيمارسـه النازيـون لاحقـاً.

لكـن هـذا لم يعـنِ أن النازيـين كانـوا قريبـين، أو يمتلكـون فرصـة جيـدة للوصـول إلى السـلطة ڤي عـام 1931 أو 1932. كان هتلـر قد تعلـم الـدرس جيداً مـن فشـل انقـلاب البـيرة، بأنـه مـن المسـتحيل الظفـر بالسـلطة عـبر مواجهـة الجيـش والشـرطة، علمـاً أن أبـواب هـذه المؤسسـة بقيـت مغلقـة أمـام النازيـين علـى مـدار عامـي 1931 و1932. ربمـا كان النازيـون قادريـن علـى تحقيـق نجـاح انتخابـي، لكـن مـا الـذي يمكـن أن يحـدث إذا أخفقـوا ڤي ذلـك؟

كان ألفريد هوغنبيرغ أول سياسي من التيار المحافظ يحاول استغلال هتلر في حملة 1929 المناهضة لخطة يونغ. وأعاد المحاولة عام 1939 لجذب النازيين للانضمام إلى القوميين الألمان والخوذة الفولاذية، في حملة لتقديم التماس وإجراء استفتاء من أجل انتخابات برلمانية مبكرة في مقاطعة بروسيا، لكن المحاولة الثانية فشلت أيضاً. وفي تشرين الأول/ أكتوبر، عقدت القوى المشتركة لليمين القومي اجتماعاً في منتجع باد هارتسبورغ في مقاطعة براونشفايغ، تحت إدارة ائتلاف من النازيين والقوميين، ضماناً لعدم تعرض الشرطة للمشاركين. وإلى جانب القوميين والنازيين والخوذة البيضاء، شارك أيضاً أعضاء من حزب الشعب، والرابطة القومية الألمانية، ومن جماعات الضغط التابعة للتيار اليميني المتطرف، في المباحثات والنقاشات التي دارت في الاجتماع الذي سعى في حينه إلى ترسيخ فكرة تجمع المشاركين في كتلة موحدة وفاعلة. لكن هذا ما كان يحلم به هوغنبيرغ، وليس هتلر الذي كان يريد، ومعه النازيون، الاستفادة قدر الإمكان من الدعاية الإعلامية ومن الشرعية التي حصلوا عليها من خلال التعامل مع هوغنبيرغ دون تقديم أي تنازل من جانبهم. وقبل بدء الاجتماع مباشرة، كان الرئيس هيندنبورغ قد استقبل هتلر وهيرمان غورينغ لأول مرة، الأمر الذي دل على أن العلاقة مع القوميين منحت فعلاً حركة هتلر قدراً من الاحترام.

وكما هي العادة، بقي النازيون بعيدين عن الالتزام والانضباط. ففي أثناء العرض العسكري، غادر هتلر، وبشكل لافت للنظر المنصة الرئيسية بمجرد أن أنهت قوات العاصفة مرورها في طابور العرض، متجاهلاً بقية المجموعات المشاركة. بعد ذلك كتب غوبلز في افتتاحية صريحة أن العمل مع القوميين الألمان كان خطوة تكتيكية محضة، لأن الطريقة الوحيدة للوصول إلى السلطة بشكل قانوني وشرعي كانت عبر الدخول في ائتلاف. ولم يكتف غوبلز بذلك وحسب، بل كانت آراؤه الخاصة عن اجتماع باد هارتسبورغ جارحة، إذ عبر تحديداً عن كراهيته لرئيس كتلة القوميين

الألمان في الرايخستاغ إرنست أوبرفوهِرن الذي "ينفخ نفسه زهواً واختيالاً. كم نبدو نحن -المتوحشين- أناساً أفضل!". وأضاف قائلاً: "سأبقُ هذه البحصة" سواء بائتلاف أو من دونه، عندما يصل النازيون إلى السلطة، لن نتوانى عن "ركل جميع الرجعيين إلى الخارج وبأقصى سرعة ممكنة. نحن وحدنا سنكون سادة ألمانيا".

لكن، ولكي يكونوا سادة ألمانيا، كان النازيون بحاجة إلى آخرين: ناخبين يؤيدونهم، ومحافظين للتحالف معهم، وأن يفتح لهم هيندنبورغ أبواب السلطة. لذلك سيكون العام 1932 تحت رحمة السؤال: مَنْ مِنْ هؤلاء - إن وُجد - سيفعل ذلك؟

5
حالة الطوارئ

تُعرف باسم "أعمدة ليتفاس". في منتصف القرن التاسع عشر، تفتّقت قريحة برليني يُدعى إرنست ليتفاس يعمل في مجال الطباعة عن هذه الفكرة. كل ما كان يريده ليتفاس، بوصفه بروسياً حقيقياً، النظام حتى في لصق المنشورات الإعلانية، التي لا يجوز أن تتناثر بشكل عشوائي في كل مكان. بكل بساطة، عمود ليتفاس أسطواني الشكل مائل نحو الأرض قليلاً كرجل يجلس القرفصاء بسطح عريض يوفر مكاناً للملصقات الإعلانية، والتي كانت في معظم الأوقات إعلانات عن مسرحيات، وحفلات موسيقية "أمسيات في لاسكالا"، أو عن سجائر "أوفرشتولتس". لكن، ومع الموسم الانتخابي المتواصل في عام 1932، كانت السياسة الموضوع الرئيس لتلك الملصقات.

في هذا العام، تحولت السياسة إلى شأن جماهيري لكنها، لم تصبح الكترونية. صحيحٌ أن السياسيين يستخدمون المذياع، لكن قلة منهم يتقنون استخدامه، إذْ لم يدركوا بعد أنه لا يمكنك الصراخ أمام المايكروفون كما تفعل في المسيرات. وها هو غوبلز يخوض تجربة نشر الدعاية النازية، عبر الأفلام، وأسطوانات الفونوغراف، التي لا تزال بدعة جديدة أيضاً. قد تطول الصحف والمسيرات من قد تحولوا أصلاً إلى صفوف الحزب، أما بالنسبة إلى الجماهير، فكانت الملصقات الإعلانية حاجة ضرورية. ومن هذا المنطلق، يشرح غوبلز لهتلر عام 1932: "سنخوض حربنا بشكل رئيسي بالخُطَب والملصقات".

تتشابه الكثير من هذه الملصقات فيما بينها. هذا ملصق لعامل نحيل الوجه، بارز الفكين، مفتول العضلات، عاري الصدر، يحطم قيود معصميه وهو يصرخ "كفى". وهو واحد من الملصقات التي يرسمها "مويلنير"[14] صديق غوبلز، واسمه الحقيقي هانز هربرت شفايتسر. وهناك ملصق أخر لحزب الشعب البافاري، الشقيق الأصغر لحزب الوسط الكاثوليكي، يصور أيضاً عاملاً عاري الصدر، نحيل الوجه، بارز الفكين، يحمل سيفاً بيده يحاول أن يضرب أفعى بثلاثة رؤوس تدعى "الديكتاتورية النازية". وفي ملصق ثالث للديموقراطيين الاجتماعيين، يظهر عامل أخر عاري الصدر وقد غُطي معظم وجهه وهو يئن من الألم مقيداً، كما المسيح، على السواستيكا "الصليب النازي المعقوف" وقد كُتب في الأسفل "العامل في إمبراطورية السواستيكا". أما حزب الدولة الليبرالي فانفرد في تقديم ملصقاتٍ لرجال مفتولي العضلات يظهرون عراةً بالطول الكامل، كما هو الحال مع ملصقات حزب الشعب التي تصورهم على الأقل يرتدون مئزراً يغطي خصورهم.

عندما تظهر النساء في تلك الملصقات، يكون مظهرهن محتشماً. سيدةٌ جميلةٌ ترتدي فستاناً طويلاً، وشعرها مربوط إلى الخلف بأناقة، وعيناها تشعان مثاليةً، ترفع يدها اليمنى وهي تنظر صوب المستقبل "الوحدة، والتطور، والمجتمع الوطني" مع حزب الدولة. وفي ملصق أخر، سيدتان بمظهر قوي وحازم، ترتديان بلوزتين خفيفتين بيضاويتي اللون. إحداهما تبتسم للمستقبل، والثانية تنظر بجدية وصرامة إلى المُشاهد، وتعلنان معاً: "سنصوت للقوميين الاشتراكيين".

من جانبه، يستثير حزب الوسط جنون عظمته المعتاد، إذْ لا يزال برج القلعة رمزه التقليدي منذ عقود، كما هو الرخ (القلعة) في رقعة الشطرنج. هكذا كان الحزب يرى نفسه في العالم البروتستانتي الأكبر. في هذا الملصق،

---

14 بحسب الأسطورة في شمال أوروبا، مويلنيار هي مطرقة الإله ثور الذي ارتبط اسمه بالرعد. وتصف الأسطورة هذه المطرقة كأقوى سلاح مرعب في الوجود قادر على تسوية الجبال أرضاً. (م)

تظهر القلعة مُحَاصرةً، تهددها حشود من الشيوعيين والنازيين يلوحون براياتهم. وعلى جدار البرج الوحيد لحزب الوسط، كُتبت، بخط كبير، عبارة هاينريش برونغ: "آخر حصن للقانون والنظام".

في بعض الأحيان، يقدم الملصق زعيم الحزب كنقطة استقطاب أساسية في رسالته الدعائية. فالحزب الشيوعي يقدم إرنست تيلمان أمام خلفية متموجة من الرايات الحمراء، وعلى وجهه ابتسامة خفيفة هادئة، وهو يخاطبنا مناشداً: "واجهوا الجوع والحرب". أما النازيون، فيبدون أكثر قتامةً عندما يقدمون ملصقاً يُظْهر، بخطوط من قلم الفحم، عدداً لا يُحصى من العاطلين من العمل الجوعى، نحيلي الأجساد، مقطبي الوجوه، كُتب تحتهم عبارة صريحة: "هتلر أملنا الأخير".

وفي الحقيقة، لم يكن العاطلون من العمل هم وحدهم من يعتقدون ذلك عام 1932.

يُصَرِّحُ كورت فون شلايشر دون لبس، وبسخريته المعتادة، "سنضع النازيين في الحكم عندما نحصرهم في المسار الذي نريده".

كان شلايشر يعلم أنه لا يمكن للحكومة أن تحارب أكبر كتلة سياسية للأبد، حتى بمساعدة الجيش. فالتورط في حرب أهلية كان أكثر شيء يمقته القادة العسكريون الألمان الذين- كما كتب مسؤول كبير أواخر عام 1932 -" لا يمتلكون سوى الصلاة والتمني كيلا يتذوقوا تلك الكأس المريرة". غير أن شلايشر كان يفضل تشكيل أغلبيةٍ من اليمين، من أجل تقوية الجيش والحكومة القومية والمظلة الدولية لألمانيا. لكن تيار المحافظين التقليدي، كالقوميين الألمان، كان عاجزاً عن تحقيق هذا الهدف، لكن قد يكون بمقدور النازيين أن يفعلوا ذلك.

كذلك أدرك المستشار برونغ أن أي حكومة تحتاج إلى الدعم، لكنه خَلصَ إلى استنتاج مغاير لشلايشر. كان برونغ كاثوليكياً متديناً، ومحافظاً حتى

النخاع. فقد كتب في مذكراته "فيما يتعلق بالقضايا الثقافية، هناك هوة كبيرة تفصل بيني وبين الديموقراطيين الاجتماعيين". أما في السياسة، فكان الموضوع مختلفاً، إذ يقول: "مثل شتريزيمان وآخرين كُثُر، توصلت إلى نتيجة، ضد إرادتي، أنه وعندما يتعلق الأمر بالوطن في حالة الطوارئ القصوى، ومن دون الاعتماد على الاستخدام التعسفي للسلطة، يمكن الاعتماد على الحزب الديموقراطي الاجتماعي" أكثر من اليمين المتطرف.

وفي الأشهر اللاحقة لانتخابات 1930، كان برونتغ في واقع الحال يعتمد على الديموقراطيين الاجتماعيين. فكما هو معروف، كان باستطاعة أغلبية برلمانية في الرايخستاغ رفض الأوامر التنفيذية التي كان يحاول برونتغ من خلالها مواجهة الركود الاقتصادي. إلا أنه، ومن خلال ما كان يسمى بسياسة "التساهل"، أيَّدَ الديموقراطيون الاجتماعيون حكومة برونتغ مرات ومرات، على الرغم من أن سياساته كانت تسبب معدلات كارثية من البطالة والمعاناة للطبقة العاملة. فقد أدرك الديموقراطيون الاجتماعيون أن برونتغ - ومهما كان صعباً - يبقى هتلر أكثر سوءاً منه بلا حدود، ولاسيما أن الأوضاع حينذاك كانت تشير إلى أن هتلر كان البديل الأكثر احتمالاً لبرونتغ، مع التنويه أن سياسة التساهل كانت قاسية، وأثارت غضب ونقمة العديد من الأنصار الحقيقيين للحزب الديموقراطي الاجتماعي.

وللمفارقة، أضرت هذه السياسة، وبطريقة غريبة، بالمستشار برونتغ أيضاً. فاستراتيجيته للاعتماد على الديموقراطيين الاجتماعيين زادت من خيبة شلايشر وهيندنبورغ. وفي عام 1931، بدأ القلق يسيطر على شلايشر من أن يكون مستشاره المحافظ أكثر ميلاً لليسار أيضاً. لذلك كان شلايشر يريد نقل برونتغ إلى اليمين، أو - في حال تعذر ذلك- استبداله شخص أخر به، شخص قادر على تشكيل ائتلاف مع النازيين والقوميين الألمان.

غير أن المراقبين اليقظين تنبهوا إلى مخاطر سياسة من هذا النوع. وفي هذا السياق، تحدث الصحفي كونراد هايدن إلى العديد من السياسيين في

مقاطعة تورنجيا الذين شكلوا ائتلافاً مع النازيين عام 1930. وحاول هؤلاء السياسيون طمأنته أن هذا الإجراء لن يؤدي مطلقاً إلى انقلاب نازي. لكن هايدن وجد في تطميناتهم ثقة "تُذكرُكَ بأن الشك يبقى فضيلةً في عالم السياسة، وأن الفضائلَ عملةٌ نادرة".

لكن شلايشر لم يستوعب تماماً مخاطر العمل مع النازيين. ولعل واحداً من أسباب ذلك فهمه وتقديره لطبيعة الناخبين المؤيدين للنازيين، والسبب وراء تأييدهم لهم. فقد كان يعتقد أن النازيين يعتمدون على قاعدة غير مستقرة من التأييد الشعبي، سرعان ما ستتشظى وتنفرط تحت ضغط الحكم أو حتى البقاء في صفوف المعارضة مطولاً. كما كان يظن أن قطاعاً واسعاً من مناصري النازيين هم في الحقيقة شيوعيون. فإذا ما انهار الحزب النازي، سيتحول هؤلاء الناخبون لدعم الشيوعيين، مما سيجعل منهم قوة لا يمكن إيقافها. يضاف إلى ذلك، أن الشك كان يساوره بأن موسكو كانت تعلم بالتعاطف الشيوعي مع النازيين، ولذلك كانت تدعمهم سراً.

أما السبب الأخر فكان أن شلايشر قلّل، وبشكل أساسي، من شأن هتلر، كما فعل العديد من رجال الدولة الألمان والعالم قبل العام 1939. ولم يغير لقاؤهما شخصياً مرتين في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1931 هذا الموقف. وكتب شلايشر بعد لقائه هتلر أول مرة، أن هذا الأخير "شخص مثير للاهتمام ويتمتع بموهبة كمتحدث". وكان تحفظ شلايشر الوحيد على الزعيم النازي أنه "يشطح بعيداً في مخططاته. ولذلك لا بد لأحد ما أن يشده خلفاً من تلابيبه، ويعيده إلى الواقع".

ومع نهاية العام 1931، كانت أسهم المستشار برونغ تنهار لدى العديد من القطاعات الرئيسية، ومن بينها كبار رجال الأعمال. فقد طالبه كبار الصناعيين بالتخلي عن نظام تحكيم الأجور المعمول به في فايمار، و"تحرير الاقتصاد من القيود التي تكبله"، وإفساح المجال له للعمل طبقاً

"للقوانين المعمول بها دوماً". وبالطبع كان ذلك يعني انهيار الأجور، ومن ثَمَّ فإن هذه السياسة ستضع حداً للتعاون غير الرسمي مع الديموقراطيين الاجتماعيين. كما أن تعاوناً طويل الأمد مع اليسار سيقود ألمانيا إلى "النزف حتى الموت"، بحسب تعبير أحد كبار رجال الأعمال التنفيذيين كان على صلة بحزب الشعب الألماني. لهذا السبب، كانت دوائر رجال الأعمال تتدارس مختلف السيناريوهات السياسية. ففي حال امتنع هوغنبيرغ وهتلر عن العمل مع حكومة برونغ، عندئذ ستكون الخيارات المتاحة إما الذهاب إلى حكم ديكتاتوري وإما تشكيل ائتلاف من النازيين والقوميين الألمان.

لكن ما هو أهم من ذلك كله، لنجاة برونغ سياسياً، أن اعتماده على اليسار البرلماني أصبح يشكل، على نحو متزايد، إزعاجاً لكل من شلايشر وهيندنبورغ. فقد بات شلايشر يجد حتى في الديموقراطيين الاجتماعيين المُهمَّشين عقبة أمام مخططاته، فيما كانت لهيندنبورغ أسبابه الخاصة.

جَرياً على عادته، كانت المحافظة على سمعته الشغل الشاغل لرئيس الرايخ. فقد أثبت هيندنبورغ على مدار حياته العملية أنه فنان في اصطياد مكاسب النجاح (الانتصار في معركة تانينبيرغ في الحرب العالمية الأولى)، وفي التنصل من عواقب الفشل وإلقائها على الآخرين (هزيمة 1918، تنازل القيصر عن العرش، توقيع اتفاقية الهدنة، اتفاقية فرساي). ومع حلول العام 1931، بدأ هيندنبورغ يشعر بعبء أوامره التنفيذية التي كان يستخدمها برونغ لتطبيق سياسته القاسية لمواجهة التضخم، وبعدم قدرته على التهرب من تحمل مسؤولية مشاركته في تلك السياسة. ولذا فإن أغلبية برلمانية يعاد تشكيلها من الجناح اليميني تحكم البلاد، دون الحاجة لأوامر تنفيذية من الرئيس، سترفع عن كاهل هيندنبورغ هذا العبء.

وعلاوة على ذلك، كان هيندنبورغ تواقاً لوحدة وطنية كما يفهمها هو. فقد كان مفهومه للوحدة الوطنية لا يتعدى مجرد تجميع اليمين السياسي المشرذم، وتحديداً النازيين والقوميين الألمان، في تكتل واحد

للعمل مع الرئيس. كذلك لم يكن وارداً، بالنسبة إلى هيندنبورغ، العمل مع الديموقراطيين الاجتماعيين. فقد كان يكره أن تكون سياسات مستشاره خاضعة لحزب كان هيندنبورغ يزدريه، ولا يعده جزءاً شرعياً من أمة يسعى إلى توحيدها.

كذلك كان هيندنبورغ يتعرض من جانبه لضغط من ممثلي القطاع الزراعي. ففي تموز/ يوليو 1931، وفي رسالة إلى هيندنبورغ، طالبت "رابطة أرض الرايخ" -وهي أكبر جماعات الضغط الزراعية- "بالانفصال التام عن قوى الماركسية الدولية" (أي الديموقراطيين الاجتماعيين). ولأن هيندنبورغ نفسه كان ارستقراطياً، ومن ملاك الأراضي، فقد كان متأثراً، وبشكل كبير، بهذه الجماعات.

وفي هذا الإطار، كانت حكومة مقاطعة بروسيا عاملاً آخراً على قدر كبير من الأهمية في الحسابات السياسية لأي شخص كان لما تتمتع به هذه المقاطعة من ثقل، لكونها تعادل ثلاثة أخماس ألمانيا من حيث المساحة والتعداد السكاني، الأمر الذي جعل من حكومتها ثاني أكبر حكومة وطنية على مستوى البلاد. وعلى مدار حياة جمهورية فايمار بأكملها تقريباً، كانت بروسيا محكومة من ائتلاف مستقر من الديموقراطيين الاجتماعيين، والحزب الديموقراطي الألماني، وحزب الوسط بوجود أوتو براون (الديموقراطي الاجتماعي) رئيساً للوزراء، وكارل سيفرينغ وزيراً للداخلية. وكان براون وسيفرينغ سياسيين كفوءين يتمتعان ببعد نظر وباحترام زعماء من مختلف ألوان الطيف السياسي. حتى إن غوستاف شتريزيمان وصفهما ذات مرة بـ"رجلي دولة حقيقيين" يسعد بالعمل معهما. غير أن حكومة بروسيا الميألة إلى اليسار جعلتها شوكة في خاصرة اليمين السياسي.

وفي مسعىً منه لكسب تأييد القوميين الألمان لحكومة برونغ، والتقدم خطوة على طريق توحيد اليمين السياسي، التقى هيندنبورغ بألفريد هوغنبيرغ في خريف عام 1931. لكن هوغنبيرغ اشترط مقابل دعم حكومة

برونـنـغ، فـك الارتبـاط بـين ائتـلاف بـراون - سـيفرينغ وبـين حـزب الوسـط في بروسـيا. وكان مـن الممكـن للمستشـار برونـنـغ الـذي يتزعـم حـزب الوسـط، القيـام بذلـك، لـو أن مثـل هـذه الخطـوة لـن تفتـح مشـكلة التداخـل المعقـدة بـين حكومـتي الرايـخ وبروسـيا أوائـل الثلاثينـات. فكمـا هـو معـروف، نجـح برونـنـغ في الإفـلات مـن معارضـة أوامـر هيندنبـورغ التنفيذيـة، ومـن حجـب الثقـة عـن حكومتـه في الرايخسـتاغ بفضـل دعـم الديموقراطيـين الاجتماعيـين لـه. لذا لـو أراد برونـنـغ إنهـاء الائتـلاف في بروسـيا، لـرد عليـه الديموقراطيـون الاجتماعيـون علـى الأرجـح بإسـقاطه في الرايخسـتاغ. لذلـك كان الأمـل الوحيـد لبرونـنـغ يكمـن في أغلبيـة مـن اليمـين المتطـرف مـن القوميـين الألمـان والنازيـين. وهـذا، تحديداً، مـا كان يريده الرئيـس هيندنبـورغ، علـى عكس برونـنـغ. علـى أي حـال وبسـبب الظـروف الـتي كانـت سـائدة عـام 1931، لم يكـن هنـاك في الأفـق مـا يـدل علـى اسـتعداد اليمـين لتأييـد برونـنـغ مـن جهـة، ولا حتـى احتمـال توحيـد الجنـاح اليمينـي مـن جهـة أخـرى.

كان تأمـين الحـدود الشـرقية مـع بولنـدا -وهـي أيضـاً حـدود مقاطعـة بروسـيا- الهـم الرئيسـي بالنسـبة إلى شـلايشـر. إذ لم يكـن للجيـش والشـرطة القـوة البشـرية الكافيـة لحمايـة الحـدود، الأمـر الـذي دفـع شـلايشـر للاسـتعانة بميليشـيات حزبيـة مثـل الخـوذة الفولاذيـة، وحتـى قـوات العاصفـة، للقيـام بهـذه المهمـة. وكان وزيـر داخليـة بروسـيا كارل سـيفرينغ، وبحلـول أيلـول/ سـبتمبر، يشـتكي مـن تعامـل وزارة دفـاع الرايـخ مـع هـذه الميليشـيات اليمينيـة بشـكل وثيـق أكثـر ممـا تتعامـل مـع وزارة الداخليـة في مقاطعـة بروسـيا. ويمكـن بالطبـع تفهـم معارضـة الحكومـة البروسـية لأن تكـون حدودهـا محميـةً مـن قبـل مجموعـات مسـلحة تتبـع أشـد خصومهـا السياسـيين شراسـةً، غير أن شـلايشـر اعتـبر عـدم تجـاوب حكومـة بـراون - سـيفيرينغ تهديـداً للأمـن القومـي.

وبحلـول أيلـول/ سـبتمبر، أبلـغ كل مـن شـلايشـر وهيندنبـورغ المستشـار برونـنـغ بإعـادة تشـكيل حكومتـه لنقلهـا نحـو اليمـين السياسـي. وكان واضحـاً

بالنسبة إلى برونغ، أن ثقة الرجلين به بدأت تضعضع، وأن علاقته بهما ازدادت سوءاً. واقترح برونغ على هيندنبورغ أن يلتقي هتلر. فاستشاط هيندنبورغ غضباً، ليس اعتراضاً على سياسات الزعيم النازي، وإنما على رتبته العسكرية، وموقعه الاجتماعي، وعلى الأرجح أصله القومي. ورد على برونغ قائلاً: "لا يمكن إجباري على الحوار مع عريف نمساوي"، معتبرا أن ما يُطلبُ منه تضحيةٌ كبيرة من "قناعاته ومشاعره الشخصية". ونُقِل عن برونغ قوله إنه لم يسبق له أن سمع "هذه النبرة" من هيندنبورغ.

وفي الواقع كانت هناك مؤامرة تجري على قدم وساق سراً حول الرئيس، لا تقتصر على شلايشر، بل يشارك فيها ابن الرئيس أوسكار فون هيندنبورغ (الذي، وبسبب تأثيره على والده، وافتقاره للذكاء، كان معروفاً للمطلعين السياسيين الساخرين بـ "الابن الذي لم يتوقعه الدستور") إضافة إلى وزير الدولة أوتو مايسنر، لتحريض هيندنبورغ ضد برونغ. مع الإشارة إلى أن الرجال الثلاثة كانوا يقتربون من النازيين أكثر. فأوسكار فون هيندنبورغ أصبح صديقاً لهيرمان غورينغ، كما كان هناك شخص أخر من حاشية هيندنبورغ يسرب الأسرار إلى النازيين.

ونظراً لطريقة تفكيره العسكرية، كان برونغ يرى نفسه واحداً من مرؤوسي هيندنبورغ، ويفعل ما يؤمر به إلى حد ما. وفعلاً أجرى تعديلاً على حكومته لنقلها إلى اليمين السياسي، وتولى برونغ بنفسه وزارة الخارجية التي كان يشغلها غوتفرايد تريفرانوس الذي أصبح وزيراً للنقل، مع العلم أنه كان من الألمان القوميين سابقاً، لكنه ترك الحزب اعتراضاً على تطرف هوغنبيرغ. أما الجنرال فيلهلم غرونر فقد تولى وزارة الداخلية، إضافة إلى منصبه كوزير للدفاع. لكن هوغنبيرغ والجسم الرئيسي للقوميين الألمان، ومعهم النازيون طبعاً، بقوا في صفوف المعارضة، وظَلَّ برونغ يتكل على الديموقراطيين الاجتماعيين في الرايخستاغ. وهكذا بَقيَ الوضع في بروسيا، في نظر اليمين، دون تغيير. وهذا ما أدى إلى تزايد الشعور بالإحباط والخيبة لدى شلايشر وهيندنبورغ.

لكن الولاء والإخلاص اللذين حرص عليهما برونغ في غير مكانهما الصحيح لم يعودا عليه بالنفع. وللمفارقة، ساهمت الجهود الكبيرة التي بذلها لإعادة انتخاب هيندنبورغ، في تقصير عمر ولايته كمستشار.

كان مقرراً لولاية هيندنبورغ الرئاسية - ومدتها سبع سنوات- أن تنتهي في ربيع 1932. وكانت سمعته الأسطورية كافية لتكفل له التجديد لولاية جديدة، لو أراد ذلك. لكن، وفي حال فضّلَ عدم الترشح، كان هتلر هو الأوفر حظاً بالفوز. فمع تفاقم حالة الركود الاقتصادي، وارتفاع نسبة التأييد الشعبي للنازيين، لم يكن بمقدور أي شخص، باستثناء هيندنبورغ حصراً، هزيمة هتلر.

كان هيندنبورغ شخصياً غير متحمس للترشح لفترة رئاسية جديدة. فقد كان سيبلغ من العمر خمسة وثمانين عاماً في تشرين الأول/ أكتوبر المقبل، فضلاً عن قلقه من محاولة المعارضة من القوميين الألمان والنازيين استغلال أحداث 1918، في إشارة إلى دوره في إجبار القيصر على التنحي والعيش في المنفى، حتى إنه أخبر برونغ أن "الأمور هذه المرة ستكون أسوأ بكثير".

ورغبة منه في تسهيل الأمور أكثر على المارشال العجوز، حاول برونغ الحصول على موافقة زعماء الأحزاب، لتمديد الفترة الرئاسية لهيندنبورغ دون إجراء انتخابات. غير أن تعديلاً دستورياً مثل هذا، كان يتطلب موافقة ثلثي أعضاء الرايخستاغ، وهو ما يحتم تأمين موافقة النازيين والقوميين الألمان. وكما كان متوقعاً، رفض هتلر وهوغنبيرغ، ولم يحقق برونغ شيئاً أكثر من إعطاء الفرصة لهتلر لينصب نفسه حارساً للدستور. أما اعتراض هيندنبورغ الثاني، فكان يتعلق بعدم رغبته في الترشح عن يسار الوسط، بل كان يريد تأييد الجناح اليميني، والفوز بأغلبية مطلقة من الجولة الأولى، من دون الحاجة إلى الذهاب إلى جولة فاصلة. إلا أن الخوذة الفولاذية التي كان هيندنبورغ نفسه زعيمها الفخري، لم تؤيد إعادة انتخابه. وبقي

الوضع معلقاً حتى منتصف شباط/ فبراير، عندما أعلنت مجموعة يمينية أصغر تُدعى كايفهويزر تأييدها له، وعندها قَبِلَ هيندنبورغ، على مضض، الترشح ثانية للانتخابات الرئاسية.

وخاض الانتخابات الرئاسية في مواجهة هيندنبورغ ثلاثة مرشحين، أولهم تيودور دويستربيرغ -أحد قادة الخوذة الفولاذية- كمرشح مشترك مع القوميين الألمان. أما إرنست تيلمان فكان مرشح الشيوعيين. وكما كان متوقعاً، أيَّدَ الوسط ويسار الوسط هيندنبورغ. وفي 22 شباط/ فبراير، أعلن غوبلز تسمية أدولف هتلر مرشحاً عن النازيين. لكن المشكلة كانت في أنه لم يكن مواطناً ألمانياً. وبعد أربعة أيام، أعلنت حكومة مقاطعة براونشفايغ التي كان يحكمها ائتلاف من النازيين والقوميين الألمان، تعيين هتلر ممثلاً لها في برلين. وهذا ما جعل هتلر تلقائياً موظفاً حكومياً ومواطناً ألمانياً، ومؤهلاً للترشح للرئاسة. وعلى سبيل إغاظة الفوهرر بمسماه الجديد من قبل دولة فايمار المكروهة، درج صديق هتلر اللدود إرنست هانفشتينغل على مخاطبته بـ"السيد مستشار الحكومة".

ولم يقم هيندنبورغ بحملة انتخابية كبيرة، بل اقتصر الأمر على خطاب يتيم في الراديو في 10 آذار/ مارس، أي قبل ثلاثة أيام فقط من الجولة الأولى للانتخابات. في حين قام مستشاره المطيع برونتغ بهذه المهمة عنه، وشارك في المسيرات، وألقى الخُطب في جميع أنحاء البلاد. وفي 13 آذار/ مارس، ضيَّع هيندنبورغ، بفارق شعرة، الفوز في الانتخابات من الجولة الأولى، عندما نال 49,6٪ من الأصوات، تلاه هتلر بـ 30.1٪، ثم تيلمان بـ 13.2٪، وأخيراً دويستربيرغ بـ 6.8٪.

وكانت الهدنة الانتخابية التي اقتصرت على أيام عيد الفصح تعني حصر الحملة الانتخابية للجولة الثانية في خمسة أيام، من 4 وحتى 9 نيسان/ أبريل. انسحب دويستربيرغ من السباق وبقي تيلمان، لكنه كان واضحاً للعيان، أن الانتخابات كانت منازلة بين هيندنبورغ وهتلر. وسعياً

منه لتأكيد صورته الشابة المواكبة للحداثة، قام هتلر بحملته على متن طائرة تحت شعار "هتلر فوق ألمانيا"، ونُشرت كلماته في أفلام سينمائية، وفي تسجيلات الفونوغراف أيضاً. وكانت هذه الحملة -كما كتب المؤرخ هاينريش أوغست فينكلر- من أكثر الحملات التي شهدتها ألمانيا في ذلك الحين "حداثة وتقنية".

وفاز هيندنبورغ بالجولة الثانية بنسبة 53٪ من الأصوات، وجاء بعده هتلر بنسبة 36٪، وحلَّ تيلمان ثالثاً. من جانبه، اعتبر برونينغ هذه الانتخابات بمثابة استفتاء على ولايته كمستشار، الولاية التي خرج منها مبرأً. فقد قدمت طبيعة الحملة الانتخابية تبريراً لوجهة نظره. أما النازيون، في مواجهتهم لهيندنبورغ، فقد واجهوا مشكلة تكتيكية تمثلت بضرورة التغلب على هالة التبجيل والاحترام التي كان هيندنبورغ يتمتع بها في أوساط المحافظين من أبناء الطبقة الوسطى الذين كان يحاول النازيون استقطابهم. وكان الحل بالنسبة إلى غوبلز، من الناحية الخطابية عدم الترشح ضد هيندنبورغ، وإنما ضد "النظام البرجوازي الديموقراطي الاجتماعي"، مع التذكير بأن كلمة "النظام" هنا كانت تعني في قاموس النازيين ديموقراطية فايمار. لكن، وحتى ربيع 1932، كان النظام هو الجانب المنتصر.

على أي حال، ولهذا السبب تحديداً، لم يكن هيندنبورغ راضياً عن فوزه في الانتخابات. فقد انقلبت أشكال الدعم التي شهدتها انتخابات عام 1925 بشكل معاكس تماماً، إذْ أظهر تحليل لمعطيات التصويت أن التوقعات الإحصائية لأفضل نسبة تصويت لهتلر قبل انتخابات 1932 جاءت مساوية لنفس النسبة التي كانت متوقعة لهيندنبورغ قبل انتخابات 1925؛ أي إن المزاج العام للناخبين الألمان تحول رأساً على عقب. أما الآن فقد وجد هيندنبورغ نفسه يفوز في الانتخابات بتأييد من الوسط ويسار الوسط الديموقراطي وليس اليمين، وهذا تحديداً ما كان يخشاه. وعندما هنأه رئيس حكومة مقاطعة بروسيا أوتو براون بمناسبة فوزه، رَدَّ هيندنبورغ

عليه بتأكيد أنه لا يشعر بأي التزام تجاه مؤيديه. وعلى سبيل المجاملة الروتينية، قدم برونتغ استقالة الحكومة لهيندنبورغ، متوقعاً أن يرفضها الأخير، لكن الرئيس رد على ذلك بالقول إنه سيعود إلى هذه الفكرة في القريب العاجل.

وبجحود طفولي، ألقى هيندنبورغ باللائمة على برونتغ بسبب نتائج الانتخابات، كما لامه - وليس هتلر أو هوغنبيرغ- على اضطراره لخوض الانتخابات، ولإجرائها على جولتين، فتراكمت الهموم على برونتغ. وما زاد الطين بلة أن برونتغ كان قد اقترح، من أجل مواجهة الركود الاقتصادي، فكرة توطين العمال العاطلين من العمل في المزارع المفلسة في بروسيا الشرقية. بيد أن هذا الاقتراح لم يلق قبولاً عند الإقطاعيين الأرستقراطيين الذين كان هيندنبورغ يعرفهم من الفترات التي كان يمضيها في إقطاعيته في نويديك في بروسيا الشرقية، حتى إن جيرانه من ملاكي المزارع كانوا يعيبون على برونتغ بأنه "بلشفي زراعي".

بعد ذلك جاء قرار حظر قوات العاصفة النازية الذي كان، على الأرجح، من أهم التطورات السياسية المشؤومة في ربيع 1932.

لا يمكن لشخص عاقل ومطلع على الأحداث أن يساوره الشك بأن جزءاً كبيراً من مسؤولية العنف السياسي المتفاقم بشكل ثابت، في البلدات والمدن الألمانية، كان يقع على عاتق قوات العاصفة النازية. فخلال جولتي الانتخابات الرئاسية في آذار/ مارس، ونيسان/ أبريل 1932، جمّعت قوات العاصفة "فرق طوارئ"، بدت كأنها كانت معدة للقيام بانقلاب في حال فوز هتلر. وهذا ما قدم تبريراً للنظر في حظر "القمصان البنية"، على الرغم من أن خطوة كهذه كانت تتعارض مع رغبة شلايشر باستغلال النازيين، وعلى وجه الخصوص قوات العاصفة، لتحقيق مآربه الشخصية. وعلى الرغم من أن موقفه من طريقة التعاطي مع الأحداث كان متقلباً، اعتقد

شلايشر أن الحظر من شأنه أن يجعل النازيين يبدون كشهداء، ويؤثر سلباً على انتخابات المقاطعة المقبلة، كما سيلحق الضرر بشعبية هيندنبورغ. وكان شلايشر يسعى إلى إعطاء هتلر إنذاراً نهائياً إما لإصلاح قوات العاصفة، وإما للتخفيف من غلوائها، على أن يتبع ذلك حظر كامل في حال رفض هتلر ذلك. غير أن برونينغ وفيلهلم غرونر كانا يفضلان حظراً فورياً، في حين كان هيندنبورغ يخشى من أن ذلك سيزيد من حدة الانقسام مع اليمين، ويحبط أهدافه السياسية. عندها هدد برونينغ وغرونر بالاستقالة من منصبيهما، إذا لم يوافق هيندنبورغ على الحظر الفوري. لكن هذا الأخير وافق على مضض.

صُعق شلايشر بما بدا كأنه أول هزيمة سياسية كبرى له لم يكن يتخيل حدوثها. وأخبر غرونر أحد أصدقائه أن شلايشر أصيب بما يشبه "انهياراً عصبياً" بسبب القرار. وراح الجنرال الداهية يعد العدة للانتقام.

وبدا بعضٌ من التوتر الذي كان يرزح شلايشر تحته واضحاً، في مقابلة خاصة جمعته مع برونينغ في مساء الثاني من أيار/ مايو. يومها، حاول برونينغ بطريقته العقلانية الهادئة المتبلدة إقناع شلايشر بأنه لا يمكن لهذا الأخير الاستمرار في العمل من وراء الكواليس، ولابد له من الظهور في الواجهة ليكون مستشاراً للبلاد. وقال برونينغ إنه يمنح شلايشر هذه الفرصة، شريطة أن يستخدم هذا الأخير نفوذه لدى هيندنبورغ لإبقاء برونينغ في منصبه عدة أشهر إضافية. وكتب برونينغ في مذكراته أن هذه الحديث ترك أثره على "تفكير" الجنرال، لكنه، ومن الناحية الشعورية "، دفعه إلى الإحساس بالغضب"، وهي نتيجة ما كانت لتشكل مفاجأةً بالنسبة لأي شخص كان أكثر ذكاءً من برونينغ من الناحية الاجتماعية. فالجنرال شلايشر- كما هو معروف-كان يعاني مرضاً في الكبد. ووصف برونينغ في مذكراته كيف أن شلايشر، خلال ذلك اللقاء، كان "يتقلب بين اللون الرمادي والأصفر متعباً وقد هَدَّهُ المرض تقريباً". ويتابع برونينغ مذكراته

بالقول "وبعد بضع دقائق، نظر إليّ بعيني رجل تشتعلان وكأنه في حُمّى. لقد كان كل شخص على صلة به، وتفحص لسنوات ملامح وجهه، يعرف أن الأمر انتهى".

استغل شلايشر صلاته العسكرية ونفوذه لدى هيندنبورغ، لتعطيل قرار حظر قوات العاصفة النازية، وتحطيم فيلهلم غرونر. وبالطبع قام بكل ذلك من وراء الكواليس. فقد استدعى جميع قادة المناطق العسكرية، وطلب منهم التقدم بشكوى لدى هيندنبورغ ضد غرونر وضد قرار الحظر. كما طلب من كورت فون هامرشتاين- إيكورد، رئيس هيئة أركان الجيش، تسليم هيندنبورغ ملفاً حول حَمَلَة راية الرايخ؛ وهو تشكيل شبه عسكري يتبع الديموقراطيين الاجتماعيين وأحزاب ديموقراطية أخرى. وكان الهدف من وراء ذلك إلقاء اللوم، بخصوص العنف السياسي، على عدة أطراف، وأن الاتهامات التي سيقت ضد قوات العاصفة يمكن أن تُوجه أيضاً ضد حَمَلَة راية الرايخ، فلماذا يُطبق الحظر على قوات العاصفة حصراً؟ لكن في حقيقة الأمر، لم يحتوِ ذلك الملف سوى قصاصات من صحف تابعة للجناح اليميني، وسوى تعليق مثير للجدل بشأن كتيب تدريبي لحَمَلَة الرايخ، في حين لم يرد أي شيء في هذا الصدد من أجهزة الاستخبارات. وعلى الرغم من تقليل غرونر من شأن هذا الملف، فإنه أحدث النتيجة المنشودة: فقد دعا هيندنبورغ، الذي أزعجه الملف، إلى فتح تحقيق حول حَمَلَة راية الرايخ.

دفع الغضب من قرار الحظر بشلايشر لاتخاذ خطوة أشد خطورةً وشؤماً من الناحية السياسية، عندما ألقى بتحفظاته تجاه النازيين جانباً، وفتح باب المفاوضات مع هتلر.

من جانبهم، كان النازيون متحمسين للتفاوض مع شلايشر، لمعرفتهم جيداً بموقع السلطة الفعلي. وهذا تحديداً ما كشفه فيلهلم فريك - وهو من أوائل الناشطين النازيين، وأصبح وزيراً للداخلية لاحقاً في عهد هتلر- عندما قال عام 1932، دون موارية لرودلف فيشر كاتب سيرة شلايشر

الذاتية: "إنه [أي شلايشر] يمتلك مئة ألف رجل على الأقل يقفون خلفه"، في إشارة إلى الجيش. يضاف إلى ذلك أنه لم يكن خافياً على أحد مدى النفوذ الكبير الذي يتمتع به شلايشر عند هيندنبورغ. كما وتجدر الإشارة إلى أن انقلاب البيرة الفاشل عَلَّمَ هتلر أنه من غير الممكن الوصول إلى السلطة إلا بواسطة الجيش وهيندنبورغ وليس ضدهما. وهكذا بدأ النازيون وشلايشر بحياكة المؤامرة. وكان الطرفان يمتلكان لائحة من المطالب: أولها إلغاء قرار حظر قوات العاصفة النازية، وإسقاط برونِنغ وغرونر، وإنهاء حكومة براون- سيفرينغ في مقاطعة بروسيا.

طبعاً من السهولة بمكان أن نرى كيف نشأت نقاط الاتفاق هذه من مشاعر شلايشر الجريحة، ومن رغبته في الانتقام من برونِنغ وغرونر، ومن تطابقها في الوقت ذاته مع استراتيجيته البعيدة المدى لتأسيس حكومة يمينية فعالة. لكن ذلك كان كارثةً، بالنسبة إلى الديموقراطية الألمانية، وهذا ما حدث بالفعل بعد شهرين.

وفي رحلة بالسيارة أواخر نيسان/ أبريل مع فيلهلم غرونر، في "جو رائع على طول نهر الراين"، وجد برونِنغ ووزيره متسعاً كافياً من الوقت لمحادثة أطول، وأكثر حميميةً من المعتاد. وبينما كانت السيارة تقطع المسافات، تساقطت أوهام برونِنغ الواحدة تلو الأخرى. كذلك علم غرونر بما كان يدبره له شلايشر، وتأثر كثيراً. واستذكر غرونر كيف اكتشف شلايشر، وساعده في حياته العملية، و"أحبه كما لو كان واحداً من أبنائه".

وفي أثناء تلك الرحلة، طلب برونِنغ من غرونر أن يحدثه عن تجربته في قيادة الجيش أثناء الحرب. وتحدث غرونر في حينه عن هيندنبورغ، وعن "الشكوك القوية" التي كانت تساوره حياله على حد قوله منذ صيف 1919. حينذاك -والكلام لا يزال لغرونر- كانت حكومة فريدريك إيبرت مستعدة لرفض التوقيع على معاهدة فرساي، لو أن هيندنبورغ أكد قدرة

الجيش على الدفاع عن ألمانيا. لكن هيندنبورغ قال يومها لغرونر: "إنك تعلم مثلي تماماً" بعدم وجود أي إمكانية لمقاومة عسكرية، لكن هيندنبورغ ترك غرونر يقدم هذه النصيحة إلى إيبرت كي يتهرب من تحمل المسؤولية. ورد هيندنبورغ على ذلك الموقف بأن ترك غرونر يواجه منفرداً الانتقادات الشعبية، دون حماية طوال 14 عشر عاماً. وبعد هذه المحادثة، أدرك برونغ جيداً أن "سياسة تُبنى على شخصية مثل هيندنبورغ، لا بد أن يكون مصيرها الفشل مرة أخرى".

وبينما كان الرجلان يقومان برحلتهما، كان شلايشر يعمل على قلب حكومة برونغ.

وعلى مدار شهري نيسان/ أبريل وأيار/ مايو، بدأت تتضح خيوط مؤامرة نشطة يشارك فيها من جهة هتلر وغوبلز وهيرمان غورينغ وغريغور شتراسر والكونت وولف هاينريش فون هيلدورف قائد قوات العاصفة في برلين، ومن جهة أخرى شلايشر الذي انضم إليه في نهاية المطاف مايسنر وأوسكار فون هيندنبورغ. واتفق المتآمرون على أهمية الإطاحة ببرونغ وغرونر، وعملوا في ما بينهم على وضع طاقم الحكومة الجديدة وسياساتها، إضافة إلى سعيهم للتخلص من حكومة براون-سيفيرينغ في مقاطعة بروسيا التي كانت تترنح كحكومة تصريف أعمال بعد خسارتها الأغلبية في انتخابات المقاطعة في 24 نيسان/ أبريل التي فاز فيها النازيون بـ 36.3٪ من أصوات الناخبين.

كشفت المفاوضات بين شلايشر والنازيين حجم الضغوط التي كان يعمل تحتها الطرفان. فقد كان أمراً ملحاً، بالنسبة إلى شلايشر، تشكيل كتلة مؤيدة من الجناح اليميني للحكومة المرتقبة، والابتعاد عن توجهات حكومة برونغ التي تنتمي إلى يسار الوسط، ولاسيما بعد الهزيمة القاسية التي تلقاها شلايشر عبر قرار حظر قوات العاصفة. أما بالنسبة إلى غوبلز، الذي طالما كان واقعياً عندما يتعلق الأمر بالتكتيكات السياسية، فقد أدرك

أن الزخم الانتخابي للنازيين قد يكون هشاً، الأمر الذي يتطلب تحقيق نتائج سريعة، كما عبَّر عن ذلك عندما كتب في 27 نيسان/ أبريل: "نحن نقف أمام قرار صعب"، إذْ لم يكن أمام النازيين طريق للمشاركة في السلطة إلا عبر ائتلاف مع حزب الوسط، إلا أن العمل مع هذا الأخير لم يكن وارداً. لذلك- وكما كتب غوبلز- "يجب علينا الوصول إلى السلطة"، وإلا فإن النازيين لن يحصدوا "سوى الموت" في الانتخابات.

وفي 28 نيسان/ أبريل، التقى هتلر وشلايشر وجهاً لوجه، بحضور لافت لهامرشتاين - إيكورد الذي كان معارضاً للنازيين، لكنه كان يسعى لإلغاء قرار حظر قوات العاصفة وسقوط غرونر. في تلك الليلة، اتصل هيلدورف بغوبلز لإبلاغه، أن الاجتماع سار على ما يرام، وأن الطرفين اتفقا على ما يجب القيام به.

وفي 9 أيار/ مايو كتب غوبلز "من المفترض أن يسقط برونتغ هذا الأسبوع، مع سحب الرجل العجوز [هيندنبورغ] ثقته". وفي نفس اليوم، بدأ الرايخستاغ جلسة دامت أربعة أيام لمناقشة قرار حظر قوات العاصفة، حيث شن النازيون هجوماً عنيفاً على غرونر، وتقدموا باقتراح لحجب الثقة عن حكومة برونتغ بالاشتراك مع القوميين الألمان والشيوعيين. وكان شلايشر هو من زَوَّدَ غورينغ سراً بالمعلومات التي أدت إلى تحطيم غرونر الذي كان مريضاً في أثناء الجلسة، وقدم دفاعاً ضعيفاً بأداء توقع فيه أشد المراقبين تعاطفاً معه نهاية حياته السياسية. لكن برونتغ قدم دفاعاً قوياً، ونجحت حكومته بالفوز بثقة البرلمان. بعد ذلك، ضغط شلايشر على غرونر لتقديم استقالته من منصبه كوزير للدفاع بحجة خسارته لثقة قادة الجيش.

وفي 12 أيار/ مايو يكتب غوبلز "عندما يسقط الغطاء يسقط الدوق"، في إشارة إلى مسرحية **مأساة جمهورية** للكاتب شيللر.

وكان برونتغ هو المقصود بكلمة الدوق. وفي 24 أيار/ مايو، علم غوبلز أن هيندنبورغ سيطرد المستشار في نهاية عطلة الأسبوع اللاحق.

وهذا ما جرى فعلاً يوم الأحد 29 أيار/ مايو عندما ذهب برونغ لآخر لقاء مع هيندنبورغ. وفي غرفة الانتظار، لاحظ برونغ وجود قبعة شلايشر ومعطفه. وضع هيندنبورغ نظارتيه، وأمسك بورقة كانت على مكتبه وقرأ بصوت عالٍ: لم يعد مسموحاً لحكومة برونغ العمل بموجب أوامر تنفيذية، أو إجراء أي تعديل وزاري.

ورد برونغ قائلاً: "إذا ما فهمت هذا البيان الذي قرأته للتو على مسامعي، فأنت يا سيادة الرئيس تطلب استقالة الحكومة بأكملها".

عندها أجابه هيندنبورغ: "نعم، يجب أن ترحل الحكومة لأنها لم تعد مرغوبة شعبياً". كان واضحاً أن هيندنبورغ لم يأخذ في حسبانه شعبية برونغ وحكومته حسبما أظهرته نتائج الانتخابات الرئاسية الأخيرة والتصويت على تجديد الثقة، بقدر ما كان يريد استقالة الحكومة بأسرع وقت ممكن. وكان هيندنبورغ واضحاً في ذلك، إذ قال لبرونغ: "يُملي عليّ ضميري بأن نفترق". لكنه كان لا يزال راغباً في أن يحتفظ برونغ بوزارة الخارجية. بيد أن برونغ سرعان ما رد عليه بالقول: "وأنا لدي ضمير أيضاً يا سيادة الرئيس"، رافضاً تولي أي منصب.

وفي يوم الثلاثاء الموافق 31 أيار/ مايو، دَوَّنَ غوبلز في مذكراته: "بالأمس، انفجرت القنبلة. عند الساعة الثانية عشرة ظهراً، قدمت الحكومة استقالتها إلى الرجل العجوز"، ثم أضاف عبارة ذات مغزى كبير: "وبهذا يكون النظام قد سقط".

لم يكن فرانتس فون بابن خياراً واضحاً لخلافة برونغ كمستشار للرايخ الألماني.

وُلدَ بابن عام 1879 في ويستفاليا لعائلة ارستقراطية. شارك والده - وكان صديقاً للقيصر فيلهلم الثاني- في الحرب البروسية الفرنسية، وكان، مثل هيندنبورغ، واحداً ممن حضروا الاحتفال بقيام الإمبراطورية الألمانية في فرساي عام 1871. لم يرث الابن الشاب فرانتس إقطاعية والده، مما حتَّم

عليه إيجاد عمل فالتحق بالجيش. تلقى علومه في الأكاديميات العسكرية التي تخرج فيها ضابطاً برتبة ملازم ثانٍ عام 1898 في سلاح الفرسان. وكان لتميزه في ميدان الفروسية الفضل في الفوز بعدة سباقات، وبلقب "الفارس الجنتلمان" الذي لازمه طوال حياته، واستخدمه خصومه السياسيون ضده. وأثناء خضوعه لدورة في أكاديمية الحرب أهلّتْهُ لاحقاً للعمل في رئاسة الأركان، وكان كورت فون شلايشر واحداً من الزملاء المشاركين.

وفي كانون الثاني/ يناير 1914، عُيِّنَ بابن ملحقاً عسكرياً في السفارة الألمانية في واشنطن، حيث تَعرَّف إلى معاون وزير البحرية حينذاك فرانكلين روزفلت، وإلى ضابط شاب صاعد، يدعى دوغلاس مكارثر إضافة إلى شخصيات أخرى. وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى صيف ذلك العام، أدار بابن عملية استخباراتية وتخريبية من قاعدة له في نيويورك، في محاولة لمنع وصول عدد من الجنود الكنديين إلى أوروبا. كما حاول إغراء بعض العمال الأميركيين، من أصل أيرلندي، وآخرين من أصل ألماني، بعدم العمل في مجال التسليح. كذلك حاول بابن تعطيل إنتاج السلاح الأميركي لمصلحة الحلفاء، من خلال شراء المواد الأساسية. إلا إن هذه العملية انتهت عام 1915، عندما نجحت الاستخبارات الأميركية بسرقة وثائق من أحد أفراد الطاقم التابع لبابن في أثناء وجوده على متن إحدى عربات مترو الأنفاق في نيويورك. وقد تم تسريب هذه الوثائق للصحافة، ليُعْلَنَ بابن على إثرها شخصاً غير مرغوب فيه نهاية العام.

وفي عرض لعدم الكفاءة، لم يكن ليفاجئ أحداً من الألمان أوائل الثلاثينيات، ظن بابن خطأً أن عودته آمناً إلى الوطن انسحبت أيضاً على أمتعته، لكن الأمر كان عكس ذلك تماماً. فقد وقع العديد من الوثائق التي تكشف أسماء العملاء الألمان في الولايات المتحدة بيد المخابرات البريطانية. ونشر البريطانيون مجموعة منتقاة من هذه الوثائق، ليصبح بابن بعدها شخصية مشهورة عالمياً، لكن بصورة غير مرغوبة.

واستعاد بابن مكانته بخدمة جيش القيصر بامتياز، وأُلْحِقَ عام 1917 كضابط ركن بالقوات الألمانية المرابطة في تركيا، حيث التقى هناك مصطفى كمال الذي سيُعرف مستقبلاً باسم كمال أتاتورك، ومُنح رتبة لواء في الجيش العثماني. وعندما انتهت الحرب، سمح قائد القوات الألمانية في تركيا ليمان فون ساندرز بتشكيل مجلس ثوري بين الجنود الموقوفين، على غرار ما كان يجري في ألمانيا حينذاك. تمرد بابن على المجلس الثوري، وعلى أوامر ساندرز. ولدى عودته إلى ألمانيا، أبلغ بابن المارشال هيندنبورغ بما جرى في تركيا، فأيَّدَ هذا الأخير موقف بابن، ولم يسمح بمحاكمته بتهمة مخالفة الانضباط العسكري.

ترك بابن الجيش، والتحق بالسياسة، عبر انضمامه عام 1921 إلى حزب الوسط، بصفته كاثوليكياً مخلصاً، وانتُخب نائباً في برلمان مقاطعة بروسيا. وكان من الأنسب لبابن، من الناحية الأيديولوجية، أن ينضم إلى القوميين الألمان، لكنهم كانوا بروتستانتيين متطرفين. وهذا دليل جديد على سطوة التمذهب السياسي في ألمانيا. وكان بابن خلال أول فترة برلمانية له كثير الكلام. وعلى مدى السنوات العشر التالية، لم يتسلم مناصب عليا إلا في مناسبات معدودة. وعلى الرغم من أنه بات من أكبر مالكي الأسهم في جريدة **جرمانيا**، الصحيفة الرئيسية الناطقة بلسان حزب الوسط، راح بابن يعزل نفسه تدريجياً داخل الحزب. ولم يكتف بذلك وحسب، بل خرج عن الالتزام الحزبي أكثر من مرة، حتى إنه صوت لمصلحة هيندنبورغ في الانتخابات الرئاسية عام 1925 ضد مرشح حزبه فيلهلم ماركس، الأمر الذي رفع مجدداً من رصيده لدى المارشال العجوز. وهكذا حتى حلول العام 1932، ظَلَّ بابن شخصاً يتمتع بصلات جيدة في داخل المعترك السياسي أكثر من كونه شخصية بارزة فيه.

كان بابن ارستقراطياً من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، رقيقاً ومهذباً ومتأنقاً دائماً. كان يتمتع بمظهر مقبل على الحياة، وبسمعة الحديث المرح

المسلي، بما من ذلك بلغة فرنسية طليقة، أي أنه كان في كل شيء تقريباً نقيض برونغ الجدي الذي يفتقد إلى الجاذبية. صحيحٌ أن أحداً لم يكن يرى فيه شخصاً ذكياً، ولا يمتلك سمعة برونغ وخبرته في المال، ولا شتريزيمان في الدبلوماسية، إلا أن ذلك لم يكن غائباً عن بابن الذي كتب عن نفسه ذات مرة قائلاً: "أدرك جيداً حدود معرفتي". أما السفير الفرنسي الخبيث الظريف أندريه فرانسوا- بونسيه، فقد كتب واصفاً بابن بأنه "كان سعيداً بأن لا أحد من أصدقائه أو أعدائه كان يأخذه على محمل الجد".

وكان هذا هو الرجل الذي اختاره هيندنبورغ كي يكون مستشاراً في 1 حزيران/ يونيو 1932، بدلاً من هاينريش برونغ. وكما جرى الانتقال من مولر إلى برونغ، كان شلايشر على الأرجح قد وضع بابن في ذهنه منذ عدة أشهر كخليفة لبرونغ، على الرغم من أن بابن ادعى بأنه لم يكن على علم بهذه الخطط، حتى تلقى اتصالاً هاتفياً من شلايشر يوم الاثنين الموافق 26 أيار/ مايو، وطلب منه الحضور إلى برلين من مزرعته في مقاطعة زارلاند. ويبدو منطقياً أكثر وصف بابن للطريقة التي أعد بها شلايشر كل شيء. فهو من اختار أعضاء الحكومة، وقال لبابن: "ستعجبك بكل تأكيد"، وهو من بحث مع هيندنبورغ مسألة تعيين بابن، وأبلغ هذا الأخير بمفاوضاته مع النازيين بشأن إلغاء قرار حظر قوات العاصفة، مقابل تعهد النازيين بدعم حكومة بابن.

لم تشكل عيوب بابن مصدر قلق، بالنسبة إلى شلايشر، بقدر ما كانت الغاية المرجوة منه. فقد حجز شلايشر لنفسه وزارة الدفاع متخيلاً أنه سيكون السلطة الفعلية داخل الحكومة. لذلك، وعندما اشتكى إليه أحد أصدقائه من أن "بابن ليس رأساً"، رد عليه شلايشر: "لا يتعين عليه أن يكون كذلك. فهو مجرد قبعة".

وفي واقع الحال، سجلت حكومة بابن انحرافاً دراماتيكياً عن الدستورية الديموقراطية وحكم القانون. فقد كانت حكومته أكثر يمينية ونخبوية من حكومة برونغ. ومع وجود سبعة أرستقراطيين، وثلاثة أعضاء فقط من

الطبقة الوسطى في صفوفها، سرعان ما أُطلق على الحكومة الجديدة لقب "حكومة البارونات". وكان يمكن لهذه الحكومة أن تمر مرور الكرام قبل العام 1918، لكن الثقافة كانت قد تغيرت كلياً بحلول العام 1932، فقد كان الألمان يتوقعون حكومة جامعة لمختلف الشرائح الاجتماعية. وطبقاً لشروط الاتفاق الذي تم بين شلايشر والنازيين، أُلغي قرار حظر قوات العاصفة، وتم الإعلان عن إجراء انتخابات الرايخستاغ في 31 تموز/ يوليو. وكما كان متوقعاً، قفزت مستويات العنف السياسي إلى معدلات عالية، وكان رد بابن عليها استبدادياً. فقد أصدر في آب/ أغسطس أمرين تنفيذيين بتشكيل "محاكم خاصة" بالعنف السياسي، تجرد المتهمين من معظم حقوقهم الإجرائية، بما فيها حق الاستئناف، وتفرض عقوبة الإعدام بحق كل من يُدان بارتكاب جريمة قتل. وبلغة بَدَتْ نازيةً، أوضح قاضٍ برليني أنه كان مفترضاً من هذه المحاكم "إبادة العناصر المعادية للدولة".

كان برونغ مستشاراً رئاسياً يحكم بأوامر تنفيذية تخالف الديموقراطية البرلمانية. لكن وحتى انفراط عقد حكومته، كان برونغ يتمتع بحكم الواقع بأغلبية برلمانية تؤيده. أي أن حكومته من الناحية العملية كانت أكثر ديموقراطيةً منها في الحالة النظرية. ولهذا السبب تحديداً أراد هيندنبورغ وشلايشر التخلص منها. أما حكومة بابن، فكانت مختلفة تماماً. فقد كان برونغ يعتمد على الأوامر التنفيذية للتعامل مع الجمود البرلماني، في حين اعتمد بابن وشلايشر على الأوامر التنفيذية للقضاء على الحكومة البرلمانية بشكل كامل. ورصد كاتب المذكرات الثاقب النظر الكونت هاري كيسلر هذه النقطة في الحال، وأشار إلى أن التخلص من برونغ لم يعنِ "نهاية الجمهورية البرلمانية في هذه اللحظة وحسب"، بل وعَنى أيضاً "تصعيداً أساسياً للأزمة العالمية". ولفت كيسلر، بلغة ساخرة، إلى الارتفاع الكبير لقيمة الأسهم في بورصة برلين، بوصفه رداً على المجريات السياسية "ربما بانتظار بركات الرايخ الثالث".

لم يكن الديموقراطيون الاجتماعيون قادرين على تحمل بابن كما تحملوا سلفه، كما كان حزب الوسط غاضباً من خيانة بابن لبروننغ، أي إن الحكومة الجديدة كانت ستعتمد على تأييد اليمين المتطرف، ممثلاً بالنازيين والقوميين الألمان. وبالطبع كانت هذه الفكرة بمجملها استراتيجية شلايشر لتشكيل أغلبية برلمانية جديدة من اليمين المتطرف. ومن ثَمَّ لم يكن شلايشر ملتفتاً إلى مؤشرات احتمال أن النازيين سيحققون مكسباً كبيراً في الانتخابات المقبلة، بسبب افتقاد بابن للتقدير والاحترام. وكان هذا هو المطلوب أيضاً. وكانت الخطة تعتمد بالطبع على حسن نية النازيين. وهنا يجب أن نتذكر مقولة كونراد هايدن إن الشك فضيلة سياسية نادرة.

ولم تكن الأمور لتقف عند هذا الحد وحسب، بل كان هناك أيضاً انحراف آخر عن مسار الديموقراطية قادم على الطريق، إذْ كان شلايشر يعد خطة الانقلاب على الحكومة الديموقراطية في مقاطعة بروسيا التي كانت الجزء الآخر من اتفاقه مع النازيين. وكانت وظيفة بابن، في نظر شلايشر، أن يكون مجرد واجهة لهذا الانقلاب.

على كل حال، كان شلايشر ذكياً في تفكيره، مما يكشف مجدداً استراتيجيته ذات المسارين، في ما يخص تعامله مع النازيين: استغلالهم، واحتواءهم. فقد ظن شلايشر أن سيطرة النازيين على مقاطعة بروسيا ستشبع نهمهم إلى السلطة. لكن وفي الوقت ذاته، كان ركناً أساسياً في استراتيجيته حصول النازيين على السلطة في بروسيا، دون التحكم بشرطتها التي تضم 50 ألف عنصر وتعتبر، عامل قوة كبيراً بالنسبة للرايخ. فإذا كان النازيون سيحصلون على بروسيا، كان شلايشر يريد، بالمقابل، وضع شرطة المقاطعة تحت سيطرة الحكومة المركزية.

أعد شلايشر انقلابه بعناية فائقة، وجَنَّدَ لهذا الغرض موظفاً شاباً في وزارة الداخلية البروسية يدعى رودلف دايلز. وكان دايلز، رجل النساء الوسيم، والفائق الذكاء، قد استدعي للعمل في وزارة الداخلية لتعزيز

قواها الديموقراطية، بعد أن رأى فيه المسؤولون شخصيةً ليبراليةً. لكن في الحقيقة، كان دايلز، وعلى الأغلب، مهتماً بحياته المهنية، وقادَتْهُ غريزته السياسية المحنكة للاعتقاد بأن اليمين القومي كان الحصان الرابح. فبدأ بالتآمر مع شلايشر وبابن، ومن ثم مع النازيين في صيف 1932. وكلف المتآمرون الشاب دايلز بمهمة التنقيب عن "معلومات" تتعلق بما يفترض أنها صلات سرية بين الحكومة البروسية والشيوعيين. وكانت هذه المعلومات تعني الكثير بالنسبة إلى الرئيس هيندنبورغ الذي كان قد أصرَّ على أنه لن يتحرك ضد حكومة بروسيا إلا في حال قُدِّمَ له دليلٌ على الخيانة يمكن الاستناد عليه في تقديم دعوى أمام المحكمة الدستورية العليا.

وبالفعل حصل دايلز على الدليل كما هو ولكن بطريقة مخادعة. فقد كان رئيسه في العمل فيلهلم آبيغ رئيس إدارة الشرطة في وزارة الداخلية، قد رتب للقاء سراً باثنين من الساسة الشيوعيين، لتشجيعهما على التخفيف من حدة العنف، وليس للتآمر على الدولة. تطوع دايلز لحضور اللقاء، ووعد آبيغ بأن يكون شاهداً متعاطفاً، لكنه بعد ذلك قدم إلى بابن وصفاً مشوهاً لما جرى في اللقاء، وورط آبيغ زوراً بالخيانة والتآمر.

كان شلايشر يدرك بحساباته الماكرة أن رفع الحظر عن قوات العاصفة النازية سيزيد من حدة العنف السياسي الذي يمكن تحميل مسؤوليته لحكومة مقاطعة بروسيا. وبالفعل، اندلعت في 17 تموز/ يوليو مواجهات عنيفة بين الشيوعيين والنازيين في ألتونا، إحدى ضواحي مدينة هامبورغ، أسفرت عن مصرع 15 شخصاً وجرح أكثر من 60 آخرين في حادث بات يعرف لاحقاً باسم "الأحد الدامي". وعلى الرغم من أن هامبورغ كانت مدينة مقاطعة تابعة للرايخ الألماني إلا أن ضاحية ألتونا كانت تمتد عبر الحدود إلى داخل منطقة شليسفيغ-هولشتاين البروسية، وبالتالي كانت الحكومة البروسية مسؤولة عن حفظ الأمن فيها.

وفي 20 تموز/ يوليو، وبعد مشاورات مكثفة وتخطيط مع النازيين،

ضرب بابن ضربته. فبناءً على أمر تنفيذي وقعه هيندنبورغ، وبالاستناد إلى صلاحيات الطوارئ المنصوص عليها في المادة 48 من الدستور، أقال بابن حكومة براون- سيفرينغ، وأصبح هو "مفوض الرايخ" ومن ثَمَّ رئيس حكومة مقاطعة بروسيا. وتولى منصب وزير الداخلية بالوكالة والمتحكم بشرطة المقاطعة فرانتس براخت، عمدة إيسن السابق وعضو حزب الوسط الذي كان غوبلز قد عَلِمَ بتعيينه مسبقاً.

قدمت حكومة بابن روايات مختلفة عن الأسباب التي دفعتها إلى القيام بالانقلاب. فشدد بيان رسمي على مسألة العنف السياسي الذي عجزت حكومة بروسيا - كما زُعِمَ- من السيطرة عليه. وتناول البيان نقاطاً فرعية، تحدثت عن فقدان مسؤولين كبار في حكومة المقاطعة "للاستقلال الداخلي" لمحاربة الشيوعية، إضافة إلى الشكوى من "الهجمات اللاذعة اللامحدودة" لحكومة كارل سيفرينغ ضد حكومة الرايخ. لكن، وفي خطاب مُوجَّه إلى الأمة أُذيع على الراديو مساء 20 تموز/ يوليو، قدم بابن شخصياً تفسيراً مختلفاً. فقد ركز على أنه عندما "يَمُدُّ موظفون رفيعو المستوى في مقاطعة بروسيا يدهم إلى قادة شيوعيين، بهدف التستر المحتمل على أنشطة إرهابية..... فإن هذا من شأنه أن يقوض سلطة الدولة من قمة الهرم وعلى نحو يضعف أمن الرايخ." وذكر بابن، وبشكل متكرر، الشيوعيين، دون أن يتطرق إلى التهديد الذي يشكله اليمين المتطرف.

كان انقلاب بابن -كما سُمي لاحقاً- مسماراً قاصماً دُقَّ في نعش الديموقراطية الألمانية وسوء استخدام فاضح للقانون، حتى إنه يكاد يُقارنُ بما فعله رئيس أميركي، عندما أقال حاكمي ولايتي نيويورك وكاليفورنيا في آنٍ معاً، وتولى منصبيهما بنفسه. لقد كانت حكومة بروسيا آخر حكومة ديموقراطية مهمة عرفتها ألمانيا. وبحَلِّ هذه الحكومة، أُزيحت آخر عقبة كانت تقف في وجه الديكتاتورية.

بالمقابل، لم يقدم الوزراء البروسيون، المنهكون من سنوات من المعارك

السياسية المريرة، على فعل الكثير للدفاع عن الحكومة. ولم يكن هناك احتجاجات حاشدة، بل اقتصر الأمر على دعوى قضائية أمام المحكمة. صحيحٌ أن الدعوى حققت نصف انتصار في خريف ذلك العام، لكنها عندئذ لم تكن ذات أهمية كبرى.

ومن جهة أخرى، بدأت حظوظ الشاب رودلف دايلز بالصعود. وخلال أقل من عام بعد انقلاب بابن، عَيَّنَه النازيون رئيساً للشرطة السرية في بروسيا؛ المؤسسة التي ستتضخم وتتحول لاحقاً إلى الغستابو "الشرطة السرية النازية".

في 31 تموز/ يوليو، حقق النازيون أكبر نصر انتخابي لهم حتى ذلك التاريخ. وبفضل 37.3٪ من الأصوات، و230 مقعداً في الرايخستاغ، أصبح النازيون، وبفارق كبير، أكبر حزب في ألمانيا. وحَلَّ الديموقراطيون الاجتماعيون ثانياً بنسبة 21.5٪ من الأصوات، و133 مقعداً. وتُعد هذه النتائج دليلاً على أفضل أداء للنازيين في انتخابات حرة بالكامل، لكنها لم تكن مفاجئة بسبب تردي الوضع الاقتصادي بشكل دراماتيكي منذ العام 1931، وتعاظم الغضب الشعبي ضد القوى العالمية المنفلتة من عقالها، وهو الذي يتم فرزه عبر التركيبة المذهبية للسياسة الألمانية. ومرة أخرى، يحوز النازيون التأييد الشعبي الأقوى لهم من مناطق ريفية، مثل شليسفيغ-هولشتاين.

وفي ليلة الانتخابات، شنت قوات العاصفة النازية موجة من العنف، اجتاحت أجزاء كبيرة من شمال وشرق ألمانيا. وكانت البداية في كونيغسبيرغ، مع ست جرائم قتل، ومحاولات قتل طالت مسؤولين محليين أو ساسة شيوعيين، إضافة إلى إشعال الحرائق، ومنها إضرام النار في مقار محلية للحزب الديموقراطي الاجتماعي ومكتب جريدة ليبرالية. وفي الأيام التي تلت، توسع العنف النازي وانتشر عبر بروسيا الشرقية إلى سيليزيا. وبلغت موجة العنف ذروتها ليلة 10-9 آب/ أغسطس في قرية بوتيمبا بمقاطعة

سيليزيا. فخلال الساعات القليلة الفاصلة بين اليومين، اقتحمت مجموعة من قوات العاصفة منزلاً يتقاسم السكن فيه عامل بولندي في الخامسة والثلاثين من عمره يدعى كونراد بيترزوتش مع شقيقه الأصغر ألفونس ووالدتهما ماريا. وقامت المجموعة بالاعتداء ضرباً بكل وحشية على كونراد على مرأى من والدته، ثم أطلقت عليه النار وأردته قتيلاً، كما أبرحت شقيقه ألفونس ضرباً حتى فقد وعيه.

من المرجح أن قوات العاصفة لم تكن تعلم في أثناء ارتكابها للجريمة أن الأوامر التنفيذية القاسية التي أصدرها بابن لتشكيل محاكم مُسْتَعْجَلة، وإصدار أحكام سريعة بالإعدام على جرائم القتل ذات الدافع السياسي، كانت قد دخلت حيز التنفيذ. لذلك، وفي 11 آب/ أغسطس، أُعتُقِلَ تسعة نازيين لمشاركتهم في جريمة قتل بيترزوتش. وفي 22 من الشهر نفسه، أصدرت محكمة، شُكلت خصيصاً للنظر في القضية في بلدة بيوتين، حكماً بإعدام خمسة منهم.

ورَدَّ القادة النازيون على هذه الأحكام (وليس بالتأكيد على الجرائم نفسها) بنقمة عارمة، وألقوا باللوم على بابن. وفي برقية أرسلها إلى الرجال الخمسة المحكومين بالإعدام، وصف هتلر الحكم بأنه "من أكثر الأحكام الدموية فظاعةً"، وشدد في برقيته "من الآن وصاعداً، ستكون حريتكم شرفاً لنا جميعاً، كما ستكون محاربة الحكومة التي جعلت هذا الحكم ممكناً، واجباً علينا". وفي مقالة له نشرتها الصحيفة النازية **فولكيشر بأوباختر** (الراصد الشعبي)، وَجَّهَ هتلر تهديداً صريحاً لبابن الذي "حفر اسمه في تاريخ ألمانيا بدماء المحاربين الوطنيين". كذلك أرسل غورينغ برقية دعم وتأييد إلى النازيين المعتقلين الذين زارهم في السجن قائد قوات العاصفة إرنست روم. وجاء توالي الأحداث - وحشية النازيين ودفاع قادتهم- صادماً ليس للشعب الألماني والإعلام الذين كانوا متعاطفين مع النازيين وحسب، بل وللحكومة والجيش أيضاً. وبدا أن النازيين بدأوا يخرجون عن مسار

"الشرعية". وانطلاقاً من هذا الفهم، بدأ الجيش يرسم الخطط لكبح جماح حزب هتلر، كما راحت حكومة بابن تفكر بجد بإعداد استراتيجيتها.

ومع الانتخابات وما تلاها من أعمال العنف، بدأت نهاية اللعبة بالنسبة لجمهورية فايمار. فعلى مدار الأشهر اللاحقة، من آب/ أغسطس 1932 وحتى كانون الثاني 1933، ستتخذ الحلبة السياسية الألمانية شكل مبارزة بين هتلر وشلايشر، في حين سيبدل بابن موقفه مرة مع هذا الطرف، ومرة مع نقيضه. وكان الهدف الرئيسي من هذه المبارزة كسب رضا هيندنبورغ وتأييده.

من جانبهم، أقرَّ القادة النازيون خطة للإمساك بزمام السلطة، وضع تفاصيلها إلى حد كبير فيلهلم فريك؛ وهو محام وناشط نازي، سبق له أن شغل منصب وزير الداخلية في حكومة مقاطعة تورنجيا. ولعب القادة الآخرون من أمثال غورينغ وغوبلز-إذا لم نذكر هتلر- دوراً في تلك الخطة. فقد كانوا يدركون جيداً أن التهديد الرئيسي للمؤسسة ينطلق من أن النازيين قادرون على زج قوات العاصفة في أي حرب أهلية. ولأن الرئيس هيندنبورغ كان، في نهاية المطاف، هو الوحيد المخول بتعيين المستشار، توجهت الاستراتيجية النازية إليه أيضاً، إما تهديداً وإما ترهيباً، من أجل تعيين هتلر مستشاراً للبلاد. فاستناداً إلى المادة 43 من الدستور، يمكن عزل الرئيس من منصبه بتصويت أغلبية ثلثي أعضاء الرايخستاغ أولاً على أن يتم تأكيد نتيجة التصويت في استفتاء عام ثانياً. وبدلاً من ذلك، واستناداً إلى المادة 59 من الدستور، يحق لـ 100 عضو في الرايخستاغ التقدم باقتراح، ولأغلبية الثلثين تأكيد مقاضاة الرئيس بتهمة ارتكاب أعمال مخالفة للقانون خلال وجوده في منصبه.

وكانت كل من ممارسات هيندنبورغ المتصلة بالأوامر التنفيذية منذ عام 1930، والانقلاب البروسي، أهدافاً منطقية لأي أغلبية برلمانية ذات طابع عدواني، يضاف إلى ذلك أن الأزمة السياسية المتفاقمة كانت تبشر حينذاك

بما هو أسوأ. وبعد سنوات طويلة، يتذكر برونئغ أن غريغور شتراسر الذي أصبح صديقاً له عام 1932، أخبره "أن القوميين الاشتراكيين (النازيين) وبعد انتخابات الرايخستاغ في تموز/ يوليو 1932 مباشرة، كانوا ينوون التقدم بطلب، بناء على المادة 59 من الدستور "لاتهام رئيس الرايخ"، وبطلب أخر "لعزله من منصبه استناداً إلى المادة 43" - كما قال شتراسر- بدعوى ارتكاب هيندنبورغ مخالفات قانونية بتدبير الانقلاب البروسي.

وأمام هذا الواقع، لم يكن أمام هيندنبورغ وبابن وشلايشر سوى خيارين لا ثالث لهما. فإما أن يتم إشراك النازيين في الحكم من خلال تشكيلة الحكومة وإما أن يتم إيجاد ترتيب ما يسمح للكتلة البرلمانية النازية "التعايش" مع حكومة بابن، أو حَلّ الرايخستاغ مرة أخرى، وعلى الأرجح مع تأجيل إجراء انتخابات جديدة، وهي خطوة غير دستورية، من شأنها أن تجازف باندلاع حرب أهلية، إذا ما رد النازيون على ذلك بمزيد من أعمال العنف على يد قوات العاصفة. وبدأ الحديث يزداد بشكل كبير بين الساسة والمحامين حول احتمال الخيار الثاني. ويُرَدُّ ذلك إلى فرضية مفادها أن العقدة المستحكمة بين الرايخستاغ والحكومة، ستجعل قيام هذه الأخيرة بوظيفتها بالشكل المطلوب أمراً مستحيلاً، مما يعقد الوضع إلى حالة طوارئ حكومية. لذلك خيَّمَ شبح حالة الطوارئ، وطبيعة الرد على حل الرايخستاغ، وتأجيل الانتخابات، مع مخاطر اندلاع أعمال عنف، ونشوب حرب أهلية، على مدى النصف الثاني من العام 1932، وخصوصاً بعد أحداث كونينغسبيرغ وبوتيمبا.

كان الأمر واضحاً لكل اللاعبين الرئيسيين: فبسبب معاملتهم المتشددة مع برونئغ والديموقراطيين الاجتماعيين، حشر شلايشر وبابن وهيندنبورغ أنفسهم في الزاوية. فقد بات صعباً عليهم الآن أن يجدوا مؤيداً لهم إلا في الجناح اليميني المتطرف. لكن، وفي الوقت ذاته، لم يكن لدي المحافظين التقليديين، ولا لدى القوميين الألمان، القوة التي تمكنهم من دعم أي

حكومة بمفردهم. بالتأكيد قدم النازيون فرصة الدعم المنشود، ولكن مقابل ثمن باهظ لا يرضى بتسديده سوى قلة قليلة من التيار السياسي السائد. وهنا يظهر الشيوعيون الذين حققوا معدلاً مرتفعاً جديداً في انتخابات تموز/ يوليو بلغ 14.5٪، ليتفوقوا بذلك على حزب الوسط.

بيد أن تصلب الأحزاب السياسية، وتحديداً الجناح اليميني، والسنوات العديدة من سوء الحسابات لهيندنبورغ وشلايشر وبرونغ وبابن، رمت ألمانيا في أزمة باتت متكاملة العناصر. فقد أدرك النازيون جيداً استحالة الوصول إلى السلطة من خلال مواجهة المؤسسة، ولم يكن باستطاعة هذه المؤسسة أن تستمر من دون النازيين.

وفي 6 آب/ أغسطس، التقى شلايشر للمرة الثانية بهتلر الذي كان قد أعد الخطة لهذا اللقاء مع غوبلز في اليوم السابق. فقد كان هتلر ينوي المطالبة بمنصب المستشار لنفسه وبمناصب وزارية لأربعة من القادة النازيين وهم: فيلهلم فريك وزيراً للداخلية، وهيرمان غورينغ وزيراً للنقل الجوي، وغريغور شتراسر وزيراً للعمل، وغوبلز وزيراً "التعليم وتربية الشعب". ولأنه يقود أكبر حزب في البلاد، كان هتلر في موقع يتيح له طرح هذه المطالب، ويبدو أن شلايشر وافق على ذلك، مع تعديل حقيبة فريك ليصبح وزير دولة في مستشارية الرايخ. لكن عندما قدم شلايشر الخطة إلى هيندنبورغ، ثارت ثائرة الرجل العجوز الذي وجد في فكرة أن يكون من كان يدعوه "العريف البوهيمي" مستشاره إساءة بالغة، بل إن مجرد قيام شلايشر بطرحها يُعَدّ إهانة كبيرة له. لقد كانت كرامة هيندنبورغ حساسة، ولم يكن أقل تذمراً وتأففاً من شلايشر، كما كان كذلك مع برونغ في أيامه الأولى، ليشعل هذا اللقاء الشرارة التي أدت إلى سوء العلاقة بين هيندنبورغ وشلايشر.

وفي 10 آب/ أغسطس، وجدت حكومة بابن نفسها في صراع دون طائل مع ورطتها. لكن بابن تظاهر بعدم اكتراثه بالمشكلة، بقوله إن حكومته شُكلت

لتجمع اليمين السياسي، وإن نتائج الانتخابات تبرر هذه الاستراتيجية. لكن السؤال بقي مطروحاً بشأن الكيفية التي ستتمكن من خلالها الدولة من "تجميع الجناح اليميني"، وإن كان هناك حل وسط يوفق بين الإبقاء على حكومة رئاسية [أي حكومة تعمل بموجب أوامر تنفيذية من الرئيس: المترجم] وبين رغبة النازيين بتولي السلطة؟

أما شلايشر الذي تحدث بعد بابن مباشرة، فقد أبلغ أعضاء الحكومة بكل وضوح أن هناك خيارين اثنين: أولهما أن تواصل حكومة بابن عملها، على أمل أن تحقق تحسناً اقتصادياً يُكْسِبُها الشعبية، وثانيهما أن تعتمد الحكومة على دعم الرايخستاغ، بفضل تأييد القوميين الألمان الذي يشغلون أقل من 10٪ من المقاعد، مع إقصاء النازيين كلياً عن المشاركة في الحكم، والمجازفة باحتمال اندلاع حرب أهلية. وقد يسعى النازيون إلى مخرج من الأزمة، عبر تشكيل ائتلاف مع حزب الوسط، يمنحهم أغلبية برلمانية. وكبديل من هذا السيناريو، يمكن لبابن أن يفاوض لضم بعض النازيين إلى حكومته، لكن شلايشر حذر زملاءه من أن "هتلر، وخدمة لمصلحة حركته"، سيصر على "أعلى منصب".

كذلك كان وزير العدل فرانتس غورتنر صريحاً، عندما أكد لزملائه أنه لا يمكن للحكومة أن تبقى كما هي دون أن تخالف الدستور، مما سيضطره لإبلاغ الرئيس بذلك. وما قصده غورتنر بكلامه أن بقاء الحكومة سيجبرها على اللجوء إلى حالة الطوارئ، وانتهاك الدستور، لتتحول بذلك إلى ديكتاتورية واضحة لا لبس فيها. كما شدد على أن التفكير بتوزير بعض النازيين، دون إعطائهم القيادة، ليس سوى أضغاث أحلام، وأضاف أن فكرة الدولة عند النازيين "تنطلق بقوة من غريزة الانتقام"، وعلى وجه التحديد ضد اليهود و"الماركسيين". ويُعتبر هذا الكلام لافتاً، لأنه صَدَرَ عن رجل سيشغل لاحقاً ولثماني سنوات، منصب وزير العدل في حكومة هتلر.

وفي صدى عجيب لمداولات مجلس الوزراء، كتب غوبلز في مذكراته في 12

آب/ أغسطس تحليلاً متطابقاً، جاء فيه: "الرجل العجوز متردد. فهو لا يريد هتلر مستشاراً". وهذا لم يكن أمراً قابلاً للتفاوض. ويضيف غوبلز:" إن لم يثبت شلايشر، سنهدد بحزب الوسط. وهذا يعني رأسه ورأس بابن. إما نحن وإما الشيوعيون. تلك هي المسألة".

وفي 13 آب/ أغسطس حانت لحظة اتخاذ القرار. استدعى هيندنبورغ هتلر إلى اجتماع. وكان النازيون يبذلون قصارى جهدهم لاستفزاز هيندنبورغ وبابن عبر التهديد بحرب أهلية. وكتب غوبلز في مذكراته: أن "الضعف بدأ يصيب بابن". كما عمد النازيون إلى استنفار قوات العاصفة بأعداد كبيرة حول برلين، على سبيل التباهي باستعراض القوة، الأمر الذي "جعل السادة في حالة عصبية"، على حد تعبير غوبلز الذي أكد أن هذا تحديداً كان "الهدف من وراء تلك التدريبات". كما لفت غوبلز إلى أن الجميع: بابن، وشلايشر، ومايسنر، كانوا يريدون هتلر في الحكومة، حتى أن بابن كان "أكثر حماساً"، لكن هيندنبورغ كان لا يزال "متردداً"، وعَلَّقَ على ذلك قائلاً: "من المريع أن أحداً لا يستطيع التحدث بهذا الأمر المعقد بشكل كامل مع هيندنبورغ بسبب تقدمه في السن". وكان مُعَداً أن يلتقي هتلر، في 13 آب/ أغسطس مع شلايشر وبابن أولاً، ثم هيندنبورغ. وهنا يتساءل غوبلز في مذكراته: "حان وقت اتخاذ القرار. هل أصبحت ثمرة عشر سنوات من العمل ناضجة للقطاف الآن؟".

عند الساعة الثالثة من عصر ذلك اليوم، اتصل إيرفين بلانك وزير الدولة في حكومة بابن بهتلر الذي كان قد علم بمحاولة بابن وشلايشر خداعه بمنحه منصب نائب المستشار. وسأل هتلر بلانك: "هل اتُخذ القرار؟ إذا كان الأمر كذلك، فلا جدوى من قدومي". لكن بلانك رد عليه قائلاً: "رئيس الرايخ يود التحدث معكم". وبحسب ما ورد في مذكرات غوبلز، قدمت هذه المكالمة الهاتفية "أملاً غامضاً قصير الأمد". وبالفعل ذهب هتلر للقاء هيندنبورغ.

افتتح هيندنبورغ الحديث بنبرة ودية، وأعرب عن استعداده للطلب من هتلر والقوميين الاشتراكيين المشاركة في الحكومة، وأنه سيرحب بتعاونهم. هل كان هتلر راغباً في أن يكون جزءاً من حكومة بابن؟ رد هتلر بالنفي. وكما أوضح لبابن من قبل، كانت هذه المسألة غير قابلة للنقاش، لأن أهمية الحركة القومية الاشتراكية تخوله تولي منصب المستشار.

كان رد هيندنبورغ حازماً. وأوضح أنه لا يستطيع "أمام الله وضميري والوطن" أن يسلم الحكومة لحزب واحد، أو على الأقل لحزب "ينحاز ضد كل من يخالفونه في طريقة التفكير". كما أعرب عن قلقه من "وقوع اضطرابات كبرى" في الداخل، ومن المواقف الخارجية.

من جانبه كرر هتلر استحالة قبوله بأي حل آخر. عندها سأله هيندنبورغ: "إذن ستكون في صفوف المعارضة؟" فأجابه هتلر: "ليس لدي خيار آخر".

وطلب هيندنبورغ من هتلر أن يمارس معارضته "بفروسية ووطنية"، وأضاف قائلاً له: "أنا لا أشك بوطنيتك". لكنه أكد له عزمه على اتخاذ إجراءات صارمة ضد أي أعمال عنف وترهيب من جانب قوات العاصفة. ثم توجه بالحديث له: "نحن رفاق قدامى"، في محاولة عبثية من المارشال العجوز، كي يعقد صفقة مع العريف، انطلاقاً من مشاركتهما في الحرب، وأضاف قائلاً: "وأتمنى أن نبقى كذلك. ولذا أمد لك يدي بروح رفاقية". لابد أن هذا الموقف قد استهلك قدراً كبيراً من ضبط النفس لدى هيندنبورغ الذي لم يكن لديه سوى مشاعر الاحتقار تجاه "العريف البوهيمي"، كما لم يكن سعيداً باضطراره لمصافحة رفيق هتلر إرنست روم الذي كان لا يخفي حقيقة أنه واحد من مثليي الجنس.

خرج هتلر من الاجتماع هائجاً، وبينما كان يسير في الرواق خارج مكتب هيندنبورغ، دفعته ثورة غضبه لأن يكشف واحداً من عناصر الاستراتيجية النازية، عندما أبلغ بابن ومايسنر أنه إما أن يستلم السلطة وإما أن

تتم الإطاحة بهيندنبورغ، في إشارة منه إلى التهديد بعزل هذا الأخير أو مقاضاته. ويظهر هذا التهديد بشكل واضح في الملخص الذي كتبه مايسنر لما جرى في الاجتماع، على عكس محضر الاجتماع الذي أُعِدَّ من جانب هتلر الذي أكد أن معارضته لحكومة بابن ستكون شرسة، محذراً من أنه لن يتحمل مسؤولية العواقب اللاحقة.

ظن هتلر أن شلايشر وعده خلال لقائهما في 6 آب/ أغسطس بتولي منصب المستشار، ثم تلاعب به وخدعه. كذلك كان بابن مغتاظاً من شلايشر لأنه كان يتحدث مع هتلر من وراء ظهره. هذه المواقف الحادة خلقت جواً من الأحقاد ستستعر اشتعالاً خلال فصل الخريف.

وعلى مدى أسبوعين إضافيين، صارعت حكومة بابن مشكلتها من باب كيفية معالجة الأزمة القائمة، لكن شلايشر وطاقمه في وزارة الدفاع هو من نجح في إيجاد استراتيجية بمساعدة قيِّمة من أستاذ القانون الدستوري كارل شميت الذي سيُعرَفُ لاحقاً كشخصية بارزة في عهد هتلر ويُلَقَّبُ بـ "فقيه التاج النازي". وفي اجتماع عُقد في 30 آب/ أغسطس في مزرعة هيندنبورغ في نويديك، اتفق الرئيس ومايسنر وبابن وشلايشر ووزير الداخلية البارون فيلهلم فون غيل على المضي قُدُماً بفكرة حالة الطوارئ، بعد أن زَيَّنَ الآخرون الفكرة لهيندنبورغ الذي لم يكن راغباً في أن يوضع في خانة من يخالف القانون. وجاء ذلك على يد الأستاذ شميت الذي قدم للحكومة مشورة قانونية، مفادها أنه من واجبات الرئيس حماية الشعب الألماني من أي أذى يمكن أن يلحق به، كما ورد في الفقرة 42 من الدستور التي، في هذه الحالة، تتخطى من حيث الأولوية الفقرة 24 ذات الصلة بتحديد مهلة لإجراء الانتخابات. وافق هيندنبورغ على هذا التفسير، وأجاز حل الرايخستاغ، وتأجيل الانتخابات إلى ما بعد مهلة الستين يوماً. وكان المجتمعون يراهنون على مؤشرات

تحسن الاقتصاد الألماني وتراجع مستوى التأييد الشعبي للنازيين، في محاولة منهم لاستغلال آخر دقيقة مما يتاح لهم من وقت لمواجهة هتلر.

أو على الأقل هكذا كانت ستجري الخطة، لكنها ليست المرة الأولى ولا الأخيرة التي تقف فيها عدم كفاءة بابن حجر عثرة في الطريق. فقد افتتح الرايخستاغ دورته الجديدة في 10 آب/ أغسطس، مع وجود الوزراء الرئيسيين في نويديك، ظناً منهم، وبكل استخفاف، بأنه سيتم رفع الجلسة لإفساح المجال أمام مفاوضات تشكيل الائتلاف. وهذا ما حدث، ولكن ليس قبل انتخاب هيرمان غورينغ رئيساً للرايخستاغ. وهنا جاءت الواقعة التي كشف فيها غورينغ عن مؤشر جديد على الاستراتيجية الجديدة للنازيين، بقوله إن الرايخستاغ الجديد "يضم أغلبية قومية كبيرة قادرة على العمل، "وبشكل يتعارض مع الشروط القانونية التي تستدعي إعلان حالة الطوارئ". من المرجح جداً أن النازيين كانوا على دراية تامة بالمناقشات التي كانت تجري في نويديك بين الرئيس هيندنبورغ ووزراء الحكومة الرئيسيين. وهذا ما دفعهم لإطلاق تحذيرهم بأن الاتكال على حالة الطوارئ، من شأنه أن يوفر المسوغ القانوني الذي كانت تحتاجه المعارضة للتحرك نحو عزل الرئيس.

اجتمع الرايخستاغ مجدداً بعد أسبوعين، في 12 أيلول/ سبتمبر. وتقدم الشيوعيون باقتراح التصويت على حجب الثقة عن حكومة بابن. وخلال فترة الاستراحة، تداولت الأحزاب في ما بينها مشروع الاقتراح، ووافقت في النهاية على تأييده. من جانبه، كان بابن يظن بأنه سيكون بمقدوره تقديم البيان الوزاري قبل أن يحدث شيءٌ من هذا القبيل، ولذا لم يكن مستعداً للتصويت على الثقة، حتى إنه لم يحضر معه مرسوم الرئيس هيندنبورغ بحل الرايخستاغ، فما كان منه إلا أن أسرع بطلبه من مكتبه على الفور. وعندما عاد الرايخستاغ للانعقاد، دعا غورينغ إلى إجراء التصويت على حجب الثقة عن الحكومة. ويصف السفير الفرنسي أندريه فرنسوا بونسيه

بلسانه اللاسع ما جرى بعد ذلك قائلاً: "طلب بابن الكلام، وهو يقفز في مكانه ملوحاً بورقة كانت في يده. كان غورينغ يدرك سبب هياج المستشار، وفهم بوضوح أن تلك الورقة التي كان يلوح بها ليست سوى مرسوم الرئيس بحل الرايخستاغ، فتظاهر بأنه لا يراه، ونظر إلى الجهة المعاكسة، ثم -وبكل عناد منه- أدار ظهره للمستشار كلياً، وهو يُلِحُ في إجراء التصويت". عندها شاهد فرنسوا- بونسيه المستشار بابن يقترب من المنصة ويضع الورقة على مكتب غورينغ.

وكانت نتيجة التصويت التي بلغت 512 صوتاً مع حجب الثقة، و42 صوتاً ضد حجب الثقة هزيمة نكراء لبابن، بل إنها أسوأ هزيمة برلمانية تلقتها حكومة ألمانية، إذْ لم يحظ بابن إلا بتأييد القوميين الألمان وحزب الشعب اللذين كانت قوتهما قد تقلصت بعد تسرب ناخبيهما نحو النازيين. وبعد انتهاء التصويت، التفت غورينغ إلى ورقة بابن، وتلا مرسوم حل الرايخستاغ قبل أن يرمي بها، لأنها فقدت قيمتها، لكونها "موقَّعة من وزارة تم خلعها بطريقة قانونية".

حاول شلايشر إقناع هيندنبورغ بالتمسك بخطة حل البرلمان وتأجيل الانتخابات، لكن حجم الهزيمة التي مُني بها بابن كانت قاسية إلى درجة كبيرة لا يمكن استخدامها كمستند لإعلان حالة الطوارئ. رفض هيندنبورغ تأجيل الانتخابات، وحدد موعدها في 6 تشرين الثاني/ نوفمبر.

بعد جولتين من الانتخابات الرئاسية، وانتخابات المقاطعة أواخر نيسان/ أبريل، ومن ثم انتخابات الرايخستاغ في 31 تموز/ يوليو، كانت انتخابات 6 تشرين الثاني/ نوفمبر خامس حملة انتخابية كبرى في ألمانيا خلال العام. كان الإنهاك لا يزال جاثماً على الجميع، مما سيؤدي إلى تراجع الإقبال الشعبي الذي بلغ 84٪ في انتخابات تموز إلى 80.5٪ في تشرين الثاني/ نوفمبر. وكانت خزائن المال لدى الأحزاب تعاني من ضائقة شديدة.

كان الغضب والخوف لا يزالان يغليان. وبسبب الغضب من الرفض الذي

قوبلوا به في آب/ أغسطس، زاد النازيون، وبلا هوادة، من سعير حملتهم ضد بابن، وهيندنبورغ، والقوميين الألمان الذين طالما كانوا ينافسون على نفس الشريحة من الناخبين. وأصدر قسم الدعاية تحت قيادة غوبلز أمره: "الآن سنتحول إلى الهجوم". وكان الهدف من ذلك تقديم حكومة بابن على أنها "عصابة إقطاعية". كما وجَّهَ النازيون بعضاً من عنفهم المعتاد ضد الشيوعيين نحو القوميين الألمان. وفي تشرين الأول/ أكتوبر، وفي نقاش مع النائب عن القوميين في الرايخستاغ أوتو شميت، زمجر غوبلز صارخاً: "وارينا الثرى في برلين ستة وعشرين من أفراد قوات العاصفة. أين هم شهداء حزبكم؟"

في هذه الأثناء، كان طاقم شلايشر يعد خططاً لاحتمال اندلاع حرب أهلية، ولو كانت ضربة استباقية ضد النازيين. وهناك بعض المسودات التي تكشف تفكير شلايشر بخصوص حزب هتلر، وكالعادة كان مفتوحاً على جميع الاحتمالات. ومن هذه المسودات ما كتبه شلايشر، قائلاً: "هل تحب اللعب؟؟ إن لم تفعل، فإلى القتال."

في هذا المناخ، كانت نتيجة الانتخابات استكمالاً للصراع، ولم تغير شيئاً في الواقع السياسي المأزوم. فقد بقي النازيون أكبر حزب في البلاد، رغم تراجع مستوى التأييد الشعبي لهم من 37٪ إلى 33٪، إذْ خسر النازيون جزءاً من ناخبيهم الذين عادوا إلى القوميين الألمان، ليبقوا في معسكر الطبقة الوسطى البروتستانتية.

وعلى الرغم من ذلك، لم يعن هذا أن التغيرات السياسية لم تكن قادمةً على الطريق.

وبدأ بابن يضغط على أعصاب شلايشر. فالفارس الجنتلمان كان يستمتع بمنصبه الرفيع، لكن مع حماسة قليلة للعمل. في إحدى المرات، وبينما كانت حكومته تواجه مخاطر إجراء دستوري ضدها، فضلاً عن التهديدات بحرب أهلية، وصل بابن لاجتماع متأخراً ساعتين، مرتدياً لباساً رسمياً،

وقد وضع زهرة قرنفل في عروة سترته. وخاطب وزراءه باستخفاف كبير: "يمكنكم الاهتمام بهذه التفاصيل الصغيرة بأنفسكم"، ثم غادر المكان لحضور سباق للخيل في هوبيغارتن.

كان شلايشر على الأرجح يتوقع شيئاً كهذا من بابن. وعلى الرغم من كل شيء، كل ما كان يريده شلايشر هو مستشار يفعل ما يؤمر به، قانعاً بأنه مجرد دمية. إلا أن المشكلة كانت في أن بابن، وبعد أن تذوق طعم السلطة، بدأ يمارسها. لذلك كتب شلايشر إلى أحد أصدقائه: "ما قولك في أن بابن الصغير اكتشف ذاته". كان بابن، في نظر شلايشر، مسؤولاً عن تفويت الفرصة لاجتذاب النازيين إلى الحكومة، وهي المهمة السياسية التي أراد منه القيام بها. وبحلول شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، كان العديد من الشخصيات السياسية البارزة يرى أن كل ما كان عليهم فعله هو الانتظار حتى يتفكك النازيون أكثر فأكثر، لكن الأمر كان مختلفاً، بالنسبة إلى شلايشر الذي كان يرى هزيمة النازيين أمراً مُلحّاً أكثر من أي وقت مضى. وفي الواقع، كان شلايشر يخشى من أنه، في حال انهيار وتفكك النازيين، فإن أصوات مؤيديهم ستذهب إلى الشيوعيين الذين قد يصبحون عندئذ قوة لا يمكن إيقافها. وانطلق شلايشر من أن نتائج انتخابات 6 تشرين الثاني/ نوفمبر التي سجلت تراجع النازيين، مقابل المزيد من المكاسب للشيوعيين، أثبتت أن هذا ما كان يحدث فعلياً على أرض الواقع. (فاز الشيوعيون بـ 17٪ تقريباً من أصوات الناخبين، وهو ما جعلهم ثالث أكبر حزب، وبفارق كبير عن حزب الوسط).

ولعل ما هو أهم من ذلك كله، هو أن شلايشر كان قد سمع أن المسؤول النازي الكبير غريغور شتراسر عارض سياسة هتلر، للتمسك بالمطالبة بمنصب المستشار، وأنه قد يكون راغباً "بأن يتطوع شخصياً بمد يد العون" في حال لم تحقق خطط هتلر مبتغاها.

كل هذه القضايا مجتمعة خطرت على بال أحدهم في 1 كانون الأول/

ديسمبر. في مساء ذلك اليوم، استدعى هيندنبورغ كلاً من شلايشر وبابن للقائه مع ابنه أوسكار، ومع أوتو مايسنر. بدأ هيندنبورغ الاجتماع بسؤال بابن عما يجب القيام به. وأجاب المستشار أن هتلر رفض جميع الائتلافات البرلمانية الممكنة، وأن الطريقة الوحيدة لضمه إلى الحكومة هي أن يكون مستشاراً رئاسياً. غير أن هيندنبورغ كان قد وجد في 13 آب/ أغسطس هذا الحل خطوةً خطيرةً للغاية، وأن ما أظهره النازيون من الفوضى والتطرف "لم يزد حتماً من الثقة بمقدرات هتلر كرجل دولة"، في إشارة إلى جريمة بوتيمبا وما تلاها من أحداث. فإذا لم يكن هنالك حلٌ مع النازيين، فإن القبول بفكرة حالة الطوارئ هي السبيل الوحيد. من جانبه، اقترح بابن بقاء الحكومة دون دعوة الرايخستاغ للانعقاد مرة ثانية، على أن يتم إعداد دستور جديد للبلاد، يُطرح على الاستفتاء العام، أو دعوة جمعية وطنية يتم تشكيلها خصيصاً لهذا الغرض. لكن ذلك كان يعني خرق الدستور الحالي. إلا أن بابن طمأن هيندنبورغ بوجود سابقة تاريخية تمثلت في شخصية مرموقة مثل الأمير أوتو فون بسمارك مهندس الوحدة الألمانية الذي قام بشيء مشابه في الستينيات من القرن التاسع عشر.

عندئذ انبرى شلايشر للإدلاء برأيه. ولدهشة بابن، قال شلايشر إنه عثر على طريقة توفر على هيندنبورغ الحاجة للنكث باليمين وتعهده بحماية الدستور، وأضاف إنه في حال عَيَّنَه الرئيس في منصب المستشار، سيكون بمقدوره تشكيل أغلبية في الرايخستاغ الجديد، عبر شق صفوف النازيين. عندها سينضم شتراسر إلى الحكومة، ومعه ستون نائباً نازياً في الرايخستاغ. وبمساعدة هؤلاء النواب، سيتمكن شلايشر من تجميع "محور اتحاد" يمتد عبر أحزاب الوسط إلى الديموقراطيين الاجتماعيين. وسيكون هذا الائتلاف قادراً على إيجاد حل للركود الاقتصادي وأزمة البطالة.

أدهش اقتراح شلايشر بابن الذي رد على ذلك بالتشكيك بقدرة شلايشر على شق صفوف حزب متماسك حول زعيمه، لكنه اعترف أن

شلايشر يبقى أدرى منه بالقادة النازيين. لكن اعتراضه الأكبر كان على أن خطة شلايشر تضمنت خطوة تمثل عودة إلى نظام برلماني، في حين كانت خطة هيندنبورغ - كما فهمها بابن- تقتضي تشكيل سلطة تنفيذية أكثر قوة واستقلالية.

استمع هيندنبورغ، بصمت وجدية. وتوقع بابن أن رئيس الرايخ كان يواجه "أصعب قرار في حياته الطويلة". لم يناقش هيندنبورغ أو يجادل أياً من النقاط مع بابن أو شلايشر. نهض، وقال: "قررت أن آخذ بالحل الذي اقترحه السيد فون بابن". وطلب من هذا الأخير البدء بتشكيل حكومة تنفذ خططه.

والآن جاء دور شلايشر كي يصاب بالدهشة. واستعاد لاحقاً بابن في ذاكرته ذلك اللقاء عندما أشار إلى أنه شعر بأن الصداقة غير العادية التي تجمعه بشلايشر قد فترت. وعندما حاول بابن أن يوضح لشلايشر ضرورة حماية الرئيس الآن، رد عليه شلايشر باستنكار مبهم. وفي عبارة ذات دلالة دينية يفهمها الرجلان جيداً. قال شلايشر: "أيها القس الصغير، إنك تسلك درباً وعراً" وهي ذات الكلمات التي حُذِرَ بها مارتن لوثر عندما واجه الكنيسة الكاثوليكية.

أما الآن وقد خرج العداء والتذمر بين الرجلين إلى العلن، فقد بات شلايشر مصمماً على التخلص من بابن والجلوس مكانه. وفي اليوم التالي، جاء شلايشر إلى اجتماع الحكومة، مسلحاً بذخيرة من العيار الثقيل: بلانشبايل أوت، وهو تقرير أعده العميد أويغن أوت في وزارة الدفاع، يتناول سيناريو حرب أهلية يشترك فيها النازيون والشيوعيون معاً بانتفاضة واحدة. ويركز التقرير، في خلاصته الرئيسية، على أن الجيش، في حال واجه انتفاضة داخلية وغزواً خارجياً في آن معاً، لن يكون قادراً على الدفاع عن البلاد والمحافظة على النظام. صحيح أن شلايشر أقرَّ أن التقرير يقدم استنتاجاً لحالة مستبعدة، لكنه في الوقت

الحاضر يبدو ثاقب النظر، على خلفية اشتراك النازيين والشيوعيين معاً في إضراب عمال النقل غير القانوني في برلين، خلال الأيام الأولى من تشرين الثاني/ نوفمبر. وبالنسبة إلى أشخاص من أمثال شلايشر الذي كان قلقاً من نشوب حرب أهلية، ومن تلك الشيفرة السرية بين النازيين والشيوعيين، جاء هذا الإضراب إشارة تحذير. كان وقع تقرير أوت على أعضاء الحكومة قوياً، فبابن نفسه- كما قيل- بكى عندما سمع التقرير. بعض أعضاء الحكومة شعروا أن بابن كذب عليهم بشأن قدرة الجيش على التعامل مع حالة الطوارئ، كما بدأوا يعتقدون أن شلايشر قد يكون مُصيباً، أي ربما كان قادراً بالفعل على تجميع ائتلاف أكبر وجلب النازيين "إلى الدولة"، دون إقصاء اليسار المعتدل كلياً.

بعد ذلك نقل بابن فحوى تقرير أوت إلى هيندنبورغ، موضحاً أنه بات ينبغي على الرئيس اتخاذ القرار: إما أن يُبْقي على حكومة بابن، وفي هذه الحالة أراد بابن تعيين وزير دفاع جديد، لأنه أصبح واضحاً أنه لا يستطيع العمل مع شلايشر، وإما أن يدعو الرئيس شلايشر ليكون مستشاراً.

ووفقاً لما ذكره بابن لاحقاً، "أنصت المارشال إلى شرحي دون أن ينبس بكلمة". وبعد مرور سنوات على الحادثة، قال بابن إنه، وفي النهاية، وقف هيندنبورغ وخاطبه بصوت مرتجف: "قد تظن بأني شخص حقير، عزيزي بابن، إذا ما غيَّرت رأيي الآن! لكني بلغت من العمر ما لا يساعدني على تحمل مسؤولية حرب أهلية في نهاية حياتي".

ها هو الجنرال كورت فون شلايشر، بعد سنواته الطويلة في الكواليس السياسية، يخرج إلى الواجهة بشكل صريح. ففي 3 كانون الأول/ ديسمبر، وفي سن الخمسين، يقسم اليمين الدستورية مستشاراً للرايخ الألماني. سيجرب الجنرال حظه مع ائتلاف واسع، كمحاولة أخيرة يائسة لإعادة الاستقرار السياسي للجناح اليميني. لقد استغل شلايشر تقرير أوت بفعالية كبيرة ضد بابن، لكنه سيرى بعد ذلك كيف ستنقلب الأمور عليه.

6
العريف البوهيمي والفارس الجنتلمان

تشعر ميليتا ماشمان ابنة الخمسة عشر عاماً بجاذبية تجاه النازيين انطلاقاً من رغبتها بالتمرد على والديها. وفي ذات يوم من أواخر كانون الثاني/ يناير، يصل إلى منزل عائلة ماشمان في برلين خياط العائلة لإصلاح ثوب لميليتا. كان الخياط أعرجَ محدودب الظهر. كانت ميليتا ترتدي الصليب المعقوف تحت طية صدر المعطف. ويدور حوارٌ تقول فيه الأم أنه من الجرأة، بالنسبة إلى أبناء الطبقة الوسطى، أن يعبروا عن آرائهم السياسية، لكن الخياط يقول لميليتا إن الأمور تتغير. وترد ميليتا بأنه سيأتي ذلك اليوم الذي لن يكون فيه الخدم مجبرين على تناول عشائهم في المطبخ، وكأنهم أقل شأناً.

في مساء ذلك اليوم، يصطحب الوالدان ميليتا وشقيقها التوأم هانز ـ هيرمان إلى مركز برلين لمشاهدة عرض عسكري. وبعد سنوات، ستتذكر ميليتا: "لا تزال بعض المشاعر التي أحسست بها في تلك الليلة باقية معي حتى اليوم". "هدير وقع الأقدام، وتلك الأبهة الرصينة للرايات الحمر والسود، وانعكاس توهج المشاعل على الوجوه، وتلك الأناشيد والألحان الشجية والحماسية في وقت واحد".

تكتشف ميليتا أن بعض المشاركين في المسيرة لا يكبرونها في السن كثيراً. تشعر ميليتا بالحسد، وتتمنى لو كان لديها نفس الإحساس بغاية أو هدف ما في حياتها، إذْ كانت طفولتها تجبرها على أن تعيش حياة بلا مغامرات،

حياة لا تهم. أما هؤلاء الصبية والفتيات الذين يمرون أمامها، فكانوا يمثلون لها أهميةً كبرى. ويلفت انتباهها أن الرايات التي يرفعونها كانت تحمل أسماء موتاهم.

لكنها لم تكن عمياء تجاه العنف الذي وقع في لحظتها، عندما اخترق فجأة أحد المشاركين في العرض الصفوف لينهال بالضرب على واحد من المتفرجين لم يكن يبعد عنها إلا خطوات قليلة. تفترض ميليتا أن المتفرج ربما أطلق تعليقاتٍ معادية. تشاهده كيف كان يبكي ويسقط أرضاً والدم يغطي وجهه. يسارع الأبوان إلى سحب ميليتا بعيداً عن المكان، لكن الصورة ستبقى عالقة في مخيلتها لأيام.

وعلى الرغم من ذلك، تجد مليتا خوفها ممتزجاً "بفرح يبعث على النشوة"، فالفتية المشاركون في المسيرة كانوا يحملون المشاعل، وهم ينشدون تعبيراً عن استعدادهم للموت من أجل قضيتهم. وهذا بحد ذاته شيء يتجاوز كثيراً حياة مليتا بروتينها اليومي من "لباس وطعام وواجبات مدرسية". فتشعر بتلك "الرغبة الجارفة للانتماء إلى هؤلاء الناس" الذين كانوا يرون في ذلك الشعور "مسألة حياةٍ أو موت".

في هذه الليلة، يشارك العديد من الألمان ميليتا ذلك الإحساس بالعظمة. ينتظر جوزيف غوبلز مرور مسيرة المشاعل عند فندق كايسرهوف. يبدأ العرض، كما يُدَوِّنُ في مذكراته، عند الساعة السابعة مساءً، ويمتد إلى ما بعد منتصف الليل. يجد القائد النازي صعوبة في إيجاد الكلمات القوية بما يكفي، ويكتب: "عددٌ لانهاية له من الناس، مليون شخص في المسيرة.... يا لها من صحوة! تدفق عفوي للناس. أمر لا يُصدق".

كان هناك آخرون يشعرون بالضيق والمرارة، ومنهم المثقف المحافظ إدغار يوليوس يونغ ورئيس التحرير رودولف بيكيل اللذان يشاهدان العرض معاً بامتعاض. وأخيراً يلتفت يونغ إلى بيكيل، ويقول له: "أليس مريعاً كم بتنا وحيدين وسط هذا الشعب الألماني الذي نحبه كثيراً". ويأتي الرد الأبلغ

والأوجز من الرسام الانطباعي الكبير ماكس ليبرمان الذي يتابع العرض من نافذة شقته في جادة اونتر دين ليندن: "لا أستطيع تناول الطعام بقدر ما لدي رغبة في التقيؤ".

إنه الثلاثون من كانون الثاني/ يناير 1933.

في صبيحة هذا اليوم، يقسم هتلر اليمين الدستورية مستشاراً للرايخ الألماني أمام الرئيس باول فون هيندنبورغ. والآن أتباع هتلر يحتفلون بمسيرة المشاعل التي تتسيدها التشكيلات النازية شبه العسكرية من قوات العاصفة، وقوات النخبة المعروفة بزيها الأسود "كتائب الحماية". لكن حكومة هتلر الجديدة ستكون ائتلافاً، وهاهم ممثلون عن الجماعات الأخرى من الجناح اليميني، مثل الخوذة الفولاذية، يشاركون في المسيرة.

لطالما كانت حركة هتلر مدفوعةً بالهوة القائمة بين روايتين ألمانيتين: وحدة آب/ أغسطس 1914، وخيانة تشرين الثاني/ نوفمبر 1918، ولهذا يُعتبر كانون الثاني/ يناير، بالنسبة إلى النازيين آباً جديداً. فبينما كان حاملو المشاعل يمرون من أمام نافذة مبنى المستشارية، كان غورينغ يقول لجمهور من المستمعين عبر المذياع "إن المزاج العام يشبه ما كان سائداً عام 1914". كما تتحدث صحيفة فولكيشر بِأوباختر النازية "تعود بنا الذاكرة إلى الأيام المُلْهِمة لأغسطس 1914. يومها، مثل اليوم، تبدو بشائر شعب ينتفض"، بل إن بعض النازيين، مثل غورينغ وروبرت ليه، يذهبون إلى أبعد من ذلك بالقول إن "ثورتهم" بدأت فعلياً في أغسطس/ آب 1914.

ويعد هذا عنصراً هاماً في ما يعنيه الحدث. فمنذ العام 1929 وبرونِنغ وبابن وهيندنبورغ يحاولون جميعاً البحث عن طريقة لتوحيد اليمين السياسي المنقسم، كما كانوا يحاولون الاستفادة من تأييد النازيين للمؤسسة الحاكمة. واحتاج الرئيس هيندنبورغ تحديداً إلى جهد كبير لإقناعه بأن يكون هتلر مستشاره. والآن يقف هيندنبورغ على نافذة مبنى المستشارية القديم، حيث تمر قوات العاصفة النازية، وهي تنشد كعاشق يغني حبيبته تغزلاً بها من

تحت شرفة منزلها. وتعزف فرقة قوات العاصفة الموسيقية تكريماً له مارش "دوساير العجوز"؛ التحية التقليدية البروسية لقائدهم المارشال. كما أنشدوا الأغنيات الوطنية مثل "حراسٌ على الراين". هذه هي الوحدة الوطنية التي كان يبحث عنها هيندنبورغ. لذلك فإن المزاج السائد في 30 كانون الثاني/ يناير يُطَمْئِن هيندنبورغ أن ما فعله كان هو الصواب بتسمية هتلر مستشاراً. وبعد ذلك الحدث بأسابيع، يكتب هيندنبورغ لابنته: "انتفاضة وطنية تبعث على الطمأنينة، ليحفظ الله وحدتنا".

تسلم كورت فون شلايشر منصبه مستشاراً للرايخ في كانون الأول/ ديسمبر1932، حاملاً معه خطة لحل الأزمة السياسية التي وقعت فيها ألمانيا في خريف ذلك العام.

تمحورت خطة شلايشر على فكرة "الجبهة العرضية"؛ وكانت تعني تشكيل ائتلاف سياسي يجمع ألد الأعداء، بدءاً من الديموقراطيين الاجتماعيين والنقابات العمالية، إلى جناح "شتراسر" النازي. وبدأت الخطة كفكرة لتوفير فرص العمل التي روج لها السياسي المحافظ غونتر غيركه. وكانت خطة غيركه تقضي بإقامة مشاريع للأشغال العامة والبنية التحتية ممولة حكومياً، وقادرة على توظيف نصف مليون عاطل من العمل؛ وهي فكرة تقليدية اليوم لكنها، ومن منظور عامي 1931 و1932، كانت فكرة جديدة.

نوقش مفهوم الجبهة العرضية بنهم كبير في الصحافة الألمانية، وفي أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر، كتب فرديناند فون بريدوف، نائب شلايشر، إلى هذا الأخير مذكرتين لاذعتين، حول ما دعاه بممثلي الجبهة العرضية الذين كانوا من المفترض أن يلتقيهم بريدوف لتحفيز قضيتهم، ولم يكن يقدرهم كثيراً. ونقل بريدوف عن الزوار الذين التقاهم استعدادهم لدعم شلايشر كمستشار وليس بابن. وكان من بين من التقاهم بريدوف ناشط

نـازي يدعـى رينهولـد كوردمـان وكان صديقـاً لشتراسـر وشلايشـر وغيركـه. وأعـرب كوردمـان في ذلـك اللقـاء عـن اسـتيائه مـن مسـار المفاوضـات التي كانـت تجـري بـين هتلـر وحكومـة بابـن والرئيـس هيندنبـورغ، كمـا أوضـح أن "تيـاراً قويـاً بشـكل كبير" داخـل الحـزب النـازي سـيندم كثيراً إذا مـا عـاد الحـزب إلى "المعارضـة العقيمـة"، وأنـه - في حـال فشـل هتلـر- يتعـين علـى الحكومـة أن تكسـب الحـزب النـازي للعمـل علـى "المهـام الوطنيـة". وعلـى الرغـم أنـه مـن المرجـح ألا يوافـق الحـزب بأكملـه لكـن، وبحسـب اعتقـاد كوردمـان، فـإن جـزءاً كبـيراً مـن الحـزب سـيفعل ذلـك.

هـذه هـي الوسـيلة التـي ظـن شـلايشـر بأنـه سـيتفوق بواسـطتها علـى بابـن: جبهـةٌ عرضيـةٌ تقـدم الدعـم لـه وليـس لبابـن، ممـا سيمكّنُـه مـن تفـادي فـخ بابـن المقفـل علـى تأييـد 10٪ فقـط مـن أعضـاء الرايخسـتاغ. وعندئـذ سـينجح شـلايشـر باجتـذاب النازيـين "إلى الدولـة" وتجنـب حـرب أهليـة.

لذلـك كان غريغـور شتراسـر الحجـر الأسـاس في اسـتراتيجية شـلايشـر. فعلـى مـدار العـام 1932، كان شتراسـر يـزداد اسـتياءً مـن مقاربـة هتلـر للسلطة السياسـية انطلاقـاً مـن مبـدأ إمـا كل شـيء وإمـا لا شـيء. والتـالي أن شتراسـر كان في مسـار التحـول إلى قومـي محافـظ حـر التفكير، ليتشـابه مـع شـلايشـر علـى نحـو أكبر مـن زملائـه النازيـين. كمـا أن وحشـية جريمتـي ألتونـا وبوتيمبـا، دون ذكـر دفـاع هتلـر عـن مجرمـي بوتيمبـا، كانتـا قـد أوصلتـا شتراسـر إلى مرحلـة القـرف، ودفعتـاه أكثـر نحـو رفـض عقيـدة العنـف لـدى النازيـين. وفي صيـف عـام 1932، التقـى شتراسـر وشـلايشـر لأول مـرة في منـزل الصحفـي هانزتسـيرر الـذي كان أحـد المدافعـين عـن فكـرة الجبهـة العرضيـة، مـع العلـم أن تسـيرر لم يكـن راغبـاً في جمـع شـلايشـر وشتراسـر وحسـب، بـل شتراسـر والنقابـات العماليـة أيضـاً. وبالتـوازي، أبلـغ المؤيـدون الآخـرون لخطـة الجبهـة العرضيـة الذيـن التقـوا بريـدوف في تشـرين الثانـي/ نوفمبر أن شتراسـر كان مسـتعداً "لتقديـم يـد العـون".

في 28 تشرين الثاني/ نوفمبر، التقى شلايشر بأندريه فرانسوا- بونسيه على عشاء دعا إليه أتو مايسنر. وكان الرجلان على علاقة ودية. وفي اليوم التالي نقل فرانسوا- بونسيه إلى باريس أن شلايشر "تحدث معي بصراحة حول الوضع السياسي"، وذكر أيضاً أن شلايشر أخبره بأنه سأل شتراسر "من أذكى الملازمين لهتلر" إن كان يقبل تولي منصب وزير الداخلية في حكومة برئاسة شلايشر. ورد شتراسر على ذلك بالقول إنه سيطلب موافقة هتلر أولاً. لكن، وفي حال رفض هتلر"، من المحتمل أن يعبر [شتراسر] الخط". وهذا، بحسب كلام شلايشر، "سيُحْدِثُ حالة من الفوضى داخل صفوف الحزب النازي، الأمر الذي سيكون له "أهمية كبيرة بالنسبة إلى المستقبل". وأضاف شلايشر أنه سيكون ملتزماً تولي منصب المستشار وتشكيل حكومة، إذا ما وافق شتراسر على الانضمام إليه. ووفقاً لما ذكره فرانسوا- بونسيه، أكد شلايشر أن "غالبية من التقيتهم" ردوا بشكل إيجابي على فكرة المستشارية. إلا أن الديموقراطيين الاجتماعيين حذروا شلايشر من أنهم لن يمتنعوا عن مواجهته، وأنه عندما طالبهم بمعارضته ضمن ضوابط محددة، "لم يرفضوا الفكرة". كذلك تحدث شلايشر عن الموقف ذاته لدى النقابات العمالية، من حيث هم "أشخاص جديون وإيجابيون كانوا ودودين معه أيضاً".

لذلك كان شلايشر واثقاً من قدرته على تحقيق أغلبية برلمانية، تمتد أيديولوجياً من شتراسر إلى الديموقراطيين الاجتماعيين. وليس هذا وحسب، بل تحدث في اجتماع للحكومة في 7 كانون الأول/ ديسمبر، قائلاً: "إذا ما وافق حزب الوسط، وحزب الشعب البافاري، وما يعرف باسم المجتمع التقني العامل [وهو تجمع لعدة أحزاب متفرقة من تيار الوسط]، إضافة إلى القوميين الاشتراكيين، سيتم تشكيل أغلبية حتى من دون القوميين الألمان".

ولأنه لا يتغير أبداً، كان شلايشر يعمل على عدة احتمالات في وقت واحد. فلم يكن خافياً عليه مخاطر العمل مع النازيين، كما لم يكن شتراسر

البيضة الوحيدة في سلته. وفي 1 كانون الأول/ ديسمبر، أرسل شلايشر أويغن أوت الموثوق، وصاحب تقرير الحرب الأهلية، إلى بلدة فايمار حيث كان هتلر يقوم بحملة من أجل الانتخابات المحلية. وكانت مهمة أوت تتلخص في عرض منصب نائب المستشار على هتلر، ومعرفة إن كان النازيون يتقبلون حكومة برئاسة شلايشر. وجاء رد هتلر بالنفي القاطع على الاقتراحين. عندها نقل أوت تحذيراً مفاده "في حال تعاونتم مع الشيوعيين، كما حصل في إضراب عمال النقل في برلين، فأنا أضمن لك يا سيد هتلر أنك ستقف في مواجهة بنادق الجيش".

قد يبدو غريباً للوهلة الأولى أن يرسل شلايشر أوت في هذه المهمة، وهو الذي كان قد التقى هتلر قبل أسبوع، في 23 تشرين الثاني/ نوفمبر، وطرح عليه جملة من الأسئلة. هل يرغب بالانضمام إلى حكومة مختلفة التشكيل وربما القيادة؟ وكان جواب هتلر لا. هل سيسمح هتلر لأعضاء آخرين في حزبه بالانضمام للحكومة؟ وكان الجواب نفياً قاطعاً أيضاً. هل سيواجه هتلر حكومة يرأسها شلايشر؟ ورد هتلر على هذا السؤال بنعم، قبل أن يضيف من باب المجاملة "أنه سيكون في غاية الأسف لأنها ستكون مواجهة لا بد منها." وكان شلايشر مطلعاً على موقف هتلر ومن غير الممكن أن يتوقع أجوبة مختلفة بعد أسبوع واحد. لذلك، وفي جميع الاحتمالات، كان هدف شلايشر الحقيقي من مهمة أوت هو تسليم هتلر التهديد بـ"بنادق الجيش".

وفي الحقيقة، كان كلٌّ من هتلر وشلايشر، في ظل هذه العقدة السياسية المستحكمة، يرزحان تحت ضغط هائل. فكل واحد منهما كان يمتلك أسلحة يمكنه استخدامها، كما كان كل واحد منهما يشعر بأن الوقت ينفد منه. وفي أوائل كانون الأول/ ديسمبر تقريباً، أخبر شلايشر أحد رفاقه "إذا ما فكر هتلر بالأمر أطول من اللازم، سأقوم بحل الرايخستاغ. فهتلر لا يمتلك المال الكافي لحملة انتخابية أخرى". هذا تحديداً ما كان يهدد به شلايشر. في حين كان هتلر قادراً على التهديد بحرب أهلية من المفترض أن تكون

زيارة أوت إلى فايمار قد حَيَّدَتَها. لكن وفي الوقت نفسه، كان على هتلر أن يشعر بالقلق من أن حركته كانت تفقد زخمها وأنها -إذا لم تصل إلى السلطة سريعاً- ستتفكك وتنهار كلياً. وللمفارقة الغريبة، كان يتعين على شلايشر أن يخشى الأمر ذاته، لأن انهيار النازيين، بسبب عدم وصولهم إلى السلطة، سيجعل الشيوعيين الرابح الأكبر.

مباشرة بعد قبوله منصب المستشار، ألقى شلايشر بيان الحكومة التقليدي في خطاب استعرض فيه مهاراته السياسية والبلاغية. ومما قاله إنه تردد في تولي هذا المنصب، ليس لأنه لم يكن يرغب في خلافة صديقه بابن الذي خَصَّهُ وبرونِنغ بمديح مبالغ فيه وحسب، بل لأنه كان يدرك أيضاً أن وصول وزير دفاع إلى منصب المستشار قد يثير المخاوف من ديكتاتورية عسكرية، ومن جَرِّ الجيش للتدخل في السياسة. وأضاف أن شكوكه لم تَطْمَئِنْ إلا بعد أن أدرك أن هذه الخطوة من شأنها أن تترك تأثيراً "مُبَرِّداً" بالنسبة إلى "فئة محددة من مثيري المتاعب"، ولهذا تنتفي الحاجة لإقحام الجيش في النزاعات الداخلية. وطلب من "رفاقه الوطنيين" ألا يروه "جندياً فقط"، بل و"جنرالاً اجتماعياً" "والحارس غير المنحاز" على مصالح فئات المجتمع كافة، ولفترة قصيرة. وشدد على أنه "جاء لتحقيق السلام" وليس "السيف".

كان شلايشر يدرك أنه من غير الممكن لكل فرد أن يجد "هويته كجنرال اجتماعي" قابلة للتصديق، بل كان بإمكانه أن يتخيل كيف يرد عليه مستمعوه "بإيماءة مشككة، أو حتى ساخرة". ولذا كان يُصِرُّ على أنه لم يكن هناك أي "لُحْمَة اجتماعية أكثر مما كانت موجودة في جيش ما قبل الحرب، القائم على نظامٍ التجنيد العام، حيث خدم الفقير والغني، الضباط والأفراد"، وأثبتوا في الحرب "رفاقيتهم، والشعور بالانتماء بعضهم إلى بعض".

تألف برنامج شلايشر - كما قال - من نقطة وحيدة: "خلق فرص العمل". وفي هذا السياق، تبنى نبرة تصالحية عندما قال: "أنا مهرطق بما فيه الكفاية، كيلا أتبع لا الرأسمالية ولا الاشتراكية، ولذلك فإن مفاهيم

مثل الاقتصاد الخاص، أو المُخَطَط له فقدت تأثيرها عندي". كان شلايشر يعتقد "أن على المرء أن يتبنى الاقتصاد المعقول، والمناسب في لحظة معينة، والذي يؤدي إلى النتائج الأفضل للشعب والبلاد"، بدلاً من "تحطيم الرؤوس من أجل معتقد". واختتم شلايشر خطابه بتحذير "الأحزاب والجماعات والنقابات". فهذه الأخيرة ليست غايات بحد ذاتها، وستفقد مبرر وجودها إذا ما رفضت "العمل مع الدولة". أي إن حكومته ستتبع نصيحة القائد العسكري الجليل هيلموت فون مولتكه الكبير "فكر أولاً، ثم تقدم".

لم يتخذ شلايشر خطوات مهمة بعيداً عن استبدادية بابن، بما في ذلك إلغاء الأوامر التنفيذية المتشددة ضد المخالفات السياسية. لكن خطة الجبهة العرضية أخفقت على الفور تقريباً في تحقيق أهدافها، إذْ لم يستطع شلايشر اجتذاب هتلر ولا شتراسر إلى حكومته. وفي 5 كانون الأول/ ديسمبر، أعلن النازيون والديموقراطيون رفضهم "التعايش" مع حكومته. يضاف إلى ذلك أن الديموقراطيين الاجتماعيين هددوا بالتصويت على حجب الثقة عن حكومة شلايشر عندما ينعقد الرايخستاغ، لكنهم، وعلى الأرجح، كانوا يريدون أن يخفق التصويت خشية أن يتقدم عليهم الشيوعيون في أي انتخابات قادمة. كذلك هدد الشيوعيون بالتصويت على حجب الثقة، لكنهم، خلافاً للديموقراطيين الاجتماعيين، كانوا يريدون فعل ذلك. وبالفعل، التأم شمل الرايخستاغ لبضعة أيام أوائل كانون الأول/ ديسمبر، وتقدم بمقترحات تشريعية، ثم أُجِّلَت الجلسة دون أن يجري أي تصويت على حجب الثقة.

ورفض هتلر، بشكل قاطع للمرة الثانية السماح لشتراسر أن ينضم إلى حكومة شلايشر. فمن وجهة نظر هتلر، إما أن يكون هو المستشار وإما لا أحدَ من النازيين مسموح له أن يكون في السلطة. وخشي شتراسر من أن تؤدي مقاربة هتلر أنا أو لا أحد إلى قطع آخر طريق ممكنة للوصول إلى السلطة. ومع أوائل كانون الأول/ ديسمبر، أصبح شتراسر مُهَمَّشاً

على نحو متزايد، مع التزام القادة النازيين الآخرين موقف هتلر. حتى إن غوبلز وصف في مذكراته وجه شتراسر "الذي بات متحجراً" عندما تحول أحد الاجتماعات إلى حملة ضده. وفي 8 كانون الأول/ ديسمبر، استقال شتراسر من منصبه الحزبي، وذهب لقضاء إجازة في إيطاليا. ثم بعث برسالة إلى هتلر يشرح فيها خطوته، بتعابير شبيهة بتعابير شلايشر، مشيراً إلى أنه كان من الخطأ عدم بناء جبهة واسعة ودمجها "في الدولة". كان هتلر يدرك جيداً أن شتراسر المحبوب قد ألقى بالحزب في خضم أزمة. ويذكر غوبلز ذلك في مذكراته بقوله "بدا هتلر شاحباً"، لكن، من ثَمَّ "إلى المواجهة إذا كان لا بد منها". وظن هتلر وفرسانه يومها أن استقالة شتراسر ليست سوى الخطوة الأولى في "ثورة القصر".

جاءت الأزمة، بالنسبة إلى هتلر، في توقيت سيئ إثر تراجع عدد أصوات النازيين في انتخابات الرايخستاغ في تشرين الثاني/ نوفمبر، ومرة أخرى في انتخابات مقاطعة تورنجيا أوائل كانون الأول/ ديسمبر، الأمر الذي وضع سيطرة هتلر على الحزب على المحك. وفعل هتلر ما بوسعه: دعا أهم الشخصيات القيادية في الحزب، وألقى خطاباً دام ساعتين، انتقد فيه سياسة شتراسر، مصحوباً بمناشدة عاطفية من أجل الإخلاص للحزب. وساهمت القدرات التمثيلية لهتلر في عودة التماسك إلى الحزب، ومن ثم استعاد السيطرة على أنصار الحزب في الأسبوع التالي. واتضح أن شلايشر وشتراسر بالغا في تقدير حجم التأييد الفعلي لشتراسر داخل الحزب النازي، على الأقل عندما يصل الأمر إلى منازلة بينه وبين هتلر. كما تبين أن عدد النازيين المستعدين للحاق بشتراسر على حساب الانفصال عن الحزب كان لا يُذكر. من جانبه، وكما أخبر أخاه لاحقاً، لم يستطع شتراسر هضم تهميشه المتزايد داخل قيادة الحزب. وعن هذا قال شتراسر: "لم أكن راضياً عن وضعي خلف غورينغ وغوبلز وروم". ورأى في تلك التراتبية "تنكراً، وإهانة لا أستحقها".

لكن ما كان محيراً أكثر أن شتراسر لم يحاول حتى أن يواجه الموقف، بل تبين أنه كان يفتقد الدافع لمواجهة هتلر، واكتفى بالانسحاب من أي نشاط سياسي، على الرغم من احتفاظه بمقعده في الرايخستاغ حتى مارس/ آذار 1933. هنالك عدة أسباب محتملة وراء هذا الموقف. فقد كان واضحاً أن شتراسر لم يستوعب الأهمية الاستراتيجية للحظة السيطرة على الحزب القومي الاشتراكي. فعلى مدى السنوات السابقة، نجح في صنع شبكة من العلاقات خارج نطاق الحزب، ظناً منه، على الأرجح، أنها الأهم بالنسبة إليه. وبعد استقالته مباشرة، كتب إلى أحد أصدقائه عن رغبته "بجمع مختلف أصحاب العقول البناءة، أياً كانت انتماءاتهم، على أساس أفكار جديدة"، وأضاف: "إني على قناعة تامة بأن زمن التجييش والأحزاب يختفي سريعاً، وأن المستقبل القادم يتطلب رجالاً مستعدين للدخول في الحكومة بشجاعة وحس بالمسؤولية". لكن، وعلى الرغم من أن شتراسر لطالما أظهر استقلالية أكبر عن هتلر، قياساً إلى الأعضاء الآخرين في الدائرة الداخلية، فإنه وفي التحليل الأخير، لم يستطع استحضار الإرادة للانفصال كلياً عن "الفوهرر".

إلى ذلك، وحتى فترة طويلة من كانون الثاني/ يناير، كان شلايشر على ما يبدو لا يزال يأمل، بشكل غامض في حل سياسي ما يتعلق بشتراسر الذي كان هو الآخر لا يزال يفكر، بشكل غير واضح أيضاً، بانضمامه إلى حكومة شلايشر، ولا سيما بعد عودته من إجازته في إيطاليا نهاية كانون الأول/ ديسمبر، لكنه، وبعد استقالته من مناصبه الحزبية، تخلى شتراسر عن قاعدته السياسية وفرصته الأفضل للتأثير. وكان ذلك يعني أن الحل، لخروج ألمانيا من العقدة الدستورية، كان بعيد المنال أكثر من أي وقت مضى. كذلك بقي هيندنبورغ مصمماً على رفض تعيين هتلر مستشاراً له. إذن، من هو الشخص القادر على القيام بهذه المهمة؟ وأين له أن يجد دعم الأغلبية؟ هل كان تشكيل "حكومة مقاتلة"، تعتمد على الجيش، وتواجه ربما حرباً أهلية، هو الحل الوحيد؟ ما الذي قد يحدث عندئذ للحركة النازية التي، حتى بعد نجاتها من أزمة انشقاق شتراسر، واجهت مشكلة لا يمكن حلها

بشأن كيفية الوصول إلى السلطة؟ وفي عشية عيد الميلاد، سجل غوبلز في مذكراته أن العام 1932 "كان جولة أخرى من سوء الحظ وحسب".

لم يكن هناك، على الأرجح، سوى رجل واحد في ألمانيا قادر على تدوير الزوايا السياسية، بإيجاد طريقة ما لإيصال هتلر إلى السلطة. إنه فرانتس فون بابن.

كان بابن، خلال العام 1932، قد بدأ يستمتع بكونه مستشاراً، ومع اقتراب العام من نهايته، كان يضمر في داخله الحقد على صديقه السابق شلايشر، حتى أن غوبلز كتب في كانون الثاني/ يناير أن "بابن المنتقد اللاذع لشلايشر، يريد الإطاحة به والتخلص منه كلياً".

في 16 كانون الأول/ ديسمبر، ألقى بابن خطاباً في "هيرينكلوب" (نادي السادة) وهو تجمع يضم رجال أعمال ألمانيا، ونخبتها السياسية والمهنية. وبعد الخطاب، تحدث بابن إلى كورت فون شرودر؛ مصرفي من كولن، كان أحد المؤيدين السابقين لحزب الشعب وزعيمه غوستاف شتريزيمان، قبل أن يتحول إلى النازيين بعد وفاة هذا الأخير. وكان شرودر واحداً من المؤسسين لجماعة تدعى "أصدقاء الاقتصاد"، كانت مهمتها جمع التبرعات من رجال الأعمال لمصلحة النازيين. وذكر بابن أن شرودر قال له إنه لا بد من وجود طريقة ما للعمل مع النازيين. فأخبره بابن أنه وشلايشر حاولا ذلك وفشلا، معرباً عن استعداده لتكرار المحاولة. ومما يتذكره شرودر عن هذه المسألة يمنح بابن دوراً نشيطاً بقوله: "عندما رأيت فون بابن، اعتقد أنه باستطاعتنا ربما الآن، أن نعقد اجتماعاً نوضح فيه النقاط المختلفة التي باعدت بيننا".

ورتب شرودر للقاء سري، في منزله في كولن، بين بابن وهتلر في الرابع من كانون الثاني/ يناير 1933. كان هتلر في طريقه للمشاركة في حملة الانتخابات المحلية في مقاطعة ليبه -ديتمولد القريبة، واستغل رحلته كتغطية

على اللقاء. ولم يعلم غوبلز، وحتى بعض المرافقين لهتلر في الرحلة بأمر الاجتماع إلا بعد حدوثه. إلا أن خبر اللقاء كان قد سُرِبَ إلى شلايشر، وفوجئ بابن بأحد المصورين يلتقط صورة له، وهو يترجل من سيارة أجرة أمام منزل شرودر. ونُشِرَ الخبر في جميع الصحف في اليوم التالي.

لم يبدأ الحديث بشكل جيد . ويستذكر بابن ما جرى يومها قائلاً: "لقد صَبَّ عليَّ هتلر جام غضبه بسبب قضية بوتيمبا . لكن بابن رد عليه بأن الحديث عن ذلك مضيعة للوقت، وأنه جاء، لأنه سمع أن هتلر يود استئناف اتصالاته مع الحكومة، والتحدث عن المستقبل القريب. وبعد عدة أيام، أبلغ هتلر غوبلز بما جرى في اللقاء. وبحسب ما ورد على لسان هتلر، كان "لا يزال لبابن صوتٌ مسموعٌ عند الرجل العجوز (هيندنبورغ)"، وأن لديه رغبة قوية للإطاحة بشلايشر. وعلى هذا الأساس، توصل الرجلان إلى "تفاهم". وكما دَوَّنَ غوبلز، كان هذا التفاهم يقضي إما "بمنصب المستشار، وإما بوزارتي الدفاع والداخلية"، مضيفاً "ونحن منصتون". هذه المؤامرة - بابن والنازيون ضد شلايشر- كانت تمتلك صلات قوية مع الدائرة الضيقة المحيطة بهيندنبورغ، وحصلت على معلومة من الداخل في غاية الأهمية؛ فقد رفض هيندنبورغ أن يمنح شلايشر أمراً بحل البرلمان، لتجنب التصويت على حجب الثقة بحكومته. وفي ظل جلسة مُنتظَرة للرايخستاغ، كان هذا يعني أن شلايشر بات محاصراً، والوقت ينفد منه، ويسجل غوبلز بفرح غامر، في مذكراته: "إنه يسير نحو النهاية".

وكان مفتاح هذا التحالف علاقة بابن الوثيقة بهيندنبورغ. فإذا كان هناك شخص ما قادر على تسويق فكرة تنصيب هتلر مستشاراً، فلابد أنه بابن. وخلال شهر كانون الثاني/ يناير، تفاوض هتلر وبابن، واختلفا، فكل واحد منهما كان يريد المستشارية لنفسه. من سيفسح الطريق للآخر؟ وفي النهاية، هل سيوافق هيندنبورغ فعلاً على حكومة يرأسها هتلر؟ وكيف سيكون رد شلايشر؟ وبما أنه كان من المفترض أن الجيش يقف وراءه، يمكن

السؤال: إلى أي مدى كان مستعداً للذهاب في منع بابن أو هتلر من الوصول إلى السلطة؟

على ما يبدو أن شلايشر لم يستوعب خطورة موقفه. كان يعلم بأنه غير قادر على مواجهة الرايخستاغ دون ائتلاف مستقر، وفي 6 كانون الثاني/ يناير أخبر شلايشر أوتو براون، الديموقراطي الاجتماعي رئيس حكومة مقاطعة بروسيا، أن هيندنبورغ لن يمنحه أمراً بحل الرايخستاغ مع تأجيل الانتخابات إلى ما بعد مهلة الستين يوماً. (يشار إلى أن المحكمة العليا كانت قد أعادت براون جزئياً وبصلاحيات محدودة إلى منصبه بعد بضعة أشهر من انقلاب بابن). لكن شلايشر، وفي أحيان أخرى، كان يبدو متفائلاً. ففي اجتماع للحكومة في 16كانون الثاني/ يناير، كان واثقاً من أن هيندنبورغ سيعطيه أمراً بحل البرلمان ويؤجل الانتخابات، وحتى إن هتلر لم يعد راغباً في منصب المستشار. كان يظن أن هيندنبورغ سيعود إلى موقفه، حتى ولو كان في ذلك انتهاكٌ للدستور، وهي النقطة التي قال عنها شلايشر، في كانون الثاني/ يناير، إنها ستؤدي إلى حرب أهلية؛ الحجة ذاتها التي استغلها شلايشر ليخلف بابن في منصبه، وهي أيضاً النقطة التي كانت تحظى بأهمية بالغة، ولم ينسها هيندنبورغ خلال الأسابيع الماضية.

كذلك كان شلايشر لا يزال يتحدث مع شتراسر، وتكلم عنه بحماس أمام فرانسوا- بونسيه حيث أخبر السفير الفرنسي أن شتراسر كان الشخص الوحيد الذي يتمتع بمكانة كبيرة بين النازيين، دون أن يعلم- كما هو واضح- بتقليم أظافر شتراسر داخل الحزب، بل حتى إن شلايشر كان واثقاً بأن شتراسر سيتبعه، وسيرفض مع "أصدقائه" التصويت ضد حكومة شلايشر في الرايخستاغ، حتى إنه كان يظن بأن شتراسر سيقود حملة ضد هتلر في حال صدر قرار بحل البرلمان. لكن شلايشر كان لا يزال يحتفظ بموقف لين تجاه بابن. فعندما سأله فرانسوا- بونسيه عن اجتماع هتلر وبابن في 4 كانون الثاني/ يناير، اعتبر شلايشر أن بابن ارتكب خطأً في محاولة

كسب تأييد هتلر لحكومة شلايشر. وبحسب قول شلايشر، أضَّرَ بابن نفسه كثيراً، "خاصة عند المارشال فون هيندنبورغ الذي صُدِمَ بأسلوب بابن". وأضاف أنه سيتعامل مع الخطأ الذي ارتكبه صديقه برحابة صدر، وسيقول له: "يا صغيري فرانتس، كنت أحمقَ!"، ولدى عودته من لقاء شلايشر، اعتقد السفير الفرنسي أن شلايشر كان واثقاً، ومبتهجاً، وبصحة جيدة، "على الرغم من اصفرار وجهه".

لكن سرعان ما سيتضح كم أساء شلايشر تقدير وضعه.

في نهاية المطاف، كان كل شيء يتوقف على هيندنبورغ. وفي كانون الثاني/ يناير واجه شلايشر المتاعب من هذه الجهة. إذْ أراد شلايشر إحياء سياسة برونتغ، لتوطين العمال العاطلين من العمل في المزارع المُفْلسة في بروسيا الشرقية، وهي فكرة كانت لاتزال مرفوضة لدى الارستقراطيين ملاك هذه المزارع. وفي كانون الثاني/ يناير 1933، عاد جيران هيندنبورغ إلى الشكوى مجدداً بشأن هذه السياسة. كذلك ظهرت فضيحة حول سوء استغلال أموال برنامج المساعدات الشرقية المخصصة للمزارعين البروسيين، بعد اكتشاف أن ملاك الأراضي كانوا يستغلون تلك الأموال، المخصصة لجعل مزارعهم أكثر تنافسية، من أجل تأمين حياة مريحة بالنسبة إليهم. كذلك اقتربت الفضائح ذات الصلة بالمقاطعات الشرقية من هيندنبورغ شخصياً. فقد نقلت صحيفة **تاغليش روندشاو** (العرض اليومي) -وهي جريدة يُعتقد عموماً أنها كانت الناطق بلسان شلايشر- أنه تم تسجيل ملكية إقطاعية هيندنبورغ في نويديك باسم ابنه أوسكار، للتهرب من ضريبة الميراث. ولم يكن هذا خبراً جيداً، بالنسبة إلى هيندنبورغ الذي كان شديد الحرص على صورته. ونظراً للجريدة التي نشرت الخبر، بدا الأمر كأنه محاولة من شلايشر للضغط على هيندنبورغ الذي شعر وقتها أنه كان مجبراً على الاختيار بين شلايشر من جهة، وصورته وجيرانه الارستقراطيين من جهة أخرى. وكان ذلك يعني أنه يمكن لهيندنبورغ الاستغناء عن شلايشر.

وفي كانون الثاني/ يناير 1933، يُبَلِّغُ هيندنبورغ مرة تلو الأخرى مستشاريه رفضه القاطع تسليم الحكومة لهتلر، كما فعل عندما أقسم على ذلك في آب/ أغسطس وتشرين الثاني/ نوفمبر1931. لكن هذا الموقف لم يُثْنِ هيندنبورغ عن مسعاه الحثيث، منذ صيف 1931، لإشراك هتلر والنازيين في حكومة ذات أغلبية من الجناح اليميني بطريقة ما. وظلت هذه الرؤية مطروحة في شهري آب/ أغسطس وتشرين الثاني/ نوفمبر. لكن، وفي العام 1932، لن يشكل هيندنبورغ حكومة يمينية مقابل تسليم هتلر رئاستها. فجأة وفي كانون الثاني/ يناير1933، تغير الموقف، فما الذي تغير؟

كان الفارق الوحيد هو نتائج انتخابات مقاطعة ليبه-ديتمولد في 15 كانون الثاني/ يناير. ومن باب العلم، كانت ليبه- ديتمولد مقاطعة صغيرة المساحة، لا يزيد عدد سكانها عن 173 ألف نسمة. وفي الظروف العادية، لم تكن الانتخابات المحلية فيها تمثل أهمية كبيرة على الصعيد الوطني. لكن مع الحالة السياسية المستجدة، وجد النازيون في هذه الانتخابات فرصة لإحداث تغيير معنوي في الزخم الانتخابي، بعد الخسارة التي تعرضوا لها في انتخابات الرايخستاغ في تشرين الثاني/ نوفمبر، وانتخابات مقاطعة تورنجيا التي تلتها. لذلك صَبَّ النازيون كل جهودهم في انتخابات ليبه-ديتمولد، وقاموا بحملة مكثفة. ونجحت الخطة، وفاز النازيون بنسبة 43٪ من أصوات الناخبين مقابل 39٪ للديموقراطيين الاجتماعيين، و8٪ للقوميين الألمان. وعلى الرغم من قلة أهميتها فعلياً بالمعنى السياسي، قدمت هذه النتائج للنازيين دعاية كانوا بأمس الحاجة لها، ووجهت ضربة كبرى لاستراتيجية شلايشر. ورفع السفير المطلع، والفطن دائماً، فرانسوا- بونسيه إلى باريس تقريراً أكد فيه أن نتائج مقاطعة ليبه- ديتمولد وضعت خاتمة لأي تهديد كان يشكله شتراسر على الحزب النازي. وأشار السفير إلى أن "شتراسر هو الخاسر الحقيقي في 15 كانون الثاني/ يناير". فقد كانت هذه الانتخابات سبباً لتخلي شلايشر عن فكرة عرض منصب نائب المستشار، ورئاسة حكومة مقاطعة بروسيا، على شتراسر. وكان إيرفين بلانك وزير الدولة

في مستشارية شلايشر قد أخبر فرانسوا- بونسيه أن الحكومة فقدت الأمل بقدرة شتراسر على جذب جزء راجح من النازيين معه. وأنهم باتوا يفضلون، في هذه الظروف، بقاءه كعامل تقسيم داخل الحزب النازي.

غير أن الاستراتيجية النازية للتهديد بعزل هيندنبورغ ومقاضاته كانت العامل الأكبر في تبدل الحظوظ السياسية لهتلر وشلايشر. واتضح ذلك تحديداً في الأحداث المفاجئة التي وقعت في الأسبوع الأخير من كانون الثاني/ يناير عندما اتخذت المفاوضات بين هتلر وبابن ومستشاري هيندنبورغ أوتو مايسنر، وأوسكار فون هيندنبورغ، بواسطة وزير خارجية هتلر لاحقاً خواكيم فون ريبنتروب، اتخذت مساراً متوتراً غير متوقع.

شارك ريبينتروب في الحرب العالمية الأولى، لكن عندما منعته إصابته من مواصلة عمله الميداني على الجبهة، أُرسلَ إلى تركيا حيث تعرف على فرانتس فون بابن. وأثبتت هذه العلاقة جدواها في آب/ أغسطس 1932، عندما اتصل بابن بصديقه القديم ريبينتروب، وطلب منه أن يكون وسيطاً مع هتلر. وكان ريبينتروب لديه العديد من الأصدقاء النازيين أيضاً، لأنه في ذلك الحين كان قد انضم إلى الحزب النازي (متأخراً عن بقية القادة النازيين). سافر ريبنتروب إلى بريختسغادن للقاء هتلر الذي قال في ما بعد عنه: "لقد ترك انطباعاً جيداً". وبات ريبنتروب من جانبه على قناعة بأن [هتلر] حصراً وحزبه قادران على حماية ألمانيا من الشيوعية. طبعاً في ضوء تذمر هتلر، وتصلب هيندنبورغ، كان الأمل بحدوث تغيير ما ضئيلاً.

لكن الأمور تغيرت في كانون الثاني/ يناير. فحينذاك طلب صديق هتلر هاينريش هملر ورجل الأعمال فيلهلم كيبلر من ريبنتروب ترتيب لقاء آخر بين بابن وهتلر. قدم ريبنتروب منزله الذي عُقد فيه الاجتماع، في وقت متأخر من مساء يوم الأحد 22 كانون الثاني/ يناير، بحضور فيلهلم فريك، وهيرمان غورينغ، وأوتو مايسنر، وأوسكار فون هيندنبورغ. واستهل هتلر اللقاء بحديث مطول على انفراد مع أوسكار لمدة ساعتين، قبل أن يبدأ

محادثاته مع بابن. ومن الواضح أن هتلر كان قد ألقى على مسامع الشاب هيندنبورغ حديثه المضجر المعتاد عن خططه السياسية، ورَدَّ عليه أوسكار، ببساطة، بالقول أنه ليس برجل سياسة. على أي حال، لم يكن اللقاء بينهما حواراً فكرياً، حتى إن هتلر أخبر غوبلز، بعد عدة أيام، أن هيندنبورغ الابن "ليس سوى تجسيد للغباء". من جانبه، أبلغ بابن هتلر أنه لازال يواصل ضغطه على رئيس الرايخ للقبول بهتلر مستشاراً، وأكد له أن لا يمكن أن يضمن موافقة المارشال العجوز بالفكرة. وبعد الاجتماع، استقل أوسكار ومايسنر سيارة أجرة أقلتهما إلى مركز مدينة برلين. وبعد صمت طويل، قال أوسكار إن قبول بابن أن يكون نائب المستشار تحت قيادة هتلر ربما هو الحل الوحيد، على الرغم من أن الفكرة لم تكن تلقى إعجابه.

وفي الواقع، لم تلق الفكرة إعجاب هيندنبورغ أيضاً. لذلك عندما التقى بابن معه في اليوم التالي، جدد هيندنبورغ، وبشكل حازم، رفضه تسمية هتلر مستشاراً للبلاد. وهذا لم يكن يعني أن هيندنبورغ كان يريد الإبقاء على شلايشر، فالعلاقة بين المارشال العجوز والجنرال باتت الآن باردة فعلاً. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، جاء شلايشر والتقى هيندنبورغ ليعرض عليه ملخصاً عاماً أعده طاقم شلايشر لثلاثة خيارات "لسياسة ناجعة ضد الرايخستاغ": أولها أن يعلن هيندنبورغ حالة الطوارئ، وحل الرايخستاغ، وتأجيل الانتخابات. أما الخيار الثاني فكان إلزام الرايخستاع بتعليق جلساته ودعوته للانعقاد مجدداً، في حال وافق أعضاؤه على "أغلبية إيجابية" وعمل إيجابي. أما الخيار الثالث -وكان جديداً كلياً- فقد استند إلى فكرة أن هناك ثغرة في دستور فايمار تتعلق بمنح الحق بإجراء تصويت على الثقة بالحكومة، دون أن تلزم الطرف الذي يتخذ هذه الخطوة باقتراح حكومة قادرة على كسب أغلبية برلمانية. ويوضح واضعو هذا الخيار أن لجنة صياغة الدستور لم تضع في حسبانها احتمال ظهور عقدة برلمانية، بسبب "الأغلبية السلبية"، مثل النازيين والشيوعيين الذين فازوا عام 1933 بأغلبية ضئيلة في الرايخستاغ، ولا يوافقون على أي شيء أكثر من

إصدار عفو عن ناشطيهم المسجونين. فإذا ما كانت هذه الأغلبية السلبية تنوي طرح حجب الثقة بشلايشر، فإنه من المقبول دستورياً بالنسبة إلى هيندنبورغ، أن يطلب من حكومة شلايشر البقاء في عملها كحكومة لتصريف الأعمال حتى إشعار آخر، إلى أن يتوصل الرايخستاغ إلى تشكيل حكومة بديلة.

وكان أويغن أوت، الذراع الأيمن لشلايشر، قد نصح هذا الأخير بالضغط تجاه إعلان حالة الطوارئ عند لقائه هيندنبورغ، وهذا ما فعله شلايشر. لكنه لم يدفع باتجاه خيار "حكومة تصريف الأعمال". وبما أن هذا الخيار كان أكثر قابلية للتطبيق، وقبولاً من الناحية الدستورية للبقاء في السلطة، بقي السبب وراء عدم دفعه بهذا الخيار أمام الرئيس غير واضح. بيد أن شلايشر، وفي لقاء على العشاء مع الصحفيين في برلين في 13 كانون الثاني/ يناير، برر ذلك بقوله إنه كان لا يزال بإمكان الرايخستاغ، في ظل هذا الخيار إسقاط أوامر الحكومة التنفيذية، وإلحاق الضرر بالاقتصاد، مما سيترك الحكومة وجهاً لوجه أمام الخيارين الباقيين. وقد يكون أمامها أكثر من ذلك. وخَلُصَ العديد من الأشخاص الذين تحدثوا إلى شلايشر خلال فترة توليه منصب المستشار إلى الإحساس بعدم رغبته في البقاء في منصبه أكثر من ذلك. وذكر مراسل صحفي، في منتصف كانون الثاني/ يناير، أن شلايشر كان يبدو شاحباً، و"ازداد وجهه نحولاً بشكل ملحوظ أكثر مما كان عليه من قبل". وبسخريته المعتادة، قال شلايشر عن نفسه: "إنه لأمر سيئ جيداً ألاّ يكون لدي نزوع نحو جنون العظمة". وهكذا اقترب شلايشر من نهاية شهر كانون الثاني/ يناير مع الشعور بالاستسلام للقدر بكل طمأنينة.

في 23 كانون الأول/ ديسمبر، أبلغ هيندنبورغ المستشار شلايشر بعزمه على دراسة فكرة حل الرايخستاغ من دون تأجيل الانتخابات. فهذه الخطوة -كما قال هيندنبورغ- "ستُفَسَّرُ من قبل جميع الأطراف على أنها

انتهاك للدستور". لذلك كان هيندنبورغ، قبل اتخاذ مثل هذه الخطوة، بحاجة إلى ضمانات من جميع قادة الأحزاب، تُقر بحالة الطوارئ، ولا تتهمه بالقيام بعمل غير قانوني. وحسب ما ذكره بابن، طرح هيندنبورغ نقطة ذات دلالة كبيرة عندما قال لشلايشر: "في 2 كانون الأول/ ديسمبر، توقعتَ اندلاع حرب أهلية إذا ما اتبعتُ اقتراح بابن، كما اعتقدتَ وقتها أن الجيش والشرطة ليسا في وضع يمكنهما من مواجهة اضطراب داخلي". وخلال الأسابيع السبعة الأخيرة، زادت الانقسامات الداخلية حدة، وما يزال النازيون والشيوعيون على موقفهما المتشدد، ولم يزد عديد الجيش والشرطة. وهنا أضاف هيندنبورغ قائلاً: "فلو كان من المتوقع اندلاع حرب أهلية حينذاك، فماذا يمكن لنا أن نتوقعه أكثر من ذلك اليوم؟"

في 26 كانون الثاني/ يناير، كان هيندنبورغ على ما يبدو لا يزال متمسكاً برفضه تسمية هتلر مستشاراً. وفي نفس اليوم كان قائد الجيش كورت فون هامرشتاين - إيكورد يزداد قلقاً حيال شائعات تتحدث عن احتمال قيام هوغنبيرغ وبابن بتشكيل حكومة جديدة، سيقف ضدها الشعب الألماني بأسره تقريباً، وأن ذلك بحد ذاته كان "أمراً مقلقاً إلى أعلى درجة". وحمل هامرشتاين- إيكورد هذه الهواجس إلى هيندنبورغ مباشرة. وبحسب ما ذكره هامرشتاين-إيكورد، بعد عامين، فإن الرئيس "كان يرفض وبحساسية، أي تأثير سياسي" عليه، "لكنه ومن أجل طمأنتي، قال إنه لن يفكر أبداً بتسمية العريف النمساوي مستشاراً، أو وزيراً للدفاع". كان جلياً أن رَدَّ هيندنبورغ بشأن هتلر لم ينبع من مخاوف هامرشتاين-إيكورد حيال بابن، بل ربما كان هيندنبورغ الذي كان فعلاً يريد عودة بابن مستشاراً، لا يريد الاعتراف بذلك بشكل كامل، أو ربما كان تعليقه زلة لسان تكشف محادثاته الأخيرة مع بابن. على أي حال، كان واضحاً أن الرجل العجوز لا يزال على موقفه الرافض لهتلر. وفي نفس الفترة تقريباً، يقال أن هيندنبورغ أَسَرَّ لصديق ارستقراطي أن هتلر، وفي أفضل الأحوال، كان مؤهلاً ليكون وزير

البريد لديه.

غير أن آراء هيندنبورغ كانت تتبدل. ففي 25 كانون الثاني/ يناير، التقى ريبينتروب مع أوسكار فون هيندنبورغ، وكَتَبَتْ أناليس، زوجة ريبنتروب، في مذكراتها ما مفاده أن فكرة تشكيل ائتلاف برئاسة هتلر كمستشار، "لم تكن أمراً ميئوساً منه". وتواصلت المفاوضات، وبعد ثلاثة أيام وقع الاختراق. في صبيحة 28 كانون الأول/ يناير، اجتمع بابن مجدداً مع هيندنبورغ الذي كان لَيِّناً هذه المرة. ذهب ريبنتروب للقاء بابن. "أين هتلر؟ عاجلني بابن بالسؤال، فأخبرته أنه غادر، ولكن يمكن الاتصال به في فايمار. عندها طالب بابن بضرورة عودة هتلر دونما إبطاء، لأنه، وبعد حديثه مع هيندنبورغ، كان بابن يعتقد أن تسمية هتلر مستشاراً باتت ممكنة".

وفي نفس اليوم، استدعى هيندنبورغ السياسي المحافظ المخضرم إيلارد فون أولدنبيرغ- يانوشاو، ووزير الدفاع لاحقاً فيرنر فون بلومبيرغ، للاطلاع على رأيهما في الأزمة الدستورية التي كانت تلوح في الأفق. وأخبر كلا الرجلين رئيس الرايخ أن الحل الوحيد كان حكومة برئاسة هتلر. وتم تأكيد الرسالة نفسها في اجتماع بين هيندنبورغ وابنه أوسكار، وبابن، ومايسنر. وسمع هيندنبورغ من مستشاريه أنه "لا يوجد حل دستوري يبدو ممكناً سوى تشكيل حكومة يرأسها هتلر توازي بقوتها هيمنة النازيين". أخيراً، وعلى مضض، وافق هيندنبورغ.

ويبقى السؤال حول سبب التغير المفاجئ في موقف هيندنبورغ، وعلى هذا النحو، واحداً من أهم الأسئلة التي تتصل برواية صعود هتلر إلى السلطة. لا بد أن شيئاً هاماً وقع ما بين 26 و28 كانون الثاني/ يناير، فقد تكهن البعض، خلال تلك الفترة وفي ما بعد، حول فضيحة برنامج المساعدات الشرقية، والتورط المحتمل لهيندنبورغ بالتهرب الضريبي، أو تعرضه لضغوط من جيرانه في بروسيا الشرقية. لكن الجواب الفعلي عن السؤال، على ما يبدو، يتجاوز مسألة خشيته من عزله من منصبه ومقاضاته.

في الأسبوع الأخير من كانون الثاني/ يناير، تعرض هيندنبورغ لهجوم إعلامي كاسح على خلفية شرعية إعلان حالة الطوارئ. فقد كتب فرانسوا- بونسيه في 24 كانون الثاني "إن احتمال بروز ديكتاتورية مفتوحة، مع قمع الحياة البرلمانية" أثار قلق "الصحافة الليبرالية والكاثوليكية والاشتراكية". وفي ذات اليوم، كتبت صحيفة الديموقراطيين الاجتماعيين **صدى هامبورغ** أن "إعلان حالة الطوارئ لا أساس له في الدستور" ومن ثَمَّ فإن أي شخص يحاول الإقدام على هذه الخطوة، سينتهك الدستور. ومضت الصحيفة تقول أن ذلك الشخص قد يعلم "كيف يمكن لهذه اللعبة أن تبدأ، وليس كيف يمكن أن تنتهي". وفي اليوم التالي أصدرت قيادة الديموقراطيين الاجتماعيين بياناً يقول إن إعلان حالة الطوارئ، سيكون، بشكل واضح، انقلاباً يؤدي إلى "حالة من الفوضى، ستكون مقاومتها أمراً مباحاً وضرورياً". وفي 26 كانون الثاني، وجه المونسنيور لودفيغ كاس، زعيم حزب الوسط، رسالة بعبارات مشابهة إلى شلايشر، ومثلها إلى هيندنبورغ، نُشرت بعد ثلاثة أيام في جريدة **جرمانيا** الكاثوليكية. إلا أن أوتو براون رئيس حكومة مقاطعة بروسيا اتخذ مقاربة مختلفة. فقد جاء في رسالة وجهها إلى شلايشر-نُشرت في صحيفة **جرمانيا** في 29 كانون الثاني، أن أي محاولة لتعديل الدستور عن طريق العنف هي خيانة عظمى موصوفة في الفقرة 81 من القانون الجنائي. وأضاف أن إعلان حالة الطوارئ يرتقي إلى مستوى الخيانة العظمى. وما قصده براون في كلامه أن دعوة الرئيس لحل الرايخستاغ، وتأجيل الانتخابات يعد تحريضاً على الخيانة العظمى؛ وهو فعل يعاقب عليه القانون بالسجن لفترة تصل إلى عشر سنوات.

يبدو أن هناك القليل من الشك بأن هذه الرسائل، وأخريات مثلها، حققت هدفها. فعندما التقى شلايشر وهيندنبورغ في 23 كانون الثاني/ يناير، كان واضحاً أن القلق الرئيسي لدى هيندنبورغ، بشأن السماح بإعلان حالة الطوارئ، كان بسبب خشيته من التعرض له قانونياً. وبعد سنوات،

يتذكر هاينريش برونغ تلك الأحداث، بالقول إن إيرفين بلانك، وزير الدولة في مستشارية الرايخ، زاره أواخر كانون الثاني/ يناير واشتكى أمامه "من الصعوبات التي تواجهها الحكومة، بسبب خشية هيندنبورغ من توجيه الاتهامات له". كما نقل برونغ عن أحد - لم يُسّمه - تأكيده أن هذه المسألة كانت واحدة من الأسباب التي دفعت هيندنبورغ في نهاية المطاف للموافقة على تسمية هتلر مستشاراً للرايخ.

ويبدو مدهشاً، من منظور الحاضر، أن جميع السياسيين الديموقراطيين، من مختلف التوجهات فَضَّلوا حكومة يرأسها هتلر على حالة الطوارئ. وقد يُعزى ذلك، في جانب منه، إلى الخوف من نشوب حرب أهلية ينتصر فيها النازيون أو الشيوعيون. ومن جانب أخر، إلى الهوس المتأصل في الشرعية الدستورية الذي بات من ملامح التفكير الديموقراطي الاجتماعي، الذي تعرض، حتى من قبل المثقفين الديموقراطيين الاجتماعيين، لانتقادات حادة بسبب قصر نظره.

في 27 كانون الثاني/ يناير، اجتمع مجلس حكماء الرايخستاغ، الذي يتألف من أكبر الأعضاء من جميع الأحزاب، للنظر في قضايا إجرائية، ووافق على وقف قرار تعليق الجلسات، وعقد جلسة للرايخستاغ في 31 كانون الثاني. وهكذا بدأت الساعة تدق، إذ كان مؤكداً أن الرايخستاغ سيطرح التصويت بحجب الثقة عن حكومة شلايشر حال انعقاده.

والتقى شلايشر صباح 28 كانون الثاني بأعضاء حكومته، وأوضح لهم أنه من العبث المثول أمام الرايخستاغ دون أمر من الرئيس بحله، وهو ما كان هيندنبورغ يرفض منحه للحكومة. كما أعرب شلايشر عن خشيته من وقوع ما هو أسوأ من ذلك قائلاً: "ربما لن تكون هذه الصعوبات كبيرة إذا كان السيد الرئيس مستعداً لتسمية هتلر مستشاراً للرايخ". لكن شلايشر، وحتى تلك اللحظة، كان يعلم أن هيندنبورغ مازال رافضاً تسمية هتلر، لذلك كان البديل الوحيد حكومة رئاسية أخرى برئاسة بابن، أو زعيم القوميين الألمان

هوغنبيرغ. وفي الحالتين كانت هذه الحكومة ستثير"أزمة رئاسية وحكومية". وافق الوزراء على تقويم شلايشر للوضع العام، وقرروا تقديم استقالاتهم في حال لم يوافق هيندنبورغ على منح الحكومة أمراً بحل الرايخستاغ.

غادر شلايشر اجتماع الحكومة للقاء هيندنبورغ. وطرح شلايشر أمام الرئيس ثلاثة احتمالات: حكومة برلمانية برئاسة هتلر تعتمد على أغلبية في الرايخستاغ (على الرغم من أن شلايشر لم يكن متأكداً من قدرة هتلر على تأمين تلك الأغلبية)، أو حكومة رئاسية يقودها هتلر، أو الإبقاء على الحكومة الحالية كخيار أخير ممكن، في حال منحها أمراً بحل الرايخستاغ. إما الإتيان بحكومة يرأسها بابن أو هوغنبيرغ، تعتمد على دعم القوميين الألمان، فكان سيؤدي إلى أزمة أخرى.

كان هيندنبورغ حازماً وأوضح أمام شلايشر أن حل الرايخستاغ "أمرٌ لا يمكنني القيام به في الوضع الراهن". ثم تابع كلامه قائلاً: "أقدر لك وبامتنان أنك حاولت كسب تأييد القوميين الاشتراكيين وتأمين أغلبية في الرايخستاغ، لكن لسوء الحظ لم ينجح الأمر مما يستدعي تجربة الاحتمالات الأخرى". قَبِلَ هيندنبورغ استقالة الحكومة التي قامت قبل رحيلها بالتوقيع على تمويل برنامج ضخم لخلق فرص العمل. وخلال الأشهر الستة اللاحقة عثر مليونا عاطل عن العمل على وظائف جديدة، ليحصد هتلر ثمرة النجاح بدلاً من شلايشر.

وفور استقالة شلايشر، استدعى هيندنبورغ بابن، وطلب منه رسمياً "دراسة إمكانية تشكيل حكومة برئاسة هتلر". غير أن أحداً لم يكن يعلم بما سيحدث لاحقاً. كان غوبلز في روستوك في 28 كانون الثاني/ يناير، عندما سمع بنبأ استقالة شلايشر، وبأن هيندنبورغ فوّضَ بابن التباحث مع الأحزاب بشأن الخطوة القادمة. واعتقد غوبلز أن "ثورة ستقوم" في حال عاد بابن ليكون مستشاراً مرة أخرى. كذلك عبر عن فكرة ذكية حول طبيعة علاقة هيندنبورغ بمستشاريه، إذْ كتب قائلاً: "إن الرجل العجوز

المعروف، بقلة وفائه، تخلى عن شلايشر.... لكنك لا تستطيع أن تحسد شلايشر على ذلك". وأشار غوبلز إلى أن معركة شد الحبال سرعان ما ستبدأ، وأن "الرجل العجوز يبقى شخصاً لا يمكن التنبؤ بأفعاله". وبحسب اعتقاده، قد يكون من الأفضل أن يعود هيندنبورغ إلى بابن، "لأن الوضع سيصبح عندئذ خطيراً، إلى حد لا يمكنهم فعل أي شيء من دوننا".

وعلى مدار يوم الأحد الموافق 29 كانون الثاني/ يناير، سويت معظم العقبات. عقد هتلر وبابن اجتماعاً في الصباح. أصر هتلر على إجراء انتخابات في أي حال من الأحوال، قبل إقرار "قانون التمكين" الذي سيمنح حكومته صلاحيات مطلقة. من جانبه عارض هيندنبورغ إجراء انتخابات جديدة، لكنه عاد واقتنع، بعد أن وعده هتلر بأن تكون الانتخابات القادمة هي الأخيرة. وفي عصر ذلك اليوم، ذهب ريبنتروب وغورينغ للقاء بابن الذي أخبرهما بتذليل جميع العقبات، وأن هيندنبورغ سيستقبل هتلر الساعة الحادية عشرة صباح اليوم التالي.

في فندق كايسرهوف، في 29 كانون الثاني، أخبر غورينغ زميله غوبلز بأن الحكومة ستتألف من "هتلر مستشاراً، وبابن نائباً للمستشار، وفريك رايخ وزيراً للداخلية، وغورينغ وزيراً للداخلية في بروسيا، وهوغنبيرغ للأزمات" (وكان يعني بذلك وزارتي الاقتصاد والزراعة)، على أن يتم حل الرايخستاغ، تمهيداً لإجراء انتخابات "ستكون هي الأخيرة"، تنفيذاً للوعد الذي قطعوه لهيندنبورغ. إلا أن غوبلز لم يكن واثقاً: "لا يجرؤ أحدٌ على تصديق ذلك. هل بابن صادق؟ من يعلم؟"

في هذه الأثناء، تناهى إلى مسامع هتلر وحاشيته أن شلايشر وأصدقائه في وزارة الدفاع كانوا يخططون للقيام بانقلاب عسكري. (في الواقع أن بعض الضباط ناقش فعلاً هذا الاحتمال، لكن شلايشر رفضه بشكل قاطع). وسهر الضباط النازيون في فندق كايسروهوف حتى الخامسة صباحاً، بانتظار آخر الأنباء، واستعداداً لأي طارئ. عندئذ كان على هتلر

الذهـاب إلى مكتـب الرئيـس لأداء القسـم.

لكن حتـى خلال هـذا المرحلة، كاد أن ينهار الاتفاق. فقبل الساعة الحادية عشـرة صباحـاً، تجمـع الـوزراء في مكتـب مايسـنر حيـث علـم هوغنبيرغ لتـوه بأمـر الانتخابات الجديـدة، فرفض المشاركة في الحكومـة تحت هذه الشـروط. وتبع ذلـك جلسـة سـجال حـادة. وإلى أن أبلـغ مايسـنر السياسـيين بغضـب أنـه لا يمكنهـم تـرك هيندنبـورغ ينتظـر، وتعهـد هتلـر بعـدم تغيير تشـكيلة الحكومـة أياً كانـت نتائـج الانتخابـات الجديـدة، حتـى تراجـع هوغنبيرغ عـن موقفـه.

ودَوَّنَ غوبلـز في مذكراتـه: "وقـع الحـدث، وهـا نحـن جالسـون في شـارع فيلهلِم. هتلـر مستشـاراً للرايـخ، وكأنهـا قصـة خرافيـة!" وكعادتـه، ينطلـق إلى غايتـه مباشـرة، أضـاف غوبلـز: "إلى العمـل. سـيتم حـل الرايخسـتاغ، ومـن ثـم سـتُجرى الانتخابـات في غضـون أربعـة أسـابيع".

بعـد كل الكـوارث الـتي خلفهـا الحكـم النـازي، بقـي الجـدال علـى أنـه لم يكـن أمـام هيندنبـورغ أي خيـار سـوى تعيـين هتلـر. فخـلال شـهادته أمـام محكمـة نورمبيرغ، قـال وزيـر الماليـة في عهـد هتلـر الكونـت أوتـس شـفيرين فـون كروسـيغ: "لم يكـن هنـاك شـخص واحـد، ولا حتـى أقـوى خصـوم هتلـر، أخبرنـي عـن وجـود خيـار آخـر عـام 1933 سـوى اسـتدعاء زعيـم أقـوى حـزب، طالما أن البرلمـان عجـز عـن تشـكيل حكومـة". وقـد اقتبـس مايسـنر هـذه الكلمـات في مذكراتـه، تأكيـداً لصحتهـا، لكـن هـذا الادعـاء يحجـب حجـم المسـؤولية الـتي يجب أن يتحملهـا سياسـيون محافظون، من أمثال مايسـنر وكروسـيغ. فحكومـة هيرمـان موللـر مـا بـين عامـي 1928 و1930 كانـت تتمتـع بأغلبيـة مسـتقرة، كمـا أن حكومـة هاينريـش برونـنغ فـازت بتصويـت الثقـة في الرايخسـتاغ قبـل ثلاثـة أيـام فقـط مـن قيـام هيندنبـورغ بطـرده. لم يكـن هنـاك داعٍ لإجـراء انتخابـات عـام 1932. فالأزمـة، والعقـدة السياسـية الـتي لازمـت العـام 1932 وأوائـل 1933، والـتي بـرز فيهـا هتلـر علـى انـه الحـل الوحيـد، كانـت مـن صنـع اليمـين السياسـي الـذي أراد إقصـاء نصـف الشـعب مـن التمثيـل السياسـي

ورفض التسويات العادلة. ومن أجل تحقيق هذه الغاية، توالت سلسلة من السياسيين المحافظين (هوغنبيرغ، برونغ، شلايشر، بابن، هيندنبورغ) على خطب ود النازيين، كوسيلة وحيدة للاحتفاظ بالسلطة ضمن شروط تتوافق مع مصالحهم، فكانت النتيجة النظام النازي.

وفي الحقيقة، لم يكن موقف هتلر كاسحاً في قوته في 30 كانون الأول/ يناير. بدايةً، لم تكن حصة النازيين في السلطة تتعدى ثلاثة من أصل 11 وزيراً. فإلى جانب هتلر، كان هناك فيلهلم فريك وزيراً للداخلية، وهيرمان غورينغ وزيراً بلا حقيبة. كما تمثلت الخوذة الفولاذية بفرانتس سيلته وزيراً للعمل. أما البقية فكانوا شخصيات تنتمي إلى مؤسسة الجناح اليميني، مثل نائب المستشار فرانتس بابن، ووزير الخارجية كونستانتين فون نويرات، وألفريد هوغنبيرغ الذي تسلم خمس حقائب اقتصادية. نويرات ومعه وزير المالية شفيرين فون كورسيغك، ووزير النقل باول فون إلتس روبيناخ، ووزير العدل فرانتس غورتنر (الذي تأخر تعيينه بضعة أيام للإيحاء بأن المنصب كان محجوزاً لممثل عن حزب الوسط)، كانوا جميعاً من بقايا حكومتي بابن وشلايشر، في محاولة - كما كان يبدو - لتأمين الاستقرار والاستمرارية. وكان معظم الألمان يعتقدون أن وجود هؤلاء المحافظين، ومعهم سلطة هيندنبورغ، والجيش - كملاذ أخير- سيضمن بقاء هتلر على الصراط المستقيم. وكعادته، كان بابن واثقاً على نحو لا يخلو من الحماقة عندما قال لأحد أصدقائه: "لقد وظفناه، وخلال أشهر قليلة سندفعه بعيداً إلى الزاوية، حيث يبدأ بالصراخ والعويل".

كذلك لم يكن الجميع راضياً، فالمراقبون المحنكون كانوا قادرين على استشراف الخطر. فبعد أن نقل أندريه فرانسوا- بونسيه كافة التطمينات التي سمعها من المحافظين المطلعين على الأمور من الداخل، نصح حكومته بأن "تشكيل حكومة هتلر - بابن - هوغنبيرغ يبقى على الرغم من ذلك، تجربة خطيرة بالنسبة إلى ألمانيا وأوروبا". لقد رأى السفير الفرنسي،

وبوضوح، طبيعة العلاقة بين النازية والمؤسسة ومخاطرها، مشيراً إلى أنها "كانت واحدة من مقاصد أولئك الذين أعدوا وأثاروا الأزمة، للحفاظ على ما تبقى من القوة النازية التي لاتزال كبيرة. ولم يبقَ لنا سوى أن نرى، في الحفاظ على تلك القوة، إن كانت وسائل الفعل ستبقى بعيدة عن متناول من قد يتعرض لمُغريات إساءة استخدامها، ومن لا ينوي التخلي عنها". من جانبه، كان للنائب العام السابق للرايخ لودفيغ إيبرماير مخاوف مشابهة نقلها إلى ابنه قائلاً: "حتى لو استمرت نصف سنة، فإن ضرراً كبيراً سيقع، وتحديداً على السياسة الخارجية". وأضاف بتشاؤم أكبر، "لكنها ستعيش لفترة أطول. فهذه حكومة ليس كأي حكومة أخرى قد تستقيل يوماً ما".

ورغم هذا كله، كان لا يزال هناك نقطة مهمة تغافل عنها المهتمون بشؤون هتلر. فكما بات معروفاً، نتيجة لانقلاب بابن على حكومة مقاطعة بروسيا عام 1932، أصبحت الوزارات الرئيسية في المقاطعة جزءاً من حكومة الرايخ. وكان هتلر قد رتب لأن يكون هيرمان غورينغ وزيراً لداخلية بروسيا، الأمر الذي وضعه، ومعه النازيون، في موقع المتحكم بشرطة المقاطعة التي كانت تمثل قوة كبرى. وكما رأينا سابقاً، كان واحداً من دوافع شلايشر لتحريض بابن للانقلاب على الحكومة البروسية هو إبعاد شُرطتها عن يد النازيين، لكن من جاء بعده لم يكترث لذلك.

على أي حال، لم يكن الفوز بمنصب المستشار غاية بحد ذاتها بالنسبة إلى النازيين وإنما مجرد خطوة أولى نحو سلطة أوسع. ويكشف غوبلز عن ذلك بوضوح عندما يقول في مذكراته: "المرحلة الأولى! سنواصل الكفاح". وبعد ذلك يسمي الوزراء المحافظين المحيطين بهتلر، ليصفهم بأنهم "عيوب، يجب التخلص منها".

وهكذا، ستضع شرطة غورينغ، ورغبة النازيين في التخلص من العيوب، مفردات الشهور المقبلة من التاريخ الألماني.

7
التنسيق

"اعتقلتُ لأن الرايخستاغ احترق، رغم أني لا أعرف أنه احترق". هذه هي كلمات لينا هاغ -ناشطةٌ في الحزب الشيوعي منذ سن المراهقة، حتى أنها التقت بزوجها في مجموعة تابعة لشبيبة الحزب.

على باب شقتها عصر هذا الثلاثاء، تلمح لينا معطفين وقبعتين. وتلحظ فماً "متوحشاً"، ووجهاً أصفر اللون؛ وتسمع صوتاً "بارداً وكريهاً". الضابطان في عجلة من أمرهما. وكما ستتذكر لاحقاً، "كانوا يرونني أطهو طعام الغداء على الموقد، وأن لدي طفلة ولا أستطيع أن أترك كل شيء هكذا بكل بساطة". لكنهم لا يكترثون لكل ذلك. يترك الضابطان الطفلة عند الجيران. ينتزعون المعطف المعلق على المشجب ويرمونه على لينا: "هيا تحركي، تحركي". تدرك لحظتها أنه ينبغي عليهما أن يثبتا للسادة الجدد "بأنه يمكن الاعتماد عليهم". يجب عليهم ملأ السجون. وكما تقول "حتى الثورة الأكثر بياضاً في التاريخ تحتاج إلى ضحايا".

إنه الثامن والعشرون من شباط/ فبراير 1933. الليلة السابقة لحريق الرايخستاغ.

وتتابع قائلة: "وبينما كنا نهبط الدرج، كانت هناك أبواب تُغلق بهدوء وحَذَر، لكنني كنت أسمعها". وحالما تخرج إلى الشارع، تشعر بالبرد فجأة. كما تشعر بعيون تتلصص عليها من وراء ظهرها. كانت تراقبها من كل

نافـذة. وتكتـب لينـا "إني لا أراهـا، لكننـي أحـس بوجودهـا". يقتادونهـا إلى سـجن غوتيستسـيل ويضعونهـا في زنزانـة منفـردة.

كان زوجها قـد اعتُـقل قبلها؛ ألفريـد هـاغ النائـب في برلمان مقاطعـة فورتمبـيرغ في سـن الثامنـة والعشريـن، أصغـر النـواب سـناً. حاولـت لينـا أن تقنعـه بمغـادرة البلاد، لكنـه رفـض مسـتغرباً "أتـرك عـمالي، الآن؟". جـاءت قـوات العاصفـة لاعتقاله عنـد الخامسـة فجـراً، بعـد بضعـة أيـام مـن تسـلم هتلـر منصـب المستشـار. خلعـوا أبـواب الخزائـن وبعـثروا الملابـس، وقلبـوا الأدراج، وبحثـوا في المكتـب. لم يكونـوا يفتشـون عـن شيء بعينـه. كان التخريـب همهـم الوحيـد.

وبينـما كان أفـراد قـوات العاصفـة يسـتعدون لاقتيـاده، قالـت لـه لينـا: "لكنـك نائـب في البرلمـان!". فـما كان مـن أحـد أفـراد القـوة إلا أن قهقـه سـاخراً، وهـو يخاطـب زميلـه: "نائـب؛ هـل سـمعت ذلـك؟" ثـم التفـت إلى الزوجـين صارخـاً: "أنتـم شـيوعيون، مجـرد عصابـة مـن الحثـالات التـي سنسـتأصلها".

راقبـت لينـا مـن النافـذة كيـف كان أفـراد قـوات العاصفـة يأخـذون زوجهـا عـبر الشـوارع، وشـاهدتهم كيـف بـدأوا يضربونـه، فـما كان منهـا إلا أن سـحبت الطفلـة مـن وراء النافـذة كيلا تـرى مـا كان يجـري لوالدهـا.

تبقـى لينـا في السـجن حتـى صـدور العفـو بمناسـبة عيـد الميـلاد، لكـن ألفريـد ليـس محظوظـاً مثلهـا. يتمتـع السـجناء السياسـيون بشـبكات مـن المعلومـات، ويصـل إلى مسـامع لينـا أخبـار عديـدة. تسـمع أن الغسـتابو قتلـت أحـد أصدقائهـا القدامـى، بعـد أن دفعـوه عـلى موقـد مشـع، كـما تسـمع أخبـاراً عـن ألفريـد أيضـاً؛ لقـد سـاقوه إلى معسـكر اعتقـال كيوبـيرغ، لكنـه لا يـزال يتـصرف بنفـس الشـجاعة التـي كان عليهـا قبـل اعتقالـه. عندمـا رفـض أن يحيـي العلـم النـازي بالصليـب المعقـوف، ضربـه الحـراس بوحشـية. وذات مـرة، أجـبره الحـراس عـلى صعـود تلـة وهـو يزحـف عـلى يديـه وسـاقيه وقـد أمـروه أن يـصرخ قائـلاً: "أنـا كيـس قـاذورات. كذبـت عـلى العـمال وخنتهـم". لم يكـن ممكنـاً التعـرف عـلى وجهـه المغطـى بالدمـاء.

بعـد بضعـة أسـابيع مـن اعتقـال لينـا هـاغ، اقتحمـت قـوات العاصفـة منـزل ماريـا يانكوفسـكي الديموقراطيـة الاجتماعيـة، وعضـوة مجلـس بلديـة ضاحيـة كوبينـك في برلـين، واقتادوهـا إلى مقراتهـم في الضاحيـة. وهنـاك، وفي باحـة المقـر، أجبروهـا عـلى خلـع ملابسـها والاسـتلقاء عـلى منصـة خشـبية. ثـم قامـوا بتغطيتهـا بعلـم الجمهوريـة بألوانـه الثلاثـة الأسـود والأحمـر والذهبـي وقامـوا بضربهـا بالسـياط والعتـلات. وبينـما كانـوا ينهالـون عليهـا بالـضرب، طلبـوا منهـا إعطاءهـم أسـماء العـمال الاشـتراكيين والشـيوعيين، وأجبروهـا عـلى أن تصـف العلـم بـ "القـذارة السـوداء والحمـراء"، ثـم راحـوا يسـألونها: "هـل سرقـت أحذيـة العـمال العاطلـين مـن العمـل؟ هـل أعـددت لائحـة بمقاطعـة المحـال التجاريـة النازيـة؟ وكلـما كانـت تـصرخ مـن الألم، كان أحـد جلاوزتهـا يغطـي وجههـا بحزمـة مـن الخِـرق الباليـة.

وتسـتعيد ماريـا تلـك اللحظـات في مـا بعـد: "وبعـد أن تلقيـت أكـثر مـن مئـة ضربـة، سـقطت عـن المنصـة، فرفعـوني عليهـا مـرة أخـرى، وواصلـوا ضربي بشـدة عـلى وجهـي حتـى سـقطت في الزاويـة". بعدهـا أجبروهـا عـلى أن تغنـي "دويتشـلاندليد"، مـع المقطـع الـذي يقـول "ألمانيـا فـوق الجميـع" النشـيد الوطنـي الرسـمي منـذ العـام 1922، ونشـيد القوميـة الألمانيـة قبـل ذلـك بفـترة أطـول.

وبعـد ذلـك أجبرت قـوات العاصفـة ماريـا عـلى التوقيـع عـلى تعهـد بالانسحاب مـن الحـزب الديموقراطـي الاجتماعـي، وعـدم القيـام بـأي نشـاط سـياسي، وأن تراجـع مكتبـاً نازيـاً كل يـوم خميـس.

وحسـب مـا تذكـر ماريـا لاحقـاً "فجـأة تغـيرت معاملتهـم معـي". أعطوهـا كأسـاً مـن المـاء، وملابسـها. وطلـب قائـد المجموعـة مـن أحـد رجالـه أن يصطحـب السـيدة إلى الخـارج، وتمنـى لهـا بـكل تهذيـب "مسـاءً سـعيداً". تركوهـا في الشـارع حيـث رآهـا أحـد المـارة ونقلهـا إلى المستشـفى. كانـت محظوظـة بالنجـاة، لكنهـا سـتبقى تعـاني مـن مضاعفـات التعذيـب طـوال حياتهـا. بعـد ذلـك، تقـوم ماريـا

بجميع الترتيبات اللازمة كي تنشر حقيقة ما جرى معها في الخارج، ليحاكمها النازيون بتهمة "تلفيق ونشر أنباء كاذبة عن وقوع فظائع".

هذا ما كان يسميه النازيون "الهبّة الوطنية". في آب/ أغسطس 1932، كان لايزال هناك غضب واسع من جريمة بوتيمبا. أما الآن وفي ربيع 1933، لم يكن هناك أي قيود قانونية أمام قوات العاصفة.

وكما تكتب لينا هاغ "من الأفضل أن تشيح بنظرك بعيداً، فليس من المستحسن أن ترى الكثير مما يجري في ألمانيا الأكثر سعادةً وجمالاً".

وسرعان ما يتضح ما كان مقصوداً بتسلم هتلر منصب المستشار، وهيرمان غورينغ قيادة الشرطة البروسية. فابتداءً من شباط/ فبراير، يتوالى إيقاع ثابت من الإجراءات القانونية والبوليسية، تستهدف أي شخص يمكن أن يكون معارضاً للنازيين: الشيوعيين والديموقراطيين الاجتماعيين، والليبراليين، وأنصار السلام، والمثقفين، والصحفيين، والفنانين، وناشطي حقوق الإنسان، وصحافتهم. ففي 4 شباط، يوقع هيندنبورغ مرسوماً يمنح بموجبه الشرطة صلاحيات واسعة لفض الاجتماعات السياسية، وحظر النقابات والاتحادات، وإغلاق وسائل إعلامية. وعلى الفور بدأ الشيوعيون والديموقراطيون الاجتماعيون يشعرون بتداعيات هذا القرار. وفي 14 شباط/ فبراير، قام جيش صغير من شرطة برلين بتفتيش مكاتب النواب الشيوعيين في الرايخستاغ، وبعدها بعشرة أيام أغلقت الشرطة مقرات الحزب الشيوعي في برلين. وفي 17 من الشهر نفسه، أصدر غورينغ أمراً للشرطة باستخدام أسلحتها النارية ضد "أعداء الدولة". وبعدها بخمسة أيام، صدر مرسوم يسمح "للاتحادات الوطنية" - والمقصود بها قوات العاصفة، وكتائب الحماية، والخوذة الفولاذية - بأن تُسجل كقوات مساعدة لضباط الشرطة.

بيد أن حريق الرايخستاغ في 27 شباط/ فبراير كان الحدث الذي غيَّرَ الأمور بشكل كامل.

يكمن الجزء الأكبر من أهمية الحريق في طبيعة رد النازيين عليه. فقد ادعت حكومة هتلر أن الحريق، الذي طاول القاعة العمومية في البرلمان الألماني، قبل ستة أيام من إجراء انتخابات عامة في البلاد، كان عملاً إرهابياً، ومقدمة لتمرد شيوعي. وفي صبيحة اليوم التالي، مستغلة المستجدات الطارئة، أقرت الحكومة، ووقع هيندنبورغ أمراً تنفيذياً يُعرف رسمياً باسم "مرسوم رئيس الرايخ لحماية الشعب والدولة"، وبشكل غير رسمي باسم "مرسوم حريق الرايخستاغ". هذا المرسوم انتزع قلب الدستور الديموقراطي لجمهورية فايمار، إذْ ألغى بضربة واحدة حرية التعبير والتجمع، وسرية البريد والاتصالات البرقية، والحصانة من التفتيش العشوائي، والاعتقال والتوقيف. كما سمحت الفقرة الثانية من المرسوم للحكومة المركزية بإقالة أية حكومة مقاطعة، كما حدث في الانقلاب البروسي العام السابق، كوسيلة فعالة لتصفية المعارضة. وبينما كان الرايخستاغ لا يزال يحترق، ضربت الحكومة المعارضة بيد من حديد، واعتقلت الآلاف في أنحاء البلاد. لقد بات مرسوم حريق الرايخستاغ الأساس القانوني لحكم هتلر الاستبدادي الذي دام إثني عشر عاماً، حتى أن بعض الباحثين وصفه بدستور رايخ هتلر.

ولأن الحريق قدم خدمة كبيرة لنظام هتلر، كان واضحاً إلى معظم الأشخاص من غير النازيين في ذلك الحين، وآخرين كثر لاحقاً، أن النازيين أنفسهم هم من أضرموا الحريق. لكن، ومنذ العام 1933، لاتزال أسباب الحريق مثيرة للجدل، وموضع سجال بين المؤرخين.

ويعود التعقيد الأكبر لحادثة الحريق إلى الشخص الوحيد الذي تم اعتقاله في موقع الجريمة؛ وهو شاب هولندي في الرابعة والعشرين من عمره، يدعى مارينوس فان دير لوبيه، يعمل بناءً. وكما يُعتقد، دخل فان دير لوبيه عبر نافذة في الطابق الثاني من مبنى الرايخستاغ، عند حوالي الساعة التاسعة وعشر دقائق مساءً، مسلحاً بعيدان الثقاب ومواد قابلة للاشتعال (كرات

من هُباب أسود مغطاة بالنفتالين، عادة ما كانت تستخدم في ذلك الوقت في إشعال المواقد المنزلية). وعلى مدار ربع ساعة، ركض فان دير لوبيه في أرجاء المبنى المعتم، والخالي على الأغلب، وهو يضرم عدداً من الحرائق في المكان سرعان ما انطفأ معظمها، دون أن تلحق المعدات التي أحضرها سوى ضرر محدود بالأثاث المصنوع من خشب البلوط الثقيل، وبالجدران الخشبية. وعند الساعة التاسعة وخمس وعشرين دقيقة أُلقي القبض عليه داخل المبنى عاري الصدر، والعرق يتصبب منه بغزارة.

زعم فان دير لوبيه، بكل إصرار، أنه وحده من أضرم كل الحرائق في مبنى الرايخستاغ، بما فيها الحريق المدمر في القاعة العمومية. وظل الشاب الهولندي متمسكاً بأقواله على مدار أشهر من الاستجواب الوحشي، مروراً بمحاكمته، وحتى إعدامه من قبل النازيين أوائل العام 1934. غير أن أحداً لم يصدقه في ذلك الحين، رغم أن العديد من النازيين المحنكين بدأوا يرون في روايته مزايا كثيرة، وهم يواجهون سيلاً من الدعاية الأجنبية التي اتهمت فرقة من قوات العاصفة بإشعال الحريق. فإذا كان هناك متهم وحيد، فلا بد أنه كان فان دير لوبيه ليفلت النازيون من المسؤولية. وكان مناسباً بشكل كافٍ أن هذا المتهم هو عضو سابق في الحزب الشيوعي الهولندي.

على كل حال، وانطلاقاً من الأدلة المتوافرة حالياً، من المستحيل، أن يكون فان دير لوبيه من أشعل الحريق وحده. وقد تم التوصل إلى هذه النقطة، استناداً إلى تحقيقات مستقلة أجراها علماء يدرسون تأثير الحريق على المباني. ويدعم هذا الدليل العلمي مجموعة عوامل أخرى، أولها أنه من غير المنطقي أن فان دير لوبيه نفسه هو الفاعل، لأنه كان مصاباً بالعمى بنسبة 80٪ تقريباً، نتيجة إصابة عمل تعرض لها. وكما هو معروف، كان مبنى الرايخستاغ، ساعة وقوع الحادث، معتماً بشكل شبه كامل. يضاف إلى ذلك أنه لم يسبق له أن دخل المبنى من قبل، بل لم يكن يدرك ما هي القاعة، إذْ كان يسميها "كنيسة". وعثرت الشرطة والخبراء على دليل مادي، داخل

مبنى الرايخستاغ، يتناقض مع راوية أن يكون فان دير لوبيه هو الفاعل الوحيد. فقد عُثِرَ في فتحات التهوية على مخلفات لا تنتج إلا عن احتراق إما الكيروسين وإما الغازولين، إلى جانب بقايا مشعل، مع العلم أنه لا فان دير لوبيه، ولا أي شخص آخر، تحدث عن وجود وقود مسرِّع للاشتعال، أو مشعل كان بحوزته. ثم أن بعض رجال الإطفاء والشرطة اعتقدوا أنهم وجدوا أثاراً من الكيروسين أو الغازولين داخل المبنى، على الرغم من أن هذا الدليل يبقى أقل وضوحاً. والأهم أن فان دير لوبيه نفسه لم يعطِ وصفاً مقنعاً ومترابطاً حول كيفية إضرام الحريق الهائل في القاعة، فقد كان يحسب أن النيران شبت في القاعة بشكل تلقائي، بينما ركض فيها يحمل قطعة قماش تشتعل. والحقيقة أنه أقر برؤيته نيراناً ضخمة، من غير المحتمل أن يكون هو من أضرمها في القاعة.

إذا لم يكن دير فان لوبيه قد قام بذلك منفرداً، فلابد عندئذ أن يكون الأضحية في مؤامرة دبرها شخص أخر، ولكن من؟ بالعودة إلى الظروف التي كانت سائدة في شباط/ فبراير 1933، من الصعب أن نتخيل أحداً غير النازيين كان قادراً على إدخال وإخراج عدد من المتهمين إلى مبنى الرايخستاغ ومنه، دون أن يتركوا أثراً قد تجده الشرطة، أو على الأقل قد ترغب الشرطة في العثور عليه. وبعيداً عن هذه الفرضية المنطقية، هناك دليل محدد يشير إلى مجموعة بعينها من قوات العاصفة النازية. ففي أثناء جلسات محاكمات نورمبيرغ بعد الحرب العالمية الثانية، ذكر اثنان من مسؤولي الشرطة النازية السرية عام 1933، وهما رودلف دايلز، وهانز بيرند غيزيفيوس، أن المسؤول عن حريق الرايخستاغ كان المدعو هانز جورج غيفر، عضو سابق في قوات العاصفة. إلا أن غيفر أنكر هذه الادعاءات، مع العلم أنه كان معروفاً في عام 1933 بخبير المواد الحارقة في قوات العاصفة. علاوة على أنه قدم روايات متضاربة، وغير منطقية، بشأن مكان وجوده ليلة الحريق. ويُقال إنه تباهى بمشاركته في العملية، في مناسبة واحدة على الأقل، بعد الحادث.

وبمعزل عن كل هذه التفاصيل، سيبقى السؤال عمن أضرم النيران في الرايخستاغ أكثر من مجرد لعبة أحاجي تاريخية مثيرة للاهتمام. لأن هذا السؤال يشير إلى نقطتين متشعبتين حول النازيين أولاهما إلى أي حد اعتمدوا على قوات العاصفة والعنف الذي كانت تمارسه للوصول إلى السلطة والتمسك بها. وهنا يبرز الرايخستاغ كحلقة تتفق كلياً مع سلسلة من الأحداث، منذ أواخر العشرينات، ارتكبت خلالها قوات العاصفة أعمال عنف ألقت بمسؤوليتها على عاتق الماركسيين، ولتتابع بعدها ارتكاب مزيد من العنف. وما الهجوم على مجمع أكواخ فيلسينيك إلا واحد من أمثلة عديدة، كما أن حريق الرايخستاغ، على الأرجح، مثال أخر. وسواء أكان النازيون هم من تسببوا بحريق الرايخستاغ أم لا، فقد شهدت الأيام والأسابيع بعد الحادث عنفاً لا حدود له من جانب قوات العاصفة. وشَكَّلَ هذا العنف، والرعب الذي أثاره، عاملاً مؤثراً في ردع المعارضة وتعزيز التأييد للنظام الجديد. وهو أسلوب طالما اعتاد النازيون استخدامه، ولفترة طويلة قبل توليهم السلطة. ففي آب/ أغسطس 1932، وبعد لقاء هتلر وهيندنبورغ، سمع وزير الدولة الأسبق في حكومة بابن هيرمان بوندر من خَلَفه إيرفين بلانك أنه، في حال تسلم هتلر منصب المستشار، كان النازيون ينوون - كما هو مخطط - نشر قوات العاصفة عند مبنى الرايخستاغ لطرد "الماركسيين". وبحسب ما كتب بوندر أيضاً، "نقلاً عن الكونت هيلدورف [قائد قوات العاصفة في برلين]، 'سيكون مباحاً لقوات العاصفة، ولعدة أيام، أن 'تتخلص من خطر' ما يقارب خمسة آلاف ماركسي مُدرَجين على لوائح معدة سلفاً". ويتساءل بوندر إن كانت هذه المعلومات صحيحة، ثم يجيب "لا أستبعد شيئاً عن النازيين".

أما النقطة الثانية، فتتعلق باستراتيجية النازيين وحرصهم على الوصول إلى السلطة والتفرد بها؛ أو كما تصفها المؤرخة آيرين شترينغه بـ" مسارهم القانوني المؤدي إلى السلطة". وكما رأينا سابقاً، كان على النازيين التغلب على رفض هيندنبورغ تسمية هتلر مستشاراً. وللوصول إلى هذا الهدف،

كان التهديد بالعزل، والملاحقة القضائية، السلاح الأكثر فعالية، ونجحوا في استخدامه فعلاً.

كذلك كان لا بد من إبعاد اليسار السياسي والخصوم العنيدين من أي مشاركة في السلطة، ومن تعطيل فعالية المعارضة. وعليه فقد كان حريق الرايخستاغ، ونيزنة [من نازية: المترجم] الشرطة، ونشر قوات العاصفة، مجتمعةً، الوسائل التي وُظفت لهذا الغرض. لقد كان النازيون يخططون لاستخدام قوات العاصفة منذ عام 1931 على الأقل. وساعدهم على ذلك سلسلة من الأوامر التنفيذية التي صدرت خلال الأسابيع الأولى من الحكم النازي، والتي صُممت على نحو يستحيل معها، بالنسبة إلى المعارضة أن تمارس دورها. وذلك عبر إغلاق الوسائل الإعلامية للجناح اليساري والليبرالي، وإطلاق يد الشرطة في فض الاجتماعات والمسيرات السياسية. هذه الأوامر التنفيذية، ومعها مرسوم حريق الرايخستاغ، كلها كانت من إعداد فيلهلم فريك، وذلك، استناداً إلى دراسة دقيقة لسوابق مماثلة عرفتها جمهورية فايمار. وأخيراً، جاء تمرير "قانون التمكين" الذي بموجبه نقل الرايخستاغ جميع سلطاته التشريعية إلى حكومة هتلر. وهذا بدوره كان أيضاً عنصراً موجوداً مسبقاً في خطة النازيين، وكرره هتلر بوصفه واحداً من الشروط في مفاوضاته مع هيندنبورغ.

وعلى الرغم من قسوتها وجهوزيتها، لم تسر خطة النازيين لتولي السلطة بشكل جيد دائماً. فقد كان تنفيذهم، في بعض الأحيان، مَشوباً بعدم الكفاءة، وفي أحيان أخرى، كانت البربرية التي تحتل قلب الحركة النازية، تزاحم الأهداف الإستراتيجية للخطة الموضوعة. إلا أن إصرارهم على الوصول إلى السلطة دفعهم كي يكرسوا جزءاً كبيراً من تفكيرهم، لإعداد السبل العملية لتحقيق هذا الهدف.

في تشرين الثاني/ نوفمبر 1931، سرَّب سياسي نازي في مقاطعة هيسه بعض الوثائق إلى شرطة فرانكفورت. وكانت هذه الوثائق تحتوي مسودة

بيان يتلو انقلاباً نازياً مضاداً، رداً على انقلاب شيوعي مُفترض. وتعرض الخططُ مركزيةَ الصدمة التي تركتها ثورة 1918 بالنسبة إلى النازيين، فقد مثلت لهم نموذجاً يُحتذى به في المستقبل، مع فارق أن اليمين هو من سيرد الضربة ضد اليسار السياسي. وتتحدث الوثائق المسربة عن "سقوط المتحكمين بالسلطة في الرايخ والمقاطعات الفيدرالية في أحداث الأيام (الأسابيع) الأخيرة، "كما حدث في ثورة تشرين الثاني/ نوفمبر 1918" مما أدى إلى نشوء وضع قانوني جديد، باتت بمقتضاه قوات العاصفة، أو التنظيمات شبه العسكرية الأخرى، هي من تمتلك السلطة، مما يعطي قيادتها، تبعاً لهذا السيناريو، الحق والواجب في تأمين خلاص الشعب، وتولي وممارسة سلطة الدولة". وكانت المهمة العاجلة هي فرض الأمن، والتحكم بمخزون المواد الغذائية. وتشدد الوثائق على أنه "من غير الممكن تنفيذ هذه المهام إلا عبر فرض الانضباط المشدد على السكان، وقمع القوى المسلحة. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، يجب الانصياع لجميع أوامر قوات العاصفة والقوى شبه العسكرية الأخرى تحت التهديد بالإعدام"، كما يتعين تشكيل محاكم ميدانية، للنظر في المخالفات التي تنتهك هذه الأحكام. وفرض العمل الإجباري على المواطنين الألمان كافة فوق سن السادسة عشرة، أو حرمانهم من المخصصات الغذائية في حال امتناعهم عن ذلك. إلا أن هذه القوانين -بحسب الوثائق المسربة- استثنت اليهود من العمل الإجباري والحصص الغذائية.

وكان من وَضَعَ وأعد هذه الوثائق محامياً، وناشطاً نازياً من مقاطعة هيسه، يدعى فيرنر بيست الذي أصبح مسؤولاً كبيراً في الغستابو، ونائباً لراينهارد هايدريش قائد قوات الحماية السيئة الصيت. وتُعرف الخطط باسم وثائق بوكسهايم[15] تيمناً باسم المزرعة التي عرض فيها بيست الوثائق على عدد من القادة النازيين في المقاطعة. ونظراً لأنها كانت تتناقض مع

15 تعرض هذه الوثائق موقف النازيين من الإرهاب السياسي، وتكشف مخططاتهم للسيطرة على ألمانيا وأوروبا. (م)

كلام هتلر المقدس عن "الشرعية القانونية"، سببت هذه الوثائق حرجاً كبيراً لقيادة الحزب. من جانبها ادعت جريدة دير أنغريف التابعة لغوبلز أن تلك الوثائق كانت مجرد خطة شخصية أعدها بِست، "لإفشال" محاولة شيوعية دموية للاستيلاء على السلطة". لكن وفي الوقت ذاته، ومع التشديد على تصوير الشيوعين بأنهم المعتدون، والنازيين على أنهم المدافعون، ذكرت جريدة غوبلز أيضاً أن بيست كان يرد على "خطة أُعِدَتْ، تنفيذاً لأوامر دقيقة من موسكو، باستخدام العنف لتولي السلطة في ألمانيا".

هناك دليل كبير على أن وثائق بوكسهايم كانت أكثر من مجرد خيال عابر لدى فيرنر بيست. ففي أوائل أيلول/ سبتمبر 1931، رفع بيست تقريراً إلى القيادة النازية الوطنية حول خطته. وبعدها بفترة قصيرة، دَوَّنَ غوبلز في مذكراته حواراً مع هتلر حول ماذا يمكن لـ "قوات العاصفة" أن تفعل. وبحسب ما كتبه غوبلز "عندما يضرب الحزب [الشيوعي الألماني]. الخطة العملية، سأكون قائد الشرطة للشرق بأكمله...... [قائد قوات العاصفة الكونت وولف هاينريش فون] هيلدورف سيكون قائدي العسكري. سنعمل معاً." بالطبع، يبدو هذا الكلام مشابهاً لسيناريو بيست. وبعد ستة أشهر، في ربيع 1932، اكتشفت شرطة برلين خططاً لاستنفار وتحشيد قوات العاصفة، في حال "وقوع أمر طارئ". هذه الحالة الطارئة لم تكن سوى انقلاب، أو انقلاب مضاد من قبل الديموقراطيين أو قوى اليسار السياسي. وفي 29 كانون الثاني/ يناير 1933، أي عشية تسلم هتلر السلطة، عندما سرت شائعات عن انقلاب عسكري، كتب غوبلز في مذكراته أن هيلدورف وقائد شرطة برلين فالتر فيكه كان يعملان معاً على وضع إجراءات مضادة. وفي 1 شباط/ فبراير، كتب غوبلز أنه ناقش "إرهاب الحُمُر مع هتلر. وحتى الآن لا توجد إجراءات مضادة، دعها تشتعل أولاً". "دعها تشتعل أولاً" كانت ملخصاً بليغاً لمبدأ أساسي في الاستراتيجية النازية.

وفي الأسابيع الأولى لحكومة هتلر، كان مثل هذا الاشتعال هو ما يعدُّ

لـه النازيـون. فقـد كتـب القائـد الجديـد للشـرطة السـرية رودلـف ديلـز أن القـادة النازيـين كانـوا ينتظـرون علـى أمـل وقـوع انتفاضـة شـيوعية، "كنمـر يريـد لفريسـته أن تظهـر قبـل أن يقطعهـا إربـاً". ويشـير ديلـز إلى أن رئيسـه وزيـر الداخليـة البروسـي هيرمـان غورينـغ كان يعتقـد بـأن الحـزب الشـيوعي لا بـد وأن "يخـرج مـن جحـره" إذا مـا تحـرك النازيـون لحظـره.

غـير أن الانتفاضـة الشـيوعية لم تقـع، فالقـادة الشـيوعيون الألمـان كانـوا مُقَيديـن بموقـف الزعيـم السـوفياتي سـتالين الرافـض للسـماح لهـم بالتمـرد، ومقيديـن بإيديولوجيتهـم الـتي كانـت تقـول إن وصـول هتلـر إلى السـلطة يُعـد مؤشـراً علـى أن الرأسماليـة كانـت في طريقهـا للانهيـار ممـا يحقـق النصـر لهـم. ويوجـد دليـل علـى أن القـادة النازيـين أنفسـهم أدركـوا الموقـف الضعيـف للشـيوعية الألمانيـة. ففـي اجتمـاع للحكومـة أوائـل شـباط/ فبرايـر، تسـاءل هتلـر بصـوت عـالٍ إن كان مناسـباً مـن "الناحيـة المعنويـة" حظـر الحـزب الشـيوعين للحـد مـن تهديـده خـلال الحملـة الانتخابيـة.

وفي نهايـة المطـاف، قـدم حريـق الرايخسـتاغ مـا كان يحتاجـه النازيـون ويخططـون لـه: محاولـة انقـلاب شـيوعي، يُمكّنُ النازيـين مـن نشـر قـوات العاصفـة بحجـة التصـدي لـه.

لذلـك اعتمـدت الإسـتراتيجية النازيـة علـى نمـوذج إلقـاء ظهـور العنـف علـى الشـيوعيين لاسـتغلاله ذريعـةً لتبريـر العنـف الـذي يمارسـونه هـم أنفسـهم. وتطلـب هـذا جرعـة كبيرة مـن النفـاق وتوظيـف الإعـلام. وهـذا تحديـداً كان أفضـل مـا في جعبـة غوبلـز مـن مهـارات.

لقـد قـدم غوبلـز مثـالاً جيـداً عـن روايتـه الثابتـة للعنـف الشـيوعي والـرد النـازي عليـه، عندمـا مَثـل شـاهداً في محاكمـة مارينـوس فـان ديـر لوبيـه في تشـرين الثانـي/ نوفمبر 1933. بـدأت روايتـه بحادثـة مقتـل أحـد أفـراد قـوات العاصفـة، يدعـى هورسـت فيسـيل عـام 1930، وكانـت، بالنسـبة إلى غوبلـز، اغتيـالاً مسـتهدفاً لناشـط نـازي، كان بارعـاً في اسـتقطاب العمـال، بعيـداً عـن

الشيوعيين. وفي حقيقة الأمر، وقعت الجريمة نتيجة نزاع حول الإيجار بين فيسيل وصاحبة المنزل الذي يسكن فيه. وتابعت رواية غوبلز، وصولاً إلى الهجوم النازي على مجمع الأكواخ في فيلسينيك مطلع العام 1932 الذي كان، كما ادعى غوبلز، كميناً شيوعياً معداً سلفاً، في حين كان في الواقع هجوماً بأسلوب عسكري على المجمع، بهدف تصفية الناشط الشيوعي فريتس كليمكه. وكان حريق الرايخستاغ الحدث الأخير في رواية غوبلز.

وأياً كانت معرفة غوبلز، أو تورطه بحريق الرايخستاغ، لا يوجد أدنى شك بأن دعايته التي قامت على اتهام الشيوعيين كانت نفاقاً مدروساً، إذ لا يوجد في مذكراته ما يشير إلى أن النازيين كانوا يعتقدون حقاً أن فان دير لوبيه كان يتصرف نيابة عن الحزب الشيوعي. كما لا يؤكد أي من الأدلة التي عثرت عليها الشرطة، وليس تلك التي فبركتها، هذا الشك. ونظراً لغياب استطلاعات الرأي في ألمانيا النازية، لا يمكننا أن نعرف، على نحو أكيد، إن كان الألمان حينذاك يصدقون الرواية النازية للحريق، ذلك أن الأدلة المتوفرة تشير إلى أن مؤيدي النازيين صدقوا الرواية بخلاف معارضيهم. فقد كتبت سيدة من براونشفايغ رسالة إلى ابنتها في هولندا، أوائل آذار/ مارس، استحسنت فيها اعتقال رئيس تحرير جريدة من الديموقراطيين الاجتماعيين، لأنه ألمح لصحيفة أجنبية إلى احتمال أن يكون النازيون هم من أحرقوا الرايخستاغ. وقالت السيدة في رسالتها: "لم يعد أمراً مفاجئاً أن تنتشر هذه الأنباء المزيفة عن القوميين الاشتراكيين في الصحافة الأجنبية"، قبل أن تضيف أنه من المحتمل ألاّ يفهم أي أجنبي "مدى محبة الشعب الألماني واحترامه لهتلر". من جانبه قال هاينريش برونتغ مستذكراً، سنوات من الماضي، أن "حريق الرايخستاغ والأنباء عن الفاعلين، أثرت على الجمهور العريض بشكل لم يعد يزعجهم ممارسة الحكومة للعنف، "وكأن الشعب "أصبح مصعوقاً".

خطط غوبلز وبحرص شديد، لكيفية إقناع الناس، لكنه، وخلافاً لهتلر ولودندورف، كان مهتماً أكثر بأنواع أخرى من الدعاية السياسية. كان الإعلان التجاري نموذجه، فقد أدرك الفكرة السائدة التي تقول إنه ينبغي على الإعلان أن يؤثر في المستهلك برسائل بسيطة، تُكرر إلى ما لا نهاية، وتخاطب عتبة اللاشعور، وبشعارات لافتة يسهل حفظها. كانت إدارة غوبلز، وتسويقه لصورة هتلر، تضاهي أو تتفوق على تفنن أفضل الإعلانات التجارية في عصره. وكان محترفو الإعلانات التجارية، إلى حد ما مذعورين (من فكرة خسارة أعمالهم)، لكنهم، وفي الوقت نفسه كانوا مبهورين، عندما وضع هتلر غوبلز على رأس وزارة "التنوير الوطني والدعاية" الجديدة إذ وجدوا أمامهم حكومة ربطت نفسها بالإعلان، إلى حدٍ لم يتخيلوه من قبل كدعم قوي لعملهم، حتى إنهم كانوا يفتخرون بغوبلز باعتباره واحداً منهم.

وتلقى هذا التضليل الساخر للدعاية النازية دعماً كبيراً من طائفة اللاعقلانية التي كان تقود أتباعها : احتقار، بل ثورة على كل معايير التنوير العقلاني. وبدأت تتكشف للعديد من الناس خلال العشرينات والثلاثينات أن ثورة كهذه ضد المنطق، قد تكون علِّةً مزمنة في جسد الديموقراطية.

لقد شهدت العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين تطورين مهمين. أولهما ظهور سياسة الانتخاب الجماهيري في معظم الدول الأوروبية. ففي عام 1871، كانت فرنسا وألمانيا البلدين الوحيدين في أوروبا اللذين كانا يسمحان للرجال البالغين بالتصويت في الانتخابات العامة. حتى في بريطانيا -وهي التي كانت حينذاك حديثة العهد بالديموقراطية- كانت التصويت مرتبطاً بسجل الضرائب مما حرم نسبة لا بأس بها من أفراد الطبقة العاملة من حق التصويت. وبحلول العام 1914، وبعد جولات من الإصلاح، كان لدى معظم الدول الأوروبية ما يشبه نظام الصوت الانتخابي للرجال، في ما كان حق التصويت للمرأة لا يزال قادماً على الطريق.

أما التطور الثاني الذي كان يعتقد الأوروبيون بارتباطه بالتطور الأول،

فيتعلق بعودة ظهور حالات الكراهية، والتحامل، والمعتقدات التي ظن الأوروبيون أنها كانت تنتمي إلى العصور الوسطى الموغلة في القدَم. ففي مطلع القرن العشرين، انتشرت مزاعم "الجريمة الطقوسية" كجائحة وبائية في أوروبا. وتعود هذه المزاعم إلى أن اليهود قتلوا أطفالاً مسيحيين، لإعداد خبز عيد الفصح المعروف لديهم باسم "ماتزوح". حتى في فرنسا ذات الطابع العالمي، كشف اتهام الكابتن ألفريد دريفوس بتهمة الخيانة، عام 1894 وما تلاها، عن فضيحة من نوع جديد، وبالغ القسوة، من العداء للسامية. وفي عام 1903 كتب إيريك سيللو، أحد أبرز محاميي برلين ومؤلفي الكتب والمقالات الدورية، بكل يأس: "كم هي رقيقةٌ.... تلك القشرة من الثقافة التي تحجب مستنقعاً معمّراً من الوحشية الفكرية والأخلاقية". هناك فئات من الناس "الذين يعدون أنفسهم بكل فخر من بين المتحضرين، لم يعودوا يدركون أن الفظائع، التي كانت ترافق محاكمة الساحرات، والتي هي بالنسبة إلينا أسطورة مشؤومة من الماضي، لم يعد يخشى أحد عودتها إلى عصرنا الذهبي عصر التنوير والتسامح".

وبدأ المفكرون الأوروبيون ينشغلون ببروز هذه اللاعقلانية، وتحديداً بما يتعلق بتأثيراتها على السياسة. ونال عالم الاجتماع الفرنسي غوستاف لوبون قسطاً كبيراً من الشهرة والتأثير، بفضل نظرياته حول سلوك القطيع، كما هو الحال مع الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه في انفصاله عن الأخلاق التقليدية، وعالم النفس النمساوي سيغموند فرويد، بقوله إن الدافع الجنسي، وليس الفكر المنطقي، يُعتبرُ أساس الدافع البشري. هذا الافتتان باللاعقلانية بدأ ينتشر في كل مكان، وحتى في مجالات مثل القانون الذي كان يعد نموذجاً للمنطق المجرد.

كما أعطت تجربة الحرب العالمية الأولى زخماً إضافياً لهذا التهافت على ظاهرة اللاعقلانية. فالحرب بحد ذاتها كانت أمراً عبثياً، إذْ ما المغزى من أن تمشي الهوينى أمام صليات الرشاشات؟ لم تكن المكاسب المتوقعة للحرب

في أي بلد تتناسب مع حجم الخسائر. في جميع البلدان، تعرض الناس لأربع سنوات من الدعاية المحرضة على الكراهية، مصحوبة بمشاعر التمجيد والتعظيم.

وجمع هتلر كل ذلك بين يديه - النفاق المتعمد، الاهتمام بلاعقلانية الجماهير، كما هو الحال أيضاً مع رغبة العربدة بهذا الجنون. ويعود، أصلاً، التركيز النازي على العرق مفتاحاً للتاريخ، وعلى الفكر العنصري جواباً على جميع المسائل، إلى لاعقلانية ما قبل الحرب، والعنف زمن الحرب. لقد كان التفكير العنصري النازي بشعاره "التفكير بالدم" مناقضاً للعقل. هذه الأيديولوجية العنصرية كانت محط انتقاد في أوروبا. ففي الثلاثينات، ظهر في فرنسا مفهوم "العنصرية" بمعناه السلبي، فيما كانت المعارضة في بريطانيا لهذا النوع من العنصرية، الذي كان يُمارس في ألمانيا، أشد وأقوى، على الرغم من أنه غالباً ما كان لهذه الانتقادات جانبها الملتبس. وكان العالم البيولوجي البريطاني جوليان هاكسلي، المؤيد لنظرية تحسين النسل البشري، يرى أن النازيين لا يقدمون فائدة في هذا المجال. وكتب معلقاً على ذلك: "جيراننا الألمان" يحبون أن يتخيلوا أنفسهم "شُقْراً، ذوي رؤوس طويلة، طوال القامة وذكوريين بمعنى الفحولة". فاقترح صورة لهذا النموذج مُرَكَّبَةً من أبرز مؤيدي هذا الرأي. فليكن إذن أشقرَ مثل هتلر، وطويل الرأس ضيق الجمجمة مثل ألفريد روزنبيرغ [الذي كان مدور الوجه]، وطويل القامة مثل غوبلز [الذي كان لا يتعدى طوله 165 سم] وأهيفَ ممشوق القوام على شاكلة غورينغ [الذي كان بديناً، ضخم الجثة، بشكل كريه] .... عندها، كيف يمكن لهذا النموذج أن يشبه المثال الألماني؟"

كان رفض العقلانية مقروناً برفض الغرب الليبرالي الرأسمالي من الركائز الأساسية للحركة النازية واليمين المتطرف في جمهورية فايمار عموماً. وخلال الحرب العالمية الأولى، مجَّد الروائي توماس مان "الثقافة" الألمانية نقيضاً للحضارة الغربية الليبرالية التي قلل من شأنها

في فرنسا وبريطانيا، علماً أنه بدّلَ رأيه لاحقاً على عكس آخرين. أما الكاتب القومي المحافظ إدغار يوليوس يونغ، فقد كتب بنبرة احتقار، أن معاهدة فرساي، وعصبة الأمم، كانتا من رموز انتصار عام 1789، أي، وبعبارة أخرى، القيم الليبرالية والديموقراطية للثورة الفرنسية. وعلى نحو مشابه، كانت جمهورية فايمار "اختراقاً متأخراً للتنوير في وسط أوروبا". لهذا، يقول يونغ، إنه يجب على الألمان مقاومة التنوير "بالتقاليد، والدم، والروح التاريخية".

كان المراقبون المعاصرون مدركين، وبشكل مميز، للطريقة التي استفاد بواسطتها النازيون من دعوتهم إلى اللاعقلانية. وكان الشاب بيتر دروكر واحداً من ألمع المراقبين، وقد أصبح في ما بعد مشهوراً في الولايات المتحدة كخبير في إدارة الأعمال. في الثلاثينات، كان دروكر صحفياً وطالباً يدرس القانون. ولد دروكر لعائلة يهودية نمساوية، ترتبط بصلات جيدة مع النخبة النمساوية المثقفة. فقد كان علماء الاقتصاد المعروفون: جوزيف شومبيتر وفريدريك هايك ولودفيغ فون ميزز من أصدقاء العائلة، وكان خاله عالم القانون المرموق هانز كيلسن.

ومن خلال حدسه الفطري، توصل دروكر إلى بعض عناصر النازية التي كان المؤرخون، بعد عقود، لايزالون يعملون على استنتاجها. فقد كان يرى أن المعتقدات النازية والفاشية تطورت في مناخ عام من عدم الإيمان ليس بالرأسمالية وحسب بل بالاشتراكية أيضاً. فنظراً لغياب الحلول الناجعة للمشكلات الاجتماعية، لم يكن أمام النازية سوى أن تكون ضد كل شيء، وحتى ضد الأشياء المتناقضة: فقد كانت معارضة لليبرالية وللتيار المحافظ، وكانت ضد الدين وضد الإلحاد، ضد الرأسمالي وضد الاشتراكي، وفوق ذلك كله معادية للسامية. ويكشف دروكر بملاحظته الدقيقة أن النازية لم تنجح لأن الناس آمنوا برسالتها، بل إن الحقيقة على العكس تماماً. ويوضح دروكر أن النجاحات النازية كانت "مشهودة

من صحافة معادية، وراديو معاد، وسينما معادية، وكنيسة معادية، وحكومة معادية. كانت كلها تشير بلا كلل إلى الأكاذيب النازية، والتناقض النازي، وعدم قابلية تحقق الوعود النازية، ومخاطر وجنون منهجهم". ويخلص دروكر إلى أنه كان واضحاً أن "لا أحد كان بإمكانه أن يكون نازياً، لو كان ذلك يتطلب منه أن يؤمن عقلانياً بالوعود النازية كشرط مسبق".

وجاء أفضل تفسير للنازية قابله دروكر في حياته من منشق نازي "سمعته يقول قبل عدة سنوات لجمهور من الفلاحين في أحد الاجتماعات: لا نريد أسعاراً رخيصة للخبز، ولا أسعاراً أعلى، لا نريد سعراً ثابتاً للخبز. نريد الأسعار التي يضعها القومي الاشتراكي". ولأن مسارهم المنافي للمنطق وكراهيتهم لا تستطيع أن تقدم أي تطور اجتماعي مُرضٍ، كان النازيون يلجؤون إلى هذا النمط من اللاعقلانية؛ "فلم تنجح النازية في تنفيذ مهمتها إلا عبر معجزة". أسعار أعلى للخبز، وأسعار أقل، وأسعار ثابتة، "كلها فشلت، طالما أن الأمل الوحيد يكمن في سعر للخبز يختلف تماماً عن تلك ولم يسبق لأحد أن عرفه من قبل، ويناقض دليل العقل".

وكانت النتيجة أن هؤلاء الألمان هم غالباً من كافحوا من أجل الفقراء والمهمشين الذين كانوا أكثر الناس توهماً بالمقدرة الديموقراطية لدى الناس العاديين. وعندما حقق النازيون أول نجاح لهم عام 1930، اعترض رئيس حكومة مقاطعة بروسيا أوتو براون على القول بفشل فكرة الديموقراطية، مؤكداً أن الفشل يقع على "جزء كبير من الشعب الألماني الذي لم يثبت أنه على مستوى "المسؤولية التي ألقيت على عاتقه فجأة". وفي أوائل 1933، كتب المحامي والسياسي الديموقراطي الاجتماعي ولفغانغ هِنه إلى صديقه كارل سيفرينغ، "يبدو لي أن الطبقة العاملة لم تنضج بعد لهذه الإرادة الديموقراطية". وفي معرض رده على رسالة صديقه، يوافق سيفرينغ على هذا الرأي، ويضيف أن المشكلة تكمن في "الأشخاص الأميين سياسياً، الذين لم يحسنوا التصرف بالحقوق التي أُعطيت لهم". ويضرب على الوتر نفسه

الاشتراكي الثوري إرنست توللر الذي كتب في السيرة الذاتية المتشائمة التي أنهاها قبل مغادرته إلى المنفى عام 1933: "تعب الناس من المنطق والفكر والتفكير، ويتساءلون ماذا حقق لهم المنطق على مدى السنوات الأخيرة، وما الفائدة التي جنيناها من المعرفة وحسن الاطلاع".

كذلك كان المراسل السياسي الثاقب النظرة كونراد هايدن محبطاً من عدم قدرته على جعل قرائه يستوعبون احتقار النازيين للحقيقة، ومن إخفاقه في التصدي بشكل فعال لأكاذيبهم. ففي إحدى المناسبات، يعترف هايدن بالمقدرة البلاغية التي رسم بها هتلر صورة "اليهودي الذي يذهب إلى [منتجع جبلي] للتخلص من سمنته". في الواقع، وعلى الرغم من كونه يرتدي "جزمة صفراء جديدة لامعة" و" يحمل حقيبة جميلة على ظهره، دون أن يضع فيها أي شيء"، فإنه لن يقوم هذا بالتنزه في الجبال، ليكتفي بالتوقف حيث يقف القطار، لتقتصر رحلته على بار الفندق. ويضيف هتلر "هؤلاء ليسوا من طبقتنا العاملة"، ليرسم بعدها صورة مناقضة لألمان نحيلي الجسم، فقراء يعملون لساعات طويلة، كان عليهم أن يتعاملوا مع الآلة من العام 1913 أو 1914. وفي معرض تعليقه على هذا الأداء، يتحسر هايدن على "أنه سيكون من العبث تماماً تفنيد ذلك والإشارة إلى حقيقة أن الآريين السمان، بجزماتهم الصفراء الجديدة، لن يتحركوا مسافة أبعد من سكة الحديد الجبلية". ويضيف هايدن أنه سيكون من العبث، لأنه "ربما قد يُسمع هذا الرد ويصدقه أحد ما، لكن سرعان ما يُنسى بكل تأكيد ". أما صورة هتلر التي رُسمت بـ "ريشة مُبهِرة" فستبقى "وتَعَلَقُ دون أن تَتَحَلل. فحالما تسمعها، لن تنساها أبداً ".

وفي كتاب صدر عام 1932 حول الحركة النازية بعنوان **مسار هتلر**، يقدم تيودور هويس، الذي أصبح في ما بعد رئيساً لألمانيا الغربية، اعترافاً شبيهاً مُحبَطاً بالمهارات الدعائية للزعيم النازي. وينوه هويس بأن المقاطع التي تتعلق بالدعاية في كتاب **كفاحي** كانت "أفضل، ومكتوبة بدقة أكبر" من

بقية الكتاب، مشيراً إلى أنه "هنا تحديداً يتكلم رجلٌ يفهم شيئاً ما عن هذه المسألة".

وبشكل مباشر وملموس، جعل الركود الاقتصادي الحياة صعبة بالنسبة إلى المراسلين، من أمثال هايدن، وبالنسبة إلى جزء كبير من الصحافة الألمانية الملتزمة التحقيق العقلاني للواقع الاجتماعي والسياسات الديموقراطية المعتدلة. فإلى جانب أشياء أخرى، كانت جمهورية فايمار معروفة بصحفها الليبرالية الكبرى: **فرانكفورتر تسايتونغ**، و**فوسيشهس تسايتونغ**، و**برلينر تاغيبلات** مع الدائرة الانتخابية لتيار الوسط السياسي التي كانت تدعم هذه الصحف. فعلى سبيل المثال، كانت صحيفة **فرانكفورتر تسايتونغ** تبيع كحد وسطي 110 آلاف نسخة يومياً عام 1918. لكن، وبحلول العام 1932، انخفضت المبيعات إلى النصف، وكان مصير الصحيفتين الأخريين مشابهاً. ومن ثَمَّ كانت خسارة مئات الآلاف من الماركات سنوياً أمراً لا يمكن تحمله. وأُنقذت صحيفة **فرانكفورتر تسايتونغ**، بفضل تمويل جماعي من عدة جهات صناعية، وتحديداً من شركة الصناعات الكيماوية العملاقة "أ. ج. فاربن".

وبالتأكيد كان لهذا التمويل أثره المتوقع في السياسة التحريرية. ففي عام 1932، أعد الروائي جوزيف روت الذي كان ينحصر عمله اليومي بالكتابة لهذه الصحيفة، تقريراً عن التلوث الناجم عن مصنع ليونا للكيماويات في ميرسبورغ. فسارع أحد أعضاء مجلس إدارة شركة فاربن لتوجيه رسالة إلى رئيس التحرير اشتكى فيها من "أنك، وبكل بساطة، لم تنجح في تطهير طاقم التحرير" من "تلك العناصر" التي، "وبكل الوسائل التي لديها، حتى القذرة منها، تنفس عن كراهيتها للشركات الكبرى". كذلك، عمدت جريدة **فرانكفورتر تسايتونغ** إلى تحويل كونراد هايدن إلى العمل في ملحق "المرأة" و"الرسوم المصورة"، الأمر الذي كان يعتبر-قياساً على المعايير المهنية في ذلك الحين- تخفيضاً كبيراً في مرتبة صحفي رجل.

وفي الواقع، ظهر الاحتقار النازي للحقيقة، بأوضح أشكاله، في سلكي القضاء والصحافة، حيث يُفترض أن يكون التقويم العقلاني للدليل سائداً. وقد رأينا سابقاً كيف فصّلت الخطط النازية، بشكل مكشوف، موقفها من الصحافة، حتى في برنامج الحزب عام 1920. وحال توليهم السلطة، راح النازيون يغلقون صحف المعارضة. وكان أمراً مرجحاً أن يجد الصحفيون المنتقدون، الميالون لليسار أنفسهم إما في السجن وإما في معسكرات الاعتقال. هكذا كان مصير كارل أوسيتزكي من أنصار السلام، ورئيس تحرير مجلة **المنصة العالمية**، ومصير الصحفي الاستقصائي إيغون إيرفين كيش، الذي كان واحداً من المعالم الثابتة لمقهى "جنون العظمة". أما الصحفيون الذين لم يطالهم السجن، فقد أُخضعوا للإرادة النازية، إذْ كانوا يتلقون الإرشادات والتعليمات حول ما يفترض أن يكتبوه، وكيف يفترض بهم أن يكتبوه. وفي منتصف العام 1933، كانت كل الصحف الألمانية تقدم نفس المحتوى. ورغم أن المراسلين الأجانب كانوا لايزالون قادرين على نقل حقيقة ما يجري داخل ألمانيا، فقد كانوا يتعرضون للتهديد، والمضايقات، واعتراض اتصالاتهم، والاعتقال في نهاية المطاف. وعندما أُجبرَ واحد من أفضل هؤلاء الصحفيين في النهاية على مغادرة ألمانيا -وهو المراسل الأميركي إدغار أنسيل مورر- سأله ضابط في الغستابو عن موعد عودته، فرد عليه مورر بكل تحدٍ: "عندما أكون قادراً على العودة مع 200 مليون من أبناء بلدي. فأكد له الضابط، الذي فهم مغزى ما قاله مورر، أنه يستحيل حدوث أمر كهذا. فجاوبه مورر قائلاً: "ليس من أجل الفوهرر. الفوهرر يمكنه أن يستدعي أي شيء".

وبعد توليه منصب المستشار، التقى هتلر مع ممثلي الصحافة النازية، وقال لهم إنه يتوقع منهم تعليم الصحافة الألمانية فكرة خدمة الشعب باعتبارها المبدأ الأعلى". ومن ثَمَّ يجب على الصحافة أن تكون "انعكاساً حقيقياً للحياة والروح الألمانية"، غير أن هذه المهمة - كما يقول- "أُخضعت لمصالح أخرى لدى جزء

كبير من الصحافة اليوم"، وإنه "يستحضر مشاعره للحديث" عن "ذلك النوع من الصحافة التي استغلت حريتها" لتشارك في "التحريض المعادي للوطن". وبحلول عام 1934، كان باستطاعة غوبلز أن يعبر عن رضاه من تجاوب الصحافة مع الأحداث "بالشكل الصحيح"، حتى دون أن يُطلب منها ذلك. وعلى الرغم من ذلك، كتب في مذكراته "يجب أن يحرص كل شخص بقي لديه ذرة شرف على ألا يكون صحفياً".

وعلى نحو مشابه، كان القضاة، والمحامون، والقانون، من أكثر الأشياء التي كان يزدريها هتلر، كما كان نظامه على عداوة مع عقلانية القانون ونزاهته وثباته. وكانت حادثة حريق الرايخستاغ من أبرز القضايا القانونية التي شهدها العام الأول من حكم هتلر، والتي لم يكن فيها مارينوس فان دير لوبيه المتهم الوحيد، بل أيضاً ثلاثة بلغاريين وألماني هو ناشط شيوعي كان يواجه تهمة الخيانة العظمى. وأبدى قضاة محكمة الرايخ العليا قدراً قليلاً من الشجاعة، كي يبرئوا الناشطين الشيوعين الأربعة التي كانت الأدلة المقدمة ضدهم إما غير موجودة إطلاقاً، وإما مفبركة بشكل مضحك على يد رجال الشرطة. فاستشاط هتلر غضباً من أحكام البراءة، وأمر بتشكيل محكمة الشعب العليا للنظر خصيصاً في القضايا ذات الطابع السياسي. وعلى مدى حكم الرايخ الثالث، كان القضاة يتعرضون للانتقاد المباشر، وأحياناً للعزل، بسبب أحكام لم تحظَ برضا الفوهرر. كما كانت فكرة القانون برمتها كنموذج واضح وثابت من الحقوق والواجبات مقلوبة رأساً على عقب في نظام هتلر. فقد أدخل القضاة النازيون -ومنهم السيئ الذكر كارل شميت الذي كان مستشاراً قانونياً لحكومتي بابن وشلايشر- أنفسهم في حيص بيص وهم يشرحون كيف أن القانون هو كل ما كان يقوله الفوهرر. فقد كانوا يتحدثون عن مفهوم قانوني جديد "سلطة الفوهرر"، بدلاً من الأفكار الأقدم التي ترتبط بالشرعية الدستورية. وعلى الرغم من أنهم تطرقوا إلى استحداث قوانين عامة جديدة بشقيها المدني والجنائي في ألمانيا، إلا أنهم لم يتابعوا هذا العمل. وفي الحقيقة، حتى قانونهم الخاص

بهم الذي لم يكن أكثر من تشريعات ملزِمة، كان سيبدو مخالفة صريحة لسلطة هتلر الاستبدادية.

بعد تسلم هتلر المستشارية، كان لا يزال يتعين على النازيين الفوز بما وصفوها صراحة الانتخابات الأخيرة، في 5 آذار/ مارس 1933. وبعد حملة انتخابية شهدت عنفاً حاداً، وأكدت صعوبة عمل أحزاب المعارضة بشكل كبير، فاز النازيون بنسبة 43٪ من الأصوات. وحقق القوميون الألمان 8٪، الأمر الذي أعطى ائتلافهم مع النازيين أغلبية مريحة في الرايخستاغ.

إلا أن هتلر كان يتوقع أكثر من ذلك. وزعم مارتن سومرفيلت السكرتير الإعلامي لغورينغ أنه سمع هتلر يقول لغورينغ ليلة الانتخابات: "طالما أن الرجل العجوز لا يزال حياً، لن يكون بمقدورنا التخلص من العصابة". وطبعاً كان المقصود بـ "الرجل العجوز" الرئيس هيندنبورغ، أما "العصابة" فكانت تعني بابن وهوغنبيرغ والقوميين الألمان.

كان هتلر يسعى إلى تمرير "قانون التمكين" في الرايخستاغ، وهو القانون الذي يعطي بموجبه البرلمان سلطاته التشريعية للحكومة لمدة أربع سنوات. ولأنه يُعتبر تعديلاً دستورياً، كان القانون يحتاج لموافقة أغلبية الثلثين، مما دفع هتلر لاستخدام الترهيب والترغيب، لإقناع الأحزاب بالتصويت لمصلحة القانون.

افتُتحت الدورة التشريعية للرايخستاغ الجديد بما يعرف باسم "عيد بوتسدام". وبوتسدام بلدة صغيرة تقع جنوب غرب برلين طالما، كانت مقراً للملوك بروسيا، والمقر الروحي للحركة الوطنية البروسية المحافظة. ومنذ العام 1929، كانت المؤسسة المحافظة تبحث عن وسيلة لربط حركة هتلر ببرنامجها السياسي. وبما أن عيد بوتسدام قد صُمِمَ تعبيراً عما يُفترض بأنه "الوحدة الوطنية"، بدأ الاحتفال الرسمي بهذا اليوم بقداديس كاثوليكية وبروتستانتية منفصلة. كما جرت مراسم افتتاح الرايخستاغ

الجديد في كنيسة غاريسون في بوتسدام التي تعتبر أرضاً مقدسةً للوطنية البروسية، حيث يرقد اثنان من أعظم ملوك بروسيا؛ فريدريك فيلهلم الأول وابنه فريدريك الثاني "العظيم".

ولأن فكرة الوحدة الوطنية كانت أيضاً تتساوق مع أسطورة "روح 1914"، كان العام 1914 حاضراً في كل شيء حدث في عيد بوتسدام. وفي القداس اللوثري، قال زعيم الكنيسة الدكتور أوتو ديبليوس لمستمعيه "كان شعار الجماهير" في آب/ أغسطس 1914 "رايخ واحد، وشعب واحد، وإله واحد"، وهو شعار لا يزال يشكل "حنيناً" لدى الجماهير. واختتم ديبليوس عظته بالقول: "لا يزال مئات الآلاف من أخوتنا وأخواتنا يئنون تحت العبودية الأجنبية. لطالما كان مُقدراً على الشعب الألماني أن يناضل مجدداً من أجل حريته".

وبعد الانتهاء من القداديس، جرت مراسم افتتاح الرايخستاغ الجديد، ليُختتم اليوم بعرض عسكري لم تقتصر المشاركة فيه على حامية بوتسدام العسكرية وحسب، بل شاركت وحدات من الشرطة، وقوات العاصفة وكتائب الحماية النازيتان، فضلاً عن "رابطة الفتيات الألمانيات". وفي خطابه بهذه المناسبة، بالغ هتلر-وكان يرتدي زياً رسمياً صباحياً- في مديح هيندنبورغ، ودعا إلى التمسك بالوحدة الوطنية. من جانبه، حضر هيندنبورغ الاحتفال بزيه العسكري وحيًا بطريقة استعراضية ابن القيصر فيلهلم الذي كان بين الحضور، في إشارة تأييد لعودة الملكية.

إلا أن الاحتفال بعيد بوتسدام كشف أيضاً محدودية الوحدة بحسب مفهومي هتلر وهيندنبورغ. فهتلر غاب عن المراسم الكنسية، واستعاض عنها بزيارة قبور قتلى قوات العاصفة. كذلك أيضاً غاب الديموقراطيون الاجتماعيون عن المراسم الكنسية، في حين لم يخاطر أحد من أعضاء الحزب الشيوعي بإظهار وجوههم، فهم كانوا حينذاك إما معتقلين وإما قد فروا خارج البلاد. حتى الدكتور ديبليوس شدد، بوضوح، في كلمته على

أنه "لا يجوز الجمع بين المنصب الحكومي والاستبداد الشخصي"، كما لم يكن استدعاؤه لشعار "رايخ واحد، شعب واحد، إله واحد" إلا تبايناً ذا مغزى مع نظيره النازي الذي استبدل بالعنصر الأخير كلمة "قائد واحد". ما كشفه الاحتفال بعيد بوتسدام فعلاً، هو وحدة وطنية بمفهوم الجناح اليميني الذي أقصى ثلث البلاد، وكان يتحفظ على الفئات الأخرى المتبقية.

وبعد يومين، اجتمع الرايخستاغ للبحث في الأمر الأهم في دار كرول للأوبرا، بسبب الدمار الكبير الذي لحق بالقاعة العمومية في أثناء الحريق. جاء هتلر مرتدياً زي قوات العاصفة البني، وكان المشاغبون النازيون حاضرين بأعداد كبيرة.

قبل بدء الجلسة، كان على النواب الديموقراطيين الاجتماعيين أن يقرروا المخاطرة بالحضور، وسط شائعات متداولة عن نية النازيين استخدام العنف ضدهم، "إلى حد سنكون محظوظين لو خرج نصف أعضاء كتلتنا النيابية أحياء"، كما جاء في رواية النائب الديموقراطي الاجتماعي عن مقاطعة بافاريا فيلهلم هوغنر. وعندما قرر النواب الديموقراطيون الاجتماعيون، بشجاعة، حضور الجلسة - كما يذكر هوغنر- "وجدوا الساحة الفسيحة أمام دار كرول للأوبرا قد غصت بأعداد غفيرة من الناس". و"قوبل نواب حزب الوسط ونظراؤهم من الديموقراطيين الاجتماعيين بهتافات جماعية تردد 'نريد قانون التمكين'، وكان هناك فتية يضعون الصليب المعقوف على صدورهم، ينظرون إلينا شزراً، ويعترضون طريقنا، كما تعرضنا للضرب وهم يصرخون 'خنزير الوسط'، 'خنزيرة ماركسية'، فيما كانت دار الأوبرا تحتشد بمسلحين من قوات العاصفة وكتائب الحماية". عندما دخل النواب إلى الداخل، علموا بنبأ اعتقال كارل سيفرينغ، واعتقال ماريا يانكوفسكي، وتعرضها للضرب. ويتابع هوغنر: "عندما أخذنا، نحن النواب الديموقراطيين الاجتماعيين، مقاعدنا في الطرف الأقصى من الجهة اليسرى، تجمع أفراد قوات العاصفة وكتائب الحماية عند المخارج على

طول الجدران خلفنا تماماً، بشكل نصف دائري، وعلى وجوههم تعابير لا تبشر بالخير."

إذا كانت "روح 1914" هي التي خيمت على بوتسدام، فإن رواية الانقسام المناقضة لها تماماً، ورواية "الطعن في الظهر"، احتلتا الصفوف الوسطى والمقدمة في قاعة دار كرول للأوبرا. افتتح هتلر الجلسة بخطاب طويل. وزمجر بداية، قائلاً: "تبين أن جميع الوعود التي قدمها رجال تشرين الثاني/ نوفمبر 1918، "إن لم تكن خديعة مقصودة"، ليست سوى أوهام ملعونة. لقد كانت شاملة ومتنوعة، بحيث "إن مقاربات الأفراد المتعارضة كلياً مع مفاهيم الدولة، والمجتمع، والدين، والأخلاق، والأسرة، والاقتصاد، كلها قد دمرت أي إمكانية لحياة مجتمعية". وتابع هتلر كلامه: "فالبديل الوحيد هو قيام مجتمع الشعب الحقيقي" الذي يسمو فوق المصالح والصراعات بين جميع طبقات وفئات المجتمع. لذلك تريد حكومته "قراراً واضحاً" حول المسألة الوحيدة المطروحة اليوم: إقرار قانون التمكين. وكان هتلر "يعرض على أحزاب الرايخستاغ إمكانية التطور السلمي الذي يمكن أن ينبثق منه تفاهم مستقبلي"، مؤكداً أن الرفض لن يزعج حكومته. ثم اختتم خطابه بعبارة لا تخلو من التهديد: "أيها السادة -هلاّ تفضلتم بالاختيار بين الحرب والسلام!"

كان ذلك اليوم هو المناسبة الوحيدة التي شارك فيها هتلر بنقاش برلماني حقيقي. فقد نهض زعيم الديموقراطيين الاجتماعيين أوتو فيلس ليواجه هتلر. وتبعاً للظروف التي كانت سائدة حينذاك، وفي ظل التهديدات التي كان تطلقها قوات العاصفة وكتائب الحماية ضد النواب الديموقراطيين الاجتماعيين، واعتقال العديد من أعضاء الجناح اليساري، وتعرضهم للضرب والتعذيب، وحتى القتل، كان خطاب فيلس شجاعاً، كما كان بليغاً ومؤثراً. ومما قاله فيلس: "من الواضح أن خصومنا يسعون وراء شرفنا" لكن هذا سيرتد يوماً" على النازيين، فليس "شرفنا هو الذي يُحطمُ في

هذه المأساة العالمية". ثم تابع قائلاً: "يمكنهم أن يأخذوا حريتنا وحياتنا، وليس شرفنا". وبينما كان المشاغبون النازيون يضحكون ساخرين، ويطلقون الشتائم والتهديدات، نظر فيلس إلى هتلر مباشرة، واختتم خطابه بالقول: "لا قانون تمكين يستطيع أن يعطيك السلطة لتدمير الأفكار الخالدة العصية على التدمير. نحيي المضطهدين اليائسين، ونحيي رفاقنا في الرايخ. إن صمودهم وإخلاصهم يستحقان التقدير والاحترام، كما أن شجاعة مبادئهم وإيمانهم الصلب هما الضمانة لتحقيق مستقبل أكثر إشراقاً".

تجدر الإشارة إلى أن الديموقراطيين الاجتماعيين كانوا قد وزعوا سلفاً نص الخطاب على الصحافة، وحصل هتلر على نسخة منه. وها هو ذا يعود الآن إلى المنصة. فلا شيء كان يثير غضب هتلر أكثر من تحدٍ مؤثر كما فعل فيلس.

"تأخرت في القدوم، لكنك أتيت". هكذا بدأ هتلر رده ساخراً بجملة مقتبسة من مسرحية **فالنشتاين** للكاتب الألماني شيللر، وهي المفضلة لدى سياسيي فايمار من شتريزيمان إلى هيندنبورغ. وأضاف هتلر أنه كان بمقدور الديموقراطيين الاجتماعيين أن يعارضوا "كذبة" تحميل ألمانيا وزر الحرب، وأن يعارضوا دفع التعويضات، وأن يقودوا الانتفاضة ضد معاهدة فرساي، لكنهم لم يفعلوا ذلك. "إذا كان فيلس تحدث عن الاضطهاد، أعتقد أن عدداً قليلاً من الحاضرين هنا معنا الآن لم يضطروا ليدفعوا في السجن ثمن الاضطهاد الذي مارستموه". وعندما بدأ النواب الديموقراطيون يصرخون احتجاجاً، طلب غورينغ الذي كان يترأس الجلسة منهم أن "يتوقفوا عن الكلام، وينصتوا لهذا، ولو مرة واحدة". اشتكى هتلر مما أسماه الأكاذيب التي كانت تروجها صحف الديموقراطيين الاجتماعيين، وهو يزداد غضباً وانفعالاً. وفي النهاية قال للنواب الديموقراطيين الاجتماعيين إنه لا يريدهم أن يصوتوا لقانون التمكين، ثم اختتم كلامه "ألمانيا سوف تتحرر، ولكن ليس بفضلكم". وجلس في مكانه وسط "هتافات هادرة: يعيش".

وعندما جرى التصويت، في وقت لاحق، من ذلك اليوم، وفرّت الأحزاب على الديموقراطيين الاجتماعيين التصويت لقانون هتلر. فحزب الوسط، الذي كان دعامة الجمهورية على مدى 14 عاماً، والحزبان الليبراليان القديمان: حزب الشعب الألماني - شتريزيمان، والحزب الديموقراطي الألماني سابقاً، تخلوا عن مبادئهم أمام النجاح والإرهاب النازي.

وزعم هاينريش برونغ، بعد الحرب العالمية الثانية، أنه وعدد من أعضاء الرايخستاغ قاموا بمحاولة اللحظة الأخيرة، لتلافي أسوأ ما في مشروع قانون التمكين. وكانت الخطة تقضي إدخال تعديل يحدد فترة سريان العمل بالقانون بستة أشهر، واستعادة الحريات العامة التي كان قد علقها مرسوم حريق الرايخ. وفي يوم الاحتفال بعيد بوتسدام، وقبل بدء المراسم في كنيسة غاريسون، تحدث زعيم كتلة القوميين الألمان النيابية إرنست أوبرفوهرن مع برونغ بهذا الشأن، وفي اليوم التالي، دعا أوتو شميت-هانوفر، صديق أوبرفورين، برونغ إلى اجتماع مسائي مع ألفريد هوغنبيرغ. وبحسب ما ذكره برونغ، "كان هوغنبيرغ على غير عادته متعقلاً"، واتفق الجميع على شكل التعديل.

لكن تمرداً وقع في صفوف كتلة القوميين الألمان في الرايخستاغ، قاده الجناح اليميني المتشدد الذي كان يريد دعم النازيين. لم يعلم برونغ بالأمر حتى وصل مشروع القانون إلى القراءة الثانية. وبحسب ما ذكره برونغ، "كان أحد أفراد كتائب الحماية النازية يقف وراء كل صف من المقاعد، حيث لم يتمكن شميت-هانوفر من إبلاغي إلا همساً "بخيانة الاتفاق الذي تم التوصل إليه في الليلة الماضية، وأنه، شخصياً، تعرض للضغط من أجل التراجع عن موقفه، ولذا لن يكون هناك أي تعديل.

ولم يكن المغزى الحقيقي لقانون التمكين أن الرايخستاغ قد منح حكومة هتلر سلطاته التشريعية لأربع سنوات، بل أنه بحصوله على هذا التفويض، جعل هتلر نفسه مستقلاً عن الرئيس هيندنبورغ أيضاً. أي،

وبضربة واحدة، أزيلت واحدة من الضمانات الرئيسية التي كان يعتمد عليها المحافظون لضبط هتلر وتقييده. وعلى مدار الأشهر الأربعة اللاحقة، سيتم اكتساح وإزالة غالبية الضمانات الأخرى من الحريات وحكم القانون، وبسرعة لافتة، وعملية لا رحمة فيها لترسيخ السلطة.

وأطلق النازيون على هذه العملية اسم **غلايششالتونغ**، وتعني **التنسيق**[16]. وهو مصطلح مأخوذ من علم الالكترونيات، ويُقصد به توزيع جميع المفاتيح على نفس الدارة. ووسط تعاظم الحماس الشعبي تجاه حكومتهم، هاجم النازيون النظام الفيدرالي، بالتحكم السريع بحكومات المقاطعات، على نحو يمنع ظهور أي معارضة محتملة من أماكن معروفة بإشكالياتها مثل بافاريا. كما تم الاستيلاء على كل منظمة مهنية ونيزنتها، فضلاً عن التحكم بالمحطات الإذاعية والصحف، تحت إشراف وزارة جوزيف غوبلز الجديدة للتنوير الشعبي والدعاية.

وفي نيسان/ أبريل، صدر "قانون لاستعادة الخدمة المهنية المدنية" الذي سمح للنظام بتسريح أي موظف حكومي "لم يكن آرياً"، أو "لا يوفر" سجله السياسي "ضمانة كافية" بأنه "سيكون دائماً، ومن كل قلبه، مع الدولة القومية". وشمل هذا القانون تحديداً شريحة واسعة في ألمانيا ضمت أساتذة الجامعات، والمحامين الذين يعملون لحسابهم الخاص.

وبدأ حظر الأحزاب السياسية، الواحد تلو الآخر، بما في ذلك القوميين الألمان، حتى انكفأت عن أي نشاط. وفي تموز/ يوليو، أصدرت حكومة هتلر مرسوماً يعلن النازيين الحزب الأوحد في ألمانيا.

وبعد أسبوع على إقرار قانون التمكين، بدأت حكومة هتلر أول تحرك لها ضد الجالية اليهودية في ألمانيا. وأعلنت مقاطعة المحال التجارية اليهودية والمكاتب المهنية. وفي 1 نيسان/ أبريل، زُرع أفراد قوات العاصفة أمام جميع

---

16 المقصود بهذا المصطلح مراقبة وإدارة مؤسسات الدولة وأجهزتها بطريقة تخدم تنفيذ الأهداف النازية (س)

تلك المحال التي استطاعوا التحقق من هوية أصحابها، وحذروا الألمان: "دافعوا عن أنفسكم، لا تشتروا من اليهود". إلا أن المقاطعة ارتدت عكساً. فقد تحدى الكثيرون من الألمان قوات العاصفة، وشقوا طريقهم إلى المتاجر التي اعتادوا ارتيادها. ونظراً للإحراج الكبير الذي وقعت فيه الحكومة بسبب غياب هيبتها في حملة المقاطعة، دعا غوبلز إلى وقف العملية. واتضح أن التمييز الذي كان مخفياً عن أعين الناس، كما هو الحال مع قانون الخدمة المدنية، كان أكثر فعاليةً.

وفي آذار/ مارس، أعلن النازيون باستعراض كبير إنشاء أول معسكر اعتقال، وهو مصطلح استعاروه من حرب البوير، والحرب الأهلية الروسية. وأقيم هذا المعسكر في منطقة داخاو بالقرب من ميونيخ. وسرعان ما تبعته معسكرات أخرى، منها واحد في معمل للتخمير، تم تحويله لهذا الغرض في أورانينبورغ شمال برلين، ومعسكرات أخرى كانت بالأصل سجوناً في زونينبورغ وبراندنبورغ، أو في حصون تم تحويلها إلى معسكرات اعتقال، مثل أوبرر كوبيرغ. وضمت الموجة الأولى من الضحايا، إلى حد كبير، المعارضين السياسيين للنازيين: ليبراليين، الجناح اليساري، أو سياسيين من أنصار السلام، وناشطين، وصحفيين، وكتاباً، ومحامين. ومن بين هؤلاء بعض ممن ورد ذكرهم في هذا الكتاب، مثل هانز ليتن، وإيغون إيرفين كيش، وكارل فون أوسيتسكي، وماكس فورست، ولينا هاغ. وسيلقى ليتن وأوسيتسكي مصرعهما في المعتقل، حيث كان التعذيب والضرب يفوقان الوصف.

وبعد اثنتي عشرة سنةً، وتحديداً في 27 نيسان/ أبريل 1945، وبينما كان الجيش الأحمر السوفياتي مُطْبِقاً على هتلر الذي كان في ملجئه تحت الأرض في برلين، تحدث هتلر عن الأيام الخوالي مع وزير دعايته الوفي جوزيف غوبلز، وأحد جنرالات كتائب الحماية يدعى فيلهلم مونكه. في حينه، كانت مدينة برلين العظيمة قد صارت بمعظمها أنقاضاً، وباتت معظم الأراضي

الألمانيـة مُحْتَلَـةً مـن قـوات أجنبيـة، وملايـين الألمـان قضـوا نحبهـم في حـرب هتلـر. وبمفارقـة سـاخرة مـع الواقـع، يقـول مونكـه: "لم نفعـل في عـام 1933 مـا كان يجـب علينـا فعلـه، يـا سـيدي القائـد". ويوافقـه هتلـر علـى مـا يبـدو الـرأي لسـبب بـدا مفاجئـاً: لأنـه وصـل إلى السـلطة قبـل الأوان المناسـب بعـام ونصـف. فالنظـام القديـم لم يكـن قـد شـوه سمعتـه بعـد، بحسـب قولـه. فعندمـا تسـلم السـلطة كان هيندنبـورغ لا يـزال علـى قيـد الحيـاة، واشـتكى هتلـر قائـلاً: "كان عَلـيَّ أن أنـاور لفـاً ودورانـاً مـن تنـازل إلى آخـر"، وأنـه كان مضطـراً لأن يعـين عـدة مسـؤولين غـير موثـوق بهـم، الأمـر الـذي فَسَّـرَ التسـرب المتكـرر للمعلومـات. وقـال هتلـر أيضـاً إنـه كان يخطـط "لمحاسـبة شـديدة القسـوة" لأشـخاص مثـل هامرشـتاين، وشـلايشـر و"كل الدائـرة المحيطـة بهـذه الحشـرات الطفيليـة". لكـن، وبعـد عـام ونصـف مـن وجـوده في السـلطة، أصبـح أكثـر لينـاً واعتـدالاً، وعلـى أي حـال كان التأرجـح صعـوداً للوضـع الاقتصـادي والحظـوظ السياسـية لألمانيـا قادمـاً علـى الطريـق. ويختتـم هتلـر كلامـه: "ثـم تنـدم بعـد ذلـك علـى أنـك كنـت لطيفـاً جـداً".

وفي حقيقـة الأمـر، إن تقويـم هتلـر لأيامـه الأولى في منصبـه (باسـتثناء لطافتـه) لم يكـن بأكملـه خاطئـاً. فخـلال الأشـهر الثمانيـة عشـر ونصـف الشـهر لـه كمستشـار، كانـت المؤسسـة السياسـية المحافظـة تمثـل مصـدر القلـق الأكبر بالنسـبة إليـه، إذْ أنهـا كانـت تمتلـك مـا يكفـي مـن السـيطرة علـى الروافـع الفعليـة للسـلطة (سياسـياً، واقتصاديـاً، وعسـكرياً) لتمكينـه مـن الوصـول إلى هـذا المنصـب، كمـا كانـت قـادرة علـى إزاحتـه. وكان الطرفـان: هتلـر والمحافظـون، يـدركان ذلـك جيـداً.



8
"يجب أن نتخلص منه"

يُطلق الاتصال الهاتفي الذي يتلقاه فريتس غونتر فون تشيرشكي، عند الساعة الثالثة والنصف فجراً، أولى المؤشرات لطارئ مستجد. صوت رجل يقول إنه من جماعة الخوذة الفولاذية يسأل ما إذا كان تشيرشكي ونائب المستشار فون بابن في المنزل. يرد تشيرشكي عليه، متسائلاً ما إذا كان الرجل مجنوناً. اتصالان آخران. الوضع بات ينذر بشيء ما الآن. يسارع تشيرشكي للاتصال بالسكرتير الصحفي لبابن هربرت فون بوزِه ويتفقان على اللقاء في مكتب نائب المستشار الكائن في قصر بورسيغ، على اسم مليونير السكك الحديدية في القرن التاسع عشر ألبرت بورزيغ. يصلان إلى هناك عند الساعة السابعة والربع. عندما يخبر تشيرشكي بوزِه عن المكالمات الهاتفية، ينقلب وجه الأخير شاحباً، ويقول "لقد انتهى كل شيء الآن". لا يستوعب تشيرشكي ما يقوله بوزِه، ويجري اتصالاً مع بابن ويقنعه بالمجيء إلى المكتب.

تشيرشكي شاب وسيم، ذو لمعة ساخرة في عينية الذكيتين، في الرابعة والثلاثين من عمره. ينحدر من عائلة أرستقراطية معروفة في مقاطعة سيليزيا. كان أحد أعمامه سفيراً لألمانيا في فيينا قبل الحرب العالمية الأولى، ويشغل أحد أعمامه حالياً منصب سفير هولندا في برلين. وتشيرشكي هو واحد من الشبان اللامعين الذين تم توظيفهم في مكتب نائب المستشار فون بابن.

عُيِّـنَ "مسـاعداً" لبابـن، وكان عملـه الحقيقـي إدارة جهـاز اسـتخبارات سياسـية غـير رسـمي.

وابتـداءً مـن السـاعة الثامنـة، تنهـال الاتصـالات مـن مكتـب هيرمـان غورينـغ الـذي حـل محـل بابـن في رئاسـة حكومـة مقاطعـة بروسـيا منـذ الربيـع المـاضي. وكان السـؤال: هـل سـيأتي بابـن للاجتـماع مـع غورينـغ؟ وأخـيراً، اتصـل غورينـغ بنفسـه. يتوجـه بابـن، الـذي كان يشـعر بالغيـظ الشـديد، برفقـة تشيرشـكي إلى مكتـب غورينـغ. وهنـاك يبلـغ غورينـغ بابـن بـأن قـوات العاصفـة تقـوم بمحاولـة انقلابيـة، وأن هتلـر سـافر إلى ميونيـخ لقيـادة التصـدي وقمـع المحاولـة بنفسـه. غورينـغ يتـولى زمـام الأمـور في برلـين. بابـن يشـتكي أن منصبـه كنائـب للمستشـار يحتـم عليـه تـولي القيـادة، وأنـه يجـب إعـلان حالـة الطـوارئ واسـتدعاء الجيـش. غورينـغ يرمـي بهـذه الاعتراضـات جانبـاً، ويطلـب مـن بابـن المغـادرة ويأمـر تشيرشـكي بـأن يأخـذ طاقـم نائـب المستشـار إلى منـزل بابـن - حرصـاً عـلى سـلامتهم الشـخصية - إلى أن تتضـح الأمـور.

وبينـما كان بابـن مجتمعـاً مـع غورينـغ، ينتظـر تشيرشـكي في القاعـة. يشـاهد هاينريـش هملـر، قائـد نخبـة حـرس هتلـر "كتائـب الحمايـة" وهـو يخـرج مـن مكتـب غورينـغ ويتوجـه إلى الهاتـف ويقـول "يمكنـك أن تبـدأ الآن".

إنـه الثلاثـون مـن حزيـران/ يونيـو 1934. وسـتُعرف أحـداث الأربـع والعشريـن سـاعة المقبلـة باسـم "ليلـة السـكاكين الطويلـة".

عندمـا يعـود بابـن وتشيرشـكي إلى قـصر بورزيـغ، يجـد أن المـكان يعـج برجـال كتائـب الحمايـة بزيهـم الأسـود. يقـترب رجـل، يبـدو أنـه مـن الشرطـة، يرتـدي زيـاً مدنيـاً، مـن تشيرشـكي ويبلغـه، بوجـود أمـر باعتقالـه. ويتبـع ذلـك لحظـة مـن الكوميديـا السـوداء. إذ، وبينـما يغـادر تشيرشـكي المبنـى بصحبـة الضابـط، يصـل رجـل آخـر بـزي مـدني ويحـاول اعتقالـه أيضـاً. يقـول تشيرشـكي للضابـط الثـاني بـكل تهذيـب "آسـف! لكـن هـذا السـيد اعتقلنـي لتـوه هنـا". يتجـادل الضابطـان -ومـن الواضـح أن كليهـما مـن الشرطـة السريـة- بحـدة فيـما بينهـما.

على أي حال يفوز الضابط الأول الذي جاء بصحبة عدد من رجال كتائب الحماية برشاشاتهم. يقتاد الضابط تشيرشكي إلى مقر الغستابو الكائن في المبنى رقم 8، في شارع برينتس ألبريخت. كانت الزنزانات في القبو ملأى بالمعتقلين، ويجب على تشيرشكي، مثل بقية الواصلين إلى المكان حديثاً، قضاء بضع ساعات جالسين على مقعد حجري في الممر. وسيعلم تشيرشكي، لاحقاً، أنه تم اقتياد بابن، تحت حراسة مشددة، إلى منزله في شارع لينِه، حيث وُضِعَ تحت الإقامة الجبرية.

إنهم رجال حرس هتلر الشخصي "كتائب الحماية" هم من يحتلون قصر بورزيغ. تتبع هذه الكتائب لقيادة أنتون دونكيرن القائد الكبير في الغستابو؛ أحد أصدقاء هملر. وهناك أفراد بزي مدني من جهاز المخابرات التابع لكتائب الحماية، تحت قيادة رئيس فرع استخبارات برلين هيرمان بيريندس. قطع أفراد كتائب الحماية جميع خطوط الهاتف إلى العالم الخارجي ووضعوا حرساً عند باب المكتب.

يتعامل أفراد طاقم بابن مع هذا التعدي بمظهر الحريص على الهدوء ورباطة الجأش: "لقد كُسرنا". وعلى مبدأ شر البلية ما يُضحك، يلقي هربرت فون بوزِه النكات على زملائه. شخصٌ آخر يحذر الجميع من المقاومة المسلحة، ويقول إن الشيء الوحيد الذي يمكن فعله "هو ضبط النفس والصمود". عندما يعلم بوزِه أن أوامر اقتحام المكتب جاءت من هملر شخصياً، يعلق على ذلك بنبرة استهزاء "هذا ليس فألاً حسناً". مظهره الهادئ الرزين مجرد استعراض لطمأنة بقية زملائه في المكتب. فهو يدرك تماماً ماذا كان يجري. وفي حال "تحولت الأمور من سيئ إلى أسوأ"، يعطي بوزِه زملاءه بعض الأشياء ليسلموها لأسرته: حقيبته، وخاتم تصديق الوثائق، وبعض النقود.

بعد ذلك مباشرة، يستدعي اثنان من الغستابو أو جهاز الاستخبارات، يرتديان زياً مدنياً، يستدعيان بوزِه إلى أحد المكاتب، ويغلقان الباب. ثوان معدودات، ويُسمع صوت عشر طلقات، يليها صمت قصير، ثم طلقة أخيرة.

وبينما يغادر الرجلان الغرفة، يسمع أحدُ أفراد طاقم بابن، أحدَ الرجلين يقول: "حسناً، تولينا أمره". يتركان بوزِه كما هو، وقد سقط في بركة من الدماء التي تناثرت في أرجاء الغرفة. إنها حوالي الساعة الحادية عشرة وأربعين دقيقة.

وحتى بعد الحرب، سيكون من المستحيل، بالنسبة إلى الشرطة تحديد هوية قتلة بوزِه.

في هذه الأثناء، عند الساعة الحادية عشرة والنصف، كان كورت فون شلايشر في منزله في منطقة نيوبابلزبيرغ غربي برلين. يقف أمام منزل شلايشر رجلان يتجادلان مع طاهيته ماري غونتيل، ويطلبان مقابلة المستشار السابق. تقول لهما غونتيل إن شلايشر خرج ليتمشى. يعرض أحد الرجلين بعض الثبوتيات على غونتيل، لكنها لا تعيرها اهتماماً. ويهددها من العواقب إذا ما كانت تكذب عليهما. "سألقي نظرة في الداخل"، تقول غونتيل لهما وتذهب للبحث عن شلايشر. عندها يلحق بها الرجل الذي أبرز هويته.

شلايشر على مكتبه في غرفة المكتب. زوجته إليزابيث تجلس بالقرب منه تستمع إلى الراديو. في وقت لاحق من ذلك اليوم، ستبلغ غونتيل الشرطة بما يحصل. يسأل الرجل صاحب الثبوتيات إذا كان الشخص الجالس وراء المكتب هو الجنرال فون شلايشر. ويجيب هذا الأخير "نعم يا سيدي". عندها يشهر الرجل مسدسه، ويفتح النار ليس على كورت، بل على إليزابيث فون شلايشر أيضاً. تصرخ غونتيل، وتخرج جرياً من الغرفة. بعد ذلك يؤكد الطبيب وفاة كورت فون شلايشر، متأثراً بجروح أصيب بها جراء تعرضه لسبع طلقات. تُنقل إليزابيث إلى المستشفى، وتفارق الحياة هناك.

تتحدث الرواية الرسمية عن مقتل شلايشر لدى مقاومته الاعتقال، وأن زوجته قضت أثناء الاشتباكات بين الطرفين. كما هو مفترض، كان شلايشر يتآمر بالتنسيق مع قائد قوات العاصفة إرنست روم ومع السفير الفرنسي أندريه فرانسوا- بونسيه، ضد هتلر. إلا أن هذا الأخير، وعندما يلقي

خطابه بعد أسبوعين أمام الرايخستاغ حول هذه الأحداث، لا يذكر أي شيء عن مقتل شلايشر أثناء مقاومته الاعتقال، ويكتفي بكل بساطة بالقول إنه قُتل.

وبعد مرور عام على الحادثة، تلقى ماري غونتيل حتفها غرقاً في ظروف غامضة، في عملية تعتقد أسرتها إنها تمت "للتخلص من شاهد".

في عصر ذلك اليوم، يُفاجَأ تشيرشكي برؤية الحراس يفتحون باب الزنزانة المقابلة ويُخرجون منها إدغار يوليوس يونغ للذهاب إلى دورة المياه. يونغ يكبر تشيرشكي ببضع سنوات، أصلع الرأس، يرتدي نظارات ذات إطارات، ذو نظرة جدية قاسية. وعلى الرغم من إنه ليس من أفراد طاقم بابن، كان يونغ يعمل معه متعاقداً ككاتب خطابات. وبطريقة ما، كان يونغ مركز المجموعة. كذلك كان قيد التوقيف منذ 25 حزيران/ يونيو. يستطيع تشيرشكي قراءة نظرات يونغ. لا بد أنه يقول لنفسه: "حسناً، إذا كان تشيرشكي هنا أيضاً، فإن كل شيء قد انتهى". وفي المرة الثانية التي يُخرج فيها الحراس يونغ، يبدو تشيرشكي مستعداً، ويتمكن من اللحاق بهم إلى دورة المياه، ويقف بجوار يونغ، ليهمس له: "لا تقلق، إنهم لا يروننا هنا في الأسفل. هناك ثورة تجري في الأعلى. نحن قيد التوقيف الوقائي، لكن لن يحدث شيء". وتراءى لتشيرشكي أن يونغ بدا مرتاحاً، لكن تشيرشكي سيعترف، في ما بعد أنه، في تلك اللحظة، لم يكن يحاول أن يكون صادقاً بقدر ما كان يحاول أن يُطَمْئِن صديقاً، ويهدئ من روعه.

هذه هي المرة الأخيرة التي سيرى فيها تشيرشكي صديقه يونغ الذي سيؤخذ بعيداً في وقت لاحق. وفي اليوم التالي، سيتم العثور عليه جثة هامدة ملقاة في أخدود بجانب أحد الطرق شمال برلين.

وفي الواقع كل ما كان يريده المحققون: هل كتب هو ذلك الخطاب؟

لم يكن إدغار يوليوس يونغ ملاكاً. ففي الأيام الأولى المضطربة من حياة جمهورية فايمار، كان ناشطاً راديكالياً في مقاطعته الأم بافاريا التي كان يحكمها موظف من البلاط. وفي عام 1924، قاد مجموعة اغتالت انفصالياً من منطقة الراين، كان يونغ يعتبره خائناً. بعدها انتقل ليكون مركز ما بات يُعرف لاحقاً باسم حركة "الشباب المحافظين"، بكتابه الذي صدر عام 1927 بعنوان: "حكم الدونيين". كان طموحاً إلى حد كبير، ولكن ليس محبوباً، حتى إن قائده المباشر في قاعدة للتدريب، تابعة لسلاح الجو في الحرب العالمية الأولى كتب أن "سلوكياته تحتاج إلى تعليمات متواصلة". أما تشيرشكي، الأكثر انفتاحاً وتواصلاً مع محيطه الاجتماعي، فقد وصفه بأنه "ليس من السهل التعامل معه"، بينما كان يرى البعض أن مشكلة يونغ مع هتلر أن هذا الأخير كان مستشاراً وهو لم يكن.

وشأنه شأن الشباب المحافظين، كان يونغ يكره جمهورية فايمار ونظامها البرلماني الديموقراطي وأحزابها السياسية. وكان يؤمن بأن التاريخ العالمي أخذ منعطفاً خاطئاً عندما أدخل إلى الحياة السياسية مبادئ الحرية والمساواة في الثورة الفرنسية التي وقعت عام 1789. كان يونغ يريد العودة إلى شكل من المجتمع القروسطي، المؤلف من النقابات الحرفية، والقائم على قيم المسيحية، لاعتقاده بأن ذلك كان يعني العودة إلى الطبيعة والله. كان يسعى إلى مجتمع طبقي بمعيار الكفاءة، يصل فيه الأفراد العظماء إلى مصاف القيادة على قاعدة الخلفية العلمية والموهبة الطبيعية. أما "الجماهير" فيجب ألاّ تتدخل في السياسة. ولا داعي للقول إن يونغ كان يحسب نفسه واحداً من قادة هذه التراتبية الطبيعية. وعلى نحو يتناقض مع أفكاره القروسطية المبهمة، أصبح يونغ شخصاً محبوباً، ومعروفاً لدى صناعيي منطقة الرور الذين أحبوا نخبويته ومعاداته للديموقراطية، حتى إن قطب صناعة الفولاذ باول ريوش كان راعياً ومؤيداً له.

لكن عندما وصل هتلر إلى السلطة، عايش يونغ تحولاً مفاجئاً، إذ لم

يجد النازيين مختلفين جداً عن جمهورية فايمار، بل كانوا، بالنسبة إليه، مجرد تعبير علماني آخر عن رأي الغوغاء غير المثقفين. ولم يكن لديه سوى الاحتقار لعنفهم، وفوضويتهم، ونفاقهم، وتفكيرهم المعارض، ورفضهم لمبادئ المسيحية. وقال ذات مرة إنه نادم على كتابه الشهير، كما أخبر في مناسبة أخرى صحفياً من الديموقراطيين الاجتماعيين: "الآن يمكنني أن أعانق كل ديموقراطي اجتماعي". وكان لافتاً للانتباه أكثر من غيره ما كتبه في شباط/ فبراير 1933، في رسالة إلى صديقه رادولف بيخيل، رئيس تحرير مجلة "النشرة الألمانية" المحافظة، الراقية، "نحن مسؤولون، إلى حد ما، عن وصول هذا الشخص إلى السلطة" قبل أن يضيف: "يجب التخلص منه".

في الحقيقة، كانت آراء يونغ تتطور بطريقة استشرافية منذ قرابة العام 1929. فقد بات مدافعاً متحمساً عن الفيدرالية كحل لمشكلات الأقليات في أوروبا. واللافت أكثر أن القومي المتوقد حماساً في عام 1924، بات يمتلك رؤية جديدة فيدرالية لأوروبا، كوسيلة لتحقيق الأمن والسلام في القارة، ليست مختلفة عن آمال وزير الخارجية الفرنسي أرستيد بريان، وإن كان يونغ يتخيل أوروبا فيدرالية تضم فيدراليات، وليست اتحاداً سياسياً.

مع ذلك، بقيت شخصية يونغ العداونية على حالها، وتحتفظ أيضاً ببعض الرواسب من آرائه القديمة. فمن ناحية، كان يكره النازيين، لأنه كان يراهم، كحركة جماهيرية، متطرفين في ليبراليتهم وديموقراطيتهم. كان يعتقد بأن المسيحية يجب أن تكون المبدأ الناظم للسياسة الألمانية والأوروبية. عارض يونغ نزعة معاداة السامية لدى النازيين، لكن آراؤه لم تكن متنورة، إذ كان يعتقد أن اليهود يتحملون مسؤولية اضطهادهم. ولأنه كان يتلقى الدعم المالي من بارونات صناعة الفولاذ، حرص يونغ على الدفاع عن مصالحهم في كتاباته السياسية. إلا أنه كان لا يخشى أحداً، فضلاً عن كونه حاداً وساخراً إلى حد الازدراء في انتقاداته للنازيين. ففي تموز/ يوليو 1933، حضر مع صديقه الكاثوليكي إدموند فورشباخ اجتماعاً للأكاديميين الكاثوليك في

الدير البندكتي في منطقة ماريا لاش، حيث استمعا إلى العالم القانوني كارل شميت يمتدح النازيين على طريقتهم "الاستبدادية" وتخلصهم من الأحزاب السياسية والديموقراطية البرلمانية. فرد عليه يونغ متسائلاً: إذا كان لابد من إلغاء جميع الأحزاب، فلماذا لا يُلغى الحزب النازي أيضاً؟ ذلك إنه لم يعد للحزب النازي أي غاية في بلد تخلو من الأحزاب. عندئذ سُمع مسؤول نازي يقول: "يجب أن يكون هذا الشخص في داخاو".

لكن المطاف انتهى بيونغ في الدائرة المحيطة بفرانتس فون بابن.

كان بابن، بصفته مستشاراً، معروفاً لدى كبار الصناعيين في ألمانيا، وكان بعضهم قلقاً من راديكالية هتلر. ومن بين هؤلاء كان أحد أصدقاء غونتر فون تشيرشكي من سيليزيا. وعلى الرغم من كونه شاباً، كان نيكولاوس فون بالستريم ثرياً، ويمتلك علاقات واسعة، وكاثوليكياً ناشطاً في حزب الوسط، وأحد كبار مالكي الأسهم في جريدة حزب الوسط **جرمانيا**، مثل بابن. كما كان صديقاً لبابن وبروننغ. وقرر أن يستغل هذه المزايا في إنشاء خلية مقاومة تُزرع داخل الحكومة نفسها.

واقترح بالستريم على تشيرشكي تجميع فريق من الشبان الأذكياء الشجعان للعمل في مكتب بابن واستغلال موقع بابن القوي ظاهرياً، كقاعدة لمقاومة النازيين. ورتب المحامي فيلهلم فون كيتيلر -وكان من الحاشية الشابة المحيطة ببابن- لقاءً لتشيرشكي مع هذا الأخير، واستطلع بحرص رأيه فيه. وجد تشيرشكي أن بابن "لا يمتلك نهجاً خاصاً به، ولا هدفاً حقيقياً"، بل كان، وبكل بساطة، يعتقد أن النازيين سيخففون في نهاية الأمر من غلواء عنفهم، وأنه والرئيس هيندنبورغ سيواصلان ممارسة تأثير مُلطِّف. لكن تشيرشكي كان أكثر إعجاباً بزوجة بابن "الذكية والشُجاعة" مارتا التي كانت تنادي هتلر "دودو"، وتحاشت على الملأ طوال فترة الرايخ الثالث، وبحضور هتلر أداء التحية النازية لهذا الأخير. غادر تشيرشكي لقاءه مع بابن، وهو يشعر بأنه واجه حالة من عدم الفهم، وعدم الثقة.

لم يستسلم كيتيلر وتشيرشكي، لكنهما بدّلاً من تكتيكاتهما. فقد رتّب تشيرشكي لبابن فرصة إلقاء خطاب أمام مسيرة في بريسلاو. وانتهت المسيرة على أكمل وجه، وكان بابن مسروراً لذلك. وفي رحلة العودة بالقطار إلى برلين، فاتح تشيرشكي بابن بموضوع تقصي المعلومات الاستخباراتية الذي كان تشيرشكي قد قام به قبل عام في حكومة بابن، وزيّن له فكرة تعيين شخص موثوق للقيام بهذه المهمة في مكتب بابن الحالي. واتفق الاثنان على أن يتولى تشيرشكي ذلك. وهكذا كانت بداية المنصب الجديد. وتسلم تشيرشكي عمله في نهاية آذار/ مارس 1933.

توسع المكتب وتغيرمع مرور الوقت. في البداية، عمل تشيرشكي من مكتب بابن بصفته رئيس وزراء مقاطعة بروسيا. لكن، عندما خسر بابن المنصب في نيسان/ أبريل 1933، أدرك تشيرشكي أن ذلك سيترك بابن كلياً من دون سلطة مستقلة. وكان على معرفة بوزير المالية الكونت لوتس شفيرين فون كروسيغ حيث تمكن من التفاوض معه على ترتيب ما، لتمويل إنشاء "مكتب نائب المستشار" في قصر بورزيغ. وعمل كيتيلر وتشيرشكي، تدريجياً، على توظيف أفراد الطاقم الرئيسي، وغالبيتهم من خريجي كلية الحقوق الشباب.

تألف الجسم الرئيسي للمجموعة من يونغ، وبوزِه، وكيتيلر، وتشيرشكي. وأصبح هربرت فون بوزِه، ضابط الاستخبارات السابق والسكرتير الصحفي لبابن، والبالغ من العمر أربعين عاماً، أكبر أعضاء المجموعة سناً، القائد غير الرسمي. لم يكن ليونغ منصب ثابت ومحدد، وبقي مقيماً في ميونيخ، لكنه كان الزعيم الفكري الواضح الذي لا يهادن في تصميمه على محاربة النازيين. أما كيتيلر، فعمل مع بوزِه في المكتب الصحفي، في حين عُيِّنَ تشيرشكي "مساعداً" لبابن، كغطاء لعمله الحقيقي.

لا أحد من هؤلاء الشبان كان يرى بابن شخصاً يستحق التقدير، وأبقوه جاهلاً بشكل كامل بما كانوا يخططون له. وكان إدغار يوليوس يونغ

واضحاً في رأيه عندما قال: "بابن مجرد بواب عند هتلر، والآن سيصبح بواباً عندي". وفي مناسبة أخرى، علّق يونغ على تبريرات بابن الضعيفة، لمساعدته هتلر في الوصول إلى السلطة بقوله: "هل يصدق هذا الأحمق ذلك فعلاً". أما بوزه الذي ألمح إلى علاقة بابن بالخيول، فقد وصف هذا الأخير باحتقار واضح بأنه "مُهّجّنٌ كي يكون عديم النفع"، لا يمكنه التفكير إلا وعيناه مُعَميتان. وكان تشيرشكي أكثر أفراد المجموعة توازناً، وقد اعترف "أنه بعد سنوات من التجارب المُحْبِطة" مع بابن، كان من الصعب أن يكون موضوعياً حياله. إذْ اكتشف أن بابن كان مزيجاً من "ضابط شاب في سلاح الخيّالة"، و"دبلوماسي أرستقراطي من المدرسة القديمة" و"كاثوليكي مؤمن". وكان يفتقر إلى الصفات التي تمكنه من الاستفادة من منصبه، عندما لا تضطره الظروف، أو لا يدفعه الآخرون إلى القيام بذلك. كذلك كان [بابن] شديد القناعة بحُسن نواياه، إلى درجة أنه كان غافلاً عن "الضرر الذي كان غالباً ما يسببه بأفعاله السطحية المغرورة". "أما بالنسبة إلينا"، تابع تشيرشكي قائلاً: "إنه مجرد سِتار".

إذا كان بابن غافلاً عما كان يخطط له أفراد مكتبه، فإن النازيين والغستابو لم يكونوا كذلك. فقد اشتبهوا بهم منذ البداية، وسرعان ما راح رجال الغستابو يراقبونهم، ويتنصتون على اتصالاتهم الهاتفية. وفي نيسان/ أبريل 1933، وقعت وثيقة تتهم النازيين بإحراق الرايخستاغ بيد كورت داليوغه، وهو نازي قديم وضعه غورينغ على رأس جهاز الشرطة البروسية. لم يستطع داليوغه تحديد مصدر الوثيقة، لكن الشكوك ساورته أن يكون مكتب بابن هو من أعدّها. في أحد الأيام، وبينما كان في حديقة مستشارية الرايخ، اشتكى المنظّر الأيديولوجي النازي ألفريد روزنبيرغ إلى هتلر من تسريب صحفي من مكتب بابن. أشار هتلر باتجاه قصر بورزيغ وقال له: "نعم أنها تأتي من هناك. يوماً ما، سأزيل هذا المكتب من الوجود". لقد تسبب تهور يونغ وتشيرشكي بآرائهما بالضرر. فيونغ الذي واصل كتاباته الغزيرة في الصحافة ضد النازيين، بات محط انتقاد متزايد من الإعلام النازي.

في البداية، ركز طاقم بابن على مساعدة الناس الذين كانوا يعانون من بطش النازيين في الأشهر الأولى لتوليهم السلطة. وكان عملهم يصل إلى مستوى تحرير سجناء لدى قوات العاصفة أو الغستابو، وتحذير أشخاص من احتمال اعتقالهم، وتأمين المال وتصاريح السفر لمساعدتهم على الهجرة. ولم تلعب الفوارق الدينية والسياسية، من قبل عام 1933، أي دور في استعدادهم لتقديم يد العون. فهؤلاء الرجال المحافظون فعلوا ما استطاعوا لشيوعيين، وديموقراطيين اجتماعيين، وقادة عماليين، ولبروتستانت، وكاثوليك، ويهود. حتى أن غوبلز دوّن، في أكثر من مرة في مذكراته، أن مكتبهم بات يُعرف باسم "مكتب الشكاوى الديموقراطي".

تضمن شكل آخر من المقاومة محاولة مواجهة الـ **غلايششالتونغ**، أي "التنسيق". فقد سعى إدغار يونغ لإقناع عدد من نواب الرايخستاغ بالتصويت ضد قانون التمكين، إذْ أدرك يونغ مخاطر "الاستبداد" التي كانت تواجهه ألمانيا، وتعززت رغبته في التصدي له. كما نجح طاقم بابن في التأثير على هيندنبورغ لتعيين فيرن فون فريتش -غير الموالي للنازيين- رئيساً لهيئة أركان الجيش، بدلاً من صديق النازيين فالتر فون ريشناو. كذلك وفروا المعلومات حول الأوضاع داخل ألمانيا للصحافة الأجنبية، وعلى وجه الخصوص، الفرنسية، والبريطانية، والأميركية.

وبحلول صيف العام 1933، كانت المجموعة، على كل حال، تستعد للتحرك نحو أشد أنواع المقاومة فعالية وخطورةً، بمعنى العمل على تقويض هتلر ونظامه، واستبداله كلياً في نهاية المطاف. وكانت الخطوة الأولى، في هذه الاستراتيجية، فكرة خلاقة وضعها يونغ. فهتلر دمر النظام الديموقراطي، بجعل حزبه ينافس بنجاح داخل النظام، حتى أصبح له من القوة ما يكفيه لتحطيمه. وكانت فكرة يونغ تتلخص في الدخول إلى نظام هتلر وتكرار الحيلة نفسها. وخططت مجموعة نائب المستشار لاستغلال "الانتخابات" البرلمانية التي سيجريها هتلر في 12 تشرين الثاني/ نوفمبر،

والتي كانت ستطرح على الناخبين قائمة واحدة من المرشحين، يوافق عليها النازيون. ورأى يونغ والمشاركون معه في ذلك وسيلة لضمان مواقع لرجالهم داخل النظام، كي يكونوا مستعدين عندما يحين موعد الانقلاب. واعتقد يونغ أيضاً أنه، في حال وصل هؤلاء المرشحون المستقلون إلى الرايخستاغ، وباتوا قادرين على العمل، سيكون هتلر مجبراً على الاعتراف بهم "كمعارضة موالية".

وضعت مجموعة نائب المستشار لائحة بأسماء ما يقارب ثمانين مرشحاً، وأرسلتها إلى وزير الداخلية فيلهلم فريك الذي انتقى الأسماء التي ستنال موافقة الحزب. يونغ نفسه أراد أن يكون على اللائحة، لكن فريك كان أكثر حكمةً من أن يختاره. إلا أن إدموند فورشباخ، صديق يونغ، نجح على أي حال في المرور.

كذلك كان يونغ والآخرون نشيطين أيضاً في بناء شبكة واسعة من ناشطي المقاومة المستقبليين. فقد اتصل يونغ بالنازي المنشق أوتو شتراسر، شقيق غريغور، وبالسياسي الليبرالي تيودور هويس. وأسست المجموعة علاقات مع المستشار السابق هاينريش برونغ، ومع قوميين ألمان، مثل أوتو شميت-هانوفر، وعمدة مدينة لايبزيغ كارل غويرديلر، ومع قادة ديموقراطيين اجتماعيين مثل أوتو براون، وكارل سيفرينغ، وكذلك مع قادة من الخوذة الفولاذية، مثل تيودور دويستربيرغ، وشخصيات كنسية، من أمثال الكاردينال الكاثوليكي كليمينس فون غالن، والقس البروتستانتي أوتو ديبليوس الذي ترأس قداس الاحتفال بعيد بوتسدام لكنه، ومنذ ذلك الحين، تحول إلى صفوف المعارضة. وذكر أوتو شتراسر أن يونغ أخبره، عندما التقيا أوائل العام 1934، عن "التوتر المتزايد داخل حكومة هتلر، والخلافات بين الجيش وقوات العاصفة، والاحتكاك بين قوات العاصفة وكتائب الحماية... وعن ازدياد التململ الشعبي من العنف والإرهاب المتفاقم". وأضاف شتراسر "لقد أطلعني على ما جعلني أفهم أن الدوائر الفاعلة لن تبقى تشاهد هذه

الأمور تجري للأبد دون القيام بفعل ما". لقد تمكن أفراد المجموعة، من خلال العمل من داخل النظام، وبناء شبكة واسعة، من شق الطريق التي ستمهد في ما بعد "المؤامرة فالكيري"، ومحاولة اغتيال هتلر في تموز/ يوليو 1944. حتى إن بعض من شاركوا في العملية كانوا أساساً ممن اتصلت بهم مجموعة نائب المستشار. فكارل غرويدلر سيقود الجانب المدني من عملية فالكيري، ومن المحتمل أن يكون يونغ هو من أجرى الاتصالات مع الزعيم الديموقراطي الاجتماعي يوليوس ليبر الذي سيكون في صميم عملية فالكيري.

من الصعب جداً تتبع خطوات العديد من الشخصيات الرئيسية، نظراً إلى وفاتها فجأة في سن مبكرة، دون أن تترك وراءها سجلاً أو وصفاً لما جرى. وعلى ما يبدو، فإن يونغ وبوزه اتصلا في خريف 1933 بشلايشر، وبفرديناند فون بريدوف، رفيق شلايشر، في أثناء تولي هذا الأخير وزارة الدفاع، بهدف تجنيدهما في دائرة المقاومة. وهناك دليل واضح على أن اجتماعاً عُقد بين يونغ وشلايشر وبريدوف في 4 كانون الأول/ ديسمبر 1933 في منزل صديق شلايشر آرنو فون مويتسشفيتس. وفي نيسان/ أبريل 1934، كتب شلايشر إلى مويتسشفيتس رسالة حول مذكرة أعدها يونغ، وكان قد قرأها شلايشر. جاء فيها: "كانت مثيرة للاهتمام ولاسيما أني تحدثت مع مؤلفها حول كل هذه المشكلات قبل فترة وجيزة. خسارةٌ أنني لم ألتق هذا الرجل في عهد بابن. ربما كانت أشياء كثيرة قد اختلفت. لكنه القدر!" وبالفعل إنه القدر الذي جمع مصيري شلايشر وبريدوف الذي قُتل هو الآخر في 30 حزيران/ يونيو 1934.

في مطلع العام 1934، انتقلت مجموعة نائب المستشار من محاولة تحسين الأوضاع في ألمانيا الهتلرية إلى البحث عن طريقة لإزاحة هتلر عن السلطة. وفي هذا السياق، فكر يونغ بالاغتيال، عندما أخبر صديقه ليوبولد تسيغلر، قائلاً: "يجب أن نطلق عليه النار وحسب". لكن تسيغلر حذره من أن القاتل

لن يحظى أبداً بالفرصة لأن يصبح مستشاراً، وكان هذا كافياً لإقناع يونغ بالتحول إلى خطة معتدلة.

كانت الخطة الأكثر اعتدالاً، بالنسبة إلى بابن تقضي بتسليم هيندنبورغ تقريراً سلبياً عن الأوضاع في ألمانيا، وأن يشدد بابن على تطرف قوات العاصفة التي سيقوم الجيش -وهو يقع بالتأكيد في صلب اهتمامات هيندنبورغ- بالرد عليها. عندها سيستخدم هيندنبورغ صلاحياته الرئاسية، ويستدعي هتلر وغورينغ إلى نويديك، ويبلغهما بأن الجيش سيحُلّ قوات العاصفة. كذلك سيتم تعليق الدستور، على أن يتولى هيندنبورغ السلطة بصفته القائد الأعلى للجيش، وتُشكل حكومة انتقالية "استشارية"، تحت سيطرة مؤسسة المحافظين؛ قائدي الجيش فريتش وغيرد فون روندشتيت، وبابن وبروننغ وغرويدلير، مع وجود هتلر وغورينغ لمنع قوات العاصفة، من المقاومة. هنا وللمرة الثانية، فضَّل يونغ قتل هتلر، لكن الآخرين أقنعوه بالعدول عن ذلك. وبعد فترة من استخدام قانون الطوارئ تكفي لتحييد قادة الحزب النازي في المناطق ورؤساء الشرطة، يتم العمل على تشكيل جمعية وطنية تمهيداً لوضع دستور جديد.

استندت هذه الأفكار والخطط على خلفية الورطة السياسية للنظام في الأشهر الأولى من عام 1934. فبعد أكثر من عام على حكم هتلر، لم تكن الأمور تسير على ما يرام بالنسبة للنازيين. فقد تبخرت موجة الحماس العفوية والحقيقية التي استقبلت ترسيخ هتلر لسلطته. وتعب الألمان من الوحشية المنفلتة لقوات العاصفة، كما أُحبط العمال من تدمير النقابات الحرة، فيما كانت الأوضاع الاقتصادية لم تتحسن بعد، على نحو يخفف من حالة الاستياء. كذلك ساهمت رقابة غوبلز على الإعلام في تجفيف الصحافة والجزء الأكبر من قطاع الترفيه من الحيوية والأصالة. وأبدى النازيون، في أفضل الأحوال، موقفاً بارداً، وفي أسوئه قمعاً جدياً لحقوق وتقاليد الفئات الدينية على مختلف انتماءاتها. وفي أيار/ مايو، اضطر

غوبلز للقيام بحملة دعائية كبرى ضد "المتذمرين وصيادي العيوب" تحديداً نظراً لكثرتهم.

كان يتعين على القيادة النازية أن تقلق أيضاً من تهديدات سياسية بعينها. فالعلاقة بين قيادة الحزب وقوات العاصفة كانت معقدة، وفي أغلب الأحيان عدائية. ومع حلول أوائل عام 1934، كان العديد من أفراد قوات العاصفة يتذمرون مما اعتبروه تراجع النظام نحو القبول بالتقليد السائد، ودعوا إلى ثورة ثانية، أو إلى "قومية اشتراكية" وليس "قومية" وحسب. ولما كان عديد قوات العاصفة قد تجاوز حينذاك الثلاثة ملايين عضو، كان استياؤهم مرشحاً للتطور إلى مشكلة خطيرة للنظام. لكن الضغوط التي كان يمارسها اليمين المحافظ، كانت تشكل مصدر قلق أكبر. كما أن ارتفاع منسوب القلق لدى قيادة الجيش العليا من قوات العاصفة زاد من حدة الضغوط على هتلر، لإخضاع قوات العاصفة وضبطها.

في تلك الأثناء، كان الرئيس فون هيندنبورغ قد تجاوز الستة والثمانين عاماً، وفي ربيع عام 1934، بدأت صحته النشطة بالتراجع. ما الذي قد يحدث عند وفاته؟ كان العديد من المحافظين يريدون استغلال وفاة هيندنبورغ، لاستعادة الملكية التي من شأنها، على الأقل، أن تحد، وبشكل دائم، من سلطة هتلر، وتؤدي، على الأرجح، إلى إزاحته من منصبه. وبالطبع، اكتشف النازيون أن التحضير لهذا الانقلاب كان يُمارسُ من داخل مكتب بابن.

وسط هذا التوتر والاستياء، كان طاقم مكتب بابن يأمل بأن تشعل إشارة تحد واحدة شرارة الثورة. لذا كانت خطتهم تعتمد على أن يلقي بابن خطاباً يحتوي نقداً صريحاً ومدمراً للنظام، مع ضمان انتشاره بشكل واسع النطاق، وبثه إذاعياً، ونشره مطبوعاً في كل مكان. وسيساهم هذا الخطاب في زيادة التأييد لبابن على جرأته، كما يزيد من حدة الانتقادات للنظام. مستغلاً هبوب هذه الرياح في ظهره، سيكون عندها بابن قادراً على

الذهاب إلى هيندنبورغ، وتسليمه التقرير، ودفعه لإعلان قانون الطوارئ.

واختير يونغ ليكتب الخطاب. وكخطوة أولى، أعد يونغ في نيسان/ أبريل مسودة تتناول مبادئ السياسة الألمانية والأوروبية، ووزعها على نطاق واسع بين أصدقائه ومعارفه، ووافق بابن على مضمونها . وتعد مذكرة يونغ واحدة من أولى البيانات المدروسة لجماعة معارضة في ألمانيا النازية. وسبق أن رأينا أن النازية مثلت أساساً حالة احتجاجية ضد الاندماج مع أوروبا والعالم. إلا أن الفكرة الرئيسية في مذكرة يونغ كانت تتفق بالكامل مع الحاجة إلى الانفتاح، وبناء علاقات أوثق مع الدول الأخرى.

بدأ يونغ مذكرته بإعلان نهاية قرن "سيادة العرق الأبيض" على العالم الذي كان قاعدة للصناعة الأوروبية. ومع دخول الدول المُستَعمرة مرحلة التحرر والتصنيع، بات واجباً على أوروبا أن تعيد التفكير في نظامها الاقتصادي. ومن أجل توفير المواد الخام الأولية من الخارج، يتعين عليها أيضاً أن تحافظ على تصدير أكثر منتوجاتها تنافسية إلى خارج أوروبا، مع ضرورة أن يعيد الأوروبيون توجيه قدر كبير من صادراتهم في ما بينهم، مما يستتبع وجوب إنشاء منطقة اقتصادية مشتركة. وقال يونغ إن الفضاءات الاقتصادية هي وحدات طبيعية، أما الحدود بين الدول فهي مصطنعة، ويجب على الثانية أن لا تحد من الأولى. وأضاف أن الاكتفاء الذاتي بات حلماً أفلاطونياً في القرن العشرين، ليثبت بهذا القول أنه كان بعيد النظر. فبعد الحرب العالمية الثانية، عندما خسرت الدول الأوروبية في الواقع أو تخلت عن مستعمراتها، ردت على ذلك بعودة بعضها إلى بعض، وإنشاء السوق الأوروبية المشتركة التي مهدت لقيام الاتحاد الأوروبي اليوم. وكان يونغ يعتقد أن اندماجاً فيدرالياً أوروبياً من شأنه أن يجعل "حروب الإبادة" أمراً مستحيلاً، وتوقع هنا أيضاً بروز عقلية الخمسينيات، وبطريقة غير مباشرة، مذبحة الأربعينيات.

ناقش يونغ ضرورة أن يرفض الألمان "النظام الفاشي" لعدة أسباب:

لأنـه أولاً إيطـالي، فهو -قياساً إلى تأثير الكنيسـة الكاثوليكيـة الرومانيـة علـى الدولـة- يهدد "بهيمنـة الفاشية القادمـة مـن الخـارج". ويبـدو واضحـاً أن يونـغ، علـى الرغـم مـن تفكيره الاستشرافـي، لم يتغلـب كليـاً علـى الشـك التقليـدي لـدى البروتسـتانت الألمـان حيـال الكاثوليـك. ويضيـف يونـغ أن الفاشـية، وعلـى المدى الطويـل، لـن تكون قـادرة علـى إرضـاء شـعب متحضـر، وقـارئ، ومفكـر، مثـل الشـعب الألمانـي، لأن الفاشـية تفتقـر إلى الضوابـط، مثـل حريـة الصحافـة ومحاربـة الفسـاد. ومـرة أخـرى، مـا كان ليونـغ أن يكـون هـو يونـغ لـو لم يتابـع قائـلاً: "كمـا أنهـا لا تكفـل وجـود النخبـة السياسـية التـي لا يمكـن لأي شـعب أن يطـور طاقاتـه الإيجابيـة مـن دونهـا".

ولعـل أكثـر مـا يلفـت النظـر في مذكـرة يونـغ، هـو مـا كتبـه عـن حاجـة ألمانيـا إلى سياسـة خارجيـة قـادرة علـى تحقيـق "عدالـة أوروبيـة"، وعلـى التغلـب علـى الانقسـامات القوميـة. وكان هـذا بـدوره يعنـي أن الألمـان بحاجـة للانفتـاح في قضايـا الفكـر والثقافـة، الأمـر الـذي كان النازيـون عاجزيـن عـن تحقيقـه، بسـبب "إقصائيتهـم العرقيـة والقوميـة". ويختتـم يونـغ كلامـه بتأكيـد أن "الشـرط المسـبق والحاسـم" لاختـراق "الطـوق المعـادي الـذي يحيـط بنـا، ينحصـر في التخلـي عبر أيديولوجيـة متسـامحة، عـن العزلـة الفكريـة الطوعيـة التـي خدعنـا بهـا أنفسـنا."

كانـت الخطـوة التاليـة، بعـد المذكـرة، أن يكـون بابـن المتحـدث الرئيسـي في اجتمـاع يعُقـد في رابطـة جامعـة ماربـورغ (*Marburg*) في 17 حزيـران/ يونيـو. وقـرر طاقمـه أن تكـون هـذه هـي المناسـبة الكبرى. بالتأكيـد، لم يبلغـوا بابـن بمخططاتهـم، لكنهـم أعـدوا جميـع الترتيبـات التـي تضمـن عـدم تراجعـه عمـا أرادوه أن يقـول. وطبعـت دار النشـر جرمانيـا آلاف النسـخ مـن الخطـاب مسـبقاً، وسـلم طاقـم بابـن نسـخاً منـه للصحافـة. وفي اللحظـة الأخيـرة مـن مسـاء 16 حزيـران/ يونيـو، قدمـوا ملخصـاً عـن الخطـاب لـوزارة الدعايـة التابعـة لغوبلـز، تفاديـاً لإلغـاء الخطـاب بحجـة عـدم حصولـه علـى الترخيـص الرسـمي. وتعمـد

طاقم بابن أن لا يطلع هذا الأخير على نص الخطاب قبل صعوده على متن القطار المتوجه إلى ماربورغ. وكان تشيرشكي، الذي رافق بابن في رحلة القطار، هو من روى تفاصيل القصة في ما بعد.

يتذكر تشيرشكي ما جرى قائلاً: "بعد أن غادرت لفترة قصيرة، عدت إلى المقصورة. لاحظت أن بابن كان مشغولاً بوضع علامات على نص الخطاب". سأله تشيرشكي عما كان يفعله، فأجابه بابن أنه كان يجري بعض التعديلات، لأن بعض أجزاء الخطاب "قد تكلفه رأسه". عندها قال له تشيرشكي بأنه "لا يمكنه إجراء أي تعديل، بما أنه تم توزيع مئات النسخ من الخطاب في شكله الحالي على الصحافة المحلية والأجنبية". وبعد جدال حاد، وافق بابن على مضض، أنه "في ظل هذه الظروف، لن يكون بمقدوره تجنب إلقاء الخطاب كما هو".

واجه بابن جمهوراً من ستمئة شخص في قاعة المحاضرات الرئيسية بجامعة ماربورغ، منهم عدد من الشخصيات المحلية، إلى جانب لفيف من الطلبة والأساتذة. وتابع يونغ الخطاب عبر الراديو مع صديقه هاينريش شني المسؤول السابق في إدارة المستعمرات. كان يونغ قلقاً من احتمال أن لا يُلقي بابن الخطاب كما كتبه؛ حيث كان هناك بعض المواضع التي كان يخشى يونغ أن يلغيها بابن. لكن "عندما استمع إلى أولى هذه المواضع" -كما يستذكر شني- "كان سعيداً جداً، وبدأ بالصراخ، وهو يتمايل إلى الأمام، ويضرب الطاولة بيديه قائلاً بانفعال: "لقد ذكرها، لقد ذكرها"، لكن يونغ لم يتوقف ليفكر بأنه كان يستمع إلى قرار الحكم بإعدامه.

وغُطيت الرسالة الحقيقية لبابن (أو يونغ) بستار من المجاملات المستفيضة لهتلر والنظام، إذْ شدد بابن على "التزامه الضمني بأدولف هتلر "الجندي المجهول في الحرب"، "الذي غزا قلوب رفاقه القوميين". إلا أن بابن تابع القول إن البعض يقول إن عليه واجب مراقبة التطورات "بإصرار وحرص أكثر من غيره من غالبية الألمان"، مؤكداً أنه لن يحاول التهرب من واجبه.

وتابع بابن خطابه: الآن "تراجع الحماس، وبات واضحاً أن عملية تنقية بهذا الحجم تُفرز أيضاً الزبد". راح الزبد يظهر في "كل مجالات حياتنا، مادياً وفكرياً".

وبذكاء شديد، انتقل الخطاب من إثارة الأفكار المحافظة المعارضة لجمهورية فايمار إلى نقد الممارسات النازية. وبدأ بابن من الدين حيث كان الجدل - كما قال- حول إن كان الرايخ الجديد "مسيحياً" أم "خسر نفسه في مادية نصف دينية". وكان من الأفضل بالنسبة إلى الدولة ألاّ تستخدم "الإصلاح العنيف"، لأن التدخل السياسي في القضايا الدينية يجبر المتضررين، انطلاقاً من أسس دينية، على رفض مزاعم الشمولية التي لا تعد عنصراً طبيعياً في هذا المجال". وأضاف أنه، بكونه كاثوليكياً، يستطيع أن يفهم "أن المعتقد الديني القائم على حرية الضمير يرفض أن تقوده السياسة في صميم معتقداته".

وقادته المسألة الدينية إلى الأفكار الفعلية حول المجتمع الأوروبي كنقيض للعزلة القومية. "في تلك الدوائر التي تأمل باتحاد ديني محدد عرقياً" - في إشارة إلى الوثنية التي كان بعض النازيين، من أمثال "فيلسوف" الحزب الرئيسي ألفريد روزنبيرغ، يفضلونها على المسيحية - "يتعين على المرء أن يتساءل كيف يمكن لهم أن يتخيلوا المهمة الألمانية في أوروبا، إذا كنا نستثني أنفسنا طوعياً من صفوف الشعوب المسيحية". وهذا بدوره قاد إلى مديح القيم والثقافة الأوروبية المشتركة التي ظهرت في مذكرة يونغ.

وأضاف بابن أنه لا جدوى من الإنكار بأن فجوة فُتحت بين تطلعات الثورة وممارستها العملية. هنا ظهرت مجدداً نخبوية يونغ في تفسير سبب هذه الفجوة. إنه "التحول الروحي" "للثورة الألمانية" التي استلهمت من "المبدأ الأرستقراطي للطبيعة" وهو ما تصادف مع "التطور الاجتماعي" الذي كان أقرب إلى الماركسية، والذي قادته -كما كان يقصد فعلياً يونغ وبابن- الطبقات الدنيا التي كانا يريدان إقصاءها من السياسة. وهذا

ما قاد إلى الشكوى من الموقف النازي المعادي للفكر: "ففكر محدود أو بدائي لا يبرر الصراع ضد العقلانية". والألمان الذين اشتكوا من المعتقدات النازية - كما قال بابن- عادة ما كانوا في الواقع يتحدثون عن أولئك الذين يريدون حرمان علماء معروفين عالمياً من معيشتهم، لأنهم ليسوا أعضاءً في الحزب".

عندها وجه بابن نقداً شرساً للأفكار النازية حول الحرية والشرعية القانونية، وقد صيغ هذا النقد بعبارات جعلته مقبولاً لدى العديد من المحافظين المعارضين لجمهورية فايمار. فقد ظن بعض النازيين أن الإنسانية الحقة كانت "ليبرالية"، في حين كانت في الواقع نتاج ثقافة مسيحية منذ القدم. كذلك ظن بعض النازيين أن الحرية كانت مفهوماً ليبرالياً، عندما كانت في الحقيقة مفهوماً ألمانياً قديماً. وينسحب الأمر نفسه على المساواة أمام القانون التي لم تكن ليبرالية، وإنما الشرط المسبق لكل حكم عادل: "هؤلاء الناس يُجْهِضون أساس الدولة الذي كان، ليس في الحقب الليبرالية وحسب، هو العدل". كان الهجوم النازي موجهاً ضد "استقرار وحرية" الحياة الخاصة التي نالها الألمان على مدى قرون من النضال.

وتابع بابن خطابه بالقول إن الحرية حاجة أساسية للطبيعة البشرية، وإن هناك حدوداً للانضباط العسكري الذي يمكن فرضه على شعب بأكمله، "وإنه لأمر مستهجن الاعتقاد بأنه يمكن توحيد الناس بواسطة الإرهاب". فالإرهاب بمجمله "صنيعة ضمير سيئ". وأشار إلى أن التعليم الحقيقي يقوم على الأخلاق، وأن "الوطنية، والإخلاص، والاستعداد للتضحية"، لا توجد إلا عندما يتعلم الفرد أن هذه الفضائل هي "أوامر إلهية".

وأعاد بابن فتح النار مرة أخرى على النظام وتحديداً على سياسة غوبلز الدعائية السطحية، بقوله إنه لا يمكن لأحد أن يقلل من ذكاء الشعب. فالشعب الألماني يدرك أن وضعه خطير. والناس يضحكون فقط على "المحاولات الخرقاء لخداعهم بواسطة التلميع المزيف". إذْ لا يمكن

للدعاية الصاخبة أن تكسب ثقتهم، لأن "الشعب المحروم من الحقوق لا يمتلك ثقة ليعطيها".

واختتم بابن الخطاب بنبرة أوروبية جامعة، بقوله إن الألمان "شعبٌ من بين شعوبٍ في وسط أوروبا"، وإذا ما أهملوا ميراثهم الثقافي، وثلاثة آلاف عام من التاريخ الأوروبي، فإنهم سيضيعون الفرص التي يقدمها القرن العشرون.

وكما يستذكر نائب المستشار، في ما بعد، تابع الحضور كلماته "بتعابير مُشَككة ومندهشة، بل وغير مصدقة تقريباً"، لكن "التصفيق الحاد" الذي استقبل نهاية الخطاب أثبت أنه ضرب على الوتر الحساس. ويعود تشيرشكي بذاكرته قائلاً إن العشرات من الحضور أحاطوا ببابن عندما انتهى من الخطاب "لتهنئته على صراحته"، في الوقت الذي سارع اثنان من قوات العاصفة، كانا بين الحضور بشكل علني، إلى مغادرة القاعة.

لم يكن طاقم بابن ساذجاً، ولا مخطئاً، حول الطريقة التي كان سيرد بها النازيون على تحديهم لهم. فقد سارع غوبلز على الفور إلى منع انتشار الخطاب مطبوعاً أو عبر الراديو. وفي نفس اليوم الذي كان فيه بابن في ماربورغ، عاد هتلر من أول زيارة خارجية له كمستشار إلى بينيتو موسوليني في إيطاليا، لكن الزيارة لم تسر على ما يرام. إذ إن موسوليني لم يُخفِ استهانته بهذا الوافد الجديد إلى صفوف الطغاة. ولذا كان هتلر أصلاً في مزاج سيئ ليستشيط غضباً عند سماعه الأنباء عن خطاب بابن. وتحدث في ذلك اليوم في اجتماع لمسؤولي الحزب المحليين في بلدة غيرا الصغيرة بولاية تورنجيا. وعلى الرغم من أنه لم يذكر اسم بابن صراحةً، إلا أن المقصود في تعليقاته كان واضحاً بما فيه الكفاية. فقد زمجر هتلر: "في السنوات والعقود المقبلة" سيزداد انتصار القومية الاشتراكية رسوخاً. "أما أولئك الأقزام الصغار الذين يتخيلون أنهم سيستطيعون وقف ذلك الانتصار، فسوف يُجرَفون بعيداً بقوة هذه الفكرة الشعبية". ينسى الأقزام أنه، "أياً كانت العيوب التي اكتشفوها"، لا يوجد شيء يمكن تطبيقه أفضل

من النظام النازي. "إنه لمن السخرية عندما تحاول دودة كهذه مواجهة التجديد الجبار للشعب. إنه لمن السخرية عندما يتخيل قزم كهذا نفسه قادراً، ببضعة عبارات فارغة، على عرقلة هذا الإحياء العملاق للشعب". وحسب ما ذكر إدموند فورشباخ، كان الحضور، على الأرجح، لا يعرفون هوية "القزم" و"الدودة"، لكن هتلر نال الاستحسان على ذلك بالتصفيق الحاد في جميع الأحوال.

في تلك الليلة، أغار الغستابو على دار جرمانيا للطباعة، وصادر النسخ المتبقية من الخطاب. وأرسل هتلر سكرتيره الصحفي فالتر فونك إلى رئيس الرايخ، مُحَملاً برسالة مفادها أنه لم يعد ممكناً لهتلر وهيندنبورغ وبابن العمل معاً. وأمام هذا الرد السريع، بدأت خطة طاقم نائب المستشار تتداعى، وكانت مشكلتهم تتمثل في بابن وهيندنبورغ. فقد راهنوا على ممثليّن لا يمكن الاعتماد عليهما إطلاقاً. لقد أصاب خطاب بابن نجاحاً كبيراً، وبدأ نائب المستشار فجأة يستمتع باحتفاء الجماهير به أينما ذهب. لو أنه كان رجلاً أشد حزماً وأكثر شجاعةً، لكان قادراً على استغلال ارتفاع رأسماله السياسي في الإطاحة بهتلر. لكن بابن لم يكن ذلك الرجل.

تعامل هتلر مع بابن بذكاء. فعندما اشتكى بابن من مصادرة غوبلز لخطابه، أكد له هتلر أنه يتفهم غضب بابن. لم يكن هتلر ليقبل تهديد بابن بالاستقالة من الحكومة. فاستطاع كسبه بمهاراته التمثيلية المعتادة، وهو يلعب دور الرفيق المخلص، وبمناشدته حس الواجب العسكري لدى بابن. وبالطبع، أبلغ هتلر بابن أن مسائل حساسة كهذه يجب أن تُناقش داخلياً حصراً، وتمسك بموقفه الرافض لنشر خطاب بابن.

لوكان مقدراً لخطة طاقم نائب المستشار أن تنجح، لكان من المهم جداً أن يسارع بابن بلقاء هيندنبورغ. إلا أن هتلر كان قد أقنع بابن بتأجيل زيارته إلى إقطاعية هيندنبورغ في نويديك. وفيما كان طاقم بابن ينفجر من الإحباط، انحنى رئيسهم للضغوط، وحتى إنه طلب منهم عدم نشر الخطاب. عندها

غادر بابن برلين لبضعة أيام، ليس من أجل لقاء هيندنبورغ، وإنما إلى الشمال إلى كيل، ومن هناك إلى ويستفاليا لحضور تجمع عائلي. والمفاجئ في الأمر أن بابن الذي لم يعترف بارتكابه أي خطأ سياسي بأثر رجعي، أقر هذه المرة بأنه أخطأ في عدم استغلال اللحظة التي سنحت في يونيو/ حزيران 1934.

لكن حتى لو تسنى لبابن لقاء هيندنبورغ، فما كان ذلك من شأنه أن يغير أي شيء. فقد شاعت رواية قوية بين المحافظين المتعاطفين مع هيندنبورغ أن خيبة هذا الأخير من هتلر كانت آخذة بالازدياد في عام 1934. وكتب بابن في مذكراته عن آخر لقاء مع هيندنبورغ في أيار/ مايو. ويَدَّعي بابن أن هيندنبورغ تركه قائلاً: "الوضع بات رهيباً يا بابن، أعد الأمور إلى نصابها". إلا أن مذكرات بابن لا تتحلى عادة بالأمانة، والكلمات التي يفترض أن هيندنبورغ قالها هي بالتأكيد مُختلقة، لأن هذه الكلمات لا تتوافق مع كثير من الأشياء الأخرى التي قالها هيندنبورغ. فقد كان الهدف السياسي الرئيسي لهيندنبورغ تشكيل حكومة موحدة من اليمين مدعومة جماهيرياً، وقد حقق له هتلر ذلك. ولذا لم يكن هيندنبورغ إلا راضياً عن مستشاره. وفي 18 حزيران/ يونيو، نقل فالتر فونك إلى هيندنبورغ ما جرى في خطاب بابن، والإجراءات التي اتخذها غوبلز لمنع نشره. واستحسن هيندنبورغ من جانبه هذه التدابير، ولم يبدِ أي تعاطف على الإطلاق مع بابن، وقال "إذا كان بابن لا يستطيع التزام النظام، فعليه تحمل العواقب". كما أن هتلر نفسه زار هيندنبورغ بعد ثلاثة أيام، ووجد -بحسب ما ذكر ألفريد روزنبيرغ- أن "الرجل العجوز لم يسبق له أن عامله بهذا الود". ولو علم المشاركون بالتحضير للمؤامرة، لأدركوا أن هناك أخباراً أكثر سوءاً. ففي 26 من حزيران/ يونيو، أحاط فيرنر فون فريتش، رئيس هيئة الأركان في الجيش، هيندنبورغ بالمشكلات مع قوات العاصفة. واتفق الاثنان على أن الجيش -ومهما حدث- يجب ألّاً يتدخل في الشؤون الداخلية، وهو ما أصاب مخططات مجموعة نائب المستشار في مقتل.

لم يعتقد أحد ممن كانوا على دراية كبيرة في السياسة بأن يكون بابن هو من كتب خطاب ماربورغ. حتى النازيون كانوا يعلمون أن بابن لم يكن على هذا المستوى من التفكير والفصاحة. ولذلك تساءل غوبلز في مذكراته "من كتب الخطاب له؟"

ولم يضطروا للبحث بعيداً. فالعارفون ببواطن الأمور كان يعلمون أن إدغار يونغ، وعلى أغلب مدار العام الفائت، كان هو من يتولى التفكير لبابن. فأفكار بابن ونبرة خطابه كانا يبدوان متشابهين بشكل لافت مع كتابات يونغ. وفي 20 حزيران/ يونيو، لمَّح ألفريد روزنبيرغ إلى شيء في هذا الاتجاه. فقد كتب افتتاحية في جريدة **فولكيشر بأوباختر** عن "الرجعيين" بعنوان لافت "حول معنى الثورة الألمانية وتفسيرها"، في إشارة واضحة إلى يونغ، تردد صدى كتابه الأخير. وفي حديث خاص، كشف هتلر أن لديه الفكرة ذاتها. يونغ كان تواقاً للحصول على تقدير الآخرين، وكان متهوراً في الحديث عن أبوته للخطاب.

وعلى مدى أسبوعين تقريباً، بدا الوضع السياسي الألماني راكداً بشكل مخيف. وأبرق القائم بأعمال السفارة الفرنسية إلى باريس في 27 حزيران/ يونيو أن حكومة الرايخ مرت، خلال الأسبوع المنصرم، بأزمة "لا تزال آثارها تتردد، لكن من المستحيل تحديد مدى خطورتها". ومن شبه المؤكد أن مفرزات عنيفة قادمة على الطريق. وفي الوقت الحاضر يواصل السياسيون عملهم وكأن كل شيء كان طبيعياً. لكن بالتأكيد كان هتلر وغوبلز يعدان ضربة ضد "مكتب بابن". في 22 حزيران/ يونيو، تحدث غوبلز مع فونك حول "قضية بابن". وكتب غوبلز "يجب أن يتدخل الفوهرر هناك". "بابن يرتكب أعمالاً تخريبية، حتى إنه يحاول جر الجيش. سأعلم القائد بذلك أيضاً".

في هذه الأيام المتوترة، كان غوبلز وبابن يدور واحدهما حول الآخر بأداء سوريالي تقريباً. في 21 حزيران/ يونيو، ألقى رئيس بنك الرايخ يالمار شاخت محاضرة في وزارة الدعاية أمام جمهور من المدعوين، معظمهم من

الصحافيين والدبلوماسيين الأجانب. وفي نهاية المحاضرة، وجه مراسل أميركي سؤالاً مباشراً إلى غوبلز: "السيد الوزير، هل صحيح أن العلاقة بينك وبين السيد نائب المستشار فون بابن متوترة للغاية حالياً، بسبب خطاب ماربورغ؟"

وعلى الفور، دعا غوبلز بابن إلى مقدمة القاعة. وأطاع بابن الأمر. تقدم غوبلز خطوات باتجاه بابن، وفتح ذراعيه، وعانقه. ثم قال: "عزيزي السيد فون بابن، هل سمعت ذلك؟ من المفترض أن تكون العلاقة بيننا نحن الاثنين متوترة. إن كلينا، من بين سائر الناس، من أفضل الأصدقاء!" تأثر بابن جداً بهذا الموقف، حتى إنه عجز عن الكلام، واكتفى بهز رأسه موافقاً. قلة قليلة جداً من الحضور- وبابن ليس واحداً منهم- كانوا يعتقدون أن هناك شيئاً آخر يتجاوز في معناه هذا العرض أمام الصحافة الأجنبية.

بعد ثلاثة أيام، وتحديداً يوم الأحد 24 حزيران/ يونيو، حضر غوبلز وبابن سباق هامبورغ للخيول. وذكرت جميع الروايات الموثوقة الفارق الكبير في التصفيق الحماسي وهتافات الترحيب لبابن ورد الجماهير البارد حيال غوبلز. وسجل القائم بالأعمال الفرنسي هذا كمؤشر على أن "جزءاً كبيراً من الجمهور، وتحديداً الطبقات الميسورة"، كان يقف في صف نائب المستشار. وبالطبع كان ذلك أمراً لا يحتمل بالنسبة إلى غوبلز الذي لا يمكن أن يتقبل أبداً أن يحوز أحد من خصومه قدراً أكبر من تأييد الجمهور. وفي لمحة تكشف الموقف النازي من الواقع، كتب غوبلز في مذكراته أن الجمهور كان "يناهض بابن بشكل حاد ...مشاهد محرجة. أخيراً، أنا وبابن معاً. الجمهور في صفي. أنا بين الناس. هذه الهتافات! يالنادي السادة المساكين عندما تنقلب الأمور".

وفي نفس الليلة، التقى غوتفريد تريفرانوس والصحفي البريطاني جون بنيت ويلر مع يونغ في فندق كايسرهوف، ونقلا إليه تحذير الاستخبارات البريطانية بشأن معلومات حول اعتقاله، وطلبا منه مغادرة البلاد في تلك

الليلة. احتج يونغ متذرعاً بأنه يحظى بحماية بابن والجيش. لكنه، بعد ذلك، وبمحض إرادته، وافق على الذهاب إلى سويسرا، لكنه في تلك الليلة زل لسانه بكلمة عن خطته لامرأة عميلة للاستخبارات النازية.

في اليوم التالي، اعتقل الغستابو يونغ وفتشوا شقته، وعثروا على دليل يؤكد أنه هو من كتب خطاب بابن في ماربورغ، وذلك على شكل مراسلات بين يونغ وبابن بخصوص الأجر الذي يجب على بابن دفعه. عندما سمع بخبر اعتقال يونغ، طار بابن عائداً من ويستفاليا للضغط من أجل إطلاق سراحه. إلا أن هتلر وغورينغ لم يكونا راغبين بلقائه. وعلق هتلر باحتقار على ذلك في حديثه مع روزنبيرغ، بقوله إن بابن يحاول مقابلته "من أجل دكتوره يونغ". وأوضح هتلر أن اعتقال يونغ جاء بأمر مباشر منه شخصياً. كما أبلغ هاينريش هيملر، رئيس الشرطة السرية بابن أنه تم العثور على وثائق تُجرِّم يونغ بالارتباط بدائرة "الشرعيين النمساويين" المنادين بعودة الملكية، وأنه كان لا بد من التأكد من ذلك، ووعد بأن يُطلق سراح يونغ خلال أيام قليلة.

كانت "ليلة السكاكين الطويلة" في 30 حزيران/ يونيو 1934 رد هتلر على المأزق الذي سقط فيه مُحاصَراً بين مؤسسة المحافظين من جانب وقوات العاصفة المتطرفة من جانب آخر. وكان المحافظون، وعلى وجه التحديد في قيادة الجيش العليا، هم الهدف الرئيسي والمتفرجون على القضية بأكملها، أما روم وقوات العاصفة فكانا مجرد خسائر جانبية محدودة.

تجدر الإشارة إلى أن رجال قوات العاصفة طالما كانوا يتحدثون عن أنهم سيكونون نواة "جيش الشعب" الألماني، بدلاً من المحترفين وضباطهم الارستقراطيين. وكان هذا بمثابة جرس الإنذار لقيادة الجيش العليا، حيث زاد الجنرالات في مطلع العام 1934 من ضغوطهم على هتلر لتحييد روم. غير أن الحديث عن تهديد بالقيام بانقلاب من جانب روم كان فبركة، إذْ لم

يكن هناك أي احتمال لحدوث شيء من هذا القبيل. وفي الحقيقة، ومن أجل تبديد هذه المخاوف، قام روم بشكل استعراضي بمنح أفراد قوات العاصفة إجازة طوال شهر تموز/ يوليو. وكانت فكرة الانقلاب الوشيك مجرد رواية، يقال إن بعض المستفيدين من الجرائم، على وجه الخصوص في قيادة الجيش العليا، هم من اخترعها، لتبرير تورطهم في ما حدث بعد ذلك.

وكان روم قد دعا قادة قوات العاصفة إلى اجتماع في باد فيسي، بالقرب من ميونيخ، قبل بدء الإجازة الشهرية المخطط لها. وفي 30 حزيران/ يونيو، سافر هتلر إلى ميونيخ، للإشراف شخصياً على اعتقالهم. قُتل روم رمياً بالرصاص في اليوم التالي مباشرة. كما اعُتقل عدد آخر، وقتل نحو تسعين فرداً من قوات العاصفة في أنحاء البلاد، وعلى الأخص في برلين.

واستغل هتلر هذه الفرصة أيضاً لتسوية الحساب ضد من كان يحقد عليهم، ومن بينهم كورت فون شلايشر، ذلك أن هتلر لم ينسَ تعليق شلايشر المهين: "لكنه للأسف مجنون"، كما كان ناقماً على شلايشر لمحاولته اجتذاب شتراسر إلى حكومته عام 1932. لذلك لم يكن مفاجئاً أن شتراسر، كان واحداً ممن جرفتهم حملة التصفية. وكان تشيرشكي شاهداً على ما حدث لشتراسر عندما كان تشيرشكي معتقلاً في زنازين الغستابو. فبعد أن تحدث إلى يونغ في دورة المياه وعاد إلى مقعده في الممر، رأى تشيرشكي "رجلاً طويل القامة قوي البنية مقيداً يرافقه ثلاثة رجال مسلحين بمسدسات." وعلى الفور تعرف تشيرشكي على الرجل بأنه شتراسر. اقتاد الحراس شتراسر إلى ممر آخر، حيث كانت توجد زنزانات الحبس الانفرادي. "سمعت أمراً "احرسوا البوابات"، فأُغلِقَ الباب المؤدي من جهتنا نحو الممر. أُطلقَت خمس رصاصات. وبعد إطلاق النار مباشرة، خرج "النقيب" من الباب والمسدس في يده قائلاً: "تولينا أمر هذا الخنزير".

كان هيندنبورغ مسروراً للغاية من تصرف هتلر في 30 حزيران/ يونيو، وأرسل له برقية ثناء على "التدخل الحاسم" "وإشراف شخصكم" على "وأد

مكائد الخيانة في مهدها"، و"إنقاذ الشعب من خطر عظيم". وفي 6 يوليو/ تموز، قال هتلر لغوبلز عن اجتماعه مع رئيس الرايخ: "كان هيندنبورغ رائعاً". فهز غوبلز رأسه موافقاً "للرجل العجوز مكانته".

لم يكن المشاغبون في قوات العاصفة يشكلون مصدر قلق كبير بالنسبة إلى هتلر، ولا تهديداً لحكمه عام 1934. لكنه كان قلقاً حيال الجيش، حيث طمأنت الضربة التي وجهها لقوات العاصفة قادة ما كان - فوق كل شيء- المصدر النهائي للسلطة. كما كان هيندنبورغ بنفس المستوى من الأهمية. وكان كل شخص مطلع في المعترك السياسي عام 1934 على علم بأن هيندنبورغ الذي كان يعلم بأنه لم يتبق أمامه وقت طويل، كان قد أعد "وصية سياسية". ولم يكن سوى قلة قليلة تعرف مضمونها، في حين كان هتلر يريد وبأي ثمن تجنب أي اقتراح من هيندنبورغ بعودة الملكية بعد وفاته. لذلك ساعد تحييد قوات العاصفة -وفعلاً هذا ما حدث- على طمأنة هيندنبورغ على أهلية هتلر لتسلم الرئاسة إلى جانب منصبه كمستشار. وقدمت الرواية المفبركة حول تآمر شلايشر، وطاقم بابن، والسفير الفرنسي فرنسوا- بونسيه ضد الحكومة، الذريعة لهتلر ليضرب أخطر أعدائه في مؤسسة المحافظين. السفير الفرنسي الذي ناله نصيب من الاتهامات حول دوره في هذه المؤامرة، انتقد بحدة مؤلمة الدليل الذي قدمه هتلر والطريقة التي حل بواسطتها النازيون المشكلة. وجاء في برقيته إلى حكومته "أدلة ضعيفة، مصادفات، افتراضات غير مبررة، كلها قُدمت على أنها أدلة تستند إلى وقائع". وكانت هذه هي ذات الطريقة -كما يقول السفير- التي استخدمها النازيون لتوريط المتهمين الشيوعيين بمحاكمة حريق الرايخستاغ. لكن، ومنذ ذلك الحين -يضيف فرنسوا بونسيه- "تم تحسين هذا الأسلوب". في العام 1933، ارتكب النازيون خطأً بوضع قضية حريق الرايخستاغ أمام القضاة الذي اكتشفوا عدم كفاية الأدلة. أما هذه المرة فقد تم إقصاء القضاة نهائياً من العملية، دون الحاجة إلى قول المزيد.

ولفت فرنسوا- بونسيه بشكل لاذع، إلى أنه "تم اتخاذ الاحتياطات لإبعاد المتهمين عن [القضاة] وقتلهم فوراً"

ونجحت المكيدة النازية. ويُعزى الجزء الأكبر من هذا النجاح إلى النقمة الشعبية من قوات العاصفة، كما ساهمت ليلة السكاكين الطويلة في استعادة الحكومة قدراً كبيراً من شعبيتها داخل ألمانيا، مقابل تشتت المقاومة المحافظة.

أما الجيش- كما هو الحال بالنسبة لهيندنبورغ- فكان مسروراً من النتيجة. والمحرضون الشجعان على المقاومة، مثل يونغ وبوزِه، قُتلوا. تشيرشكي رحل إلى منفاه في بريطانيا. كيتيلر أُعطي منصباً دبلوماسياً في النمسا، ثم اغتيل، على الأغلب، على يد الغستابو أو كتائب الحماية، عند ضم هذا البلد إلى ألمانيا في آذار/ مارس 1938.

في حين كانت قصة بابن بعد 30 حزيران/ يونيو تحديداً معيبة جداً، "وفي أحط معنوياتها" كما ذكر كاتب سيرة بابن الذاتية. فبعد مقتل أفراد طاقمه أو اعتقالهم، خضع بابن لفضل هتلر. في 3 تموز/ يوليو، وجه بابن رسالة إلى هتلر شكره فيها على "حزمه الشجاع" في "إنقاذ الوطن من خطر كبير". وشدد بابن على أن لا أحدَ "تبع وناصر هتلر على طول دربه بقلب صادق "من أجل الأمة كما يجب"، ومن "أجلك بكل الألم" أكثر من بابن نفسه. رفع هتلر الإقامة الجبرية عن بابن وتركه يعيش. ويعود الفضل في هذا، إلى حد ما إلى تأثير هيندنبورغ، علماً أن أيام بابن كنائب للمستشار، كانت قد انتهت. بعدها، عُيِّن بابن سفيراً في النمسا، وعندما اختفى هذا المنصب، سفيراً في تركيا، حيث أمضى فترة الحرب العالمية الثانية، وبرأته بعدها المحكمة العسكرية في نورمبيرغ عام 1946 من تهمة جرائم الحرب.

لقد كان تصرفاً جباناً بما يكفي أن ينسب بابن لنفسه في مذكراته التي نشرت عام 1952، الفضل كله في المقاومة الشجاعة التي أقدم عليها طاقم مكتبه دون علمه، كما أنه قلل من دور يونغ الذي انتقده بابن على تباهيه

في نسب الفضل إلى نفسه في خطاب ماربورغ. وبشكل يبلغ أعلى مستويات مركزية الذات، أصر بابن على القول إنه هو من كان في الواقع مستهدفاً من مقتل يونغ وبوزه.

تُوفي المارشال ورئيس الرايخ بول فون هيندنبورغ متأثراً بفشل كلوي في 2 آب/ أغسطس، 1934، فاستولى هتلر فوراً على صلاحيات الرئاسة. ومن ثم كشف بوضوح أن لا أحد يمكنه أن يخلف هيندنبورغ، ولذلك سيتم إلغاء منصب الرئيس في وقت لاحق. وتقلد هتلر اللقب السابق "الفوهرر ومستشار الرايخ". وكان واجباً على القوات المسلحة والموظفين الحكوميين أداء قسم الولاء له شخصياً.

استكمل هتلر إحكام قبضته الديكتاتورية على الحكم، وباءت جميع المحاولات للسيطرة عليه أو "ترويضه" بفشل ذريع. فالمعارضة الفعالة دائماً ما تتطلب قواعد مؤسساتية لم يتبق منها شيء مطلع العام 1934. فجميع الأحزاب السياسية، والنقابات العمالية، والرايخستاغ، والحكومة، والمقاطعات الفيدرالية، وقوات العاصفة باتت تحت السيطرة، باستثناء الجيش الذي ظلّ مصدراً محتملاً للمقاومة، لكن طالما أن هتلر مزق اتفاقية فرساي، ووسع القوات المسلحة، كان الجنود والضباط راضين. وابتداءً من العام 1934، بدأ إعداد مفاتيح حرب، حربٌ ستنهي الهيمنة الاقتصادية لبريطانيا والولايات المتحدة، وتجعل من ألمانيا قوة اقتصادية عظمى من خلال الاستيلاء على إمبراطورية ضخمة من الأراضي في شرق أوروبا.

إلا أن تضحيات يونغ وبوزه لم تذهب سُدىً بشكل كامل. فقد قدما مثالاً أَلْهَمَ الجولة الثانية من المقاومة التي بدأت عام 1938، ضمن دوائر مشابهة (عسكريين وسياسيين مدنيين محافظين)، والتي أدت، في وقتها، إلى خطة فالكيري.

تنطبق الكلمات التي قالها أحد قادة فالكيري تماماً على يونغ وبوزه وأصدقائهما. في حزيران/ يونيو 1944، بعد غزو الحلفاء للنورماندي، أراد

الكونت كلاوس فون شتاوفينبيرغ أن يعلم إن كان لايزال هناك أي معنى من محاولة الإطاحة بهتلر. وأرسل هذا السؤال إلى زميله وشريكه في الخطة هينن فون تريسكوف. وكان جواب تريسكوف واضحاً: يجب تنفيذ الانقلاب الذي خططوا له "بأي ثمن. حتى لو كان مصيره الإخفاق، يجب أن تتم محاولة الانقلاب" لم تكن التفصيلات العملية مهمة، بقدر ما كان يهم "أن عناصر المقاومة الألمانية تجرؤوا أن يأخذوا خطوة حاسمة، أمام العالم، وأمام التاريخ، مجازفين بحياتهم. وكل شيء آخر لا قيمة له".

وكما كان الحال مع يونغ وبوزه، كذلك كان أيضاً مع تريسكوف وشتاوفينبيرغ. فقد كانوا أبطالاً تشوبهم العيوب. وهذا صحيح، يحملون كبرياء طبقتهم، وخلفيتهم، وعصرهم. لكنهم، مع ذلك، جازفوا بحياتهم من أجل التخلص من هتلر، وهو شيء ما كان سوى لقلة من الناس أن يقدموا عليه. وبفعلهم هذا، كفَّروا عن مسؤوليتهم التي أحسوا بها من إيصاله إلى السلطة. لقد منحوا بلدهم، في زمن حالك السواد، أساساً معنوياً من أجل مستقبل أفضل.

عادةً ما يحاول الصحافيون اختزال التطورات السياسية المعقدة بصيغ بسيطة، إذْ يتحدثون عن "انتخابات تغيير" أو "تصويت احتجاجي". لا توجد صيغ بسيطة تفسر سبب فشل الديموقراطية في فايمار ألمانيا وصعود النازيين إلى السلطة. كانت الحركة النازية متجذرة في تجارب الحرب العالمية الأولى، وفي الأزمات المتعددة في أوروبا ما بين الحربين. ونشأت حركات مماثلة عبر أوروبا في هذه السنوات، وتحديداً في البلدان التي خسرت الحرب (وفي ايطاليا التي شعرت كما لو أنها خسرت). وعلى الرغم من أن النازيين كانوا نموذجاً لعصرهم، ما كان لأحد، حتى في عام 1932، أين يتوقع أن يشغل هتلر ذلك الموقع من السلطة بعد وفاة هيندنبورغ، وإن كان هناك من رغب بهذه النتيجة. فسوء الحسابات

وقصر النظر، يعدان جزءاً من هذه الرواية، كما هو الغضب والكراهية.

لولا الحرب العالمية الأولى، لم يكن النازيون أمراً يخطر على البال، وهنا في بداية هذه الحكاية، نرى شيئاً آخرَ: صدمة الهزيمة تركت ملايين الألمان يعتقدون برواية معينة حول الحرب، ليس لأن هذه الرواية كانت صحيحة، بل لأنها كانت ضرورية من الناحية العاطفية. فقد كانت الأمة موحدة تحت أشعة شمس أغسطس/ آب 1914، أو هكذا كان يعتقد معظم الألمان. إلا أن المطر البارد لتشرين الثاني/ نوفمبر 1918: الخيانة والجبن داخل الوطن، "طعنة في الظهر"، هو من جلب الهزيمة في ميادين القتال. وفي الواقع، لم يكن أي جزء من هذه السردية دقيقاً، لكن المقارنة المتواصلة بين أغسطس ونوفمبر سمحت للنازيين أن يقدموا الوعود باستعادة وحدة أغسطس حالما يهزمون خيانة نوفمبر. ما تعتقده أمة ما حول ماضيها له، على الأقل، نفس الدرجة من الأهمية لما جرى فعلاً في ذلك الماضي.

إن ما هزم ألمانيا في الواقع هو القوة الاقتصادية الكاسحة لدى بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا. وكان السؤال المطروح على الألمان، في سنوات ما بعد الحرب، يتلخص بأن كانوا سينضوون داخل النظام العولمي الغربي أو يتمردون عليه. كان الجميع يعلم أن وجهي ألمانيا الداخلي والخارجي مرتبطان أحدهما بالآخر كارتباط وجهي العملة الواحدة. فألمانيا المندمجة مع العالم وفي سلام مع جاراتها ستكون أيضاً ألمانيا الديموقراطية. أما ألمانيا المتمردة على العالم فلن تكون إلا ديكتاتورية بقسوة غير مسبوقة.

وبعد خمس سنوات من الأزمة السياسية والاقتصادية التي تُوجت بتضخم مالي مفرط، وانقلاب البيرة الذي قاده هتلر عام 1923، بدأت تستقر الديموقراطية الجديدة في فايمار، وبذلك عادت ألمانيا لتكون لاعباً لا يُستغنى عنه في المجتمع الدولي. وما كان لهذا أن يحدث لولا شجاعة ومهارة رجال دولة من طينة غوستاف شتريزيمان. لكن هذا الأخير لم ينسَ مطلقاً القوميين الرجعيين في الداخل، تلك "الجليديات"

التي كان يجب عليه هزيمتها، كي يضمن لألمانيا مكاناً في عالم مسالم.

كان نجاح ألمانيا باستعادة عافيتها الديموقراطية هو ما دفع بمعارضي الديموقراطية نحو مقاومة يائسة شرسة. فالمصالح التجارية الكبرى كانت تريد إضعاف النقابات، وإلغاء نظام تحكيم الأجور المُفوَض حكومياً. وكان الجيش يريد المزيد من الأموال لشراء الأسلحة. في حين كان المزارعون يطالبون بوقف الواردات والاتفاقيات التجارية التي كانوا يعتقدون أنها السبب في دفع القطاع الزراعي إلى إفلاس جماعي. جميع هذه الشكاوى جاءت من جذر مشترك: مكانة ألمانيا في عالم حددته هزيمة الحرب العالمية الأولى، والقوة الاقتصادية البريطانية الأميركية. كذلك كانت هذه الشكاوى تشير إلى حل وحيد: إبعاد الديموقراطيين الاجتماعيين، أكبر الأحزاب السياسية، المناوئين للعسكرة، والمتأقلمين مع الوضع الدولي، وحماة الديموقراطية، والعمال، والمدن - عن المشاركة في السلطة. وكان هذا يعني نهاية الديموقراطية التي أنشأها الديموقراطيون الاجتماعيون، وإيجاد قاعدة سياسية بديلة بين المزارعين والجنود ورجال الأعمال.

ليس هذا وحسب، بل كانت فايمار تغلي بمنغصات ومشاعر كراهية أخرى: فالشعب الألماني كان منقسماً حيال كل خلاف ممكن. فالريفيون كانوا يكرهون المدن الكبرى، لانسلاخها عن تقاليد الدين والهوية الجنسية، والأخلاق. وقرع هذا التدفق الهائل من المهاجرين، ولاسيما من أوروبا الشرقية، جرس الإنذار لدى ملايين الألمان. كما كان هناك حالة من انعدام الثقة بين الكاثوليك والبروتستانت منذ عهد الإصلاح الكنسي. وفاقمت ضغوطات الحرب والثورة من ظاهرة معاداة السامية لدى المعسكرين المسيحيين. وفي نهاية المطاف، تضخمت هذه الشكاوى، وعلى الأخص في أوساط البروتستانت المتفوقين عددياً، فقد كانت فايمار مُبالِغةً في يهوديتها، وكاثوليكيتها، ومفرطة الحداثة، والمدنية. وفوق ذلك كله منحطة أخلاقياً. بيد أن هذا الميثاق الثقافي دائماً ما عبَّر عن منغصات تتجاوز السبب

نفسه. فمعاداة السامية لم تكتب نهاية الديموقراطية الألمانية ووصول هتلر، لكنها قدمت لغة استغلها خصوم الديموقراطية في انتقاد النظام الديموقراطي العالمي الذي كانوا يمقتونه.

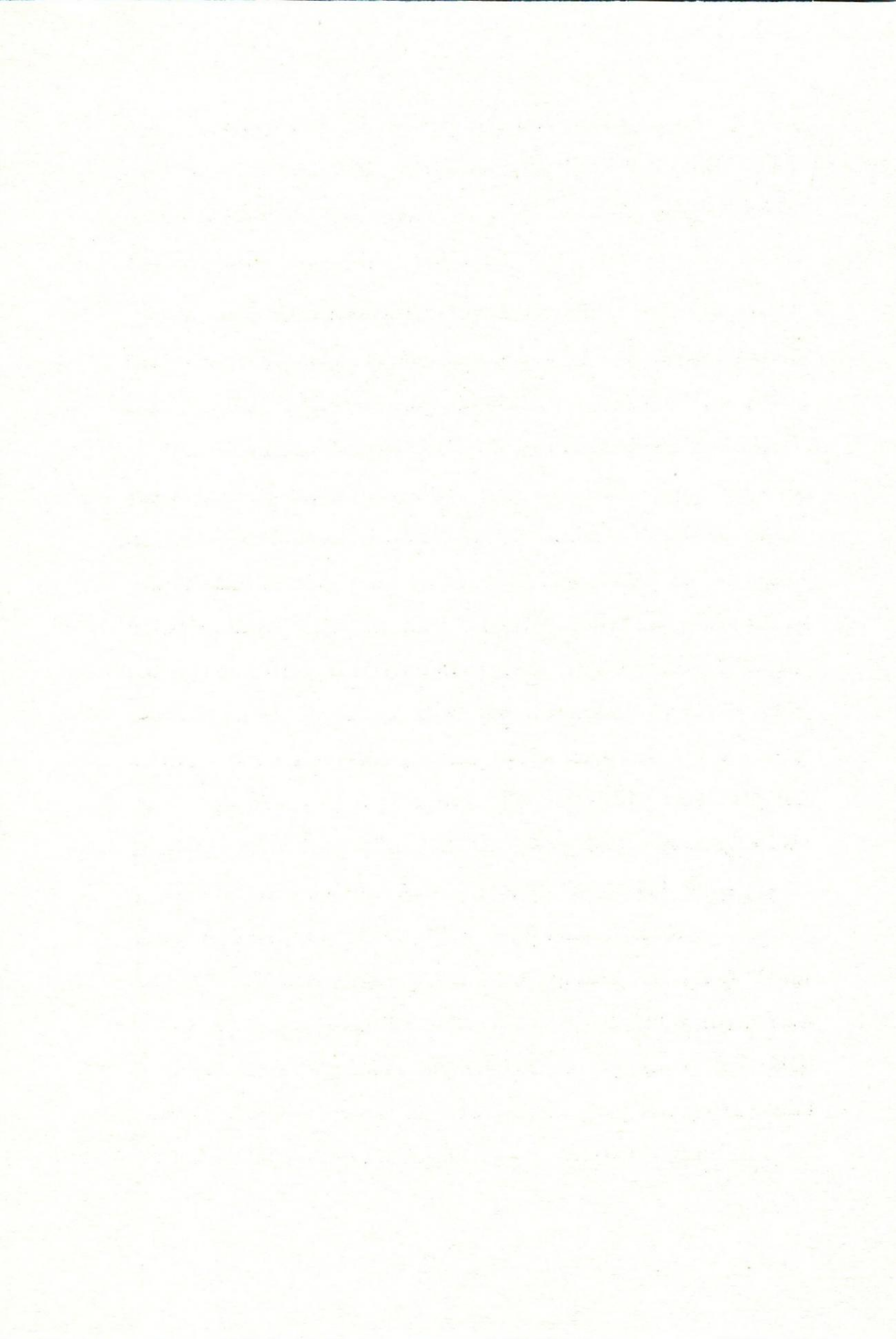
وفي هذا المناخ، كان هناك بعض أعضاء المجموعات المتمردة الذين أرادوا ديكتاتورية بربرية منفلتة، يحكمها شخص مثل هتلر. كانوا، ببساطة، يريدون أسهل الحلول لمشاكلهم الخاصة وأسرعها، كما كانوا غير مستعدين من أعماقهم للتوصل إلى تسوية مع خصومهم. وعندما أثبت النازيون أنهم أمهر السياسيين في اصطياد نقمة المستائين، والريفيين البروتستانت على وجه الخصوص، تغيرت المعادلة السياسية، إذ لم يكن هناك بعد العام 1929 أي ائتلاف معادٍ للديموقراطية قابل للحياة، لم يشارك فيه هتلر والنازيون.

هذه الحقيقة وضعت أمام رجال الأعمال والقادة العسكريين مشكلة خطيرة، إذ لم تكن الديموقراطية تعمل لمصلحتهم بشكل دقيق، لأن مصالحهم لم تجتذب تأييد الأغلبية، أو حتى شعبية كبيرة في صفوف الناخبين. من جهة أخرى، استطاعت حركة هتلر توفير الدعم الأساسي لسحق الحركة العمالية، وإعادة بناء القوات المسلحة. لكن بأية كلفة؟ بالتدريج، قررت النخب السياسية المحافظة في ألمانيا أن لا خيار أمامها سوى إيجاد طريقة ما للتعامل مع هتلر، لاستغلاله وحركته، وإلا كان سيتعين عليهم التخلي عن قدر كبير من مصالحهم الخاصة.

كانت ليلة السكاكين الطويلة خاتمة الغزل بين مؤسسة المحافظين وهتلر. فقد وجد المحافظون أنفسهم، الواحد تلو الآخر مستبعدين ومُهَمَّشين - بدءاً من هوغنبيرغ، وبرونننغ، وبابن، وشلايشر وصولا إلى يونغ وبوزه. كما تعرضوا إلى حد كبير لخيانة هيندنبورغ الذي سعى جاهداً، كرئيس للرايخ، إلى تحقيق هدفه النهائي لتشكيل حكومة من اليمين القومي، مع المحافظة بأي ثمن كان على صورته كقائد عظيم حقق الوحدة. وفي النهاية وجد هيندنبورغ نفسه أسيراً عند الرجل الذي نبذه مرة كـ "عريف بوهيمي".

ورحل إلى قبره مطمئناً في اعتقاده بأن اسمه الناصع قد بات في مأمن بنجاح هتلر في التغلب على الانقسامات السياسية لأوائل الثلاثينيات. المفارقة الأخيرة، بالتأكيد، أن هتلر تحديداً قوض، بشكل نهائي، سمعة كان هيندنبورغ دائم الحرص على حمايتها.

إن التفكير في نهاية فايمار بهذه الطريقة - كنتيجة لحركة احتجاجية، تتصادم مع نماذج معقدة من المصالح النخبوية الخاصة، في ثقافة معرضة بازدياد لصناعة عدائية للسرديات واللاعقلانية، تنزع المظهر الغريب والشاذ عن رايات الصليب المعقوف، ومشية الإوزة العسكرية لقوات العاصفة. وفجأة، يبدو كل شيء قريباً ومألوفاً. وإلى جانب خباثة الجزء الأكبر من السياسيين الألمان خلال سنوات فايمار، كان هناك براءة مناقضة تتخيل أسوأ الاحتمالات. فأمة متحضرة لا يمكن أن تنتخب هتلر. هذا ما اعتقده البعض. وعندما أصبح مستشاراً، توقع الملايين أن تكون ولايته قصيرة وعاجزة. كانت ألمانيا بلداً يمتاز باحترام القانون، وأرضاً متطورة. كيف يمكن لحكومة ألمانيا أن تتوحش بشكل ممنهج ضد شعبها؟ كان اليهود الألمان مندمجين في المجتمع ووطنيين، ورفض العديد منهم مغادرة وطنهم، حتى عندما تغيرت الأمور من سيء إلى أسوأ. "أنا ألماني وأنتظر عودة الألمان: لقد ذهبوا إلى أرض في مكان ما" هذا ما كتبه فيكتور كليمبرير في مذكراته - كان ابن حاخام، ومحارباً قديماً في الحرب العالمية الأولى، اختار أن يبقى ونجا بأعجوبة. قلة قليلة من الألمان كانت تتخيل وجود تريبلينكا، أو أوشفيتس عام 1933، والإعدام الجماعي في بابي يار، أو مسيرات الموت في الأشهر الأخيرة من الحرب العالمية الثانية. من الصعب أن نلقي اللوم عليهم، لأنهم لم يتنبؤوا بشي ما كان ليخطر على بال أحد. لكن براءتهم خذلتهم، وكانوا مخطئين على نحو كارثي بشأن مستقبلهم. نحن من أتينا بعدهم، لدينا أفضلية واحدة تميزنا عنهم: لدينا مثالهم الواضح أمام أعيننا.



ملاحظات

ملاحظات على المصادر، ومراجع أخرى للقراءة

ما كُتب عن صعود النازيين وسقوط ديموقراطية فايمار كان ضخماً جداً. وفي كتاب صغير كهذا الكتاب، موجه لجمهور عام، لم أستطع الإشارة في النص، أو حتى في الملاحظات، سوى إلى جزء يسير مما كُتب عن هذا الموضوع. وإضافة إلى ما أدرجته تالياً في الاقتباسات، أود أن ألفت عناية القارئ إلى أعمال أخرى أغنت تفكيري (وإن اختلفتُ معها، بكامل الاحترام، في بعض الأحيان). وبما أني لا أدعي بأن هذه القائمة جاءت شاملة لكل ما كُتب، أشجع القراء المهتمين على الرجوع إلى تلك الأعمال لمزيد من المعلومات، ومن منظور مختلف.[17]

تشكل العديد من الدراسات والمراجعات المهمة حول جمهورية فايمار نقطة البداية للبحث في هذا الموضوع، علماً أنها تعبر عن مجال واسع لوجهات نظر مختلفة. وتضم هذه الدراسات: ديتليف بيوكيرت، **جمهورية فايمار: أزمة الحداثة الكلاسيكية** (نيويورك: هيل ووانغ، 1989)؛ وهانس مومسن، **صعود وسقوط ديموقراطية فايمار** (تشابيل هيل: جامعة نورث كارولاينا، 1998)، التاريخ السردي المتميز لهاينريش فينكلر، **قصة أول ديموقراطية ألمانية** (سي. هـ. بيك، 1993)؛ والطبعة الأخيرة من

17 جميع المراجع الواردة في لائحة المؤلف قد لا تكون مترجمة أصلا إلى العربية. وحتى إن كانت، قد لا تكون بالضرورة مترجمة بنفس العناوين. (م)

كلاسيكية إيبرارد كولب، **جمهورية فايمار**، الطبعة الثامنة (ميونيخ: دار أولدينبورغ للنشر، 2013) (طبعة أقدم متوفرة باللغة الانجليزية: إيبرارد كولب، **جمهورية فايمار**، الطبعة الثانية [نيويورك: روتليدج، 2004]). ومن بين أحدث الدراسات المعمقة دراسة لإيريك د. فيتس، **فايمار ألمانيا: الوعد والمأساة**؛ طبعة ثانية موسعة (برينستون: جامعة برينستون، 2013)

وعن ثورة 1918 والسنوات الأولى للثورة: خواكيم بيتسولد، **رواية الطعن في الظهر: تزييف التاريخ في خدمة الإمبريالية والنزعة العسكرية الألمانية** (برلين الشرقية، دار أكاديمي للنشر، 1936)؛ ريتشارد بيسيل، **ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى** (أوكسفورد: جامعة أوكسفورد، 1993)؛ مارك جونز، **تأسيس فايمار: العنف والثورة الألمانية 1919-1918** (كيمبريدج: جامعة كيمبريدج (ص 238) 2016)؛ توماس فيبر، **كيف أصبح هتلر نازياً: من الجندي اللاسياسي إلى مؤلف كفاحي** (برلين: أولشتاين 2016).

وهناك بعض من أهم الأعمال وأحدثها التي عالجت مواضيع الجنس والجنسانية في فايمار (وما بعدها): جوليا سنيرنغر، **كسب صوت المرأة الانتخابي: الدعاية والسياسة في فايمار ألمانيا** (تشابيل هيل: جامعة نورث كارولاينا، 2002)؛ ويندي لاور، **غضب هتلر: المرأة الألمانية في ميادين القتل النازية** (بوسطن: هاوتن ميفلين هاركورت، 2013)؛ روبرت بيتشي، **مثليو برلين: مسقط رأس الهوية الحديثة** (نيويورك: ألفريد أ. نوبف، 2014)؛ لوري مارهويفر، **الجنس وجمهورية فايمار: تحرر مثليي الجنس الألمان وصعود النازيين** (تورنتو: جامعة تورنتو، 2015)

تطرح سوزان بيدرسن، **الأوصياء: عصبة الأمم وأزمة إمبراطورية** (نيويورك: جامعة أوكسفورد 2015) أفكاراً أصيلة ومبدعة حول مسألة انضمام ألمانيا إلى عصبة الأمم. واستفدت أيضاً من كتاب أقدم لهنري آشبي تيرنر، **شتيريزيمان وسياسة جمهورية فايمار** (برينستون: جامعة برينستون، 1965).

وهنـاك عـدة كتـب تسـتثير الأفـكار تتنـاول المؤثـرات الخارجيـة وكيـف كان المسـتقبل لألمانيـي فايمـار: مـاري نـولان، **رؤى الحداثـة: قطـاع الأعمـال الأميركـي وتحديـث ألمانيـا** (نيويـورك: جامعـة أوكسـفورد، 1994)؛ رودريغـر غـراف، **مسـتقبل جمهوريـة فايمـار: أزمـات ومقاربـات مسـتقبلية في ألمانيـا 1918ـ1933** (ميونيـخ، دار أولدنبـورغ للنشـر، 2008)؛ جيمـس كيـو ويتمـان، **نمـوذج هتلـر الأميركـي: الولايـات المتحـدة وصناعـة قانـون العـرق النـازي** (برينسـتون: جامعـة برينسـتون، 2017).

وعـن الاقتصـاد والأعمـال، توجـد العديـد مـن المراجـع الإضافيـة القديمـة: جيرالـد د .فيلدمـان، **الحديـد والصلـب في التضخـم الألمانـي، 1923ـ1916** (برينسـتون: جامعـة برينسـتون، 1977)؛ هنـري آشـبي تيرنـر، **قطـاع الأعمـال الكـبرى وصعـود هتلـر** (نيويـورك: جامعـة أوكسـفورد، 1985)؛ هـارولـد جيمـس، **الانحسـار الألمانـي: سياسـة واقتصـاد 1936ـ1924** (أوكسـفورد: دار كلاريـندون للنشـر، 1986)؛ جيرالـد د. فيلدمـان، **الفوضـى الكـبرى، السياسـة والاقتصـاد والمجتمـع في التضخـم الألمانـي 1924ـ1914** (نيويـورك: جامعـة أوكسـفورد، 1993)؛ بيتر لانغـر، **السـلطة والمسـؤولية: بـارون الـرور بـول ريـوش** (إيسـن: كلارتيكسـت للنشـر، 2012).

وحـول السياسـة في فايمـار عمومـاً: ريتشـارد ف. هاميلتـون، **مـن انتخـب هتلـر؟** (برينسـتون: جامعـة برينسـتون،1982)؛ تومـاس تشـيلدرز، **الناخـب النـازي: الأسـس الاجتماعيـة للفاشـية في ألمانيـا 1933ـ1919** (تشـابل هيـل: جامعـة نـورث كارولاينـا، 1983)؛ بيـتر فريتسشـه، **تدريبـات علـى الفاشـية: الشـعبوية والتحشـيد السياسـي في فايمـار ألمانيـا** (نيويـورك: جامعـة أوكسـفورد، 1990)؛ دونـا هـارش، **الديموقراطيـة الاجتماعيـة الألمانيـة وصعـود النازيـة** (تشـابيل هيـل: جامعـة نـورث كارولاينـا، 1993)؛ بيتر فريتسشـه، **"هـل فشـلت فايمـار؟"** مجلـة التاريـخ الحديـث 68، العـدد 3 (1996): ص 56ـ629؛ لاري يوجـين جونـز، إعـداد، **اليمـين الألمانـي في جمهوريـة فايمـار: دراسـات**

في الفكر المحافظ الألماني، والقومية، ومعاداة السامية (نيويورك: بيرغان للنشر، 2016)، إلى جانب العديد من المقالات المهمة لجونز في المجلات الدورية منها: "**الغباء الأكبر في حياتي: ألفريد هوغنبيرغ وتشكيل حكومة هتلر، كانون الأول/ يناير 1933**،" مجلة التاريخ المعاصر، العدد 1 (1992): ص 87-63.

وحول الأزمة الأخيرة لجمهورية فايمار مطلع الثلاثينيات، هناك العديد من الدراسات القديمة والقيمة: كارل ديتريش براخر، **تفكك جمهورية فايمار: دراسة حول مشكلة خسارة السلطة في الديموقراطية** (دوسلدورف: دار دروسته للنشر، (ص 239) 2000)؛ كارل براخر، ولفغانغ سوير، وغيرهارد شولتز، **استيلاء القوميين الاشتراكيين على السلطة: دراسات حول تأسيس النظام الاستبدادي في ألمانيا** (برلين: دار أولشتاين، 1974)؛ ويليام شيريدان ألن، **استيلاء النازيين على السلطة، حكاية بلدة ألمانية 1953-1930**، (شيكاغو: كوادرلانغ، 1965)؛ تيلو فوغلسانغ، **الجيش والدولة والحزب النازي ودورهم في تاريخ ألمانيا 1932-1930** (شتوتغارت مؤسسة دويتشه للنشر، 1962)؛ تيلو فوغلسانغ، **كورت فون شلايشر: الجنرال سياسياً** (غوتنغن: ماسترشميت للنشر، 1965)؛ أليكس شيلت، **الديكتاتورية العسكرية مع قاعدة شعبية؟ تصميم الجنرال فون شلايشر للجبهة العريضة للجيش في جمهورية فايمار** (فرانكفورت: كامبوس، 1981).

وهناك كتاب بحثي حديث قيم جداً للمورخ الألماني الشاب رينير أورت غيَّرَ نظرتنا للمقاومة التي انطلقت من مكتب نائب المستشار فون بابن. انظر "**مقر الإقامة الرسمي للمعارضة؟" السياسة وخطط الدولة في مكتب نائب مستشار الرايخ 1934-1933** (كولن: بولاو، 2016). آمل أن يُترجم كتاب أورت المهم قريباً لمن لا يستطيعون قراءة ألف صفحة باللغة الألمانية.

الاقتباسات

مقدمة

24ـ **"في موعد ليس له علاقة بالشرطة"**: رودلف دايلز، **"الليلة السكاكين الطويلة... لم تجر" ديرشبيغل**، 2 حزيران/ يونيو، 1940. ص، 22.

24ـ **هتلر كان قد عرف مسبقاً**: رودلف دايلز، **لوسيفر ضد بروتاس: بين سيفرينغ وهايدريش** (زيوريخ: إنتر للنشر، 1949)، ص، 144، ترجمه إلى الإنجليزية ج. نواكيس وغ. بريدام، **النازية 1919-1946 قراءات وثائقية**، المجلد 1: **الصعود إلى السلطة** (إكسيتر: جامعة إكسيتير، 1989) ص،140ـ141.

24ـ **بعد أن قدَّم وصفاً للدمار الكبير**: موجز وكالة الأنباء البروسية الرسمية، 28 شباط/ فبراير، 1933. **الأرشيف الفيدرالي برلين** رقم II43/ 294.

25ـ **لم يكن قد حل منتصف الليل بعد**: ويللي فريشاور، **صعود وسقوط هيرمان غورينغ** (بوسطن: هاوتن ميفلين، 1951)، ص، 4.

27ـ **يضاف إلى ذلك وجود خمسين ألف عنصر**: بنجامين كارتر هتّ، **حريق الرايخستاغ: تحقيق في لغز الرايخ الثالث** (نيويورك: جامعة أوكسفورد، 2014)، ص،30.

27ـ **"لقد وظفناه"**: نقلاً عن بابن في كتاب خواكيم فيست، **سيرة حياة** (برلين: أولشتاين، 1998) ص، 528.

28ـ **السياسي القومي المستقل**: غوتفريد رينهولد تريفرانوس، **نهاية فايمار: هاينريش بروننغ وعصره** (دوسلدروف: إيكون، 1968)، ص،366.

28- **فريدريك شتامبفر**: نقلاً عن شتامبفر في المرجع السابق.

28- **النجار وصانع الأثاث الشاب**: ماكس فورست، **غيفلتي فيش: وكيف استمرت** (ميونيخ: دويتشر، 2004)، ص،658- 59.

28- **"ستتدحرج الرؤوس على الرمال"**: أدولف هتلر، **"شهادة أمام الغرفة الجنائية الرابعة في محكمة لايبزيغ"** 25 أيلول/ سبتمبر 1930، كريسمان هارتمان، إعداد: **هتلر: الخطابات والكتابات والأوامر من شباط/ فبراير 1925 حتى كانون الأول/ يناير 1933، المجلد** 3 **بين انتخابات الرايخستاغ تموز/ يوليو 1928- أيلول/ سبتمبر 1930، الجزء** 3: **كانون الأول/ يناير 1930- أيلول 1930**. (ميونيخ: ك.ج. ساور، 1995)، ص، 434-451.

29- **فوجئ أحد المراقبين المطلعين على بواطن الأمور**: إيريك إيبرماير، **إن اليوم، ألمانيا لنا... مذكرات شخصية وسياسية: من الاستيلاء على السلطة حتى 31 كانون الثاني/ ديسمبر 1935** (هامبورغ: بول تسولني للنشر، 1959)، ص، 17.

29- **عبر المرسوم عن نظرية هتلر**: "مرسوم رئيس الرايخ لحماية الشعب والدولة" مجلة **قانون الرايخ** 17، 28 شباط/ فبراير، 1933.

30- **"في البدء كان حريق الرايخستاغ"**: فالتر كياولين، **برلين: مصير مدينة عالمية** (ميونيخ: س. هـ. بيك،1997)، ص، 567.

32- **"الألمان القلقون"**: وولف جوبست سايدلر، **"فاصل متميز لمرحلة مرفوضة، وتأثير طويل الأجل لفترة قصيرة"** من كتاب روث غلاتسر، **برلين في عهد فايمار: بانوراما مدينة** (برلين: دار سيدلر للنشر، 2000)، ص، 17-18.

34- **العديد من الباحثين المميزين**: انظر، على سبيل المثال، فولكر أولريخ، **صعود هتلر 1889-1930** (نيويورك: ألفريد أ. نويف، 2016)، ص 8-10.

35- **انتصاراً كاسحاً للديموقراطية والرأسمالية الليبرالية العالمية**: حول هذا الموضوع راجع، من بين عدة مراجع أخرى، آدم توتسه، **الطوفان: الحرب الكبرى وصناعة النظام العالمي** (لندن: بينغوين، 2014). روبرت بويس، **الأزمة**

الكبرى ما بين الحربين وانهيار العولمة (نيويورك: بالغريف ماكميلان، 2009).

40ـ **المدافعون عن الجمهورية**: خواكيم فيست، **هتلر** (نيويورك: هاركورت، 1974)، ص، 380.

40ـ **أحس هتلر بالبهجة**: المرجع السابق، ص، 381.

41ـ **"ديكتاتورية، إلغاء البرلمان"**: منقولاً في كتاب أولريخ، **هتلر**، ص، 374.

41ـ **"ينطلق هتلر من الإدراك"**: تيودور هيوس، **مسيرة هتلر: دراسة تاريخية ـ سياسية للاشتراكية القومية**، (شتوتغارت: شركة يونيون دويتشه للنشر، 1932)، ص، 100 و160ـ136.

1ـ آب/أغسطس وتشرين الثاني/ نوفمبر

43ـ **كان يعلم أن الثورة... "إذا قُدِمَ لي إيبرت"**: ماكسميلان، أمير بادن، **مذكرات الأمير ماكس بادن**، ترجمة كولدر وسي. دبليو. هـ. ساتن (نيويورك: أبناء تشارلز سكريبنر، 1928)، ص، 351.

44ـ **لكن الأمير ماكس لا يعلم**: ولفرام بايتا، **هيندنبورغ: الهيمنة بين هونتسولين وهتلر** (ميونيخ: دار سيدلر للنشر، 2007)، ص، 365ـ369.

45ـ **"فات الأوان... لقد فقدت اثنين من أبنائي"**: **مذكرات الأمير ماكس بادن**، ص، 357ـ363.

46ـ **"ذهب كل شيء سدى**: أدولف هتلر، **كفاحي: مرحلة حرجة**، إعداد كريستيان هارتمان وآخرون (زيوريخ: معهد التاريخ المعاصر، 2016)، المجلد 1، ص، 551ـ553.

48ـ **نشوء حالة من التناقض**: مارتن كيتشن، **الديكتاتورية الصامتة: سياسة القيادة العليا في ظل هيندنبورغ ولودندورف** (لندن: غروم هيلم، 1976)، ص، 22. مصطلح الديكتاتورية الصامتة من نحت كيتشن.

49- **غوستاف شتريزمان**: أنتوني ماك إيليغوت، **قراءة ثانية لجمهورية فايمار: السلطة والتسلط 1916-1936** (لندن:بلومزبيري، 2014) ص، 20.

49- **حتى "قانون الخدمة الوطنية الإضافي"**: المرجع السابق، ص، 16.

50- **تراجع، إلى حد ما، عدد أعضاء الحزب**: المرجع السابق ص، 19.

51- **ليُحَمَّلوا أوزارها لاحقاً**: خواكيم ريكر، **هتلر9 نوفمبر، مثل الحرب العالمية الأولى** (برلين: جوبست وولف سايدلر، 2009) ص، 32-28.

54- **لتتسع بذلك الهوة**: أولريخ هربرت، **تاريخ ألمانيا في القرن العشرين** (ميونيخ: سي. هـ. بيك، 2014) ص، 181-183.

54- **كان الجناح الثوري**: المرجع السابق، ص 187-188.

55- **وفي لقاء مع صحفيين أميركيين بعد بضعة سنوات**: فريدريك ف. بلاشلي ومريم إ. عثمان، "هوغو بريوس يتحدث عن دستور فايمار"، مجلة **ثزنويسترن الفصلية للعلوم الاجتماعية والسياسية** 6، العدد 3 (كانون الأول/ ديسمبر 1925) 252-253.

55- **وفي قلب الدستور: نص دستور فايمار**، إرنست رودلف هوبر، **وثائق عن التاريخ الدستوري الألماني**، الطبعة الثالثة (شتوتغارت: دار ف. كولهامر للنشر، 1991) 4: 51-79.

57- **تناولت إحدى النقاشات**: ماك إيليغوت، **قراءة ثانية لجمهورية فايمار**، ص 184-185.

58- **وفي لقاءه مع الصحفيين الأميركيين عام 1925**: بلاشلي وعثمان **"هوغو بريوس"**، ص، 245.

58- **إن القوانين يجب أن تُصاغ وعينك على "الرجل الشرير"**: أوليفر ويندل هولمز الابن "مسار القانون" مجلة **هارفارد القانونية** 10 (1897): 457.

60- **سيحتاج إلى كارثة مدمرة**: بنجامين كارتر هتّ، **موت في تيرغارتين: العدالة الجنائية والجريمة في برلين القيصرية** (كيمبريدج ماساتشوستس: جامعة هارفارد، 2004)، ص، 218.

61ـ **المثقف المحافظ:** روشان ماغوب، **إدغار يوليوس يونغ، اليميني المعادي للنازيين: سيرة سياسية** (روتشستر، نيويورك: كامدين هاوس، 2017)، ص، 18.

61ـ **سيطر اعتقاد متواصل:** سالي ماركس، "الحلفاء، ألمانيا ومعاهدة فرساي، 1918ـ1924" "**مجلة التاريخ الحديث** 85"، العدد 3 (أيلول/ سبتمبر 2013): 632ـ633.

62ـ **إن حقيقة اندلاع الحرب:** "سيباستيان هافنر، **تحدي هتلر** (ليكسنغتون، م. أ: بلانكيت ليك، 2014)، ص، 23.

63ـ **ويستذكر الكاتب المسرحي الألماني:** كارل تسوكماير، **جزء من ذاتي** (نيويورك: هاركورت، 1970)، ص، 143.

63ـ **وفي ما يتعلق بالمظاهرات:** ليتر فريتسشه، **الألمان نحو العهد النازي** (كيمبريدج، ماساتشوستس: جامعة هارفارد، 1997)، ص، 19.

63ـ **أما في ما يتصل بالافتتاحيات:** جيفري فيرهيه، **روح 1914: العسكرة، والرواية، والتحشيد في ألمانيا:** (كيمبريدج، جامعة كيمبريدج، 2004)، ص، 20.

64ـ **كمثال يتوق إليه الجميع:** المرجع السابق، ص، 217.

64ـ **في ربيع 1919:** ريكر، **هتلر 9 نوفمبر**، ص، 63.

65ـ **وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 1919:** جون دبليو. ويلر-بينيت، هندينبورغ: **العملاق الخشبي** (لندن: ماكسميلان، 1936)، ص، 234ـ239.

65ـ **روايتا 1914:** فيرهيه، **روح 1914**، ص، 213 و219.

65ـ **عن الديموقراطيين الذين ردوا على ذلك:** المرجع السابق، ص، 222.

66ـ **إن المشكلة الأساسية التي واجهت:** ريكر، **هتلر 9. نوفمبر**، ص، 58.

66ـ **تقدم اتفاقية واشنطن البحرية 1922:** توتسه، **الطوفان**، ص، 11 و12.

67ـ **ولم يكن هناك شخصية أهم من الجنرال لودندورف لتفصيل عواقب ذلك المناخ السياسي:** إيريك لودندورف، **الأمة في حرب** (لندن: هتشنستون، 1963).

67ـ **ذلك ماكس باور مستشار لودندورف السابق**: مارتن كيتشن، "العسكرة وتطور الأيديولوجيا الفاشية: الأفكار السياسية للكولونيل ماكس باور، 1916ـ1918" **تاريخ أوروبا الوسطى 8**، (أيلول/ سبتمبر 1957): 206.

2ـ "لا تصدقوه! إنه يقول الحقيقة"

69ـ **المسؤولون قلقون... لا يخضعون حتى وهم في سجنهم**: بنجامين كارتر هتّ، **استجواب هتلر: الرجل الذي وضع النازيين على منصة الشهود** (نيويورك: جامعة أوكسفورد، 2008)، ص،65 و66 و92.

71ـ **وتأتي ذروة الحدث... لانتفاء العلاقة بين السؤال وموضوع المحاكمة** ": المرجع السابق،ص 93ـ98.

72ـ **وكانت أكثر التعليقات ذكاءً... " لا تصدقوه، إنه يقول الحقيقة"**: المرجع السابق ص 102.

73ـ **شعر أن "هناك شخصاً كان يعني ما يقول"**: أولريخ، هتلر، ص97.

73ـ **"في ذروة خطاباته"**: مقتبساً عن هايدن في كتاب ستيفان أوست، **العدو الأول لهتلر: معركة كونراد هايدن** (رينبيك بي هامبورغ: روفولت، 2016)، ص، 84.

73ـ **"لم يكن صادقاً حتى مع ثُقاته"**: أولريخ، **هتلر**، ص، 7.

73ـ **"لأن بساطة عقولها ... كانت الكذبة كبيرة جداً"**: هتلر، **كفاحي**1، ص، 617.

74ـ **"أكاذيب هائلة... خبراء الكذب الكبار في هذا العالم"**: المرجع السابق.

74ـ **"منذ زمن سحيق القدم... تساعد الحقيقة كي تسود"**: المرجع السابق.

75ـ **"إن الجماهير"**: هتلر، **كفاحي**، 2: 1477.

75ـ **"الشعب الألماني لا يتمتع"**: أدولف هتلر، **كتاب هتلر الثاني: التتمة الغير المنشورة لكتاب كفاحي**، طبعة غيرهارد فينبرغ (نيويورك، أنيغما، 2006)، ص، 111.

75- **"إذا تبين أن الشعب الألماني ضعيف"**: أيان كيرشو، **هتلر 1936-1945: نيميسيز** (نيويورك: دبليو. دبليو. نورتون 2000)، (في ما بعد نيميسز)، ص، 555.

76- **حالما ينضم لرفقته... قابلتهما في حياتي**: إرنست هانفشتينغل، **هتلر: السنوات المفقودة** (نيويورك: آركيد للنشر،1944)، ص، 266.

76- **كان بمقدور هتلر أن يظهر**: إيان كيرشو، **هتلر 1889-1936: الغرور** (نيويورك: دبليو. دبليو .نورتون) (في ما بعد : **الغرور**)، ص،281.

77- **وكتب كونراد هايدن**: أوست، **العدو الأول لهتلر**، ص،141 ـ 42.

78- **وُلدَ أدولف هتلر**: بريجيت هامان، **هتلر في فيينا: تدريب ديكتاتور**، ترجمة توماس ثورنتون (نيويورك: جامعة أوكسفورد، 1999)، ص، 7.

78- **ومنذ البداية... في ذلك الحين**: كيرشو، **الغرور**، ص، 5-3.

78-79- **وربما هتلر على ما يبدو... مقبرة القرية**: روبرت ج. ل. ويت، **الإله المختل عقلياً: أدولف هتلر** (نيويورك: بيسيك للنشر، 1977)، ص، 131-128.

79- **وقال هتلر في وقت لاحق**: أوغست كوبتسيك، **هتلر كما عرفته شاباً**، ترجمة: جيفري بروكس (لندن: غرينهيل للنشر، 2006)، ص، 54.

79- **هذه واحدة من القصص**: أولريخ، **هتلر**، ص، 21.

80- **وذكر الطبيب الذي عالجها**: هامان، **هتلر في فيينا**، ص، 34- 35.

81- **"جثوت على ركبتي"**: هتلر، **كفاحي**، 1:453.

81- **وفي 29 تشرين الأول/ أكتوبر**: توماس ويبر، **حرب هتلر الأولى: أدولف هتلر، رجال فرقة ليست، والحرب العالمية الأولى**، (أوكسفورد: جامعة أوكسفورد، 2010)،ص، 48.

81- **"حل الشعور بالهلع... لم يكن سوى الخوف"**: هتلر، **كفاحي**: 1: 461-465.

82- **"انتهى الصراع الداخلي"**: المرجع السابق.

82ـ **هناك بعض الجدل**: ويبر، **حرب هتلر الأولى**، تحديداً الفصل السابع.

83ـ **"عندما نوازن بين جميع المصادر"**: أولريخ، **هتلر**، ص، 59.

83ـ **كذلك يحيط الغموض... يفتقر لمواصفات "الفوهرر"**: المرجع السابق؛ ويبر، **حرب هتلر الأولى**، الفصل السابع.

83ـ **لكن ماكس أمان**: أولريخ، **هتلر**، ص، 60.

84ـ **إذْ من غير الممكن أن تذهب تضحيات الحرب...أن أنخرط في العمل السياسي**: هتلر، **كفاحي**،1: 553ـ557.

84ـ **لهتلر الذي بدأ في واقع الأمر**: ويبر، **حرب هتلر الأولى**، ص، 250ـ252.

84ـ **وفي ربيع 1919**: المرجع السابق، ص، 50 و51 و257.

85ـ **كيف يمكن التوفيق**: المرجع السابق، ص،350ـ51؛ أولريخ، **هتلر**، ص، 79ـ80.

85ـ **وأوضح هذه النقطة... وبدأت أكرههم بالتدريج"**: هتلر، **كفاحي**، 1: 209 و225.

85ـ **يمكن أن نعزو العديد من عبارات**: هامان، **هتلر في فيينا**، ص،202 و352؛ ويبر، **حرب هتلر الأولى**، ص، 250ـ251.

86ـ **وبدأت لجنةُ التحقيق**: ويبر، **حرب هتلر الأولى**، ص، 255ـ56 و258ـ259.

86ـ **"تجعل الرجال يكافحون من أجل أشياء أعلى"**: هتلر إلى غيمليش، أيلول/ سبتمبر19، 1919 إعداد، نواكيس وبريدام، **النازية**، 1: 12 و13.

86ـ **وفي أيلول/ سبتمبر 1919، طلب النقيب ماير منه**: إعداد نواكيس وبريديهام، **النازية**، 1: 13. بحلول ربيع 1920، كان هتلر يلقي خطابات تدعو صراحة "الإبادة" جميع اليهود. انظر: **هتلر: جميع السجلات 1905ـ1924**، إعداد إيبارد جوكل (شتوتغارت: مؤسسة دويتشه للنشر، 1980)، ص،119ـ120. مع امتناني الكبير للبروفسور غيرهارد فينبيرغ على هذا المرجع.

87ـ **"أحلام الهدنة"**: ولفغانغ شيفيلبوخ، **ثقافة الهزيمة: الصدمة الوطنية، والحداد، والصحوة**، ترجمة جيفرسون تشيس (نيويورك: بيكادور، 2001) ص،255 مرقمة 31.

88- **ففي إطار عمله مع النقيب ماير**: كيرشو، **الغرور**، ص،124.

88- **"انطلقت في أداء المهمة"**: هتلر، **كفاحي**، 1: 579.

88- **ومن باب المصادفة، اكتشف هتلر**:كيرشو، **الغرور**، ص، 125؛ إرنست ديورلين، **"دخول هتلر إلى السياسة والجيش"**، الكتب الفصلية للتاريخ المعاصر 7 (1959):177- 227.

88- **كما بدأ النقيب ماير يُظهِرُ احتراماً**: كيرشو، الغرور، ص، 126.

89- **أصبح هتلر، الذي كان لا يزال في الجيش**: المرجع السابق، ص، 145.

89- **تقرير شرطة ميونيخ... "حتى تحقيق هدفنا"**: رينالد هـ. فيلبس، "هتلر كمتحدث للحزب" مجلة **التاريخ المعاصر الفصلية** 11(1963): 274-330 و294-95.

90- **كان كونراد هايدن واحداً من قلائل**: أوست، عدو هتلر الأول، ص، 21 و82-84.

92- **يتذكر رفيق صباه**: كوبتسيك، **هتلر شاباً**، ص،157 و174-175.

92-**"كان هتلر كسائر الأشخاص الجاهلين"**: هانفشيتنغل، **هتلر: السنوات المفقودة**، ص، 133.

92- **"نظر إلي"**: كوبتسيك، **هتلر شاباً**، ص، 182.

92- **عبر بشكل روتيني عن احتقاره**: أولريخ، **هتلر**، ص، 389-390.

93- **فإذا كان معدل صرف**: ريتشارد إيفانز، **قدوم الرايخ الثالث** (نيويورك: بينغوين، 2004)، ص، 150.

94- **"يا له من شاب رائع هتلر!"**: كيرشو، **الغرور**، ص، 216.

94- **وهناك رواية تقول**: أولريخ، **هتلر**، ص، 173.

95- **هذا لا يعني أن سجله لم يكن مثيراً للجدل**: جوناثان رايت، **غوستاف شتريزيمان، أعظم رجال دولة فايمار** (نيويورك: جامعة أوكسفورد، 2002) **"مقدمة"**.

95ـ **فالصحفي البريطاني... أما تيودور هيوس... الروائي توماس مان:** المرجع السابق، ص، 2.

96ـ **الفيسكونت دي أبيرنون:** المرجع السابق، ص، 498.

96ـ **وُلِدَ شتريزيمان:** المرجع السابق، الفصل 1.

96ـ **الطريف في الأمر أنه عندما بدأ العمل:** المرجع السابق، الفصل 2.

96ـ **وخلال مسيرة حياته:** المرجع السابق، الفصل 3.

97ـ **بدأ شتريزيمان يرفض بشدة:** المرجع السابق، ص، 106ـ107.

97ـ **خلال الفترة القصيرة التي قضاها مستشاراً:** رايت، **شتريزيمان**، ص،494؛ تسارا شتينر، **الأضواء التي خفتت: التاريخ الأوروبي الدولي 1919ـ1933** (نيويورك: جامعة أوكسفورد، 2005)، الفصل 7 و8.

98ـ **عوامل معقدة:** رايت، **شتريزيمان**، ص، 323 و518.

99ـ **ففي إحدى المناسبات:** المرجع السابق، ص، 332.

99ـ **وزير الخارجية البريطاني أوستن تشامبرلين:** المرجع السابق، ص، 499.

99ـ **وبعد لقائهما عام 1926:** المرجع السابق، ص،370 مرقمة 196.

99ـ **لا يختلف هوغينبيرغ عن شتريزيمان في كونه جاء من خلفية متواضعة:** جون أ. ليوبولد، ألفريد هوغنبيرغ: **الحملة القومية الراديكالية ضد جمهورية فايمار** (لندن ونيوهافن: جامعة ييل، 1977)، ص، 1ـ2.

100ـ **وفي العام 1916 اشترى هوغنبيرغ:** المرجع السابق، ص، 8ـ20.

100ـ **أصبح هوغنبيرغ:** المرجع السابق، ص، 21ـ23.

101ـ **كان يخشى أن يتحول الحزب: هوغنبيرغ، "كتلة أم عصيدة؟،"** إعداد هربرت ميكاليس وآخرون، **أسباب وعواقب انهيار ألمانيا 1918 و1945 حتى إعادة تنظيم الدولة الألمانية في الوقت الحاضر** (برلين، دوكيومنتين للنشر د. هربرت فيندلر 1959/ 1978)، 8: 350.

101ـ **أدرك غوستاف شتريزيمان:** رايت، **شتريزيمان**، ص، 373ـ374.

102ـ **لألـد خصومـه هتلـر الـذي قـال يومـاً لوزيـر خارجيتـه**: المرجـع السـابق، ص، 514.

102ـ **وعندما فاز هوغنبيرغ... وفي تلك الفترة**: المرجع السابق، ص، 434 و408.

102ـ **ففـي تمـوز/ يوليـو أخـبر شـتيريزيمان صحفيـاً فرنسـياً**: المرجـع السـابق، ص، 496.

102ـ **"جهزوا تابوتاً لاثنين"**: المرجع السابق، ص، 501.

103ـ **وفي آخـر خطـاب لـه في الثلاثـين مـن أيلـول/ سـبتمبر**: المرجـع السـابق، ص، 482.

103ـ **"الانهيار الألماني"**: أولريخ، **هتلر**، ص،201ـ2 مرقمة 70.

103ـ **"قطاع صناعي ضعيف"**: المرجع السابق، ص، 201ـ2.

3ـ أيار الدامي والزاحف المتسلق

105ـ **الشـرطة تسـتعد منـذ أسـابيع**: تومـاس كورتـس، **"أيـار الدامـي": ديمقراطيون اجتماعيون وشيوعيون في صلب أحداث برلـين 1929** (برلـين: ج. هـ. دبليـو. ديتـس ناخـف، 1988)، ص 13 و14.

105 ـ **النجار الشاب**: فوغست، **غيفلته فيش**، ص، 567.

105ـ **عند الصباح**: كورتس، **"أيار الدامي"**، ص، 29ـ30.

105ـ **ماكس فورست وزوجته**: فوغست **غيفلته فيش**، ص، 568ـ569.

106ـ **لا يزال الوضع يتفاقم**: كورتس، **"أيار الدامي"**، ص، 32 و33.

106ـ **لا يستجيب رجلٌ**: المرجع السابق، ص، 45.

106ـ **بعض المتظاهرين**: المرجع السابق، ص، 36ـ40.

107ـ **ويقـع حـادث مشـابه قـرب هيرمـان بلاتس**:تقريـر مـن اللجنـة للنظـر في الأحـداث الـتي وقعـت في مسـرح كبـير في 1929/6/6: سـجل محفوظـات

المقاطعات، برلين، ممثل العلاقات العامة، رقم 21731. المجلد 1، 110.

104- **تسارع الصحافة**: كورتس، "**أيار الدامي**،" ص، 63.

109- **يحصي تقرير الشرطة**: المرجع السابق، ص 42 و47 و48.

109- **كل هؤلاء الضحايا في أيار الدامي**: هت، **استجواب هتلر**، ص، 55.

110- **الصحفي ماثيو كوينتس**: ماثيو كوينتس "مقهى رومانيسك" في كتاب أنتون كيس وآخرون، **مرجع جمهورية فايمار**(بيركلي ولوس أنجلوس: جامعة كاليفورنيا، 1994) (فيما بعد كيس وآخرون، **مرجع جمهورية فايمار**) ص، 415-417.

110- **كما كان لا يسمح سوى**: ديفيد كلاي لارج، **برلين** (نيويورك: بيسيك للنشر،2000) ص،191.

110- **أما المؤرخ إيريك فيتس**: إيريك د. فيتس، **فايمار ألمانيا**، طبعة جديدة موسعة (برينستون: جامعة برينستون، 2013)، ص، 77-78.

110- **ماركوس فولف**: ماركوس فولف، **رجل بلا وجه: سيرة سيد الجاسوسية الشيوعية** (نيويورك: بَبْليك أفيرز، 1997)، ص، 25.

111- **ثلاثة معسكرات "ممذهبة سياسياً"**: يورغن فالتر، **ناخبو هتلر** (ميونيخ: سي. هـ. بيك، 1992)، فالتر دين بورنهام، "التحصين السياسي والطائفية السياسية": الولايات المتحدة وفايمار ألمانيا،" مجلة **التاريخ المتعدد التخصصات** 3، العدد 1 (صيف 1972): 1-30.

112- **سيكون لزاماً علينا أن نسد أنوفنا وندخل البرلمان**: كيرشو، **الغرور**، ص، 228.

112- **مع العلم أن حزبه وحتى العام 1932**: فالتر، **ناخبو هتلر**، ص 51-52 و368-372.

113- **لكن وفي العام 1925**: ولفرام بايتا، **مجتمع القرية والأحزاب السياسية 1918-1933: تشابك الوسط والأحزاب في الريف البروتستانتي في جمهورية فايمار** (دوسلدروف، دروسته للنشر، 1996)، ص، 37.

114ـ **لكن هذه البنية الاجتماعية كانت غائبة**: شيللي بارانوفسكي، **حرمة الحياة الريفية: النبالة، والبروتستانتية، والنازية في بروسيا فايمار** (نيويورك: جامعة أوكسفورد، 1995)، ص، 6ـ8، 20 و39.

115ـ **كان لسكان الريف أسبابهم-التي يمكن تفهمها**: المرجع السابق، ص، 118ـ122.

115ـ **كما كان للحرب العالمية الأولى**: المرجع السابق، ص، 102.

116ـ **برلين ليست ألمانيا**: لارج، **برلين**، 146.

117ـ **ولم يشذ الصحفي المحافظ**: فيلهيلم شتابل، "**المثقف وشعبه**"، في كيس وآخرون، **مرجع جمهورية فايمار**، ص، 423ـ425.

117ـ **حظي استهجان العادات الجنسية**: بارانوفسكي، **حرمة الحياة الريفية**، ص، 111.

117ـ **الشاعر ومؤلف كتب الأطفال**: فيتس، **فايمار**، ص،77.

118ـ **الصحفي كورت توخولسكي الذي وصف**: كورت توخولسكي، "**برلين والمقاطعات**"، في كيس وآخرون، **مرجع جمهورية فايمار**، ص، 418ـ20.

118ـ **كان شتابل محقاً**: بارانوفسكي، **حرمة الحياة الريفية**، 129؛ هت، **حريق الرايخستاغ**، ص، 80ـ81.

119ـ "**ميثاق ثقافي**": شولاميت فولكوف، **اليهود، والألمان، والمعادون للسامية: محاولات في التحرر** (نيويورك: جامعة كيمبريدج، 2006) ص، 113ـ114.

119ـ **وكانت القومية الألمانية**: المرجع السابق؛ هيرمان غرامل، **معاداة السامية في الرايخ الثالث**، ترجمة تيم كيرك (أوكسفورد: بلاكويل، 1988)، ص، 67ـ68.

119ـ **معاداة السامية**: فولكوف، **اليهود، والألمان، والمعادون للسامية**، ص، 118 و129 و135ـ39.

120ـ **استخدام معاداة السامية**: بيتر هيز، **لماذا: تفسير الهولوكست** (نيويورك: دبليو. دبليو. نورتون، 2017) ص، 53ـ56.

120ـ **التركيبة السياسية لجمهورية فايمار**: غرامل، **معاداة السامية**، ص، 80.

120ـ **"عناكب المال العالمي"**: أولريخ، **هتلر**، ص،231.

121ـ **في العام 1928، أعلن المؤتمر السادس للشيوعية الدولية**: إيفا روزنهافت، **هزيمة الفاشية: الشيوعيون الألمان والعنف السياسي** (نيويورك: جامعة كيمبريدج، 1983)، ص، 30.

123ـ **وأول هذين العامليْن كان بنيوياً**: فريتسشه، **الألمان نحو العهد النازي**، ص، 79؛ ولفرام بايتا، **جمهورية فايمار** (برلين: مؤسسة الدولة للتعليم السياسي، 2004) ص، 156.

123ـ **في عدة مناسبات خلال فترة العشرينيات**: توماس ميرغيل، فشل حزب المحافظين الألماني: تحول حزب الشعب الوطني الألماني إلى اليمين المتطرف 1928ـ1932، **مجلة تاريخية** 275، العدد 5 (2003): 325ـ326 و337.

124ـ **وُلِدَ بول فون بينكيندورف أوند فون هيندنبورغ**: ويلرـبينيت، **العملاق الخشبي**، ص، 3ـ4.

124ـ **في 22 آب/ أغسطس 1914**: المرجع السابق، ص 26ـ29.

125ـ **وعلّق الأخير على ذلك لاحقاً**: آنا فون ديرغولتس، **هيندنبورغ: السلطة، والأسطورة، وصعود النازيين**، (أوكسفورد: جامعة أوكسفورد،2009)، ص، 19.

125ـ **ذا مظهر رصين**: هنري آشبي تيرنر، **ثلاثون يوماً لوصول هتلر إلى السلطة: كانون الأول/ يناير 1933** (ريدينغ، ماساتشوستس، أديسون-ويزلي، 1997)، ص، 4.

125ـ **كان هيندنبورغ يجسد التاريخ الألماني**: فون ديرغولتس، **هيندنبورغ**، ص، 14.

125ـ **كان هيندنبورغ رجلاً مخلصاً لأسرته**: بايتا، **هيندنبورغ**، ص،21.

125ـ **كما كان لوثرياً متعصباً**: فون ديرغولتس، **هيندنبورغ**، ص، 14.

126ـ **وفداً من الحزب الديموقراطي الاجتماعي**: هاريغراف كيسلر، **يوميات 1918 حتى عام 1937**) فرانكفورت: إنسيل تاشينبوخ، 1996)، ص، 698.

126ـ **فعندما كان ضابطاً شاباً**: المرجع السابق، ص، 19.

126- **"أنا نفسي لم أفهم"**: اقتباس في بايتا، **هيندنبورغ**، ص، 15.

126- **عينته القيادة العليا**: فون ديرغولتس، **هيندنبورغ**، ص، 15.

126- **وعندما كان يسافر**: بايتا، **هيندنبورغ**، ص، 18-19.

127- **كانت كتاباته موجزة ودقيقة**: المرجع السابق، ص، 559-60.

127- **وشَهِدَ الأدميرال ورئيس أركان القوى البحرية**: المرجع السابق، ص، 333.

128- **وعندما قرر هيندنبورغ خوض غمار الانتخابات الرئاسية**: فون ديرغولتس، **هيندنبورغ**، ص، 93.

130- **اتحاد الرايخ للصناعة الألمانية**: **الأسباب والعواقب**، 8: 101- 103.

130- **وأدرك كبار رجال الأعمال جيداً**: هارولد جيمس، **"الأسباب الإقتصادية لانهيار جمهورية فايمار"** في نسخة إيان كيرشو، **فايمار: لماذا فشلت الديموقراطية؟** (لندن: وايدنفيلد ونيكلسون، 1990)، ص، 40.

131- **"الصريح والمنفتح"**: فنسنتس موللر، **وجدت الوطن الحقيقي**، (برلين الشرقية: الناشر العسكري الألماني، 1963)، ص، 199.

131- **حس الدعابة الألمانية**: تيرنر، **ثلاثون يوماً لوصول هتلر**، ص، 20.

131- **وكان زملاء شلايشر يحتارون**: آيرين شترينغه، **شلايشر: السياسة في وزارة الدفاع في نهاية جمهورية فايمار** (برلين: دونكر وهمبولت، 2006) ص، 12- 13.

131- **"هل فكرت جدياً بذلك؟"**: موللر، **وجدت الوطن الحقيقي**، ص، 196.

132- **"صحيح، لكنه للأسف مجنون"**: أوتو مايسنر، **سكرتير الدولة في ظل إيبرت، وهيندنبورغ، وهتلر** (هامبورغ: هوفمان وكامبه للنشر، 1950) ص، 257-58.

132- **"القطيعة هي أقل شي يمكن أن يكون"**: ميكاليس وآخرون، الأسباب والعواقب، المجلد، 8، وثيقة، 1922، ص، 711.

132- **"يُخشى بدلاً من أن يُحب"... جوهرياً وعميقاً"**: أندريه فرنسوا- بونسيه، **السنوات الحرجة، يوميات سفير فرنسي في برلين 1931-1938.**

ترجمة: جاك لوكليغ (نيويورك: هاورد فيرتيغ، 1971)، ص، 28-29.

132- **وُلد شلايشر**: شترينغه، **شلايشر**، ص،11 و54 و55.

133- **ففي مطلع العام 1928**: موللر، **وجدت الوطن الحقيقي**، ص، 223-224.

133- **أن تحرر نفسها من "قيود"**: المرجع السابق، ص، 219 و224 -225.

133/134- **وفي لحظة من الصراحة الكاملة: "وثيقة موسكو"**، في هنري آشبي تيرنر، **طريق هتلر إلى السلطة: يناير 1933**، ترجمة: إنريكو هينمان وتوماس بفايفر (برلين: أولشتاين، 1999)، ص، 184. النص الكامل لهذه الوثيقة غير موجود في النسخة الإنجليزية الأصلية لكتاب البروفسور تيرنر.

134- **برَّر ذلك بقوله**: المرجع السابق، ص، 182.

134- **في كانون الأول/ ديسمبر 1926**: شترينغه، **شلايشر**، ص، 46- 51.

135- **كذلك أضافت انتخابات 1928**: المرجع السابق، 62.

135- **وأدرك شلايشر**: المرجع السابق، ص، 60.

136- **"لا يمكن أن تحكم بالحِراب"**: موللر، **وجدت الوطن الحقيقي**، ص، 223.

137- **شليسفيغ وهولشتاين**: ماك إيليغوت، **قراءة ثانية**، ص، 78.

138- **وتلا ذلك الترشيد**: فيتس، **فايمار ألمانيا**، ص،152؛ جيمس، **"أسباب اقتصادية"**، ص، 31.

138- **1.3 مليون شخص**: ثيو بالدرستون، **السياسة والاقتصاد في جمهورية فايمار** (كيمبريدج: جامعة كيمبريدج، 2002). ص، 79.

138- **ارتفاع الأسهم في وول ستريت**: لياكوات أحمد، **سادة المال: المصرفيون الذين أفلسوا العالم** (نيويورك: بينغوين، 2009)، ص، 324-25.

139- **وكتبت المؤرخة الدبلوماسية المعروفة**: ستينر، **الأضواء التي خفتت**، ص،641.

139- **خدم برونغ**: بايتا، **فايمار**، ص، 99.

139- **"يعطيك الثقة والتعاطف"**: فرنسوا-بونسيه، **السنوات الحرجة**، ص، 4.

140- **أكثر عبثية وتطرفاً**: هاينريش برونغ، **مذكراتي 1918-1034** (شتوتغارت: مؤسسة دويتشه للنشر، 1970)، ص، 243.

140- **من البداية**: المرجع السابق، ص،211.

141- **في نهاية خريف 1931**: المرجع السابق، ص، 247.

141- **تأثير كفاءة برونغ**: ويليام ل. باتش، **هاينريش برونغ وتفكك جمهورية فايمار** (نيويورك: جامعة كيمبريدج، 1998)، ص، 136.

141- **وعلى مائدة عشاء**: شترينغه، **شلايشر**، ص، 63؛ تريفيرانوس، **فايمار**، ص،115؛ برونغ، **مذكراتي**، ص، 150-51.

142- **أوضح أن حكومته**: شترينغه، **شلايشر**، ص،67؛ **أعمال مستشارية الرايخ: حكومتا برونغ الأولى والثانية (1930-1932) (لاحقاً أعمال حكومتي برونغ)** إعداد :تيلمان كوبس (بوبارد آم رين: بولت للنشر، 1982)، **مفاوضات الرايخستاغ** 427: 4727-4730.

143- **انتخابات أيار/ مايو 1928**: يورغن فالتر، **الانتخابات والأصوات في جمهورية فايمار** (ميونيخ: سي. هـ. بيك، 1986)، ص، 90 و100 و111.

143- **أن النازيين كانوا يحصدون**: فريتسشه، **الألمان**، ص، 173.

143- **وفي نهاية حزيران/ يونيو 1930**: هيرمان غرامل، **بين شتريزيمان وهتلر: السياسة الخارجية لحكومات برونغ، وبابن، وشلايشر الرئاسية** (ميونيخ: ر. أولدينبورغ للنشر، 2001)، ص، 48-53.

144- **في الخريف الذي سبق**: رايت، **شتريزيمان**، ص، 476.

145- **وفي الوقت الذي كان باستطاعة بريان متابعة**: فرديناند سيبرت، **أيرستيد بريان: رجل دولة بين فرنسا وأوروبا** (إيرلينباخ-زيوريخ: يوجين رينتش للنشر، 1973)، ص، 545-547.

146- **في اجتماع للحكومة**: **أعمال حكومتي برونغ**، مجلد 1 وثيقة، 68.

146- **معظم الدول الأوروبية**: سيبرت، **بريان**، ص، 553.

146- **بعضاً من أخلص مؤيديه إجراءات قاسية**، سي. إدموند كلينغان، **حياة هانس لوثر، 1879-1962: مستشاراً لألمانيا، ورئيساً لبنك الرايخ، وسفيراً لهتلر** (لانهام ميرلاند: لينغكستون، 2010)، ص، 87.

147- **وبعد بضع سنوات**: موللر، **وجدت الوطن الحقيقي**، ص، 349.

4- مستشار الجوع

149- **"طردتهم المكننة":"حدائق لاوبينكولوني فليسينيك"**، روتي فانه، كانون الأول/ يناير، 1932.

149- **يسير رجل يُدعى يوهان بانوسكر**: المحفوظات الفدرالية برلين-ليشترفيلد رقم 66804/ 22 آدم **والرفاق، الحكم**، كانون الأول/ ديسمبر 1932، ص، 23-35.

150- **ففي ليلة الثامن عشر من كانون الثاني/ يناير... ويموت على الفور**: المرجع السابق.

151- **في الساعات القليلة المتبقية**: أدولف هتلر، **والخطب والكتابات والأوامر 1925-1933 (لاحقاً هتلر، الخطب)** 3:3، إعداد: كريستيان هارتمان (ميونيخ: ك. ج. ساور،1995) ص، 418-419.

152- **ذكر إرنست هانفشتينغل... منصب رئيس قسم الصحافة الأجنبية في الحزب**: إرنست هانفشتينغل، **بين الأبيض والبني، هاوس: مذكرات المهووس السياسية** (ميونيخ: ر. بايبر للنشر، 1970) ص، 207.

152- **قال رودولف هيس**: أولريخ، **هتلر**، ص، 231.

153- **"يوماً أسوداً لألمانيا"**: كيسلر، **يوميات**، ص، 677-678.

153- **تيا شتيرنهايم... بيلا فروم**: أولريخ، **هتلر**، ص،233؛ بيلا فروم، **دمٌ وولائم: يومية اجتماعية** (نيويورك: هاربر أند برذرز، 1942) ص، 25.

153- **السفير البريطاني هوراس رامبولد**: ميكاليس وآخرون، **الأسباب والعواقب**، 8: 93.

153ـ **كان أمراً "وحشياً"**: فريتسشه، **الألمان**، ص، 150.

153ـ **حزب الدولة**: ميكاليس وآخرون، **الأسباب والعواقب**، 8: 92.

153ـ **وعندما افتتح البرلمان الجديد**: بيلا فروم، **دمٌ وولائم**، ص، 25.

154ـ **ولم يكن الليبراليون وحدهم**: بالدرستون، **السياسة والاقتصاد**، ص،48؛ أحمد، **سادة المال**، ص،400، توماس فيرغسون وبيتر تيمين، **"صنع في ألمانيا: أزمة العملة الألمانية في تموز/ يوليو 1931"** معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، أوراق عمل كلية الاقتصاد، شباط/ فبراير2001، ص، 12.

154ـ **وجاءت ردة فعله**: سيبرت، **بريان**، ص، 562.

155ـ **فالنازيون مثلهم مثل جميع السياسيين**: **تشريح الفاشية** (نيويورك: فينتيج، 2004)، ص، 83ـ84.

156ـ **"اختفاء رونق المحكمة الإمبراطورية"**: **برلين وبيئاتها**، الطبعة السادسة (لايبزيغ: كارل باديكر، 1923)، ص، 50.

156ـ **أن تهيمن معاداة السامية**: نواكيس وبريدام، **ألمانيا النازية**، 1: 14ـ16.

157/158ـ **"نطالب بحرب قانونية"**: المرجع السابق، 1: 15ـ16.

159ـ **"إن الكنيسة محايدة سياسياً"**: كارل فيلهلم دام، **القس والسياسة** (كولن: فستدويتشر للنشر، 1965)، ص، 104ـ109. أسجل امتناني لكاي فولتيرينغ لهذه الاقتباسات، حول البروتستانت في فايمار، وشرحه للتركيبة العامة للبروتستانت الألمان.

160ـ **لم يكتف الديموقراطيون الاجتماعيون**: كارل فيلهلم دام، "البروتستانتية الألمانية والسياسة 1918ـ1939" **مجلة التاريخ المعاصر** 3، العدد 1 (كانون الأول/ يناير 1968): 33.

160ـ **"إن التحالف بين التنوير المادي والديموقراطية"**: ر. سيبيرغ، اقتباس في المرجع السابق، ص، 40.

160ـ **هناك قصيدة يجري تداولها**: فيكتوريا بينيت، **من أجل روح**

الشعب: بروتستانت يحتجون ضد هتلر (نيويورك: جامعة أوكسفورد، 1992)، ص، 16.

160ـ **أوتو ديبليوس تفاخر**: مايكل فيلت، **مجتمع الشعب عند هتلر وديناميكية الإقصاء العنصري: العنف ضد اليهود في المقاطعات الألمانية 1919ـ1939**، ترجمة: بيرنارد هيس (نيويورك، بيرغاهن، 2012)، ص، 84.

161ـ **"كنيسة الشعب"... "في الثقافة الحديثة"**: ريتشارد كارفيل، **السياسة والمسيحية عبر العصور** 9 (1931): 520 و530ـ31. أنا ممتن لداغمار هرتسوغ على هذا المرجع.

161ـ **حتى في ما رفضه كارفيل**: داغمار هرتسوغ، في حديث مع المؤلف، شباط/ فبراير 2017.

162ـ **حتى بعد سنوات**: خواكيم فيست، **التخطيط لاغتيال هتلر: قصة المقاومة الألمانية** (نيويورك: متروبوليتان للنشر، 2006)، ص، 316.

162ـ **بطل المقاومة ضد النازية القس مارتن نيمولر**: مارتن نيمولر **خطاب كانون الأول/ ديسمبر** (ص 249) 1946، ميكروفيلم رقم: 252، تسجيلات حقبة الحرب العالمية الثانية، جامعة ويتشستر، كلية ييل للاهوت. مع امتناني لكاي فولتيرينغ على هذا المرجع.

162ـ **كان كارفيل يعتقد**: كارفيل، **السياسة والمسيحية**، ص، 531.

162ـ **بيد أن العديد من البروتستانت**: المرجع السابق، ص، 519ـ 20.

163ـ **مشردين سياسياً**: ريكر، **هتلر 9 تشرين الثاني/ نوفمبر**، ص، 115.

163ـ **وبعد نهاية الحرب**: فريتسشه، **الألمان**، ص،111، وبعد نقاش دار حول فريتسشه.

164ـ **"للموقف الصحيح"..." الحركات السياسية الشعبوية"**: المرجع السابق، ص، 182 و200، وبشكل عام، بايتا، **هيندنبورغ**، ص، 583ـ584.

164ـ **ففي عموم أوروبا، لم تبرز الفاشية**: باكستون، **تشريح الفاشية**، ص، 81.

165ـ **ولفترة طويلة أوائل العشرينيات**: نقاش حول فريتسشه، **الألمان**.

166- **"لن يكون في مصلحة الشعب الألماني... عواقب على أوروبا"**: هتلر، **الكتاب الثاني**، ص، 24-25.

167- **بيرنهارد فون بيولوف**: هيرمان غرامل، **بيرنهارد فون بيولوف والسياسة الخارجية الألمانية. العجرفة وسياسة العين بالعين في وزارة الخارجية** (ميونيخ: أولدنبورغ، 2012) ص، 33-34.

167- **وبلغة مبسطة**: أحمد، **سادة المال**، ص،11-13. العمل المميز حول عمليات معيار الذهب ما بين الحربين باري أيتشنغرين، **الأغلال الذهبية: معيار الذهب والكساد الكبير 1919-1939** (نيويورك: جامعة أوكسفورد، 1992). مع امتناني للبروفسور آيتشنغرين، والبروفسور بنجامين فريدمان، والبروفسور إدموند كلينغان على نصائحهم حول هذا الموضوع.

168- **في عالم ما بعد الحرب الكبرى**: توتسه، **الطوفان**، ص، 487- 488.

168- **فطبقاً لخطة داوس 1924**: أحمد، **سادة المال**، ص، 325.

169- **ومما حدَّ على نحو أكبر من قدرة ألمانيا**: كلينغان، **حياة هانز لوثر**، ص، 98.

169- **وفي خطاب ألقاه عام 1930**: ميكاليس وآخرون، **أسباب وعواقب**، 8:118. لوثر، مُقتَبساً من كلام المصرفي كارل ملكيور.

169- **وزير الدولة للشؤون الخارجية بيرنهارد فون بيولوف**: غرامل، **بيولوف**، ص، 33-34.

169- **من جانبه شدد برونئغ**: ميكاليس وآخرون، **أسباب وعواقب**، 8: 109.

169- **هذه النظرة المتشددة**: المرجع السابق، 8: 118.

170- **الصحفي اليميني المتطرف**: المرجع السابق، 8: 5.

170- **الاقتصادي الليبرالي إيميل ليديرر**: المرجع السابق، 8: 7.

170- **رئيس إدارة الدعاية في الحزب الماكر جوزيف غوبلز**: المرجع السابق، 8: 7-8.

171- **كان شتراسر قائداً نازياً**: بيتر د. ستاتشورا، **غريغور شتراسر وصعود النازية** (لندن: جورج آلن وأنوين، 1983) ص، 3.

171- **وُلِدَ شتراسر**: المرجع السابق، ص، 12-13.

172- **لكن شتراسر عاد من الحرب**: المرجع السابق، ص، 14.

172- **وأصبح ذلك الخطاب، ولا يزال، مشهوراً**: **مفاوضات الرايخستاغ**، 2511:446.

173- **وجادل شتراسر أن النازيين يريدون إنقاذ الاقتصاد الريفي**: المرجع السابق، 446: 2520.

173- **غوتفريد تريفرانوس**: غرامل، **بين شتريزيمان وهتلر**، ص، 53.

174- **بيرنهارد فون بيولوف**: غرامل، **بيولوف**، ص، 92.

174- **أدت نهاية الحرب الكبرى إلى أزمة لاجئين**: آن ماري هـ. سامارتينو، **الحدود المستحيلة: ألمانيا والشرق 1913-1922** (إيثاكا، نيويورك: جامعة كورنيل، 2010). ص، 2 و120.

174- **هذه الأزمة**: المرجع السابق، ص، 10.

174- **عدد ملحوظ**: هتّ، **حريق الرايخستاغ**، مايكل مان، **"هل كان جناة التطهير العرقي، أناساً عاديين أم نازيين حقيقيين"؟** دراسات الهولوكوست والتطهير العرقي 14، العدد 3 (2001): 331-366.

175- **وفي عام 1928**: روزنهافت، **هزيمة الفاشية**، ص، 30.

175- **وبما أن الحزب الشيوعي كان ضخم العدد**: هيرمان ويبر، **التحول من الشيوعية الألمانية: ستالينية الحزب الشيوعي في جمهورية فايمار** (فرانكفورت: مؤسسة أيروبيش للنشر، 1971) ص، 362-364.

176- **ووافق هتلر على ذلك بشكل كامل**: هتلر، **مذكرة هورسباخ، في** نواكيس وبريدام، **النازية**، 3:74-75.

176- **استخلصوا الدروس**: لودندورف، **أمة في حرب**.

177- **وكما يُزعم، جاءت أقوى تلك التأثيرات**: ستيفان آيريغ، **أتاتورك في المخيلة النازية** (كيمبريدج ماساتشوستس: جامعة هارفارد، 2014)، ص، 223.

178- **وكان النازيون معجبين**: المرجع السابق، 224.

178- **ما بين 1920 و1923... ووليد هذه المؤامرة**: مايكل كيلوغ، **الجذور الروسية للنازية: المهاجرون البيض وصناعة القومية الاشتراكية 1917-1945** (كيمبريدج: جامعة كيمبريدج، 2005)، ص، 1-4.

179- **"احتراماً عميقاً"**.... **"الألماني الشيوعي"**: بيتر لونغريتش، **غوبلز: سيرة ذاتية**، ترجمة: آلان بينس وآخرون (نيويورك: راندم هاوس، 2015)، ص، 26 و29.

179- **وخلال مسيرته السياسية**: كيرشو، **الغرور**، ص، 180-82.

179- **غيوسيبي رينيزيتي**: هانس فولر، **"حساب السلطة السياسية أم التقارب الأيديولوجي؟ حول مسألة العلاقة بين موسوليني وهتلر"**، في وولف غانغ بينتس وآخرون، إعداد، **الاشتراكية القومية: دراسات عن الأيديولوجية والقاعدة** (فرانكفورت: فيشر تاشينبوخ للنشر، 1993) ص، 46.

179- **كان هناك اتصالات واسعة**: المرجع السابق، ص، 52.

179- **كان موسوليني يريد حكومة**: المرجع السابق، ص، 52-54.

179- **بات رينيزيتي مقتنعاً**: المرجع السابق، ص، 54-60.

180- **ولم يكن ذلك الثمن**: فينبيرغ، **مقدمة إلى هتلر، الكتاب الثاني**، ص، 14-21.

180- **وخلال الحملة الانتخابية عام 1928... هتلر عقد صفقة مع ميغليوراتي**: دوغلاس ج. موريس، **العدالة مُهددة: المحامي المعارض للنازيين ماكس هيرشبيرغ في فايمار ألمانيا** (آن أربور: جامعة ميتشغان، 2005)، ص،254-72؛ آلن كاسيلز، **بدايات دبلوماسية موسوليني** (برينستون: جامعة برينستون، 1970)، ص، 171-72.

181- **وتطابَق التأييد للنازيين في ألمانيا**: باكستون، **تشريح الفاشية**، ص، 80-81.

182- **بقدر ما كانت رد فعل دولي**: آيريغ، **أتاتورك**، ص، 228؛ كيلوغ، **الجذور الروسية**، ص، 1.

182- **غير أن برونغ كان يرى**: باتش، **برونغ**، ص، 151.

183- **وفي كانون الأول/ ديسمبر 1930**: برونغ، **مذكراتي**، ص، 222- 224.

183- **وبغض النظر عن مؤشرات ضعيفة على تحسن الاقتصاد**: فيرغسون وتيمين، **"صنع في ألمانيا."** ص،31.

183- **ففي اجتماع للحكومة**: هاينريش أوغست فينكلر، **فايمار 1918-1933: تاريخ أول ديموقراطية ألمانية** (ميونيخ: سي. هـ. بيك، 1993)، ص، 405.

184- **ومن هذه الصورة الكالحة**: فيرغسون وتيمين، **"صنع في ألمانيا"**، ص، 18-19.

184- **وبينما كانت المباحثات تمضي قُدماً**: غرامل، **بين شتريزيمان وهتلر**، ص،81 و152-53.

185- **فقد منحه الركود الاقتصادي فرصة**: المرجع السابق، ص، 77-79.

185- **في 21 آذار/ مارس 1930**: فينكلر، **فايمار**، ص، 405؛ برونغ، **مذكراتي**.

185- **وتعالت الصرخات في فرنسا**: فينكلر، **فايمار**، ص، 406.

186- **بالعودة إلى برونغ، كان هذا الأخير أذكى**: من النقاشات المقنعة والذكية لهيرمان غرامل في **بين شتريزيمان وهتلر**، ص، 97.

186- **أولاً أنها أثبتت مجدداً**: طرح بويس هذه النقطة في **أزمة ما بين الحربين**، ص، 310.

186- **ثانياً، كان برونغ قادراً على لعب**: فيرغسون وتيمين، **"صنع في ألمانيا"**، ص، 155.

186- **وفي 6 حزيران/ يونيو**: فيرغسون وتيمين، **"صنع في ألمانيا"**، ص.34؛ فينكلر، **فايمار**، ص، 408.

187- **وكان هناك أساساً شائعات**: فيرغسون وتيمين، **"صنع في ألمانيا"**، ص، 36.

187- **وفي نفس اليوم**: باتش، **برونـنغ**، ص، 160-162.

187- نجح برونـنغ في **زيارته إلى تشيكرز**: برونـنغ، **مذكراتي**، ص، 413.

188- **السفير الأميركي ساكيت ونظيره البريطاني**: باتش، **برونـنغ**، ص، 156.

188- **كان هناك العديد من المسؤولين في إدارة الرئيس هوفر**: فينكلر، **فايمار**، ص، 415.

188- **لا شك أن إنهاء العمل بنظام التعويضات**: من نقاش فيرغسون وتيمين، "**صنع في ألمانيا**".

188- **في البداية، أفلس أحد المصارف الكبرى**: باري إيتشنغرين، **قاعة المرايا: الركود الكبير، والكساد الكبير، استخدام - وسوء استخدام - التاريخ** (نيويورك: جامعة أوكسفورد، 2015) ص، 142- 143 و149-151.

189- **كان وحكومته**: باتش، **برونـنغ**، ص، 201 و219.

189- **لم تشعر حكومة برونـنغ**: المرجع السابق، ص، 201-204.

190- **من أين يمكن تأمين المال اللازم لتحقيق هذا الهدف؟**: لا يزال رد برونـنغ على الركود الكبير موضع سجال بين المختصين. بدأ هذا السجال مع كنوت بورشارت في السبعينات، عندما عارض النظرية الكينزية المتشددة في الاقتصاد التي كانت لا تزال سائدة في ذلك الحين، بقوله إنه لم يكن أمام برونـنغ أي خيار آخر سوى الطريق الذي سلكه، لأن اقتصاد فايمار كان مريضاً، وكان مستحيلاً على الحكومة اقتراض المال. إلا أن مختصين آخرين، مثل فيرغسون، وتيمين، عارضوا هذا الطرح، بتحميل خيارات برونـنغ السياسية، مسؤولية استحالة إيجاد حل لمشاكل الحكومة المالية. وقد اتبعتُ في ما طرحته حول هذا الموضوع فكرة فيرغسون وتيمين، "**صُنعَ في ألمانيا**"، وإدموند كلينغان، **التمويل من القيصر إلى الفوهرر: سياسات الميزانية في ألمانيا 1912-1934** (ويستبورت كونيكتيكيت: غرينوود، 2001)، وكلينغان، **هانز لوثر**. راجع أيضاً كنوت بورشارت، **وجهات نظر في تاريخ الاقتصاد والسياسة الألماني الحديث**، ترجمة: بيتر لامبرت (كيمبريدج:

جامعة كيمبريدج، 1991)، وعلى الأخص الفصول 9 و10 و11؛ إيتشنغرين، **الأغلال الذهبية وقاعة المرايا**، بويس؛ **أزمة مابين الحربين**.

190- **معيار الذهب**: توتسه، **الطوفان**، ص، 503-502.

191- **وسرعان ما شعر برونغ بعد ذلك**: برونغ، **مذكراتي**، ص، 293.

191- **"برلين بحاجة للإثارة"**: جوزيف غوبلز، **الكفاح من أجل برلين: البداية** (ميونيخ: إيهير للنشر، 1934)، ص، 28.

192- **واعترف غوبلز**: المرجع السابق، ص، 21.

193- **"كانت آلات الطباعة"**: المرجع السابق، ص، 27.

193- **بدءاً من العام 1930**: يعتمد جزء كبير من النقاش حول العنف السياسي في برلين على روزنهافت، **هزيمة الفاشية**، باميلا إي. سويت، **جيران وأعداء: ثقافة التطرف في برلين** (كيمبريدج: جامعة كيمبريدج، 2004)؛ هِتّ، **استجواب هتلر**، وهِتّ، **حريق الرايخستاغ**.

195- **الهجوم على مجمع الحدائق في فيليسنيك**: هِتّ، **استجواب هتلر**، ص، 149-150.

195- **الطبقة الوسطى الملتزمون باحترام القانون**: ريتشارد بيسيل، "العنف كوسيلة للدعاية،" فيتوماس تشايلدرز، **تشكيل الدائرة الانتخابية النازية 1919-1933** (لندن:كروم هيلم، 1986)، ص، 131- 146.

195- **ففي جلسة للرايخستاغ عُقدت في أيار/ مايو: مفاوضات الرايخستاغ**، ص، 2486:446.

195- **أثار موجة من الغضب العارم**: ميكاليس وآخرون، **أسباب وعواقب**، 398:8.

196- **إرنست ليمير**: المرجع السابق، 8: 399.

196- **أكثر الردود صراحة وانتقاداً**: المرجع السابق، 8: 400.

196- **بات واضحاً وبشكل متزايد**: سويت، **جيران وأعداء**.

197ـ **وفي تشرين الأول/ أكتوبر**: هيرمان بيك، **التحالف المشؤوم: المحافظون الألمان والنازيون في 1933 الاستيلاء على السلطة في قراءة جديدة** (نيويورك: بيرغاهن، 2008)، ص، 72ـ73.

197ـ **كتب غوبلز في افتتاحية صريحة**: بيك، **التحالف المشؤوم**، ص، 72ـ73.

197ـ **ولم يكتف غوبلز... آراؤه الخاصة عن اجتماع باد هارتسبورغ جارحة**: مفكرة 12 تشرين الأول/ أكتوبر، 1931، الجزء 1، المجلد 2/ 2، ص، 122ـ123.

5ـ حالة الطوارئ

199ـ **سنخوض حربنا**: جوزيف غوبلز، مفكرة 1 آذار/ مارس، 1932، الجزء 1 المجلد 2/ 2، ص، 230ـ31.

201ـ **"سنضع النازيين في الحكم"**: فرانتس فون بابن، **الحقيقة زقاق** (ميونيخ: بول ليست، 1952) ص، 187.

201ـ **"لا يمتلكون قدرة سوى الصلاة"**: **مدخل مفكرة شيفرن فون كورسيغك**، فيكارل ـ هاينتس مينوت، إعداد، **حكومة فون بابن** (بوبارد آم رين: بولت للنشر، 1989) (لاحقاً: **حكومة بابن**) الجزء 2 وثيقة 239 ب، ص، 1038.

202ـ **"فيما يتعلق بالقضايا الثقافية"**: برونغ، **مذكراتي**، ص، 379.

202ـ **الصحفي كونراد هايدن**: أوست، **العدو الأول لهتلر**، ص، 157.

203ـ **ولعل احداً من أسباب ذلك**: شترينغه، **شلايشر**، ص، 77ـ78؛ ميكاليس وآخرون، **أسباب وعواقب**، ص، 7:537ـ548.

203ـ **"شخص مثير للاهتمام"**: شترينغه، **شلايشر**، ص، 81.

203ـ **"تحرير الاقتصاد من القيود التي تكبله"**: فينكلر، **فايمار**، ص،422؛ **حكومة برونغ**، 2: 1470ـ1477.

204ـ **كما أن تعاوناً طويل الأمد**: فينكلر، **فايمار**، ص، 422.

205ـ **فقد كان يكره**: باتش، **برونغ**، ص، 184ـ185.

205ـ **ففي تموز/ يوليو 1931**: فينكلر، **فايمار**، ص، 422.

205ـ **عامل أخر على قدر كبير من الأهمية...." رجلي دولة حقيقيين"**: المرجع السابق؛ رايت، **شتريزيمان**، ص، 341.

206ـ **الهم الرئيسي بالنسبة إلى شلايشر**: باتش، **برونغ**، ص، 184ـ 185؛ فينكلر، **فايمار**، ص، 425.

206/ 207ـ **كان واضحاً بالنسبة لبرونغ**: برونغ، **مذكراتي**، ص، 386.

207ـ **وفي الواقع كانت هناك مؤامرة**: المرجع السابق، ص، 467ـ68.

207ـ **أجرى تعديلاً على حكومته**: شترينغه، **شلايشر**، ص، 83ـ84.

208ـ **كان هيندنبورغ شخصياً غير متحمس للترشح**: ويلر- بينيت، **العملاق الخشبي**، ص، 356.

208ـ **ورغبة منه في تسهيل الأمور**: برونغ، **مذكراتي**، ص، 518ـ19.

208ـ **إلا أن الخوذة الفولاذية**: فينكلر، **فايمار**، ص، 445.

209ـ **ثلاثة مرشحين**: المرجع السابق.

209ـ **إرنست هانفشتينغل على مخاطبته**: هانفشتينغل، **هتلر**، ص، 176 و196.

209ـ **ولم يقم هيندنبورغ بحملة انتخابية كبيرة**: فينكلر، **فايمار**، ص، 448.

210ـ **وكانت الهدنة الانتخابية... شهدتها ألمانيا في ذلك الحين**: المرجع السابق، ص، 452.

210ـ **اعتبر برونغ هذه الانتخابات**: باتش، **برونغ**، ص،247؛ فون دير غولتس، **هيندنبورغ**، ص، 153ـ54.

210ـ **أظهر تحليل لمعطيات التصويت**: فالتر، **ناخبو هتلر**، ص، 124ـ123.

210ـ **أما الآن فقد وجد هيندنبورغ**: باتش، **برونغ**، ص، 247.

211ـ **وعلى سبيل المجاملة الروتينية**: فينكلر، **فايمار**، ص، 414.

211ـ **لا يمكن لشخص عاقل ومطلع على الأحداث**: **حكومة برونغ**

692: 2؛ شترينغه، **شلايشر**، ص،90؛ فينكلر، **فايمار**، ص، 447- 448 و454.

212- **صُعق شلايشر**: شترينغه، **شلايشر**، ص، 89-94.

212- **وبدا بعضٌ من التوتر**: برونغ، **مذكراتي**، ص، 580.

213- **استغل شلايشر صلاته العسكرية**: باتش، **برونغ**، ص، 251- 52.

213- **ما كشفه فيلهلم فريك**: رودلف فيشر، **شلايشر: الخرافة والواقع** (هامبورغ: مؤسسة هانزه آتيشس للنشر، 1932)، ص، 10.

214- **لم يكن خافياً على أحد**: شترينغه، **شلايشر**، ص، 95.

214- **وفي رحلة بالسيارة أواخر نيسان/ أبريل**: المرجع السابق، ص، 547.

214- **طلب برونغ من غرونر**: المرجع السابق، 547-552.

215- **وعلى مدار شهري نيسان/ أبريل وأيار/ مايو**: جوزيف غوبلز، مفكرة 24 نيسان/ أبريل 1932، المجلد 1 الجزء 2/ 2، ص، 265؛ مفكرة 25 نيسان/ أبريل، 1932، المجلد 1، الجزء 2/ 2، ص، 268، مفكرة 26 نيسان/ أبريل 1932، المجلد 1، الجزء 2/ 2، ص، 268، مفكرة 27 نيسان/ أبريل 1932، المجلد 1، الجزء 2/ 2، ص، 269.

216- **"نحن نقف أمام قرار صعب"**: جوزيف غوبلز، مفكرة 27 نيسان/ أبريل 1932، المجلد 1، الجزء 2/ 2، ص 269، مفكرة 25 نيسان/ أبريل 1932، الجزء 1، الجزء 2/ 2، ص، 268.

216- **وفي 28 نيسان/ أبريل**: جوزيف غوبلز، مفكرة 29 نيسان/ أبريل 1932، المجلد1، الجزء 2/ 2، ص، 271،

216- **"أنه من المفترض أن يسقط برونغ"**: جوزيف غوبلز، مفكرة 9 أيار/ مايو 1932، المجلد 1، الجزء 2/ 2، ص، 276.

216- **وفي نفس اليوم**: فينكلر، **فايمار**، ص، 465، برونغ، **مذكراتي**، ص، 587.

216- **بعد ذلك، ضغط شلايشر**: شترينغه، **شلايشر**، ص، 106.

216- **"عندما يسقط الغطاء يسقط الدوق"**: جوزيف غوبلز، مفكرة 12 أيار/ مايو 1932، المجلد 1، الجزء 2/ 2، ص، 279.

216ـ **وفي 24 أيار/ مايو**: مفكرة 25 أيار/ مايو 1932، المجلد 1، الجزء 2/ 2، ص، 288.

217ـ **يوم الأحد 29 أيار/ مايو**: برونغ، **مذكراتي**، ص، 600.

217ـ **"انفجرت القنبلة"**: جوزيف غوبلز، مفكرة 25 و31 أيار/ مايو 1932، المجلد 1، الجزء 2/ 2، ص، 288ـ293.

217ـ **وُلِدَ بابن**: رينر أورت، **"مقر الإقامة الرسمي للمعارضة؟" السياسة وخطط إعادة هيكلة الدولة في مكتب نائب المستشار في عام 1933ـ1934** (كولن: بولاو، 2016) ص، 29ـ31.

218ـ **كانون الثاني/ يناير 1914**: المرجع السابق، ص، 33ـ334.

218ـ **وفي عرض لعدم الكفاءة**: المرجع السابق، ص، 34ـ335.

219ـ **وأُلْحِقَ عام 1917**: أيريغ، **أتاتورك**، ص، 103ـ119.

219ـ **عندما انتهت الحرب**: أورت: **"مقر الإقامة الرسمي،"** ص، 37.

219ـ **ترك بابن الجيش**: المرجع السابق، ص، 41ـ42.

220ـ **"أدرك جيداً حدود معرفتي"**: بابن، **الحقيقة**، ص، 185.

220ـ **"كان سعيداً بأن لا أحد من أصدقائه أو أعدائه كان يأخذه على محمل الجد"**: فرانسوا-بونسيه، **السنوات الحرجة**، ص، 23.

220ـ **على الرغم من أن بابن ادعى**: **بابن، الحقيقة**، ص، 184ـ 185.

220ـ **"بابن ليس رأساً"**: أورت: **"مقر الإقامة الرسمي"** ص، 55.

221ـ **ومع وجود سبعة أرستقراطيين**: فينكلر، **فايمار**، ص، 479.

221ـ **فقد أصدر في آب/ أغسطس أمرين تنفيذيين**: هِتْ، **استجواب هتلر**، ص، 129.

221ـ **كان برونغ يعتمد**: ماك إيليغوت، **قراءة ثانية لجمهورية فايمار**، ص، 193.

221ـ **كاتب المذكرات ثاقب النظر**: كيسلر، **يوميات**، ص، 709ـ710.

223ـ **وكلف المتآمرون الشاب دايلز**: أوتو إلى فريدريش فون بابن، كانون الأول/ ديسمبر 1949، معهد التاريخ المعاصر ز. س 279 يوجين أوت.

223ـ **حصل دايلز على الدليل**: هتّ، **حريق الرايخستاغ**، ص،31ـ 32.

224ـ **كان غوبلز قد عرف**: جوزيف غوبلز، مفكرة 20 تموز/ يوليو 1932، المجلد 1، الجزء 2/ 2، ص، 223ـ224.

224ـ **بيان رسمي**: هوبر، **التاريخ الدستوري**، 4:563.

224ـ **لكن وفي خطاب موجه للأمة أُذيع على الراديو**: فرانتس فون بابن، **خطاب إذاعي**، 20 تموز/ يوليو، 1933، متحف التاريخ الألماني، الأرشيف الإذاعي، **أصوات من القرن العشرين**، قرص مُدْمَج، 2001.

225ـ **وفي ليلة الانتخابات**: هتّ، **حريق الرايخستاغ**، ص، 82.

225ـ **وبلغت موجة العنف ذروتها**: دانييل سميننز، **قوات العاصفة: تاريخ جديد لفتيان هتلر ذوي القمصان البنية**، (نيوهافن: جامعة ييل،2017)، ص، 14ـ18.

226ـ **الأوامر التنفيذية القاسية**: هوبر، **التاريخ الدستوري**، 4: 547ـ77.

226ـ **وفي 11 آب/ أغسطس**: سميننز، **قوات العاصفة**، 15ـ18.

226ـ **ورَدَّ القادة النازيون**: المرجع السابق، ص، 19.

226ـ **وفي مقالة**: بيك، **التحالف المشؤوم**، ص، 81.

226ـ **كذلك أرسل غورينغ برقية**: سميننز، **قوات العاصفة**، ص، 19.

226ـ **وجاء توالي الأحداث**: ولفرام بايتا، **جمهورية فايمار**، (برلين: المركز الوطني للتعليم السياسي)، ص، 143.

226ـ **وبدا أن النازيين**: شترينغه، **شلايشر**، ص، 138.

227ـ **أقر القادة النازيون خطة**: آيرين شترينغه، **الاستيلاء 1933: كل شيء بطريقة قانونية؟** (برلين: دونكر وهمبلوت، 2002)، ص، 92 و98.

227ـ **فاستناداً إلى المادة 43**: هوبر، **التاريخ الدستوري**، 4: 158 و4: 160.

228ـ **يتذكر برونـنـغ**: هاينريش برونـنـغ، **"خطـاب"**، **دويتشـه روندشـاو** 70، العـدد 7 (1947): 13.

229ـ **بهتلـر الـذي كان قـد أعـد الخطـة**: جوزيـف غوبلـز، مفكـرة 5 آب/ أغسـطس 1932، المجلـد 1، الجـزء 2/ 2، ص، 333.

229ـ **عندمـا قـدم شلايشـر الخطـة**: **حكومـة بابـن**، وثيقـة 99 مرقمـة 4، ص، 380؛ شـترينغه، **شلايشـر**، ص، 134.

229ـ **وفي 10 آب/ أغسطس**: **حكومة بابن**، وثيقة 99، ص، 378ـ386.

231ـ **"الرجـل العجـوز متردد"**: جوزيـف غوبلـز، مفكـرة 12 آب/ أغسـطس 1932، المجلـد 1، الجـزء 2/ 2، ص، 338.

231ـ **"الضعـف بدأ يصيب بابـن"**: جوزيـف غوبلز، مفكرة 11 آب/ أغسـطس 1932، المجلد 1، الجزء 2/ 2، ص، 337.

231ـ **أن الجميـع، بابـن وشلايشـر ومايسـنر، كانـوا يريـدون هتلـر**: جوزيـف غوبلـز، مفكـرة 12 آب/ أغسـطس 1932، المجلـد 1، الجـزء 2/ 2، ص، 338.

231ـ **حـان وقـت اتخـاذ القـرار**: جوزيـف غوبلـز، مفكـرة 13 آب/ أغسـطس 1932، المجلـد 1، الجـزء 2/ 2، ص، 339.

231ـ **وعنـد السـاعة الثالثـة مـن عصـر ذلـك اليـوم**: جوزيـف غوبلـز، مفكـرة 14 آب/ أغسـطس 1932، المجلد 1، الجزء 2/ 2، ص، 340.

232ـ **افتتح هيندنبورغ الحديث**: **حكومة بابن**، وثيقة 101، ص، 391ـ392.

233ـ **ويظهر هذا التهديد بشكل واضح**: شترينغه، **الاستيلاء**، ص، 78.

233ـ **ظن هتلر أن شلايشر**: شترينغه، **شلايشر**، ص، 135.

233ـ **بمسـاعدة قيّمـة**: **"كارل شميت في أزمـة الرايخ في جمهوريـة فايمـار،"** في هيلمـوت كوارتيـش **وحـدة الأضـداد: محاضـرات ومسـاهمات في مناقشـة مـن الحلقـة الدراسـية الخاصـة الثامنـة والعشـرون لعـام 1986 جامعـة العلـوم الإداريـة شـباير** (برلـين: دونكـر وهمبلـوت، 1988)، ص، 33ـ77.

233ـ **وفي اجتماع عُقد في 30** آب/ **أغسطس: حكومة بابن**، وثيقة، 120، ص، 474ـ79؛ شترينغه، **شلايشر**، ص، 143.

234ـ **كشف فيها غورينغ عن مؤشر جديد على الاستراتيجية الجديدة للنازيين**: شترينغه، **الاستيلاء**، ص، 103.

235/234ـ **فرنسوا بونسيه بلسانه اللاسع**: فرنسوا-بونسيه، **السنوات الحرجة**، ص، 38ـ39.

236ـ **"الآن سنتحول إلى الهجوم"**: نواكيس وبريدام، **النازية**،1: 106.

236ـ **وفي تشرين الأول/ أكتوبر: الجمعية، "المحفوظات الاتحادية برلين-ليشترفيلد** رقم 8005 المجلد 60.

236ـ **"هل تحب اللعب؟"**: شترينغه، **شلايشر**، ص، 163.

236ـ **في إحدى المرات**: المرجع السابق، ص، 171.

237ـ **كان شلايشر على الأرجح يتوقع**: المرجع السابق، ص، 172ـ 173.

237ـ **شلايشر كان قد سمع**: المرجع السابق، ص، 178.

237ـ **خطرت على بال أحدهم**: بابن، **الحقيقة**، ص، 243ـ244.

238ـ **عندئذ انبرى شلايشر للإدلاء برأيه**: المرجع السابق، ص،244. إن كل ما يتعلق بما كان يخطط له شلايشر، عندما أصبح مستشاراً، يبقى قضية مثيرة للجدل. هنري أ. تيرنر، على سبيل المثال، يرفض الفكرة القائلة بأن شلايشر كان يهدف إلى إحداث انقسام في صفوف النازيين من خلال توزير شتراسر في حكومته. (تيرنر، **"خرافة استراتيجية الجنرال فون شلايشر بشأن الجبهة العريضة"**، تاريخ أوروبا الوسطى 41 [2008]: 673ـ681). يشير تيرنر إلى أن المصدر الوحيد لما طرحه شلايشر، بخصوص هذه الإستراتيجية في اجتماع 1 كانون الأول/ ديسمبر، هي مذكرات بابن التي غالباً ما كانت غير أمينة. وفي الحقيقة، ذُكرت هذه النقطة في الملاحظات التي سجلها مايسنر في الاجتماع، (هوبر، **التاريخ الدستوري**، 4:621) وكذلك أيضاً في مقالة، نُشرت في صحيفة **فوسيش**، "الجنرال،"، 11 كانون الأول/ ديسمبر، 1932، تعتمد على

الأرجح على معلومات مستقاة من شلايشر نفسه الذي كان على صلة جيدة بالصحيفة. وفي الثمانينيات، ذكر المؤرخ القانوني إرنست رودلف هوبر الذي كان طالباً ومن المقربين لكارل شميت، كيف شارك هو وشميت في بعض المفاوضات ذات الصلة باستراتيجية الجبهة العريضة (هوبر، **"كارل شميت في أزمة الرايخ"** 47). وعلى الرغم من أن مذكرات بابن غالباً ما تفتقر بالتأكيد للمصداقية، إلا أن وصفه لهذه النقطة كان صحيحاً. وكما يجادل تيرنر، إن فكرة محاولة شلايشر شق صفوف النازيين تجعله في موقع أفضل في نظر أسلافه، على العكس تماماً مما كان يسعى إليه بابن، وكما سنرى في الفصل التالي، يتوافق وصف بابن مع مصادر أخرى في نفس الفترة.

238ـ **أدهش اقتراح شلايشر**: بابن، **الحقيقة**، ص، 244.

239ـ **استمع هيندنبورغ**: المرجع السابق، ص، 244ـ245.

239ـ **جاء شلايشر إلى اجتماع الحكومة**: لوتس غراف شفيرين فون كورسيك، **مفكرة** 2 **كانون الأول/ ديسمبر**، 1932، **حكومة بابن**، مجلد 2 وثيقة 219 ب، ص، 103ـ138.

240ـ **أنصت المارشال**: بابن، **الحقيقة**، ص، 250.

6ـ العريف البوهيمي والفارس الجنتلمان

241ـ **ميليتا ماشمان ابنة الخمسة عشرة عاماً**: ميليتا ماشمان، **الحساب معلقاً: ملف ذاتي السابقة**، (لندن: أبيلارد ـ شومان، 1964)، ص، 9ـ12.

242ـ **ينتظر جوزيف غوبلز**: جوزيف غوبلز، مفكرة 31 كانون الثاني/ يناير 1933، المجلد 1، الجزء 2/3، ص، 120.

242ـ **المثقف المحافظ**: إدموند فورشباخ، **إدغار ي. يونغ. ثوري محافظ 30 حزيران/ يونيو، 1934** (فولينغن:غونتر نيسكه، 1984)، ص، 54.

242/243ـ **ويأتي الرد الأبلغ والأوجز**: بيرند كوستر، **ماكس ليبرمان، رسام** (هامبورغ: إيللر وريختر، 1988)، ص، 216.

243ـ **فبينما كان حاملو المشاعل يمرون**: فيرهيه، **روح** 1918، ص، 224.

243ـ **والآن يقف هيندنبورغ**: بايتا، **هيندنبورغ**، ص، 808.

244ـ **وكان من بين من التقاهم**: ستاتشورا، **شتراسر**، ص، 100.

245ـ **يتعين على الحكومة أن تكسب**: شترينغه، **شلايشر**، ص،137 و170ـ 80. كما ذكرت في الفصل السابق، لا يزال هناك جدل بين المؤرخين حول استراتيجية شلايشر. فقد كان أمراً مسلماً به، ولفترة طويلة، أن شلايشر، عند توليه منصب المستشار، سعى لتحقيق استراتيجية "الجبهة العريضة" التي كانت عناصرها المركزية تعتمد على بناء تحالف مع الديموقراطيين الاجتماعيين والنقابيين، وضم غريغور شتراسر إلى حكومته، واستخدام شتراسر لشق صفوف النازيين، واجتذاب ما يقارب ستين نائباً نازياً في الرايخستاغ، إلى أغلبية تساند حكومة شلايشر. إلا أن الأبحاث والدراسات التي جرت مؤخراً، شككت بصحة هذا التفسير. وكما رأينا، استند الدليل الذي قدمه هنري أ. تيرنر، بخصوص استراتيجية شلايشر، على مذكرات بابن غير الموثوقة. ولكن، ونظراً للعداوة التي كانت قائمة بين شلايشر وبابن، يبدو ما ورد في مذكرات الأخير منطقياً، كما تدعمه مصادر موثوقة أكثر، مثل تقرير السفير الفرنسي أندريه-فرنسوا بونسيه إلى باريس، في 29 تشرين الثاني/ نوفمبر، 1932 (انظر أدناه). وهناك عنصر أخر من المراجعات، يتصل بمذكرات جوزيف غوبلز. فقد نشر غوبلز نسخة معدلة من مذكراته عن هذه الفترة في عام 1934، بعنوان **من كايسرهوف إلى مستشارية الرايخ**. بعد نهاية الحرب الباردة، اكتُشفت المخطوطات الأصلية لمذكرات غوبلز في موسكو، ونُشرت في نسخة أكاديمية من قبل معهد التاريخ المعاصر عام 2006 في ميونيخ، فيما يخص مذكراته للعام 1932. ويرى بيتر لونغريتش، أحدث باحث في السيرة الذاتية لغوبلز، أنه وعلى الرغم من أن هذا الأخير يذكر صراحةً في مذكراته تقديم شلايشر عرضاً لشتراسر، بهدف إحداث انقسام داخل الصف النازي، إلا أن هذه المعلومة مفقودة في النسخة غير المعدلة للنص الأصلي لمذكراته للعام 1932. (يقول لونغريتش أيضاً إن نسخة **كايسرهوف** لمذكرة غوبلز، هي المصدر الوحيد لعرض شلايشر، مُهملاً بذلك مصادر أخرى مثل مذكرات بابن،

وتقرير فرنسوا-بونسيه في 29 تشرين الثاني/ نوفمبر، إضافة إلى تقاريره من كانون الثاني/ يناير 1933 التي نوقشت في النص الرئيسي من هذا الكتاب والتي تشير إلى أن شلايشر قدم بالفعل عرضاً كهذا لشتراسر). وبحسب لونغريتش كان شتراسر، في الوقت الذي نُشرت نسخة **كايسرهوف** (كانون الثاني/ يناير 1934)، قد بات خصماً سياسياً كان غوبلز يسعى للانتقام منه، وهذا ما دفعه للمبالغة بمزاعمه بخصوص شتراسر. بدون شك، إن مذكرات غوبلز بنسختيها، مثل مذكرات بابن تعج بطروحات غير صحيحة، ويجب قراءتها بطريقة نقدية. غير أن النقطة التي تتصل بشتراسر ليست قطعية الوضوح كما يرى لونغريتش، إذْ تُثبت مذكرات كانون الأول/ ديسمبر 1932، أن غوبلز كان واثقاً من أن شتراسر كان سينضم لحكومة شلايشر، ويحاول شق الحزب النازي. ففي مذكراته يوم 9 كانون الأول عن أحداث اليوم السابق، يقول غوبلز إن شتراسر "يريد أن يصبح وزيراً. **شلايشر... [وضع ذلك موضع التنفيذ" (التأكيد من عندي)**. لاحقاً وفي نفس الجزء من المذكرات: شتراسر "يريد أن ينضم لحكومة شلايشر. وسيسمع منه قريباً، هكذا يعتقد". في اليوم التالي، يكتب غوبلز: "فشل انقلاب شلايشر، نحن لسنا حزب الشعب، ولدينا تريفرانوس واحد" في إشارة إلى انقسام القوميين الألمان على يد غوتفرايد تريفرانوس احتجاجاً على قيادة هوغنبيرغ، ويبدو واضحاً أن ما كان يقصده غوبلز من عبارة تريفرانوس هو شتراسر الذي كان سيفشل في دفع آخرين للانفصال عن الحزب، مهما كانت لديه الرغبة للقيام بذلك. في هذه الحالة، من المرجح أن وصف شتراسر بـ "الخيانة" كما ورد في نسخة **كايسرهوف**، كان كشفاً للملاحظات التي سجلها غوبلز في تلك الفترة أكثر من كونه فبركة بعد اكتشاف الحقيقة. إجمالاً، إن الفكرة القائلة إن شلايشر سعى لتحقيق استراتيجية الجبهة العريضة، وحاول كسب شتراسر وآخرين من الحزب النازي، تبدو منطقية وتنسجم مع الأدلة. انظر لونغريتش، **غوبلز**، ص،194-95؛ جوزيف غوبلز، **من كايسرهوف إلى مستشارية الرايخ** (ميونيخ: فرانتس إيهر ناخف، 1938)، ص، 196-202؛ غوبلز، مذكرات فون جوزيف غوبلز، إعداد إيلكه فروليخ، الجزء 1 المجلد 3/ 2 (ميونيخ: ك. ج. ساور، 2006)، مذكرات 9 و10 كانون الثاني/ يناير 1932، ص، 77-79.

245ـ **لذلك كان غريغور شتراسر الحجر الأساس**: ستاشورا، **شتراسر**، ص، 10 و96ـ105.

246ـ **في 28 تشرين الثاني/ نوفمبر**: من فرنسوا- بونسيه إلى هيريوت، 29 تشرين الأول/ أكتوبر 1932، **وثائق دبلوماسية فرنسية** 1932ـ1939، الجزء الأول، المجلد الثاني (باريس: إمبريميير ناسيونال، 1966) ص، 89.

246ـ **تحدث شلايشر في اجتماع للحكومة**: أنتون غوليكي، إعداد، **حكومة فون شلايشر** (بوبارد آم رين، بولت، 1986)، وثيقة، 5.

247ـ **في حال تعاونتم**: شترينغه، **شلايشر**، ص، 183.

247ـ **كان قد التقى هتلر**: **حكومة بابن**، المجلد 2، وثيقة، 232.

247ـ **وفي جميع الاحتمالات**: شترينغه، **شلايشر**، ص، 183.

247ـ **وفي الحقيقة**: المرجع السابق، ص، 182.

248ـ **مباشرة بعد قبوله منصب المستشار**: **حكومة شلايشر**، وثيقة، 25.

249ـ **وفي 5 كانون الأول/ ديسمبر**: شترينغه، **شلايشر**، ص، 201.

250ـ **ويذكر غوبلز ذلك في مذكراته**: جوزيف غوبلز، مفكرة 9 كانون الأول/ ديسمبر، المجلد 1، الجزء 2/ 3، ص، 77ـ78. نص رسالة شتراسر في ستاتشورا، **شتراسر**، ص، 113ـ114.

250ـ **جاءت الأزمة**: كيرشو، **الغرور**، ص، 399ـ400.

250ـ **من جانبه**: ستاشورا، **شتراسر**، ص، 115.

251ـ **وبعد استقالته مباشرة**: المرجع السابق.

251ـ **وعلى الرغم من أن شتراسر لطالما أظهر**: المرجع السابق، ص، 116.

252ـ **"كان جولة أخرى من سوء الحظ وحسب"**: جوزيف غوبلز، مفكرة 24 كانون الأول/ ديسمبر،1932، المجلد 1، الجزء 2/3، ص، 89.

252ـ **يضمر في داخله الحقد**: جوزيف غوبلز، مفكرة 10 كانون الثاني/ يناير،1933، المجلد 1، الجزء 2/ 3، ص، 102ـ103.

252ـ **وذكر بابن**: بابن، **الحقيقة**، ص، 253ـ 254.

252ـ **ومما يتذكره شرودر**: فريهير فون شرودر، **التحقيق**، 18 حزيران/ يونيو 1947، معهد التاريخ المعاصر ز. س 557.

253ـ **"لقد صب عليَّ هتلر جام غضبه"**: **الحقيقة**، ص، 255ـ56.

253ـ **وبعد عدة أيام**: جوزيف غوبلز، مفكرة 10 كانون الثاني/ يناير،1933، المجلد1، الجزء 2/ 3، ص، 102ـ103.

254ـ **ففي اجتماع للحكومة في 16 كانون الثاني/ يناير**: **حكومة شلايشر**، وثيقة، 56، اجتماع مجلس الوزراء 16 كانون الثاني/ يناير.

254ـ **كذلك كان شلايشر لا يزال يتحدث مع شتراسر**: من فرنسوا- بونسيه إلى بول- بونكور، 7 كانون الثاني/ يناير1933، **وثائق دبلوماسية فرنسية 1932ـ1939**، الجزء الأول، المجلد الثاني ص، 375ـ 376.

256ـ **كان الفارق الوحيد**: كيرشو، **الغرور**، ص، 415.

256ـ **السفير المطلع والفطن دائماً**: من فرنسوا- بونسيه إلى بول- بونكور، 25 كانون الثاني/ يناير 1933، **وثائق دبلوماسية فرنسية 1932- 1939**، الجزء الأول، المجلد الثاني ص، 528 ـ529.

257ـ **شارك ريبينتروب**: خواكيم فون ريبنتروب، **مذكرات ريبنتروب** (لندن ويدنفيلد ونيكلسون، 1954)، ص، 1ـ15.

257ـ **وأثبتت هذه العلاقة جدواها في آب/ أغسطس 1932**: المرجع السابق، ص، 21.

258ـ **على مسامع الشاب هيندنبورغ**: تيرنر، **ثلاثون يوماً لوصول هتلر**، ص، 114ـ115.

258ـ **أبلغ بابن هتلر**: ريبنتروب، **مذكرات**، ص، 23؛ بابن، **الحقيقة**، ص، 256.

258ـ **وبعد صمت طويل**: تيرنر، **ثلاثون يوماً لوصول هتلر**، ص، 116.

258ـ **عندما التقى بابن**: ريبنتروب، **مذكرات**، ص، 23.

258ـ **أعده طاقم شلايشر: حكومة شلايشر**، وثيقة، 56، الملحق 2.

259ـ **لقاء على العشاء: "وثيقة موسكو"**، في تيرنر، **طريق هتلر إلى السلطة**، ص، 185.

259ـ **وقد يكون أمامها أكثر من ذلك**: تيرنر، **ثلاثون يوماً لوصول هتلر**، ص، 128ـ30؛ **"وثيقة موسكو"**، في تيرنر، **طريق هتلر إلى السلطة**، ص، 179.

259ـ **وفي 23 كانون الأول**: هوبر، **التاريخ الدستوري**، 4: 651.

260ـ **وحسب ما ذكره بابن**: بابن، **الحقيقة**، ص، 266.

260ـ **وفي 26 كانون الثاني/ يناير**: هوبر، **التاريخ الدستوري**، 4: 655. يشير هانس مومسن إلى أن هامرشتاين نقل إلى هيندنبورغ، ما مفاده أن الجيش كان يفضل حكومة برئاسة هتلر على حكومة برئاسة بابن- هوغنبيرغ، وهو ما رد عليه هيندنبورغ برفضه القاطع تسمية "العريف البوهيمي" مستشاراً. وتبدو فرضية مومسن منطقية، إلاأن محضر هامرشتاين للجلسة يناقضها. علاوة على ذلك، وبينما لا تضم النسخة الانجليزية لكتاب مومسن أية إشارة إلى المصادر، يقود المصدر الوارد في النسخة الألمانية التي تدعم تحليل مومسن القارئ إلى عمل يناقض التحليل بشكل واضح: تيلو فورغسلانغ، **الجيش، والدولة، والحزب النازي: دورهم في التاريخ الألماني 1930ـ1932** (شتوتغارت، مؤسسة دويتشه للنشر، 1962)، ص، 378ـ379، والذي يعطي انطباعاً بأن هامرشتاين "حَذَّرَ" هيندنبورغ من هتلر. كُتبت سجلات هامرشتاين عن الاجتماع عام 1935، أي في الفترة التي لم يكن خلالها يخضع لأية ضغوط لجهة إخفاء تأييده لهتلر. راجع مومسن، **صعود وسقوط ديموقراطية فايمار** (تشابيل هيل، جامعة نورث كارولاينا، 1988) ص،522ـ23؛ مومسن، **صعود وسقوط جمهورية فايمار 1918ـ1933** باللغة الألمانية (برلين: أولشتاين، 2009)، ص،361، 687 مرقمة 44.

260ـ **وفي نفس الفترة تقريباً**: تيرنر، **ثلاثون يوماً لوصول هتلر**، ص، 117.

261ـ **ففي 25 كانون الثاني/ يناير... في صبيحة 28 كانون الأول/ يناير**: ريبنتروب، **مذكرات**، ص،24ـ 25؛ بابن، **الحقيقة**، ص، 269.

261ـ **وفي نفس اليوم**: أوتو مايسنر، **وزير الدولة في ظل إيبرت وهيندنبورغ وهتلر** (هامبورغ: هوفمان وكامبه، 1950)، ص، 266.

262ـ **كتب فرانسوا ـ بونسيه في 24 كانون الثاني**: من فرنسوا ـ بونسيهإلى بول ـ بونكور، 24 كانون الثاني/ يناير1933، **وثائق دبلوماسية فرنسية 1932ـ1939**، الجزء الأول، المجلد الثاني ص، 504ـ505.

262ـ **كتبت صحيفة الديموقراطيين الاجتماعيين**: شترينغه، **الاستيلاء**، ص، 108ـ109.

262ـ **وجَّه المونسنيور لودفيغ كاس... رئيس حكومة مقاطعة بروسيا**: **التاريخ الدستوري**، 4: 649ـ650.

263ـ **يتذكر هاينريش برويننغ**: برويننغ، **"خطاب"**، ص، 15.

263ـ **وتعرض لانتقادات حادة**: بايتا، **فايمار**، ص، 151.

263ـ **صباح 28 كانون الثاني/ يناير**: **حكومة شلايشر**، وثيقة، 71.

264ـ **غادر شلايشر اجتماع الحكومة**: المرجع السابق، وثيقة، 72.

264ـ **قامت قبل رحيلها بالتوقيع**: تيرنر، **ثلاثون يوماً لوصول هتلر**، ص، 133.

264ـ **وفور استقالة شلايشر**: بابن، **الحقيقة**، ص، 69.

264ـ **غير أن أحد لم يكن يعلم بما سيحدث لاحقاً**: جوزيف غوبلز، مفكرة 29 كانون الثاني/ يناير، 1933، المجلد 1، الجزء 2/ 3، ص، 118.

265ـ **وعلى مدار يوم الأحد**: ريبنتروب، **مذكراتي**، ص، 26.

265ـ **في فندق كايسرهوف**: جوزيف غوبلز، مفكرة 30 كانون الثاني/ يناير،1933، المجلد 1، الجزء 2/ 3، ص، 119.

265ـ **هتلر وحاشيته**: المرجع السابق.

266ـ **حتى خلال هذا المرحلة**: أوتومايسنر، **وزير الدولة**، ص، 270.

266ـ **"وقع الحدث"**: جوزيف غوبلز، مفكرة 31 كانون الثاني/ يناير، 1933، المجلد 1، الجزء 2/ 3، ص، 120ـ21.

267ـ **"لقد وظفناه"**: فست، **هتلر**، ص، 528.

267ـ **وبعد أن نقل كافة التطمينات**: من فرنسوا- بونسيه إلى بول- بونكور، 30 كانون الثاني/ يناير 1933، **وثائق دبلوماسية فرنسية 1932-1939**، الجزء الأول، المجلد الثاني ص، 542-543.

268ـ **للنائب العام السابق للرايخ**: إيريك إيبرماير، **لأن اليوم هو لنا، ألمانيا: مذكرات شخصية وسياسية**، (هامبورغ: ب. زولناي، 1959) ص، 13.

268ـ **"المرحلة الأولى"**: جوزيف غوبلز، مفكرة 31 كانون الثاني/ يناير،1933، المجلد 1، الجزء 2/ 3، ص، 120-121.

7ـ التنسيق

269ـ **"أُعتقلتُ لأن الرايخستاغ احترق"... على وجهه المغطى بالدماء**: لينا هاغ، **حفنة من الغبار: مقاومة أمرأة 1933-1945** (فرانكفورت، فيشر تاشينبوخ، 1995)، ص، 8-15.

271ـ **وبعد بضعة أسابيع من اعتقال لينا هاغ: كتاب براون عن النار الرايخستاغ وهتلر الإرهاب**، صورة عن نسخة 1933 الأصلية (فرانكفورت، روديربيرغ، 1978) ص، 210-112. معظم المعلومات الواردة في هذا الكتاب، وتحديداً تلك التي تتناول حريق الرايخستاغ، غير موثوقة، إلا أن بعض ما ورد يستند على روايات أخرى، فيلهلم هوغنر، **المهووس العنيد: ذكريات النائب والمغتربين ورئيس الوزراء** (ميونيخ: آيسار، 1959) ص، 93.

272ـ **"من الأفضل أن تشيح بنظرك بعيداً"**: هاغ، **حفنة من الغبار**، ص، 23.

272ـ **وسرعان ما يتضح**: هتّ، **حريق الرايخستاغ**، ص، 69-71.

273ـ **بدستور رايخ هتلر**: إرنست فرانكيل، **الدولة المزدوجة، مساهمة في نظرية الديكتاتورية** (نيويورك: جامعة أوكسفورد، 1941) ص، 3.

273ـ **ولأن الحريق قدم خدمة كبيرة لنظام هتلر**: هتّ، **حريق الرايخستاغ**،

بنجامين كارتر هتْ "هذه القصة تدور حول شيء ما أساسي": مجرمون نازيون، وتاريخ، وذاكرة، وحريق الرايخستاغ" **تاريخ أوروبا الوسطى** 48، العدد 2 (حزيران/ يونيو 2015). 199-224. حتى سنوات قريبة خلت، ساد الاعتقاد بين المؤرخين بأن مارينوس فان دير لوبيه بالفعل تصرف بمفرده. ومن أهم الكتاب الذين تبنوا وجهة النظر هذه فريتس توبياس: انظر توبياس، **حريق الرايخستاغ: الأسطورة والواقع** (راشتات: جي. غروتيشه، 1962) الذي تُرجم إلى الانجليزية بعنوان مختصر، **حريق الرايخستاغ** (نيويورك، بوتنام، 1964). وقد وافق توبياس في وجهة نظره المؤرخ المهم هانس مومسن: مومسن، "**حريق الرايخستاغ وعواقبه السياسية**" (1964): 365. هناك كم هائل من الوثائق الأصلية التي توفرت منتصف التسعينيات، غيَّرَت النقاش حول هذا الموضوع، على أي حال، راجع، تحديداً، ماركوس غيبلر، **الجدل حول حريق الرايخستاغ: مشاكل المصدر والنماذج التأريخية** (ميونيخ: مارتن ميدنباور للنشر، 2010)؛ هنريش فيشر، "**المستجد في الجدل حول حريق الرايخستاغ**" في "**حريق الرايخستاغ أمام المحكمة العليا**" إعداد، ديتر ديسيروت (برلين: فيرلاغسغيسليشافت تيشلر، 2006)؛ ألكساندر باهار ويلفريد كوغل، **حريق الرايخستاغ: تاريخ الاستفزاز** (كولن: بابياروسا، 2013). في 2014، اكتشف المؤلف وثيقة تؤكد بشكل قطعي أن فريتس توبياس، أحد المسؤولين الكبار في استخبارات ألمانيا الغربية، اعتمد في كتابه على أوامر رسمية في إطار توجه لإعادة تأهيل ضباط الشرطة النازيين السابقين، وإنشاء دعاية فعالة إبان الحرب الباردة. كما أنه فبرك أدلة وابتزَّ مؤرخين كانوا معارضين له (راجع هتْ "**هذه القصة تدور حول شيء ما أساسي**"). طبعاً، لا يقر جميع المؤرخين بصحة الدليل الجديد، ولا حتى بدور توبياس في هذه الجدلية. انظر ريتشارد ج. إيفانز، "**المتآمرون**" "لندن لمراجعات الكتب" 8 أيار/ مايو، 2014، و"**رسائل**" مراجعات لندن 5 حزيران/ يونيو 2014، بالإضافة إلى الرد المطول للمؤلف على الرابط التالي:

.http://urban.hunter.cuny.edu/~hett /reichstag.html

276- **في آب/ أغسطس 1932**: هيرمان بوندر، **السياسة في مستشارية**

الرايخ. سجل سنوات 1929-1932، إعداد: تيلو فوغلسانغ (شتوتغارت: مؤسسة دويتشه للنشر، 1961) ص،141.

276- **آيرين شترينغه:** هذا المقطع يتبع للنقاش الوارد في كتاب شترينغه، **الاستيلاء**.

277- **لم تَسِرْ خطة النازيين لتولي السلطة:** درس النازيون، وبعناية فائقة، الطريقة التي تساعدهم في الاستيلاء على السلطة، وخططوا للعملية بطريقة قانونية تعرف بين المؤرخين باسم "التفسير الغائي"، وهو نوع من التفسير ظهر وساد في السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية مباشرة. بعدها، قوبلت هذه الطريقة بمنهجية جديدة وهي "التفسير الوظيفي". المؤرخون الوظيفيون، ومنهم مؤرخون كبار مثل مارتن بروتزات، وهانس مومسن، رفضوا وجهة النظر التي كانت تعتمد على فكرة "مركزية هتلر" لدى المؤرخين الغائيين، والتي رأوا فيها انعكاساً ساخراً للدعاية النازية حول عبقرية هتلر، واستشرافه البعيد للأحداث. ويركز الوظيفيون أكثر على تأثير البنى والمؤسسات، والأحداث غير المخطط لها، أو المتوقعة ونتائجها التي تُعزى في جزء منها إلى التنافس بين النازيين أنفسهم، وفي جزء آخر إلى استحالة التحكم بمسار الأحداث، حتى بالنسبة إلى حزب أو دولة استبدادية. بدأ السجال بين الوظيفيين والغائيين في الستينيات، وتسارع في السبعينيات والثمانينيات، واتخذ شكلاً حاداً وتركز في غالبيته على جوانب ألمانيا النازية. وفي التسعينيات تراجع السجال بين الطرفين عندما التقيا في منتصف الطريق، على الرغم من أن تياراً جديداً من "الغائيين الجدد" بدأ يظهر على الساحة في السنوات الأخيرة، ويمكن تصنيف عمل آيرين شترينغه في إطاره مع المؤرخ الأميركي تيموثي سنايدر. راجع على وجه الخصوص: تيموثي سنايدر، **أراضي الدم: أوروبا بين هتلر وستالين** (نيويورك، بيسيك، 2010).

278- **وتعرض الخطط مركزية الصدمة:** ميكاليس وآخرون، **أسباب وعواقب**، مجلد 8 ص، 377-79.

279- **ادعت جريدة "دير أنغريف" التابعة لغوبلز:** هتّ، **حريق الرايخستاغ**، ص، 67-68.

279- **وبعدها بفترة قصيرة**: جوزيف غوبلز، مفكرة 16 أيلول/ سبتمبر1931، الجزء1، المجلد 2/ 2، ص، 99-100.

279- **وبعد ستة أشهر**: مارتن شوستر، "قوات العاصفة في القومية الاشتراكية "الاستيلاء على السلطة" في برلين وبراندنبورغ 1926-1934" (برلين، أطروحة دكتوراه، 2005)

279- **وفي 29 كانون الثاني/ يناير**: جوزيف غوبلز، مفكرة 30 يناير، 1933، الجزء 1، المجلد 2/3، ص، 119.

279- **وفي 1 شباط/ فبراير**: جوزيف غوبلز، مفكرة 30 يناير، 1933، الجزء 1 المجلد 2/ 3، ص، 121.

280- **القائد الجديد للشرطة السرية رودلف دايلز**: دايلز، **لوسيفر ضد بروتاس**، ص، 131.

280- **ففي اجتماع للحكومة**: كارل هينتس مينوت، **حكومة هتلر** (بوبارد آم رين: بولت للنشر، 1939)، المجلد الأول، ص، 29-30.

280- **لقد قدم غوبلز مثالاً جيداً**: هت، **حريق الرايخستاغ**، ص، 49-47؛ دانيال سيمينز، **هورست فيسيل:موت وتشويه الاشتراكي القومي** (ميونيخ: سيدلر، 2009) ص، 96-98.

281- **إذ لا يوجد في مذكراته**: لونغريتش، **غوبلز**، ص، 289-90.

281- **كتبت سيدة من براونشفايغ**: هيدا كالشوفين، **أفكر كثيراً بك، عن المراسلات الهولندية الألمانية 1920-1949** (ميونيخ: لوخترهاند ليتيراتور، 1995) ص، 168.

281- **قال هاينريش بروننغ مستذكراً سنوات من الماضي**: بروننغ، **مذكراتي**، ص، 652.

282- **كان الإعلان التجاري نموذجه**: لونغريتش، **غوبلز**، ص، 81- 82.

282- **إدارة غوبلز وتسويقه لصورة هتلر**: باميلا إي سويت، **التسويق تحت راية الصليب المعقوف: الدعاية والثقافة التجارية في ألمانيا النازية**، (ستانفورد كاليفورنيا: جامعة ستانفورد، 2014)، ص، 42.

282ـ **وكان محترفو الإعلانات التجارية**: المرجع السابق، ص، 42ـ43.

283ـ **"كم رقيقة... هي تلك القشرة"**: هتّ، **موت في تيرغارتن**، ص، 154.

284ـ **هذه الأيديولوجية العنصرية كانت محط انتقاد في أوروبا**: مارك ماتسوفر، **قارة مظلمة: أوروبا القرن العشرين** (نيويورك: كنوبف، 1999)، ص، 101ـ102.

285ـ **الكاتب القومي المحافظ**: إدغار يوليوس يونغ، **تفسير معنى الثورة الألمانية** (أولدنبيرغ: غارهارد شتولنغ، ص، 42ـ43 و46.

285ـ **ومن خلال حدسه الفطري، توصل دروكر**: بيتر ف. دروكر، **نهاية رجل اقتصادي: دراسة الاستبدادية الجديدة** (نيويورك: جون داي، 1939) ص، 18ـ19.

286ـ **وجاء أفضل تفسير**: المرجع السابق، ص، 13ـ14.

286ـ **"فلم تنجح النازية في تنفيذ مهمتها إلا عبر معجزة"**: المرجع السابق، ص، 84.

286ـ **وعندما حقق النازيون**: ميكاليس وآخرون، **أسباب وعواقب**، المجلد 8، ص، 129ـ130.

286ـ **وفي أوائل 1933**: كارل سيفرينغ، **مسار حياتي**، المجلد الثاني (كولن: غريفين للنشر، 1950)، ص، 375ـ76.

287ـ **الاشتراكي الثوري**: إرنست توللر، **شاب في ألمانيا** (رينبيك بيه هامبورغ: روفولت، 2006) ص، 8.

287ـ **المراسل السياسي ثاقب النظرة**: أوست، **العدو الأول لهتلر**، ص، 89ـ90.

287ـ **وفي كتاب صدر عام 1932**: هيوس، **مسيرة هتلر**، ص، 129.

288ـ **وبشكل مباشر وملموس**: أوست، **العدو الأول لهتلر**، ص، 147ـ148.

288ـ **وبحلول عام 1932**: ريتشارد ج. إيفانز، **الرايخ الثالث في السلطة** (نيويورك: بينغوين 2005)، ص، 148ـ49.

289ـ **وعندما أُجبِرَ واحد من أفضل هؤلاء الصحفيين**: فيليب ميتكالف، 1933، (ساغ هاربر نيويورك: بيرمننت، 1988)، ص، 156.

289ـ **وبعد توليه منصب المستشار**: ماركس دوماروس، **هتلر: الخطابات والبيانات 1932ـ1945: يوميات ديكتاتور**، ترجمة: ماري فران غيلبرت (واكوندا إلينوي: بولتشيزي ـ كاردوتشي للنشر، 1990)، 1:252. قمت بتعديل طفيف على الترجمة بالإشارة إلى النسخة الألمانية التي جمعها وأعدها دوماروس.

291ـ **إلا أن هتلر كان يتوقع أكثر من ذلك**: مارتن هـ. سومرفيلت، **كنت هناك: مؤامرة الشياطين** (دارمشتات: دريه كويلين، 1949)، ص، 31ـ32.

292ـ **وفي القداس اللوثري: "قانون الدولة" في مفاوضات الرايخستاغ**، المجلد 475، ص، 4.

292ـ **وبعد الانتهاء من القداديس**: بايتا، **هيندنبورغ**، ص، 822.

293ـ **"لا يجوز الجمع بين المنصب الحكومي والاستبداد الشخصي"**: **"قانون الدولة"**، ص، 4.

293ـ **"وجدوا الساحة الفسيحة"**: هوغنر، **المهووس العنيد**، ص، 92 ـ 93. ترجمة غير كاملة في نواكيس وبريدام، **النازية**، 1: 159ـ160.

294ـ **افتتح هتلر الجلسة**: دوماروس، **هتلر**، 1: 275 ـ 285. صَححتُ الترجمة اعتماداً على النسخة الألمانية.

294ـ **"من الواضح"**: المرجع السابق، 1: 287ـ289.

295ـ **"تأخرت في القدوم، لكنك أتيت"**: المرجع السابق، 1: 290 ـ95. اعتمدت ترجمة فلورا كيميش لنص شيللر، فريدريك شيللر، **فالينشتاين: مسرحية شعرية**، ترجمة فلورا كيميش، مع مقدمة لروجر بولين (كيمبريدج: أوبن بوك بابليشرز، 2017).

296ـ **وزعم هاينريش برونينغ**: برونينغ إلى هانس بيرند غيسفيوس، 20 آب/ أغسطس، 1946. ا.ف. ز. طبعة 82؛ برونينغ، **"خطاب،"** ص، 17ـ18.

297- **وأطلق النازيون:** إيفانز، **قدوم الرايخ الثالث**، ص، 381.

297- **وفي نيسان/ أبريل صدر قانون:** بنود القانون غي المعهد التاريخي الالماني، **التاريخ الألماني في صور ووثائق**، المجلد 7،

http://germanhistorydocs.ghi-dc.org/subdocument.cfm?documen-.tid=2325

298- **وبعد اثنتي عشرة عاماً:** "إحاطة هتلر حول 23، 25، 27، نيسان/ أبريل" **دير شبيغل** 1تشرين الأول/ أكتوبر، 1966؛ كيرشو، **نيميسيز**، ص، 814.

8- "يجب أن نتخلص منه"

301- **يتلقاه فريتز غونتر فون تشيرشكي:** فريتز غونتر فون تشيرشكي، **مذكرات خائن** (شتوتغارت: مؤسسة دويتشه للنشر، 1972) ص، 188-189.

302- **وابتداءُ من الساعة الثامنة:** المرجع السابق، 189-191.

302- **عندما يعود بابن وتشيرشكي:** المرجع السابق، ص، 191-194.

303- **إنهم رجال حرس هتلر الشخصي:** أورت، **مقر الإقامة الرسمي للمعارضة**، ص، 497.

303- **يتعامل أفراد طاقم بابن مع هذا التعدي:** المرجع السابق، ص، 498.

303- **بعد ذلك مباشرة:** المرجع السابق، ص، 498-500.

304- **في هذه الأثناء، عند الساعة الحادية عشرة والنصف:** "حول اغتيال الجنرال شلايشر،" مجلة **فيرتيليارشيفته** للتاريخ المعاصر، المجلد الأول، (1953) ص، 85- 86.

305- **وبعد مرور عام على الحادثة:** رينير أورت، **رجل الاستخبارات يوهانس شميت. قاتل المستشار كورت فون شلايشر؟** (ماربورغ: تيكتوم، 2012) ص، 148. قدمت غونتيل بشكل خاص نقاطاً أكثر تفصيلاً، لكنها هامة حول الجريمة. ويطرح أورت شرحاً منطقياً بشأن اسم رجل الاستخبارات، الوارد

اسمه في العنوان، وربما من باب المصادفة وصفاً حول عصبيته، بصفته قاتل الجنرال شلايشر والذي ربما تم إرساله لاعتقاله وحسب.

305ـ **في عصر ذلك اليوم**: تشيرشكي، **مذكرات خائن**، ص، 194ـ 95؛ أورت، **مقر الإقامة الرسمي للمعارضة**، ص، 503ـ504. توجد تناقضات واضحة في المصادر بشأن المكان الذي تم فيه العثور على جثة يونغ. ويبدو واضحاً أن الجثة أُخذت إلى مكان ما شمال منطقة وسط ألمانيا (على الأرجح أورانينبورغ)، وبحسب ما ذكره ضابط الغستابو السابق هانس بيرند غيسفيوس، فإنه نفس المكان الذي عُثر فيه على الجثة فعلاً. وربما يكون المكان في منطقة رينيكيندورف شمال برلين. أورت، **"مقر الإقامة الرسمي"**، ص، 503ـ504.

306ـ **حتى أن قائده المباشر**: ماغوب، **يونغ**، ص، 14.

306ـ **الأكثر انفتاحاً**: تشيرشكي، **مذكرات خائن**، ص.103؛ خواكيم بيتسولد، بابن: **وفاة ألمانية** (ميونيخ: بوخفيرلاغ يونيون، 1995) ص، 176.

306ـ **وشأنه شأن الشباب المحافظين**: ماغوب، **يونغ**، ص،71؛ بيتسولد، **بابن**، ص، 176.

306ـ **لكن عندما وصل هتلر إلى السلطة**: أورت، **"مقر الإقامة الرسمي"**، ص، 445.

307ـ **وقال ذات مرة... "نحن مسؤولون إلى حد ما"**: المرجع السابق، 305 و402.

307ـ **فقد بات مدافعاً متحمساً**: فورشباخ، **يونغ**، ص، 16.

307ـ **وإن كان يونغ يتخيل**: ماغوب، **يونغ**، ص، 200.

307ـ **كان يكره النازيين**: المرجع السابق، ص، 183، و199، و201.

307ـ **ففي تموز/ يوليو 1933**: فورشباخ، **يونغ**، ص، 81.

308ـ **واقترح بالستريم**: تشيرشكي، **مذكرات خائن**، ص، 96.

308ـ **وجد تشيرشكي**: المرجع السابق، ص، 96ـ97.

309- **لم يستسلم كيتلير وتشيرشكي**:المرجع السابق، ص، 98.

309- **توسع المكتب وتغير مع مرور الوقت**: المرجع السابق، 100- 104.

309- **تألف الجسم الرئيسي**: أورت، **"مقر الإقامة الرسمي"**، ص، 395-67.

309- **لا أحد من هؤلاء الشبان**: المرجع السابق، 356-57؛ فورشباخ، **يونغ**، ص، 104؛ تشيرشكي، **مذكرات خائن**، ص، 135.

310- **إذا كان بابن غافلاً**: أورت، **"مقر الإقامة الرسمي"**، ص، 900 مرقمة 959.

310- **وفي نيسان/ أبريل 1933**: هتّ، **حريق الرايخستاغ**، ص، 136.

310- **في أحد الأيام وبينما كان في حديقة مستشارية الرايخ**: **ألفريد روزنبيرغ، المفكرة السياسية لألفريد روزنبيرغ وبداية الهولوكوست**، إعداد يورغن ماتيوس وفرانك باجور (نيويورك: رومان وليتلفيلد، 2015)، ص، 36.

310- **لقد تسبب تهور يونغ وتشيرشكي بأرائهما بالضرر**:أورت، **"مقر الإقامة الرسمي"**، ص، 446-47.

311- **في البداية، ركز طاقم بابن**: المرجع السابق، ص، 395-367؛ تشيرشكي، **مذكرات خائن**، ص، 108-109.

311- **كما تضمن شكل آخر من المقاومة**: أورت، **"مقر الإقامة الرسمي"**، ص، 378-380.

311- **كما وفروا المعلومات**: المرجع السابق، ص، 396-397.

311- **وخططت مجموعة نائب المستشار**: فورشباخ، **يونغ**، ص، 88- 89.

312- **وضعت مجموعة نائب المستشار**: أورت، **"مقر الإقامة الرسمي"**، ص، 404-412.

313- **ومن المحتمل أن يكون يونغ**:: فورشباخ، **يونغ**، ص، 85.

313- **لكن على ما يبدو**: أورت، **"مقر الإقامة الرسمي"**، ص، 419.

313- **في مطلع العام 1934**: بيتسولد، **بابن**، ص، 176.

314ـ **وكانت الخطة الأكثر اعتدالاً**: تشيرشكي، **مذكرات خائن**، ص، 177ـ178.

316ـ **بدأ يونغ مذكرته**: "مذكرة يونغ"، في ماريك ماسيفيجيسكي، "إدغار يوليوس يونغ والاشتراكية القومية. إلى تاريخ "المعارضة الثورية المحافظة لهتلر" إعداد: غيرهارد رينغهاوسن وروديغر فون فوس، **مقاومة والدفاع عن القانون** (بون: بوفير فيرلاغ، 1997) ص، 12ـ21.

318ـ **عدت إلى المقصورة**: تشيرشكي، **مذكرات خائن**، ص، 172.

318ـ **تابع يونغ الخطاب**: أورت، **"مقر الإقامة الرسمي"**، ص، 463.

318ـ **وغُطيت الرسالة الحقيقية لبابن (أو يونغ)**: **نص خطاب بابن** في، فورشباخ، **يونغ**، الفهرس، ص، 154ـ174.

321ـ **تابع الحضور**: تشيرشكي، **مذكرات خائن**، ص، 172.

321ـ **"في السنوات والعقود المقبلة"**: دوماروس، **هتلر**، ص،1: 464.

322ـ **وحسب ما ذكر إدموند فورشباخ**: فورشباخ، **يونغ**، ص، 120ـ121.

322ـ **لو كان مقدراً لخطة طاقم نائب المستشار**: أورت، **"مقر الإقامة الرسمي"**، ص، 475ـ476.

323ـ **ويدَّعي بابن**: بابن، **الحقيقة**، 344.

323ـ **فقد كان الهدف السياسي الرئيسي لهيندنبورغ**: بايتا، **هيندنبورغ**، ص، 845.

323ـ **لأدركوا أن هناك أخبار أكثر سوءاً**: المرجع السابق، ص، 848.

324ـ **"من كتب الخطاب له؟"**: جوزيف غوبلز، مفكرة 18 حزيران/ يونيو، 1943. الجزء الأول، المجلد 3/1، ص، 65.

324ـ **ولم يضطروا للبحث بعيداً**: أورت، **"مقر الإقامة الرسمي"**، ص، 471، انظر أيضاً: "هتلر يتراجع عن حظر الخوذة الفولاذية؛ اعتقال مساعد بابن، **نيويورك تايمز**، 28 حزيران/ يونيو، 1934.

324- **القائم بأعمال السفارة الفرنسية**: آرنال إلى بارتو، 27 حزيران/ يونيو، 1934، **وثائق دبلوماسية فرنسية**، الجزء الأول، المجلد السادس، ص، 795.

324- **في 22 حزيران/ يونيو**: جوزيف غوبلز، مفكرة 23 حزيران/ يونيو، 1934، ص، 68.

324- **وفي هذه الأيام المتوترة**: أورت، **"مقر الإقامة الرسمي"**، ص، 478-79؛ "غوبلز يوبخ 'السادة النقاد،'" **نيويورك تايمز**، 22 حزيران/ يونيو، 1934.

325- **بعد ثلاثة أيام**: آرنال إلى بارتو، 27 حزيران/ يونيو، 1934، **وثائق دبلوماسية فرنسية**، الجزء الأول، المجلد السادس، ص، 795.

325- **وفي لمحة تكشف**: جوزيف غوبلز، مفكرة 23 حزيران/ يونيو، 1934، الجزء 1 المجلد 3/ 1، ص، 69.

325- **وفي نفس الليلة**: أورت، **"مقر الإقامة الرسمي"**، ص، 480.

326- **وعلق هتلر باحتقار**: روزنبيرغ، **المفكرة السياسية**، ص، 35.

326- **في اليوم التالي... خلال أيام قليلة**: **"مقر الإقامة الرسمي"**، ص، 480.

326- **غير أن الحديث عن تهديد بالقيام بانقلاب**: سيمينز، **قوات العاصفة**، ص،164؛ إليانور هانكوك، "تطهير قوات العاصفة: حيلة قديمة من انقلابي؟" **تاريخ أوروبا الوسطى** 44، العدد 4 (2011): 671-672.

327- **وكان تشيرشكي شاهداً على ما حدث**: تشيرشكي، **مذكرات خائن**، ص، 195.

327- **كان هيندنبورغ مسروراً للغاية**: ميكاليس وآخرون، **أسباب وعواقب**، المجلد 10، ص، 195-96.

328ـ **وفي 6 يوليو/ تموز**: جوزيف غوبلز، مفكرة 6 تموز/ يوليو، 1934، الجزء 1، المجلد 1/ 3، ص، 76.

328ـ **"أدلة ضعيفة"**: آرنال إلى بارتو، 18 تموز/ يوليو، 1934، **وثائق دبلوماسية فرنسية**، الجزء الأول، المجلد السادس، ص، 996.

329ـ **في حين كانت قصة بابن**: بيتسولد، **بابن**، ص، 226ـ227.

329ـ **لقد كان تصرفاً جباناً**: بابن، **الحقيقة**، ص، 325ـ366.

330ـ **في حزيران/ يونيو 1944**: فابيان فون شلابريندورف، **ضباط ضد هتلر** (برلين: سيدلر، 1984)، ص، 109.

335ـ **"أنا ألماني"**: فيكتور كليمبرير، **سأكون شاهداً: مفكرة السنوات النازية**، الجزء الثاني (1942ـ1945)، ترجمة: مارتن تشاملرز (نيويورك: راندوم هاوس، 2001)، ص، 63ـ64.

شكر وتقدير

إنه لمن دواعي السرور دوماً أن نتوجه في نهاية أي عمل بالشكر لكل من قدم مساعدة قيمة.

بادئ ذي بدء، أتوجه بالشكر إلى وكيل أعمالي سكوت ميندل، ومدققي هنري هولت، اللذين لولا تشجيعهما وإلهامها المبدع، لما أبصر هذا الكتاب النور. وكان أمراً ممتعاً حقاً العمل معهما.

إن كتاباً من هذا النوع لابد أن يستند على عمل عدد لا يُحصى من الباحثين. وكانت متعة حقيقية أنني، وخلال تأليف هذا الكتاب، اطلعت على قدرٍ كبير من الأبحاث القيمة حول نهاية ديموقراطية فايمار وصعود النازيين، وما أوردته من ملاحظات يسجل تقديري لتلك الأبحاث.

كذلك قدم العديد من الزملاء إسهامات قيمة في دراستي لهذه الفترة التاريخية. فقد منحتني داغمار هرتسوغ الاستفادة من معلوماتها الثرة حول البروتستانت الألمان وتاريخ الجنسانية، وأطلعتني على عمل جدها ريتشارد كارفيل. كما ارتقت حواراتي المنتظمة على الغداء مع كريستوفر كيميش إلى مستوى تثقيف حقيقي بحد ذاته. كعادته دائماً، كان كريستوفر كريماً في قراءته لمسودة الكتاب، وقدم لي الملاحظات المفيدة. ولا أنسى النصائح المهمة التي قدمتها هيلينا روزنبلات بخصوص الترجمة من الفرنسية.

وأسجل امتناني وتقديري للأساتذة: البروفسور بنجامين فريدمان، والبروفسور باري إيتشنغرين، والبروفسور إدموند كلينغان، لمساعدتهم الكريمة

في فهم تفاصيل دقيقة حول معيار الذهب والأزمة المالية مطلع الثلاثينيات.

وكان لطالبي الموهوب في الدراسات العليا كاي فولترينغ مساهمة كبيرة في البحث حول البروتستانت الألمان في فترة جمهورية فايمار. وبفضل مثابرته وحس دعابته، تمكن من مساعدتي على فهم شيء ما عن علم اللاهوت فيما يتصل بالسياسة منتصف القرن الماضي.

كما أني ممتن لجينا دولان، لعملها في تدقيق نص الكتاب، وهو ما أنقذني من الوقوع في عدة أخطاء.

ولا يسعني القول إلا أن مسؤولية ما بقي من أخطاء وأحكام أحادية التوجه إنما تقع على عاتقي.

هذا هو الكتاب الرابع التي تحملت زوجتي كورينا مشقة إنجازه. وكما هي العادة دائماً، كان الكرم والتفاني والفكاهة جوابها الوحيد. لذلك تعجز الكلمات عن منحها التقدير الذي تستحق، وكفى بي قولاً إني لا يمكن أن أتخيل حياتي من دونها.

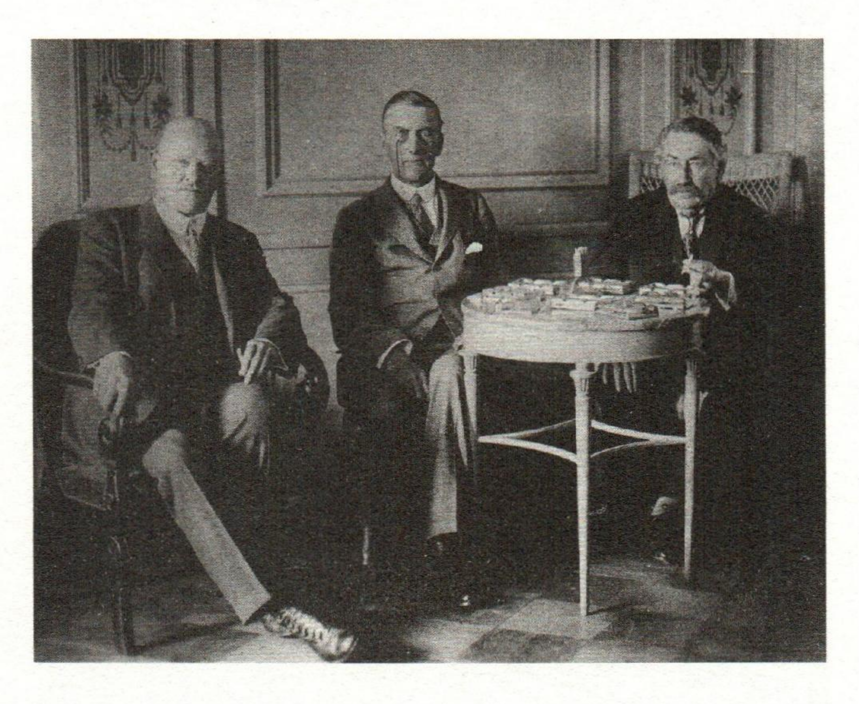
وبالنظر إلى فكرة الكتاب والعصر الذي نعيشه، يتحدث الإهداء عن نفسه بنفسه.



أمير ليبرالي: الأمير ماكس فون بادن لا يبدو مرتاحاً.



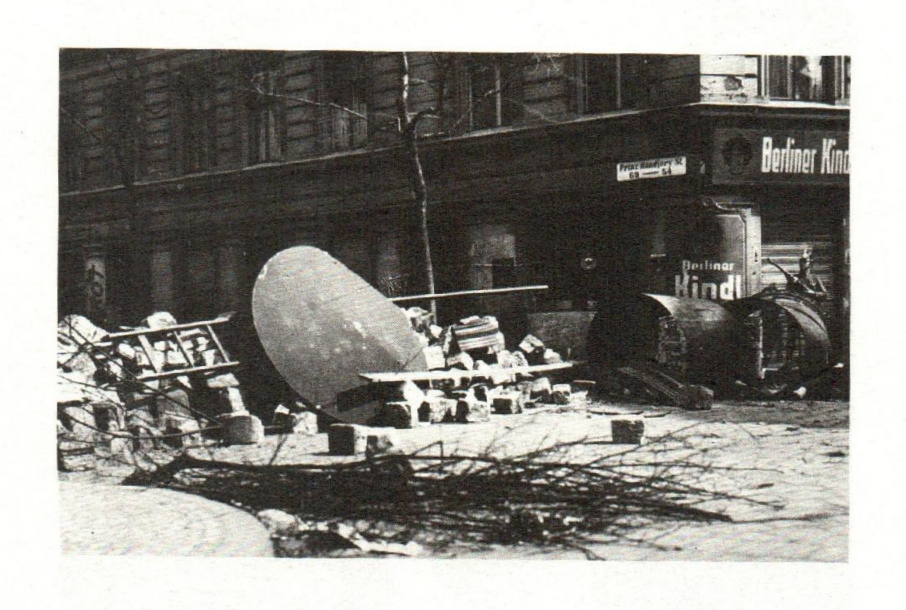
تغيير النظام: جنود ثوريون يعبرون بوابة براندنبيرغ، برلين، تشرين الثاني/ نوفمبر 1918.



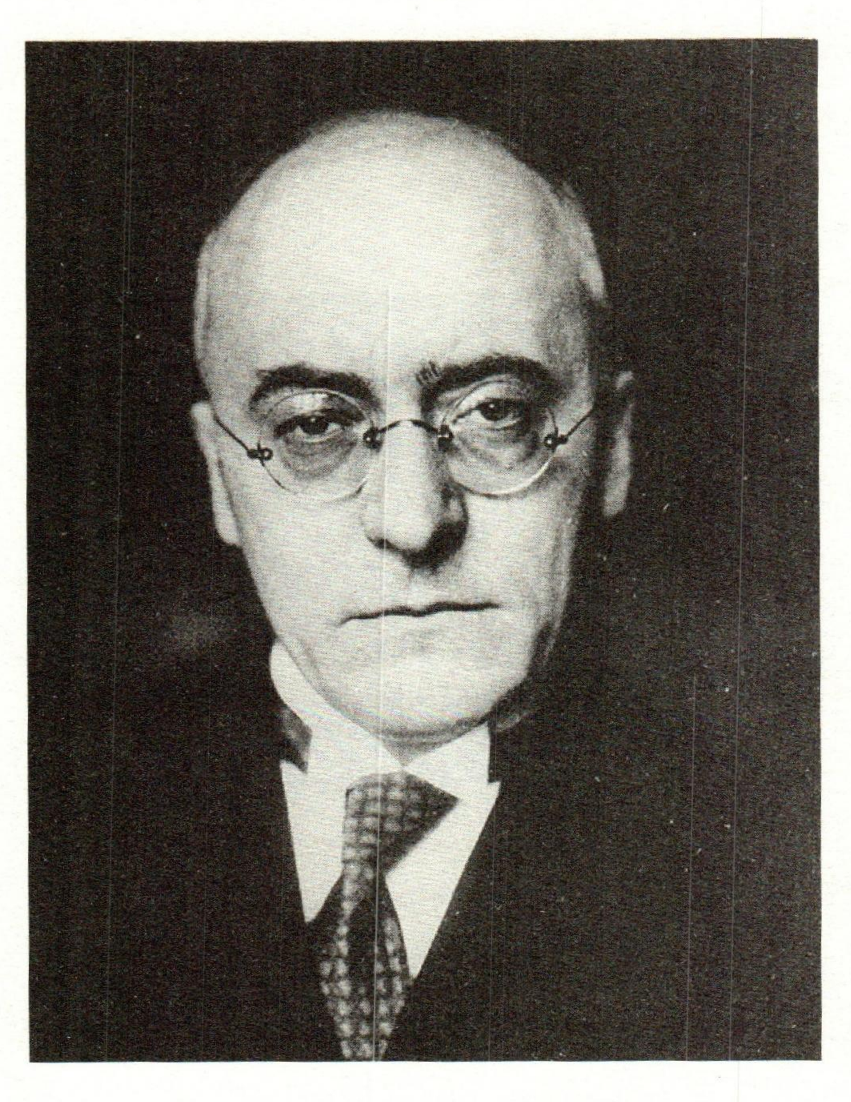
روح اتفاقية لوكارنو: وزير الخارجية الألماني غوستاف شتريزيمان (يسار) يلتقي نظيريه البريطاني (وسط) أوستن تشامبرلين، والفرنسي أرستيد بريان.



رجل من زمن آخر: رئيس الرايخ باول فون هيندنبورغ، المارشال المحترم الذي انتُخب رئيساً لأول مرة عام 1925 وهو في السابعة والسبعين من عمره.



أيار/مايو الدامي: متاريس في شوارع نيوكولين، أيار 1929.



"كان يفتقد للجاذبية التي كانت البلاد بأمس الحاجة لها في فترة من الانقسام والتسييس الحاد": هاينريش برونينغ الكاثوليكي المحافظ الذي تولى منصب المستشار من آذار/مارس 1930 وحتى أيار/مايو 1932.



"لا تصدقوه، إنه يقول الحقيقة": هتلر متوتراً أثناء استجوابه على يد هانس ليتن على منصة الشهود في محكمة إيدن دانس بالاس، 8 أيار/مايو 1931.



"المهم أنهم يتحدثون عنا": جوزيف غوبلز، رئيس الدعاية في الحزب النازي، محلقاً في أحد خطاباته، 1930.



"التوق إلى معاداة الرأسمالية": غريغور شتراسر، أحد أبرز قادة الحزب النازي السياسيين الاستراتيجيين، والناطقين المؤثّرين باسمه، 1930.



"استقلالية ألمانيا": مجلة "سيمبليسيسموس" الساخرة تربط العنف السياسي بالسياسة الاقتصادية في كاريكاتير يظهر فيه أفراد من الجبهة الحديدية (يسار) يواجهون أفراداً من قوات العاصفة (يمين). ويتساءل التعليق في أسفل الصورة: "ما التطور الذي تحقق منذ 1914! عزل الألمان أنفسهم عن بقية الدول بانتهاج سلوك الحرب".



"سنشن حربنا بواسطة الملصقات": ناخبون يتأملون الحملة الإعلانية،

.1930



الترتيب والنظام حتى في وضع الملصقات: أعمدة ليتفاس، كما هو في الصورة، تعرض الملصقات الإعلانية والانتخابية، انتشرت في شوارع غالبية المدن الألمانية الكبرى.



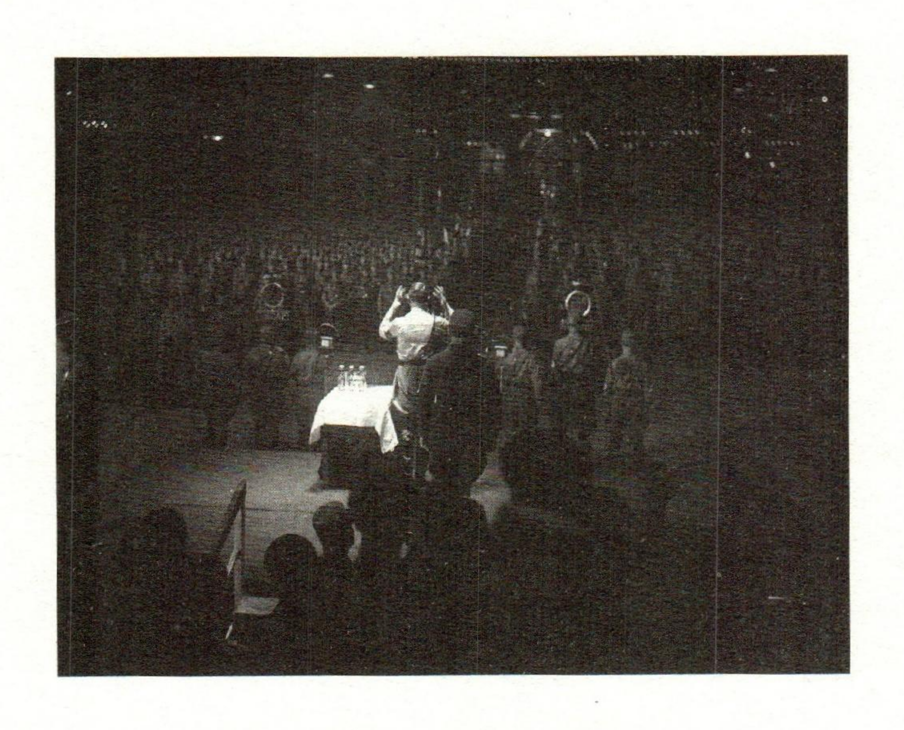
"جنرال اجتماعي": كورت فون شلايشر، سيد مؤامرات ما وراء الكواليس، يضطر أخيراً لتولي منصب المستشار، ويلقي بيان حكومته عبر الراديو في 15 كانون الأول/ديسمبر، 1932.



"لقد وظفناه": أدولف هتلر مع نائب المستشار، فرانتس فون بابن، في اليوم الثاني لتشكيل حكومتهما، 31 كانون الثاني/يناير، 1933.



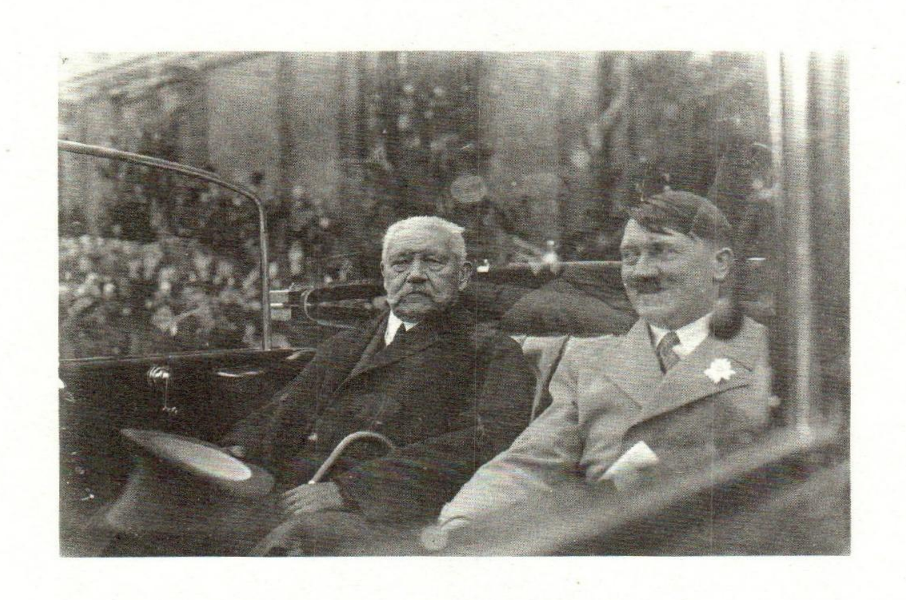
ديبلوماسية: وزير خارجية هتلر خواكيم فون ريبنتروب (يسار) مع السفير الفرنسي أندريه فرنسوا- بونسيه يحضران حفلة موسيقية مع زوجتيهما.



"إشارة لخطر لا يرحم": هتلر يلقي خطابا في قصر الرياضة ببرلين بعد فترة وجيزة من تعيينه مستشاراً.



"آخر ليلة للديموقراطية الألمانية": الرايخستاغ يحترق، 27 شباط/ فبراير 1933.



"عرض رمزي للشراكة": هتلر وهيندنبورغ، في عيد العمال، 1 أيار/مايو 1933.



"سلوكه يتطلب تعليمات متواصلة": الناشط السياسي اليميني إدغار يوليوس يونغ في العشرينيات، في نفس الفترة التي وصف فيها الديمواقراطية بـ"حكم التابعين".



"مهندس المقاومة من الداخل": فريتز غونتر فون تشيرشكي، مستشار فون بابن للشؤون الإستخباراتية، في عام 1934.

نبذة مختصرة عن المؤلف

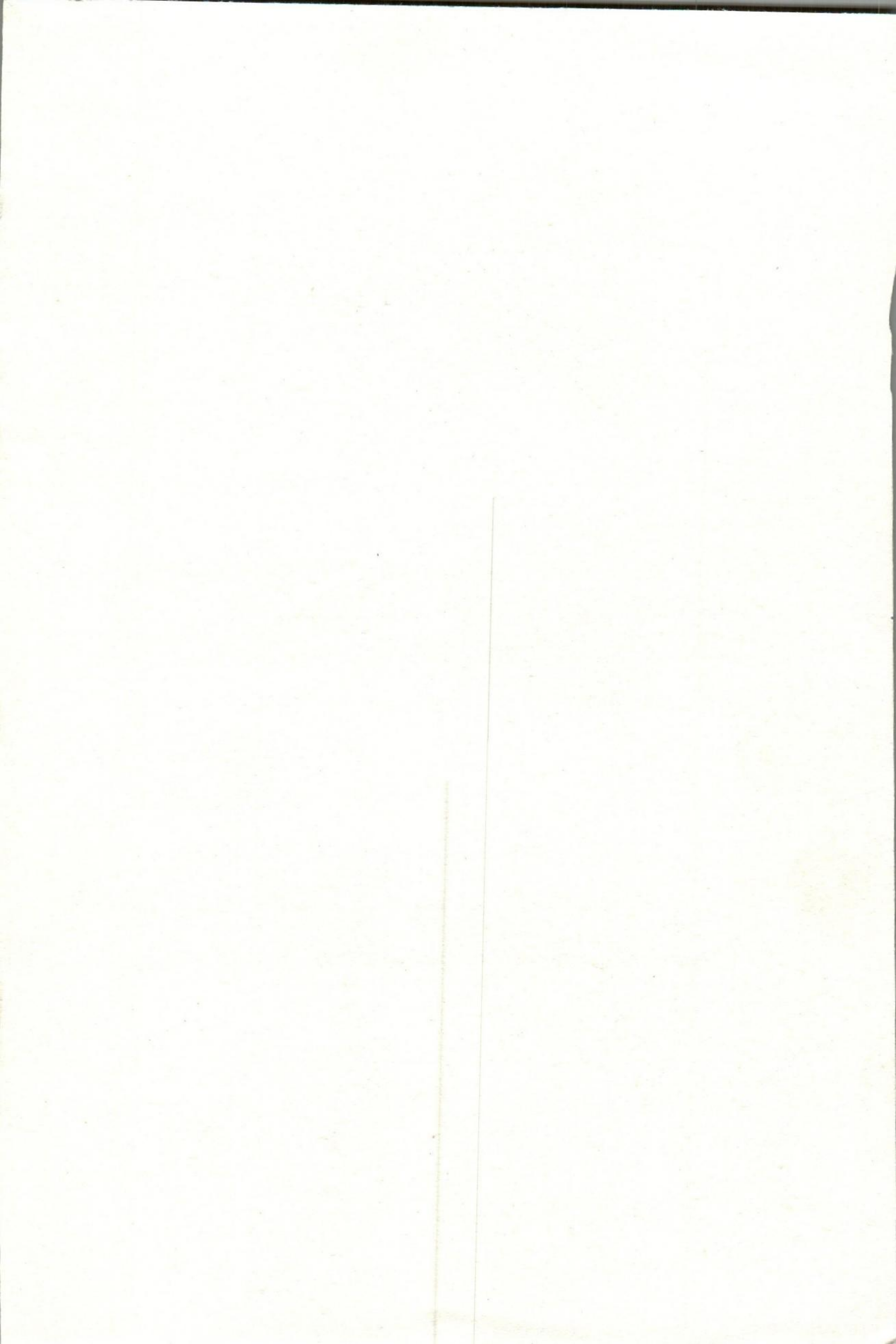
البروفسور بنجامين كارتر هِتّ، أكاديمي وباحث أميركي من مواليد روتشستر، نيويورك 1965، نشأ وترعرع في مدينة أدمنتون بمقاطعة ألبرتا الكندية، ويقيم حالياً في مدينة نيويورك. حائز شهادة الدكتوراه في التاريخ الألماني من جامعة هارفارد الأميركية وإجازة في الحقوق من جامعة تورنتو الكندية. يعمل حالياً أستاذاً للتاريخ في كلية هنتر ومركز الدراسات العليا بجامعة نيويورك. له العديد من الكتب والأبحاث في التاريخ الألماني الحديث.

كتب أخرى للمؤلف:

حريق الرايخستاغ: تحقيق في لغز الرايخ الثالث.

مواجهة هتلر: الرجل الذي وضع النازيين على منصة الشهود.

موت في تاريغارتين: العدالة الجنائية والجريمة في برلين القيصرية.



لماذا انهارت الديمقراطية كلياً وبسرعة في جمهورية فايمر ١٩٣٠؟
كيف سمحت حكومة ديمقراطية لهتلر بأن يستولي على السلطة؟
مثل هذه الأسئلة هي ما يجيب عنه **موت الديمقراطية** لمؤلفه بنجامين كارتر هِت، لتُردد القصة التي يحكيها صدىً مقلقاً في زمننا الراهن.

لقد شاع القول إن هتلر جاء إلى السلطة من طريق الانتخابات. لكنَّ في هذا شيئاً من التبسيط. وما كان ذلك ليتمّ لولا تجاهل القادة السياسيين في ألمانيا موجات التمرد الشعبية واختيارهم التعاون معه في مواجهتها، فحشرتهم استراتيجيتهم هذه في الزاوية، ولم يبق أمامهم سبيل للخروج منها سوى السماح للنازية بتولي السلطة.

بنجامين كارتر هِت واحدٌ من أهم الباحثين في تاريخ ألمانيا في القرن العشرين، فضلاً عن كونه قاصاً موهوباً. وهو يكشف لنا، عبر وصف السياسيين وعجزهم، هشاشة الديمقراطية حين لا يحترمها أصحاب السلطة والقرار. كما يقدم درساً بليغاً لأيامنا هذه، إذ تجد الديمقراطية نفسها محاصرة من جديد، ويعلو صوت الأقوياء أكثر من أي وقت مضى.



